



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى
عليه
وآله
وسلم

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٥	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٦
٣٥	اشاره
٣٦	اشاره
٤٠	[اتمه سورة التوبه]
٤٠	اشاره
٤٠	الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٠ الى ٣٣]
٤٠	اشاره
٤٠	التفسير
٤٠	اشاره
٤٠	شرك أهل الكتاب:
٤١	بحوث
٤١	اشاره
٤١	١-من هو عزيز؟!:
٤٣	٢-لم يكن المسيح ابن الله
٤٣	٣-اقتباس هذه الخرافات
٤٤	٤-ما هو معنى قَاتَلَهُمُ اللَّهُ
٤٦	درس تعليمي:
٤٧	ملاحظات
٤٧	اشاره
٤٨	المستقبل للإسلام:
٤٩	بحوث
٤٩	اشاره
٤٩	١-المراد «الهدى و دين الحق»

- ٥٠ ٢-انتصار المنطق أم انتصر القوه؟
- ٥١ ٣-القرآن و ظهور المهدي
- ٥٣ الروايات الإسلاميه في المهدي «عجل الله فرجه الشريف»
- ٥٤ ثم تضيف الرساله:
- ٥٦ الانتظار و آثاره البناءه:
- ٥٧ الروايات الشريفه:
- ٥٨ مفهوم الانتظار!
- ٦٠ الانتظار يعنى الاستعداد الكامل:
- ٦١ الحكمة الأولى،بناء الشخصيه الفردية:
- ٦٢ الحكمة الثانية،التعاون الاجتماعى:
- ٦٣ الحكمة الثالثة،المنتظرون بحق لا يذوبون فى المحيط الفاسد:
- ٦٦ الآيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٤ الى ٣٥]
- ٦٦ اشاره
- ٦٦ التفسير
- ٦٦ اشاره
- ٦٦ كنز الأموال:
- ٧٠ حتى يعدّ جمع الثروه كنزاً؟!
- ٧٣ أبو ذر و الاشتراكية!!
- ٧٧ جزاء من يكتز!
- ٧٩ الآيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٦ الى ٣٧]
- ٧٩ اشاره
- ٧٩ التفسير
- ٧٩ اشاره
- ٧٩ وقف القتال «الإجبارى»:
- ٨٢ بحوث
- ٨٢ اشاره

٨٢ ١-فلسفه الأشهر الحرم!

٨٢ ٢-مفهوم النسيء و فلسفته فى الجاهليه

٨٤ ٣-وحده الكلمه مقابل العدو

٨٤ ٤-كيف يزّين للناس سوء أعمالهم!؟

٨٦ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

٨٦ اشاره

٨٦ سبب النزول

٨٧ التفسير

٨٧ اشاره

٨٧ التحرك نحو سوح الجهاد مزه أخرى

٨٩ ملاحظات

٩١ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٤٠]

٩١ اشاره

٩١ التفسير

٩١ اشاره

٩١ المدد الإلهى للرسول فى أشد اللحظات:

٩٣ قضه صاحب النبى فى الغار:

٩٥ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٤١ الى ٤٢]

٩٥ اشاره

٩٥ التفسير

٩٥ اشاره

٩٥ الكسالى الطامعون:

٩٩ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٤٣ الى ٤٥]

٩٩ اشاره

٩٩ التفسير

٩٩ اشاره

٩٩	التعريف على المنافقين!
١٠٣	الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٤٦ الى ٤٨]
١٠٣	اشاره
١٠٣	التفسير
١٠٣	اشاره
١٠٣	عدم وجودهم أفضل:
١٠٧	الآيه [سوره التوبه (٩): آيه ٤٩]
١٠٧	اشاره
١٠٧	سبب النزول
١٠٨	التفسير
١٠٨	اشاره
١٠٨	المنافقون المتذرعون:
١٠٩	ملاحظتان
١١٠	الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٥٠ الى ٥٢]
١١٠	اشاره
١١٠	التفسير
١١٢	بحوث
١١٢	اشاره
١١٢	١-المقادير و سعي الإنسان
١١٣	٢-لا وجود للهزيمة في قاموس المؤمنين
١١٤	٣-صفات المنافقين
١١٥	الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٥٣ الى ٥٥]
١١٥	اشاره
١١٥	التفسير
١١٨	ملاحظتان
١٢٠	الآيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

١٢٠ اشاره

١٢٠ التفسير

١٢٠ اشاره

١٢٠ علامه أخرى للمنافقين:

١٢٢ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

١٢٢ اشاره

١٢٢ سبب النزول

١٢٣ التفسير

١٢٣ اشاره

١٢٣ الأنانيون السفهاء:

١٢٥ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٦٠]

١٢٥ اشاره

١٢٥ التفسير

١٢٥ اشاره

١٢٥ موارد صرف الزكاه و دقائقها:

١٢٨ بحوث

١٢٨ اشاره

١٢٨ ١- الفرق بين الفقير و المسكين

١٢٩ ٢- هل يجب تقسيم الزكاه إلى ثمانية أجزاء متساويه؟

١٣٠ ٣- متى شرعت الزكاه؟

١٣٠ ٤- من هم المقصودون ب المَوْلَفِه قُلُوبُهُمْ ؟

١٣١ ٥- دور الزكاه فى الإسلام

١٣٢ ٦- ما الفرق بين العطف ب «اللام أو فى»؟

١٣٥ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٦١]

١٣٥ اشاره

١٣٥ سبب النزول

١٣٥ اشارة

١٣٥ هذا حسن لا قبيح!

١٣٥ التفسير

١٣٩ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٦٢ الى ٦٣]

١٣٩ اشارة

١٣٩ سبب النزول

١٤٠ التفسير

١٤٠ اشارة

١٤٠ المنافقون و التظاهر بالحق:

١٤٢ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٦٤ الى ٦٦]

١٤٢ اشارة

١٤٢ سبب النزول

١٤٣ التفسير

١٤٣ اشارة

١٤٣ مؤامره أخرى للمنافقين:

١٤٧ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٦٧ الى ٧٠]

١٤٧ اشارة

١٤٨ التفسير

١٤٨ اشارة

١٤٨ علامات المنافقين:

١٥٠ تكرر التاريخ و الإعتبار به:

١٥٤ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٧١ الى ٧٢]

١٥٤ اشارة

١٥٤ التفسير

١٥٤ اشارة

١٥٤ صفات المؤمنين الحقيقيين:

١٥٩	الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٧٣]
١٥٩	اشاره
١٥٩	التفسير
١٥٩	اشاره
١٥٩	جهاد الكفار و المنافقين:
١٦١	الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٧٤]
١٦١	اشاره
١٦١	سبب النزول
١٦٣	التفسير
١٦٣	اشاره
١٦٣	مؤامره خطره:
١٦٦	الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٧٨]
١٦٦	اشاره
١٦٦	سبب النزول
١٦٧	التفسير
١٦٧	اشاره
١٦٧	المنافقون و قله الاستيعاب:
١٦٨	ملاحظات
١٧٣	الآيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٧٩ الى ٨٠]
١٧٣	اشاره
١٧٣	سبب النزول
١٧٤	التفسير
١٧٤	اشاره
١٧٤	خبث المنافقين:
١٧٦	ملاحظات
١٨٠	الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٨١ الى ٨٣]

١٨٠ اشارة

١٨٠ التفسير

١٨٠ اشارة

١٨٠ إعاقة المنافقين مزه أخرى:

١٨٣ ملاحظات

١٨٥ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

١٨٥ اشارة

١٨٥ التفسير

١٨٥ اشارة

١٨٥ أسلوب أشد في مواجهه المنافقين:

١٨٧ و هنا يجب الانتباه لمسألتين:

١٩٠ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٨٦ الى ٨٩]

١٩٠ اشارة

١٩٠ التفسير

١٩٠ اشارة

١٩٠ دناءه الهمة

١٩٤ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ٩٠]

١٩٤ اشارة

١٩٤ التفسير

١٩٦ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٩١ الى ٩٣]

١٩٦ اشارة

١٩٦ سبب النزول

١٩٧ التفسير

١٩٧ اشارة

١٩٧ العشق للجهاد و دموع الحسره:

٢٠١ ملاحظات

- الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٩٤ الى ٩٦] ٢٠٦
- اشاره ٢٠٦
- سبب النزول ٢٠٦
- التفسير ٢٠٧
- اشاره ٢٠٧
- لا تصغوا إلى أعدائهم و أيمانهم الكاذبه: ٢٠٧
- الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ٩٩] ٢١٠
- اشاره ٢١٠
- التفسير ٢١٠
- اشاره ٢١٠
- الأعراب القساه و المؤمنون: ٢١٠
- بحوث ٢١٤
- اشاره ٢١٤
- ١- التجمعات الكبيره ٢١٤
- ٢- الأعراب من سكان المدن ٢١٥
- الآيه [سوره التوبه (٩): آيه ١٠٠] ٢١٧
- اشاره ٢١٧
- التفسير ٢١٧
- اشاره ٢١٧
- التابعون إلى الإسلام: ٢١٧
- بحوث ٢١٩
- اشاره ٢١٩
- ١- موقع السابقين ٢١٩
- ٢- من هم التابعون؟ ٢٢٠
- ٣- من هو أول من أسلم؟ ٢٢١
- ٤- هل كان صحابه كلهم صالحين؟ ٢٢٤

- ٢٢٨ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ١٠١] -
- ٢٢٨ اشاره
- ٢٢٨ التفسير
- ٢٣١ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ١٠٢] -
- ٢٣١ اشاره
- ٢٣١ سبب النزول
- ٢٣٢ التفسير
- ٢٣٢ اشاره
- ٢٣٢ التوابون:
- ٢٣٤ الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٣ الى ١٠٥] -
- ٢٣٤ اشاره
- ٢٣٤ التفسير
- ٢٣٤ اشاره
- ٢٣٤ الرّكاه مطهره للفرد و المجتمع:
- ٢٣٤ ملاحظات
- ٢٣٤ اشاره
- ٢٤٠ التوبه و الجبران:
- ٢٤١ ملاحظات
- ٢٤١ اشاره
- ٢٤١ ١-مسأله عرض الأعمال
- ٢٤٤ ٢-هل الرّؤيه هنا تعنى النظر؟
- ٢٤٥ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ١٠٦] -
- ٢٤٥ اشاره
- ٢٤٥ سبب النزول
- ٢٤٥ التفسير
- ٢٤٥ اشاره

سؤال: ٢٤٤

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠] ٢٤٩

اشاره ٢٤٩

سبب النزول ٢٤٩

التفسير ٢٥٢

اشاره ٢٥٢

معبد و ثنى فى صوره مسجدا! - ٢٥٢

بحوث ٢٥٧

اشاره ٢٥٧

١-درس كبير ٢٥٧

٢-النفى لا يكفى لوحده! ٢٦٠

٣-شرطان أساسيان ٢٦١

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١١٢] ٢٦٢

اشاره ٢٦٢

التفسير ٢٦٢

اشاره ٢٦٢

تجاره لا نظير لها! ٢٦٢

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١١٣ الى ١١٤] ٢٦٨

اشاره ٢٦٨

سبب النزول ٢٦٨

التفسير ٢٦٨

اشاره ٢٦٨

ضروره قطع العلاقات مع الأعداء: ٢٦٨

ملاحظات ٢٧٠

اشاره ٢٧٠

١-روايه موضوعه! ٢٧٠

- ٢٧٣ ٢- لماذا وعد إبراهيم أزر بالاستغفار؟
- ٢٧٤ ٣- ضرورة قطع كل رباطه بالأعداء
- ٢٧٥ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ١١٥ الى ١١٦]
- ٢٧٥ اشاره
- ٢٧٥ سبب النزول
- ٢٧٦ التفسير
- ٢٧٦ اشاره
- ٢٧٦ العقاب بعد البيان:
- ٢٧٧ جواب سؤال
- ٢٧٩ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ١١٧ الى ١١٨]
- ٢٧٩ اشاره
- ٢٧٩ سبب النزول
- ٢٧٩ اشاره
- ٢٧٩ درس كبير!
- ٢٨٢ التفسير
- ٢٨٢ اشاره
- ٢٨٢ الحصار الاجتماعي للمذنبين:
- ٢٨٣ بحوث
- ٢٨٣ اشاره
- ٢٨٣ ١- المراد من توبه الله على النبي صلى الله عليه وآله وسلم
- ٢٨٤ ٢- غزوه تبوك و ساعه العسره
- ٢٨٥ ٣- ما هو معنى خُلفوا؟
- ٢٨٦ ٤- درس كبير دائم
- ٢٨٦ ٥- غزوه تبوك و نتائجها
- ٢٩٠ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ١١٩]
- ٢٩٠ اشاره

٢٩٠ التفسير

٢٩٠ اشاره

٢٩٠ كونوا مع الصادقين: -

٢٩٢ هل المراد من الصادقين هم المعصومون فقط؟ -

٢٩٥ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٠ الى ١٢١] -

٢٩٥ اشاره

٢٩٥ التفسير

٢٩٥ اشاره

٢٩٥ معاناه المجاهدين لا تبقى بدون ثواب: -

٢٩٩ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ١٢٢] -

٢٩٩ اشاره

٢٩٩ سبب النزول

٣٠٠ التفسير

٣٠٠ اشاره

٣٠٠ محاربه الجهل و جهاد العدو: -

٣٠١ ملاحظات

٣٠٥ الآية [سوره التوبه (٩): آيه ١٢٣] -

٣٠٥ اشاره

٣٠٥ التفسير

٣٠٥ اشاره

٣٠٥ قتال الأقرب فالأقرب: -

٣٠٨ الأيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٤ الى ١٢٥] -

٣٠٨ اشاره

٣٠٨ التفسير

٣٠٨ اشاره

٣٠٨ تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب: -

ملاحظات ----- ٣٠٩

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٦ الى ١٢٧] ----- ٣١٢

اشاره ----- ٣١٢

التفسير ----- ٣١٢

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٨ الى ١٢٩] ----- ٣١٥

اشاره ----- ٣١٥

التفسير ----- ٣١٥

اشاره ----- ٣١٥

آخر آيات القرآن المجيد: ----- ٣١٥

سوره يونس ----- ٣٢٠

اشاره ----- ٣٢٠

محتوى و فضيله هذه السوره ----- ٣٢٢

الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ١ الى ٢] ----- ٣٢٤

اشاره ----- ٣٢٤

التفسير ----- ٣٢٤

اشاره ----- ٣٢٤

رساله التبي: ----- ٣٢٤

الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٣ الى ٤] ----- ٣٢٨

اشاره ----- ٣٢٨

التفسير ----- ٣٢٨

اشاره ----- ٣٢٨

معرفة الله و المعاد: ----- ٣٢٨

الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٥ الى ٦] ----- ٣٣٣

اشاره ----- ٣٣٣

التفسير ----- ٣٣٣

اشاره ----- ٣٣٣

٣٣٣ جانب من آيات عظمه الله:

٣٣٥ ملاحظات

٣٣٥ اشاره

٣٣٥ و هنا ملاحظات ينبغي الانتباه لها:

٣٤٠ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٧ الى ١٠]

٣٤٠ اشاره

٣٤٠ التفسير

٣٤٠ اشاره

٣٤٠ أهل الجنة و النار:

٣٤٢ ملاحظات

٣٤٥ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ١١ الى ١٢]

٣٤٥ اشاره

٣٤٥ التفسير

٣٤٥ اشاره

٣٤٥ الهمج الزعاع:

٣٤٧ الإنسان في القرآن الكريم:

٣٥٠ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ١٣ الى ١٤]

٣٥٠ اشاره

٣٥٠ التفسير

٣٥٠ اشاره

٣٥٠ الإعتبار بالظالمين السابقين:

٣٥١ ملاحظات

٣٥٢ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ١٥ الى ١٧]

٣٥٢ اشاره

٣٥٢ سبب النزول

٣٥٢ التفسير

٣٥٤ ملاحظات

٣٥٧ الآية [سوره يونس (١٠): آيه ١٨]

٣٥٧ اشاره

٣٥٧ التفسير

٣٥٧ اشاره

٣٥٧ آلهه بدون خاصيه!

٣٥٩ الآية [سوره يونس (١٠): آيه ١٩]

٣٥٩ اشاره

٣٥٩ التفسير

٣٦١ الآية [سوره يونس (١٠): آيه ٢٠]

٣٦١ اشاره

٣٦١ التفسير

٣٦١ اشاره

٣٦١ المعجزات المقترحه!

٣٦٢ ملاحظتان

٣٦٢ اشاره

٣٦٢ و هنا ملاحظتان ينبغي الالتفات إليهما:

٣٦٤ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٢١ الى ٢٣]

٣٦٤ اشاره

٣٦٤ التفسير

٣٦٧ ملاحظات

٣٦٧ اشاره

٣٦٧ و هنا يجب الالتفات إلى عدّه ملاحظات:

٣٦٩ الآيتان [سوره يونس (١٠): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

٣٦٩ اشاره

٣٦٩ التفسير

٣٦٩ اشاره

٣٦٩ لوحه الحياه الدنياه:

٣٧١ ملاحظات

٣٧٣ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

٣٧٣ اشاره

٣٧٣ التفسير

٣٧٣ اشاره

٣٧٣ بيض الوجوه و سود الوجوه:

٣٧٦ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

٣٧٦ اشاره

٣٧٦ التفسير

٣٧٦ اشاره

٣٧٦ مشهد من قيامه عبده الأوثان:

٣٨٠ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٣١ الى ٣٣]

٣٨٠ اشاره

٣٨٠ التفسير

٣٨٥ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٣٤ الى ٣٦]

٣٨٥ اشاره

٣٨٥ التفسير

٣٨٥ اشاره

٣٨٥ واحده من علامات الحق و الباطل:

٣٨٧ ملاحظات

٣٨٩ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٣٧ الى ٤٠]

٣٨٩ اشاره

٣٨٩ التفسير

٣٨٩ اشاره

- ٣٨٩ عظمه دعوه القرآن و حقانتيه:
- ٣٩٢ مظاهر و تجليات جديده من إعجاز القرآن:
- ٣٩٨ الجهل و الإنكار:
- ٣٩٩ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٤١ الى ٤٤]
- ٣٩٩ اشاره
- ٣٩٩ التفسير
- ٣٩٩ اشاره
- ٣٩٩ العمى و الصم:
- ٤٠١ ملاحظتان
- ٤٠١ اشاره
- ٤٠١ و هنا ينبغى الالتفات لملاحظتين:
- ٤٠٢ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٤٥ الى ٤٧]
- ٤٠٢ اشاره
- ٤٠٢ التفسير
- ٤٠٥ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٤٨ الى ٥٢]
- ٤٠٥ اشاره
- ٤٠٥ التفسير
- ٤٠٥ اشاره
- ٤٠٥ العذاب الإلهى و اختيارات الرسول:
- ٤٠٨ ملاحظات
- ٤١٠ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٥٣ الى ٥٦]
- ٤١٠ اشاره
- ٤١٠ التفسير
- ٤١٠ اشاره
- ٤١٠ لا معنى للشك فى العذاب الإلهى:
- ٤١٢ ملاحظتان

الآيتان [سوره يونس (١٠): الآيات ٥٧ الى ٥٨]----- ٤١٣

اشاره ٤١٣

التفسير ٤١٣

اشاره ٤١٣

القرآن رحمه إلهيه كبرى: ----- ٤١٣

ملاحظتان ٤١٤

اشاره ٤١٤

١- هل أن القلب هو مركز الإحساسات؟ ----- ٤١٤

٢- ما هو الفرق بين الفضل و الرحمة؟ ----- ٤١٧

الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٥٩ الى ٦١]----- ٤١٩

اشاره ٤١٩

التفسير ٤١٩

اشاره ٤١٩

هو الشاهد في كل مكان! ٤١٩

ملاحظات ٤٢٢

الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٦٢ الى ٦٥]----- ٤٢٤

اشاره ٤٢٤

التفسير ٤٢٤

اشاره ٤٢٤

طمأنينه الروح في ظل الإيمان: ----- ٤٢٤

ملاحظتان ٤٣٠

اشاره ٤٣٠

١- ما هو المراد من البشاره في الآيه؟ ----- ٤٣٠

٢- الزويات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ٤٣٢

الآيتان [سوره يونس (١٠): الآيات ٦٦ الى ٦٧]----- ٤٣٤

اشاره ٤٣٤

٤٣٤ التفسير

٤٣٤ اشاره

٤٣٤ جانب من آيات عظمته:

٤٣٤ ملاحظات

٤٣٧ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٦٨ الى ٧٠]

٤٣٧ اشاره

٤٣٧ التفسير

٤٣٩ ملاحظات

٤٤٠ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٧١ الى ٧٣]

٤٤٠ اشاره

٤٤٠ التفسير

٤٤٠ اشاره

٤٤٠ جانب من جهاد نوح:

٤٤٤ الآية [سوره يونس (١٠): آيه ٧٤]

٤٤٤ اشاره

٤٤٤ التفسير

٤٤٤ اشاره

٤٤٤ الرسل بعد نوح:

٤٤٥ ملاحظتان

٤٤٦ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٧٥ الى ٧٨]

٤٤٦ اشاره

٤٤٦ التفسير

٤٤٦ اشاره

٤٤٦ جانب من جهاد موسى و هارون:

٤٥٠ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٧٩ الى ٨٢]

٤٥٠ اشاره

٤٥٠ التفسير

٤٥٠ اشاره

٤٥٠ المرحلة الثانيه:

٤٥٣ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٨٣ الى ٨٦]

٤٥٣ اشاره

٤٥٣ التفسير

٤٥٣ اشاره

٤٥٣ المرحلة الثالثه:

٤٥٧ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٨٧ الى ٨٩]

٤٥٧ اشاره

٤٥٧ التفسير

٤٥٧ اشاره

٤٥٧ المرحلة الرابعه:مرحلة البناء من أجل التوره:

٤٦١ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

٤٦١ اشاره

٤٦١ التفسير

٤٦١ اشاره

٤٦١ الفصل الأخير من المجابهه مع الظالمين:

٤٦٦ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٤ الى ٩٧]

٤٦٦ اشاره

٤٦٦ التفسير

٤٦٦ اشاره

٤٦٦ لا تدع للشك طريقا إلى نفسك!

٤٦٧ هل كان النبي شاكاً؟!

٤٧٠ الآية [سوره يونس (١٠): آيه ٩٨]

٤٧٠ اشاره

٤٧٠ التفسير

٤٧٠ اشاره

٤٧٠ الامه التي آمنت في الوقت المناسب!

٤٧١ قصه إيمان قوم يونس:

٤٧٣ الأيتان [سوره يونس (١٠): الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

٤٧٣ اشاره

٤٧٣ التفسير

٤٧٣ اشاره

٤٧٣ لا خير في الإيمان الإجباري:

٤٧٤ ملاحظتان

٤٧٤ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

٤٧٤ اشاره

٤٧٤ التفسير

٤٧٤ اشاره

٤٧٤ الموعظه و النصيحة:

٤٧٩ الآيات [سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٤ الى ١٠٧]

٤٧٩ اشاره

٤٧٩ التفسير

٤٧٩ اشاره

٤٧٩ الحزم في التعامل مع المشركين:

٤٨٢ الأيتان [سوره يونس (١٠): الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

٤٨٢ اشاره

٤٨٢ التفسير

٤٨٢ اشاره

٤٨٢ الكلمه الأخيره:

٤٨٤ سوره هود

- ٤٨٤ اشاره
- ٤٨٦ محتوى هذه السوره و فضيلتها!
- ٤٨٧ شيبتنى سوره هودا!
- ٤٨٨ التأثير المعنوى لهذه السوره:
- ٤٩٠ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ١ الى ٤]
- ٤٩٠ اشاره
- ٤٩٠ التفسير
- ٤٩٠ اشاره
- ٤٩٠ الأصول الاربعه فى دعوه الأنبياء:
- ٤٩٣ علاقه الدين بالدنيا:
- ٤٩٥ الآية [سوره هود (١١): آيه ٥]
- ٤٩٥ اشاره
- ٤٩٥ التفسير
- ٤٩٧ الآية [سوره هود (١١): آيه ٦]
- ٤٩٧ اشاره
- ٤٩٧ التفسير
- ٤٩٧ اشاره
- ٤٩٧ جميع الاحياء ضيوف مآدبته:
- ٤٩٨ ملاحظات
- ٤٩٨ اشاره
- ٤٩٩ تقسيم الأرزاق و السعى من أجل الحياه!
- ٥٠٥ الآية [سوره هود (١١): آيه ٧]
- ٥٠٥ اشاره
- ٥٠٥ التفسير
- ٥٠٥ اشاره
- ٥٠٥ الهدف من الخلق:

الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٨ الى ١١] ٥٠٩

اشاره ٥٠٩

التفسير ٥٠٩

اشاره ٥٠٩

استيعاب المؤمنين و عدم استيعاب غيرهم: ٥٠٩

بحوث ٥١٢

اشاره ٥١٢

١- الأئمة المعدوده و أصحاب المهدي عليه السلام: ٥١٢

٢- أربع ظواهر لضيق الأفق الفكرى ٥١٢

٣- معيار الضعف النفسى ٥١٣

٤- النعم جميعها مواهب: ٥١٣

٥- أثران للأعمال الحسنه ٥١٤

الآيات [سوره هود (١١): الآيات ١٢ الى ١٤] ٥١٥

اشاره ٥١٥

سبب النزول ٥١٥

التفسير ٥١٦

اشاره ٥١٦

القرآن المعجزه الخالده: ٥١٦

بحوث ٥١٧

اشاره ٥١٧

جميع القرآن أو عشر سور منه أو سوره واحده! ٥٢٠

الآيتان [سوره هود (١١): الآيات ١٥ الى ١٦] ٥٢٤

اشاره ٥٢٤

التفسير ٥٢٤

ملاحظات ٥٢٦

الآيه [سوره هود (١١): آيه ١٧] ٥٢٨

٥٢٨ اشارة

٥٢٨ التفسير

٥٣١ بحوث

٥٣١ اشارة

٥٣١ ١- ما المقصود «بالشاهد» في الآية؟!

٥٣٢ ٢- لماذا أشير إلى التوراه فحسب؟!

٥٣٣ ٣- من هو المخاطب في قوله: فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ ؟

٥٣٤ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ١٨ الى ٢٢]

٥٣٤ اشارة

٥٣٤ التفسير

٥٣٤ اشارة

٥٣٤ أخسر الناس أعمالا:

٥٣٩ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٢٣ الى ٢٤]

٥٣٩ اشارة

٥٣٩ التفسير

٥٣٩ ملاحظتان

٥٤٢ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

٥٤٢ اشارة

٥٤٢ التفسير

٥٤٢ اشارة

٥٤٢ قضه نوح المشيره مع قومه:

٥٤٧ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٢٩ الى ٣١]

٥٤٧ اشارة

٥٤٧ التفسير

٥٤٧ اشارة

٥٤٧ ما أنا بطارد الذين آمنوا:

ملاحظات ٥٥٠

اشاره ٥٥٠

١- أولياء الله و معرفه الغيب ٥٥٠

٢- مقياس معرفه الفضيله: ٥٥١

٣- معنى علم الغيب فى القرآن ٥٥٢

الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٣٢ الى ٣٥] ٥٥٣

اشاره ٥٥٣

التفسير ٥٥٣

اشاره ٥٥٣

كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟! ٥٥٣

ملاحظات ٥٥٦

الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٣٦ الى ٣٩] ٥٥٩

اشاره ٥٥٩

التفسير ٥٥٩

اشاره ٥٥٩

بدايه التّهايه: ٥٥٩

ملاحظات ٥٦٣

اشاره ٥٦٣

١- التّصفيه لا الانتقام ٥٦٣

٢- علائم المستكبرين: ٥٦٣

٣- سفينه نوح: ٥٦٤

الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٤٠ الى ٤٣] ٥٦٦

اشاره ٥٦٦

التفسير ٥٦٦

اشاره ٥٦٦

شروع الطّوفان: ٥٦٦

بحوث ٥٧٠

اشاره ٥٧٠

١-هل كان طوفان نوح مستوعبا للعالم؟! ٥٧٠

٢-هل تقبل التوبه بعد نزول العذاب؟! ٥٧٢

٣-دروس تربويه من طوفان نوح: ٥٧٣

اشاره ٥٧٣

أ-تطهير وجه الأرض: ٥٧٣

ب-لم كان العقاب أو الطوفان؟! ٥٧٤

ج-اسم الله على كل حال و فى كل مكان ٥٧٤

د-المرتكزات الجوفاء: ٥٧٥

ه-سفينه النجاه: ٥٧٦

الآيه [سوره هود (١١): آيه ٤٤] ٥٧٧

اشاره ٥٧٧

التفسير ٥٧٧

اشاره ٥٧٧

نهايه الحادث: ٥٧٧

أين يقع الجودى؟ ٥٧٩

الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٤٥ الى ٤٧] ٥٨٢

اشاره ٥٨٢

التفسير ٥٨٢

اشاره ٥٨٢

حادثه ابن نوح المؤلمه: ٥٨٢

بحوث ٥٨٣

اشاره ٥٨٣

١-لم كان ابن نوح «عملا غير صالح»؟! ٥٨٣

٢-دائره الوعد الإلهى ٥٨٤

- ٥٨٥ ٣- هناك حيث تنقطع العلائق
- ٥٨٦ ٤- المسلمون المطرودون
- ٥٨٩ الأيتان [سوره هود (١١): الآيات ٤٨ الى ٤٩]
- ٥٨٩ اشاره
- ٥٨٩ التفسير
- ٥٨٩ اشاره
- ٥٨٩ هبوط نوح بسلام:
- ٥٩٢ الآية الأخيرة تشير إلى عدّه مسائل:
- ٥٩٣ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٥٠ الى ٥٢]
- ٥٩٣ اشاره
- ٥٩٣ التفسير
- ٥٩٣ اشاره
- ٥٩٣ محطّم الأصنام الشّجاع:
- ٥٩٥ بحوث
- ٥٩٥ اشاره
- ٥٩٥ ١- التوحيد أساس دعوه الأنبياء:
- ٥٩٦ ٢- قاده الحق لا يطلبون أجرا من أتباعهم.
- ٥٩٧ ٣- الذنب و هلاك المجتمعات
- ٥٩٩ ٤- ما المراد من قوله تعالى: وَ يَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ .
- ٦٠٠ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٥٣ الى ٥٧]
- ٦٠٠ اشاره
- ٦٠٠ التفسير
- ٦٠٠ اشاره
- ٦٠٠ قوه المنطق:
- ٦٠٣ ملاحظتان
- ٦٠٥ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٥٨ الى ٦٠]

٦٠٥ اشارة

٦٠٥ التفسير

٦٠٥ اشارة

٦٠٥ اللعن الأبدى على القوم الظالمين:

٦٠٩ بحثان

٦٠٩ اشارة

٦٠٩ ١- قوم عاد من منظار التاريخ

٦١١ ٢- اللعن الدائم الأبدى على «عاد»:

٦١٣ الآية [سوره هود (١١): آيه ٦١] -

٦١٣ اشارة

٦١٣ التفسير

٦١٣ اشارة

٦١٣ قصه ثمود:

٦١٥ الاستعمار فى القرآن و فى عصرنا الحاضر:

٦١٧ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٦٢ الى ٦٥] -

٦١٧ اشارة

٦١٧ التفسير

٦١٧ اشارة

٦١٨ ناقه صالح:

٦٢١ العلاقه الدينيه:

٦٢٤ الآيات [سوره هود (١١): الآيات ٦٦ الى ٦٨] -

٦٢٤ اشارة

٦٢٤ التفسير

٦٢٤ اشارة

٦٢٤ نهايه ثمود «قوم صالح»:

٦٢٥ ملاحظات

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدید آور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۱۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۱۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

اشاره

الآيات [سورة التوبه (٩): الآيات ٣٠ الى ٣٣]

اشاره

وَ قَالَتِ الْيَهُودُ عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

التفسير

اشاره

شرك أهل الكتاب:

كان الكلام فى الآيات المتقدمه بعد الحديث عن المشركين و إلغاء عهودهم و ضروره إزاله دينهم و معتقداتهم الوثنيه يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب و قد حدد الإسلام لهم شروطا ليعيشوا بسلام مع المسلمين، فإن لم يفوا بها كان على المسلمين أن يقاتلوهم.

و فى الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب و المشركين، و لا

سيما اليهود و النصارى منهم،ليُتضح أنه لو كان بعض التشدد في معاملتهم،فإنما هو لانحرافهم عن التوحيد،و ميلهم إلى نوع من الشرك في العقيدة،و نوع من الشرك في العباده.

فتقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .

بحوث

اشاره

١- من هو عزير؟!

«عزير» في لغة العرب هو «عزرا» في لغة اليهود،و لما كانت العرب تغيّر في بعض الكلمات التي تردها من لغات أجنبيه و تجرى على لسانها،و ذلك كما هي الحال في إظهار المحبّه خاصّه فتصغر الكلمه،فصغرت عزرا إلى عزير،كما بدلت كلمه يسوع العبريه إلى عيسى في العرييه،و يوحنا إلى يحيى. (١)

و على كان حال،فإن عزيرا-أو عزرا-له مكانه خاصّه في تاريخ اليهود،حتى أن بعضهم زعم أنه واضع حجر الأساس لأمة اليهود باني مجدهم و في الواقع فإنّ له خدمه كبرى لدينهم،لأنّ بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميرا في واقعه المشهوره،و جعل مدنهم،تحت سيطره جنوده فأبادوها،و هدموا معابدهم، و أحرقوا توراتهم،و قتلوا رجالهم،و سبوا نساءهم،و أسروا أطفالهم،و جىء بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالى قرن.

و لما فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا،و كان من أكابر اليهود،فاستشفعه

ص: ٦

١-١) -المراد من التصغير عاده هو بيان كون الشىء صغيرا في قبال شىء آخر كبير،مثل رجيل المصغر عن رجل،لكن للتصغير أغراضا بلاغيه منها إظهار المحبّه و غيرها،كما في اظهار الرجل محبته لولده فيصغر اسمه.

فى اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم و كتب لهم التّوراه- ممّا بقى فى ذهنه من أسلافه اليهود و ما كانوا قد حدّثوا به- من جديد.

و لذلك فهم يحترمونه أيما احترام، و يعدّونه منقدهم و محيي شريعتهم. (١)

و كان هذا الأمر سببا أن تلقبه جماعه منهم ب«ابن الله» غير أنّه يستفاد من بعض الروايات- كما فى الإحتجاج للطبرسى- أنّهم أطلقوا هذا اللقب احتراماً له لا على نحو الحقيقة.

و لكننا نقرأ فى الروايه ذاتها أنّ النّبي سألهم بما مؤداه (إذا كنتم تجلّون عزيزاً و تكرمونه لخدماته العظمى و تطلقون عليه هذا الاسم، فعلام لا تسمّون موسى و هو أعظم عندكم من عزيز بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للمسأله جواباً و أتركوا برؤوسهم) (٢).

و مهما يكن من أمر فهذه التسميه كانت أكبر من موضوع الإجلال و الاحترام فى أذهان جماعه منهم، و ما هو مألوف عند العامّة أنّهم يحملون هذا المفهوم على حقيقته، و يزعمون أنّه ابن الله حقاً، لأنّه خلصهم من الدمار و الضياع و رفع رؤوسهم بكتابه التوراه من جديد.

و بالطبع فهذا الإعتقاد لم يكن سائداً عند جميع اليهود، إلّا أنّه يستفاد أنّ هذا التّصوّر أو الإعتقاد كان سائداً عند جماعه منهم، و لا سيما فى عصر النّبي محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم، و الدليل على ذلك أنّ أحداً من كتب التاريخ، لم يذكر بأنّهم عند ما سمعوا الآيه آنفه الذكر احتجوا على النّبي أو أنكروا هذا القول «و لو كان لبان».

و ممّا قلناه يمكن الإجابة على السّؤال التّالى: أنّه ليس بين اليهود فى عصرنا الحاضر من يدعى أنّ عزيراً ابن الله و لا من يعتقد بهذا الإعتقاد، فعلام نسب القرآن هذا القول إليهم؟!

ص: ٧

١-١) -يراجع فى هذا الشأن الميزان، ج ٩، ص ٢٥٣، و المنار، ج ١٠، ص ٣٢٢.

٢-٢) -نور الثقلين، ج ٦، ص ٢٠٥، حديث طويل نقلنا خلاصته معنا لا نصاً، و إذا أردتم المزيد راجعوا المصدر المذكور.

و توضيح ذلك، أنه لا يلزم أن يكون لجميع اليهود مثل هذا الاعتقاد، إذ يكفي هذا القدر المسلم به، وهو أنه في عصر نزول الآيات على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان في اليهود من يعتقد بهذا الاعتقاد، والدليل على ذلك كما نؤهنا، هو أنه لم ينكر أى منهم ذلك على النبي و الشيء الوحيد الذى صدر منهم -وفقا لبعض الروايات- أنهم قالوا: إن هذا اللقب «ابن الله» إنما هو لاحترام عزيز، وقد عجزوا عن جواب لما سألهم و أشكل عليهم: لم لا تجعلون هذا اللقب إذا لنييكم موسى عليه السلام؟! و على كل حال فمتى ما نسب قول أو اعتقاد إلى قوم ما، فلا يلزم أن يكون الجميع قد اتفقوا على ذلك، بل يكفي أن يكون فيهم جماعه ملحوظه تذهب إلى ذلك.

٢- لم يكن المسيح ابن الله

لا ريب أن المسيحيين يعتقدون أن عيسى هو الابن الحقيقى لله، و لا يطلقون هذا الاسم إكراما و تشريفا له، بل على نحو المعنى الواقعى له، و هم يصرّحون فى كتبهم أن إطلاق هذا الاسم على غير المسيح بالمعنى الواقعى غير جائز، و لا شك أنّ هذا من بدع النصرى، و المسيح لم يدع مثل هذا الادعاء أبدا، و إنما كان يقول:

بأنه عبد لله، و لا معنى أساسا لأن نسب علاقته الأبوه و البنوه الخاصه بعالم الماده و عالم الممكنات بين الله و عباده أبدا.

٣- اقتباس هذه الخرافات

يقول القرآن المجيد فى الآيه محل البحث: أنهم -أى اليهود و النصرى- يضاهنون -أى يشبهون بانحرافاتهم- الذين كفروا و المشركين.

و هذا التعبير يشير إلى أنهم مقلدون إذ كانوا يعتقدون بأن بعض الآلهه هو إله الأب، و بعضها إله الابن، و حتى أنّ بعضهم كان يعتقد بأن هناك إله الأم، و إله الزوج،

وقد لوحظت مثل هذه الأفكار في جذور عقائد المشركين في الهند أو الصين أو مصر القديمة ثم تسربت إلى اليهود و النصارى.

و في العصر الحاضر خطر عند بعض المحققين أن يوازن و يقارن بين ما في العهدين «التوراه و الإنجيل و ما يرتبط بهما» و بين عقائد البوذيين و البرهمنيين، فاستنتجوا أن كثيرا من معارف الإنجيل و التوراه تتطابق مع خرافات البوذيين و البرهمنيين تطابقا ملحوظا، حتى أن بعض الحكايات و القصص الموجوده في الإنجيل هي الحكايات و القصص ذاتها الموجوده في الديانه البوذائيه و البرهمنائيه.

و إذا كان المفكرون توصلوا اليوم إلى مثل هذه الحقيقه، فإنّ القرآن أشار إليها قبل أربعة عشر قرنا في الآيه محل البحث.

٤- ما هو معنى قَاتَلَهُمُ اللَّهُ

جمله و إن كان معناها في الأصل أنّ الله مقاتل إيّاهم و ما إلى ذلك، لكن كما يقول الطبرسي في مجمع البيان نقلا عن ابن عباس، إن هذه الجملة كناية عن اللعنه أى أنّ الله أبعدهم عن رحمته، فهو دعاء عليهم.

و في الآيه التاليه إشاره إلى شركهم العملى في قبال الشرك الاعتقادى، أو بعباره أخرى إشاره إلى شركهم فى العباده، إذ تقول الآيه: **إِتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ .**

«الأحبار» جمع حبر، و معناه العالم، و«الرهبان» جمع راهب و تطلق على من ترك دنياه و سكن الدير و أكبّ على العباده.

و ممّا لا شك فيه أنّ اليهود و النصارى لم يسجدوا لأحبارهم و رهبانهم، و لم يصلوا و لم يصوموا لهم، و لم يعبدوهم أبدا، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعه دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفه لحكم

اللّٰه من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى بالعبادة.

و هذا المعنى وارد

فى روايه عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام إذا قالتا: «أمّا و اللّٰه ما صاموا لهم و لا صلّوا، و لكنّهم أحلّوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا، فاتبعوهم و عبدوهم من حيث لا يشعرون». (١)

و

فى حديث آخر، أنّ عدّى بن حاتم قال: وفدت على رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه و آله و سلّم و كان فى رقبتى صليب من الذّهب، فقال لى صلى اللّٰه عليه و آله و سلّم: يا عدى ألق هذا الصنم عن رقبتك، ففعلت ذلك، ثمّ دنوت منه فسمعتة يتلو الآيه **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَ رُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا فَلَمَّا أَمَّ الآيه قلت له: نحن لا نتخذ أئمتنا أربابا أبدا، فقال: «ألم يحرموا حلال اللّٰه و يحلّوا حرامه فتبعوهم؟ فقلت: بلى، فقال: فهذه عبادتهم».** (٢)

و الدليل على هذا الموضوع واضح، لأنّ التقنين خاص باللّٰه، و ليس لأحد سواه أن يحلّ أو يحرم للناس، أو يجعل قانونا، و الشىء الوحيد الذى يستطيع الإنسان أن يفعله هو اكتشاف قوانين اللّٰه و تطبيقها على مصاديقها.

فبناء على ذلك لو أقدم أحد على وضع قانون يخالف قانون اللّٰه، و قبله إنسان آخر دون قيد أو اعتراض أو استفسار فقد عبد غير اللّٰه، و هذا بنفسه نوع من أنواع الشرك العملى، و بتعبير آخر: هو عبادة غير اللّٰه.

و يظهر من القرائن أنّ اليهود و النصارى يرون مثل هذا الاختيار لزعمائهم، بحيث لهم أن يغيروا ما يرونه صالحا بحسب نظرهم، و ما يزال بعض المسيحيين يطلب العفو من القسيس فيقول له القسّ، عفوت عنك! و كان-منذ زمن- موضوع صكوك الغفران رائجا.

و هناك لطيفه أخرى ينبغى الالتفات إليها، و هى أنّه لما كانت عبادة المسيحيين لرهبانهم تختلف عن عبادة اليهود لأحبارهم، فالمسيحيون يرون المسيح ابن اللّٰه

ص: ١٠

١-١) -مجمع البيان، ذيل الآيه و نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٠٩.

٢-٢) -مجمع البيان، ذيل الآيه.

واقعا و اليهود يطعون أحبارهم دون قيد أو شرط، لذا فإن الآيه أشارت إلى عباده كل منهما، فقالت: **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .**

ثم فصلت المسيح على حده فقالت: **وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ .**

و هذا التعبير يدلّ على منتهى الدقه فى القرآن.

و فى ختام الآيه تأكيد على هذه المسأله، و هى أن جميع هذه العبادات للبشر بدعه، و هى من العبادات الموضوعه **وَ مَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .**

درس تعليمى:

إنّ القرآن المجيد يعلم أتباعه فى الآيه-محل البحث- درسا قيما جدّا، و يبيّن واحدا من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحقّ لأىّ مسلم طاعه إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساو لعبادته، و جميع الطاعات يجب أن تكون فى إطار طاعه الله، و إنّما يصح اتباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفه لقوانين الله، أيّا كان ذلك الإنسان و فى أيه مكانه أو منزله. لأنّ الطاعه بلا قيد أو شرط مساويه للعباده، أو هى شكل من أشكال الشرك و العبوديه، إلّا أنّه يا للأسف-بلى المسلمون- لبعده المسافه الزمنيه-بالابتعاد عن تعاليم هذا الدستور الإسلامى المهم، و إقامه الأصنام البشريه، فتفرقوا و تغلب عليهم المستعمرون و المستثمرون، و إذا لم تتكسر هذه الأصنام البشريه فلا ينبغى أن ننتظر زوال هذه البلايا و سدّ الثغرات.

و أساسا فإنّ هذا النوع من الشرك أو العباده الوثنيه أخطر بكثير من عباده الأصنام و الأحجار فى زمان الجاهليه، و السجود لها، لأنّ تلك الأصنام و الأحجار ليس فيها روح حتى تستعمر عبدتها، إلّا أنّ الأصنام البشريه و بسبب غرورهم و عدوانهم يجزّون أتباعهم إلى الوبال و الذله و الشقاء و الانحطاط.

و فى الآيه الثالثه من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسعى اليهود و النصارى، أو سعى جميع مخالفى الإسلام حتى المشركين، و
جَدَّهم و اجتهدهم المستمر «العقيم» الذى لا يعود عليهم بالنفع أبدا، إذ تقول الآيه: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ
إِلَّا أَنْ يُنْمِ نُّورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

ملاحظات

إشارة

١-شبهه الدين-دين الله-فى هذه الآيه و فى القرآن و تعاليم الإسلام بالنور، و نحن نعرف أن النور أساس الحياه و الحركه و النمو
و العمران على الأرض و منشأ كل جمال.

و الإسلام دين يحرك كل مجتمع إنسانى نحو التكامل، و هو أساس كل خير و بركه.

كما شبهه اجتهد الكافر بالنفخ بالأفواه و كم هو مثير للضحك أن يحاول الإنسان إطفاء نور عظيم كنور الشمس بنفخه؟ و لا تعبیر
أبلغ من تعبیر القرآن لتجسيد هذه المحاولات اليائسه، و فى الواقع فإن محاولات مخلوق ضعيف إزاء قدره الله التى لا نهايه لها، لا
تكون أحسن حالا مما ذكرته الآيه.

٢-ورد موضوع محاوله إطفاء نور الله فى القرآن فى موردين: أحدهما فى الآيه محل البحث، و الآخر فى الآيه (٨) من سوره
الصف، و فى الآيتين انتقاد للكفار و محاولات أعداء الله اليائسه، إلا أن بين تعبيري الآيتين تفاوتاً يسيراً، إذ جاء التعبير فى الآيه
محل البحث يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا إِلَّا أَنْ يُنْمِ نُّورَهُ إِلَّا أَنْ يُطْفِئُوا إِلَّا أَنْ يُطْفِئُوا .

و مما لا شك فيه أن هذا التفاوت أو الاختلاف اليسير فى التعبير القرآنى لغايه بلاغيه.

يقول الراغب في مفرداته موضحا الفرق بين أَنْ يُطْفِئُوا و لِيُطْفِئُوا: إِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى تشير إلى محاوله إطفاء نور الله بدون مقدمات، أما الآية الأخرى فتشير إلى محاوله إطفائه بالتوسل بالأسباب و المقدمات، فالقرآن يريد أن يقول:

سواء توسلوا بالأسباب أم لم يتوسلوا فلن يفلحوا أبدا، و عاقبتهم الهزيمة و الخسران.

٣- كلمه «يأبى» مأخوذه من الإباء، و معناه شدة الامتناع و عدم المطاوعه، و هذا التعبير يثبت إرادته الله و مشيئته الحتميه لإكمال دينه و ازدهاره كما أنّ التعبير مدعاه لاطمئنان جميع المسلمين، إن كانوا مسلمين حقا! أنّ مستقبل دينهم لا بأس عليه، بل هو مؤيد بأمر الله.

المستقبل للإسلام:

الآيه الأخيره من الآيات-محل البحث- فى نهايه المطاف ترف البشرى للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، و تكمل ما أشارت إليه-آنفا- أن أعداء الإسلام لن يفلحوا فى محاولاتهم و مناوآتهم بوجه الإسلام أبدا، و تقول بصراحه:

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

و المقصود من الهدى هو الدلائل الواضحه، و البراهين اللانحه الجليّه التى وجدت فى الدين الإسلامى.

و أما المراد من دين الحق، فهو هذا الدين الذى أصوله حقّه و فروعه حقّه أيضا، و كل ما فيه من تاريخ و براهين و نتائج حق، و لا شك أن الدين الذى محتواه حق، و دلائله و براهينه حقّه، و تأريخه حق جلى، لا بدّ أن يظهر على جميع الأديان.

و بمرور الزمان و تقدم العلم و سهوله الارتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه و يطلعه من وراء سدل الإعلام المضللّه، و ستزول كل العقبات و الموانع و السدود

التي وضعت في طريق انتشار الإسلام.

و هكذا فإنّ دين الحق سيستوعب كل مكان، ولا يحول بينه و بين تقدمه شيء أبداً، لأنّ الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفه لسير التاريخ و سنن الخلق.

بحوث

اشاره

١- المراد «الهدى و دين الحق»

هذا التعبير الوارد في الآيه محل البحث: **أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ** بمثابة الدليل على انتصار الإسلام و ظهوره على جميع الأديان، لأنه لَمَّا كان محتوى دعوه النّبى الهدايه، و العقل يدل على ذلك في كل موطن، و لما كانت أصوله و فروعها موافقه للحق، و مع الحق، و تسير في مسير الحق، و لأجل الحق.

فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان طبعاً.

و قد جاء عن أحد علماء الهند أنه سبر فكره في مطالعه مختلف الأديان فتره من الزمن، و انتهى أمره إلى اختيار الدين الإسلامى من بين جميع أديان العالم، ثم نشر كتاباً بالإنجليزية اسمه «لم أسلمت؟» و بين فيه مزايا الدين الإسلامى على غيره من الأديان.

و من أهم المسائل التي أثارت انتباهه - كما يقول - أنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذى له تاريخ ثابت محفوظ و يتعجب كيف اختارت أوروبا لها ديناً ترى إنّ من جاء به أجلّ من الإنسان و تعدّه ربّها، مع أنّ هذا الدين ليس له تاريخ دقيق. (١)

إنّ مطالعه آراء الذين اعتنقوا الإسلام ديناً جديداً و عزفوا عن دينهم السابق، تكشف أنّهم كانوا فى منتهى البساطه و الغفله و التضليل، بينما دلّتهم أصول الإسلام

ص: ١٤

و فروعها ذات الأدلة المحكمه إلى الدين الإلهي البعيد عن الخرافات كلها، والذي يتجلى فيه نور الحق والهداية.

٢- انتصار المنطق أم انتصر القوه؟

هناك كلام بين المفسرين في كيفية ظهور الدين الإسلامي على سائر الأديان، وهذا الظهور أو الانتصار في أي شكل هو؟ قال بعض المفسرين: هذا الانتصار انتصار منطقي استدلالى فحسب، ويقولون بأن هذا الموضوع حاصل فعلا، لأن الإسلام من حيث منطقته و دلائله لا يقاس به دين آخر.

غير أن التحقيق في موارد استعمال ماده «الإظهار» في قوله تعالى: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ يَكْفِيكَ أَنْ هَذِهِ الْمَادَّةُ غَالِبًا مَا تَسْتَعْمَلُ فِي الْقَدْرَةِ الظَّاهِرِيَّةِ وَ الْغَلْبَةِ الْمَادِيَّةِ، كما جاء في قصه أصحاب الكهف: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ (١) و كما نقرأ في شأن المشركين كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَا لَا ذِمَّةَ (٢).

فمن البديهي أن الغلبة في مثل هذه الموارد ليست غلبة منطقية، بل هي غلبة عينية و فعلية، و على كل حال فمن الأفضل و الأكثر صحة أن نعتقد بأن هذا الظهور و الغلب ظهور مطلق- من جميع الجوانب- لأنه ينسجم و مفهوم الآية التي هي مطلقة من جميع الجهات أيضا، فيكون المعنى أنه سيأتي يوم ينتصر فيه الإسلام انتصارا منطقيا و انتصارا ظاهريا، في امتداد سيطرته و نفوذه المطلق، و حكومته العامة على جميع الأديان، و سيجعل جميع الأديان تحت شعاعه.

ص: ١٥

١- (١) -الكهف، ٢٠.

٢- (٢) -التوبة، ٨.

إن الآيه-محل البحث-عينها و بالألفاظ ذاتها،وردت في سورة الصف،كما وردت في أخريات سورة الفتح باختلاف يسير.

و الآيه تخبر عن حدث مهم كبير استدعت أهميته هذه أن تتكرر الآيه في القرآن،و هذا الحدث الذي أخبرت عنه الآيه هو استيعاب الإسلام للعالم بأسره.

و بالرغم من أن بعض المفسرين فسر الانتصار-في الآيه محل البحث- انتصارا في منطقه معينه و محدوده،و قد حدث ذلك فعلا في عصر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو ما بعده من العصور للإسلام و المسلمين،إلا أنه مع ملاحظه أن الآيه مطلقه لا قيد فيها لا شرط،فلا دليل على تحديد المعنى،فمفهوم الآيه انتصار الإسلام كليًا-و من جميع الجهات-على جميع الأديان،و معنى هذا الكلام أن الإسلام سيهيمن على الكره الأرضيه عامه،و سينتصر على جميع العالم.

و لا شك أن هذا الأمر لم يتحقق في الوقت الحاضر،لكننا ندرى أن هذا وعد من قبل الله حتمى و أنه سيتحقق تدريجا،فسرعه انتشار الإسلام و تقدمه في العالم،و الاعتراف الرسمى به من قبل الدول الأورويه المختلفه و نفوذه السريع في أفريقيا و أمريكا،و إعلان كثير من العلماء و المفكرين اعتناقهم الإسلام،كل ذلك يشير إلى أن الإسلام أخذ باستيعاب العالم.

إلا- أنه طبقا للروايات المختلفه الوارده في المصادر الإسلاميه،فإن هذا الموضوع إنما يتحقق عند ظهور المهدي عليه السلام فيجعل الإسلام عالميا.

ينقل العلامة الشيخ الطبرسى في تفسيره(مجمع البيان)الآيه محل البحث

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن ذلك يكون عند خروج المهدي،فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم».

كما

ورد في التفسير ذاته عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر و لا بر إلا أدخله الله كلمه الإسلام».

ص: ١٦

كما أن الشيخ الصدوق رضوان الله عليه

روى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية- في كتابه إكمال الدين- أنه قال: «و الله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم». قدس سره (1) وهناك أحاديث أخرى بهذا المضمون وردت عن أئمة المسلمين عليهم السلام.

كما أن جماعه من المفسرين ذكروا هذا التفسير في ذيل الآية أيضا.

إلا أن المدهش أن كاتب «المنار» هنا لم يكتف برفض هذا التفسير المذكور آنفا، بل ناقش الأحاديث في المهدي عليه السلام، و حاول أن ينكر بتعصبه الخاص جميع الأحاديث الواردة في شأنه، و لم يأل جهدا في التذرع بما لديه من الحجج الواهية ليقول: إن هذه الأحاديث لا يمكن قبولها بحال، و يزعم أن الإعتقاد بوجود المهدي من أفكار الشيعة، و معتقداتهم، أو معتقدات من يميل إلى التشيع.

ثم بعد هذا كله يرى صاحب «المنار» أن الإعتقاد بوجود المهدي مدعاه للتخلف و الركود! و من هنا نرى أنه لا بد أن نعالج- و لو باقتضاب- الروايات الواردة في شأن المهدي «عجل الله فرجه الشريف» و آثار هذا الإعتقاد في تقدم المجتمع الإسلامي، و مواجهه الظلم و الفساد، ليعلم أن التعصب إذا دخل من باب خرج العلم و المعرفة من باب آخر.

و مع أن صاحب المنار له باع طويله في العلوم و المعارف الإسلامية، إلا أنه لنقطه الضعف التي ابتلى بها «التعصب الشديد» يقلب بعض الحقائق الجليّة و ينكرها تماما.

ص: ١٧

(١-١) - نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١١.

بالزعم من كثره الكتب المؤلفة من قبل علماء أهل السنة و علماء الشيعة، في شأن الأحاديث الواردة في المهدي عليه السلام و نهضته الإصلاحية، إلا أننا نعتقد أن كل ذلك ليس بأبلغ و لا أوجز في الوقت ذاته مما كتبه علماء الحجاز من رسائل ردًا على السائلين في هذا المجال، لذلك نرى من المناسب أن نقل مضامين تلك الإجابات و مؤداها للقراء الكرام.

لكننا نذكر قبلاً، أن الروايات الواردة في المهدي «عجل الله فرجه الشريف» من الكثرة بحيث لا يستطيع أي محقق إسلامي - من أي مذهب كان - أن ينكر تواترها.

و قد كتبت حتى الآن كتب كثيرة في هذا الصدد، و قد اتفق مؤلفوها على صحة الأخبار الواردة في المصلح المهدي «عجل الله فرجه الشريف»، إلا أن أفراداً معدودين - كأحمد أمين المصري و ابن خلدون - و من تبعهما، يشككون في صدور هذه الأحاديث عن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و القرائن المتوفرة في أيدينا تدل على أن الباعث على ترددهم لم يكن لضعف في الأخبار، بل كانوا يرون أن الروايات الواردة في المهدي عليه السلام مشتملة على مسائل لا تكاد تصدق بسهولة أو أنهم لم يستطيعوا أن يميزوا الأحاديث الصحيحة عن غيرها. او لم يجدوا تفسيراً لها.

و على كل حال يلزمنا قبل كل شيء أن نضع بين يدي القراء الكرام نص السؤال و الجواب الذي نشرته رابطته العالم الإسلامي و التي يقوم عليها أشد المتزمطين إفراطاً في المذاهب الإسلامية - أي الوهابيين، ليوضح أن مسألة ظهور المهدي «عجل الله فرجه الشريف» بين المسلمين تعتقد بها الأغلبية الساحقة منهم، و نعتقد أن هذه الرسالة على و جازتها جمعت في طيها الدلائل على ذلك بما ليس لكل أحد أن يتوفر له هذا الجمع، و إذا كان الوهابيون المتعصبون قد أذعنوا لهذا الأمر، فللسبب ذاته المشار إليه آنفاً في رسالته.

فقبل بضعة أعوام وجّه شخص من كينيا-يدعى أبا محمّد-سؤالاً إلى رابطه العالم الإسلامى فى شأن المهدي المنتظر «عجل الله فرجه الشريف».

فأجابه مدير الزّابطه، محمّد صالح القزاز، برّد يتضمّن تصريحاً بأنّ ابن تيمّيه يؤمن بالأحاديث الواردة فى شأن المهديّ أيضاً، وقد كتب هذه الرساله خمسه علماء معروفين من أهل الحجاز جواباً على سؤال أبى محمّد الكينى.

وقد ورد فى هذه الرساله بعد ذكر اسم المهدي عليه السّلام و محل ظهوره «مكّه» ما يلى:

«عند ظهوره يكون العالم مليئاً بالفساد والكفر والجور، فيملاً-الله به-«المهدي» العالم عدلاً كما ملئ ظمناً و جوراً، وهو آخر الخلفاء الراشدين الاثنى عشر الذين أخبر عندهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى كتب الصحاح.

و الأحاديث المتعلقة بالمهديّ نقلها عدّه من أصحاب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم: عثمان بن عفان، على بن أبى طالب، طلحه بن عبيد الله، عبد الرحمن بن عوف، قره بن أساس المزنى، عبد الله بن الحارث، أبو هريره، حذيفه بن اليمان، جابر بن عبد الله، أبو أمامه، جابر بن ماجد، عبد الله بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، وأم سلمه.

فهؤلاء عشرون راويًا صحابياً رووا عن النّبي فى المهديّ «عجل الله فرجه الشريف» وغيرهم كثير أيضاً، وهناك أحاديث كثيره عن الصحابه أنفسهم ورد فيها الكلام عن ظهور المهديّ «عجل الله فرجه الشريف» ويمكن أن تضاف هذه الروايات إلى الروايات الواردة عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّ ذلك «أى الكلام فى المهديّ» لم يكن مسأله اجتهاديه ليتمكن الاجتهاد فيها، فبناء على ذلك فإنّ الصحابه قد سمعوا هذا الموضوع من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ تضيف رساله:

إنّ الأحاديث آنفه الذكر المرويّه عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مذكوره فى كتب الحديث

و الكتب الإسلاميه الأخرى سواء منها السنن أو المعاجم أو المسانيد، وكذلك شهادات الصحابه و أقوالهم التي هي بمشابه الحديث أيضا، و من الكتب التي وردت فيها الأحاديث في المهدي أو أقوال الصحابه هي: سنن أبي داود، و سنن الترمذى، و ابن ماجه، و ابن عمرو الدانى، و مسند أحمد، و ابو يعلى، و البزاز، و صحيح الحاكم، و معجم الطبرانى «الكبير و المتوسط» و الرويانى، و الدار قطنى، و أبو نعيم فى أخبار المهدي، و الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد، و ابن عساكر فى تاريخ دمشق، و غيرها.

و تضيف الرساله: إنَّ بعض العلماء المسلمين كتبوا فى هذا الشأن كتبا خاصه، منهم: أبو نعيم فى أخبار المهدي، و ابن حجر الهيثمى فى «القول المختصر فى علامات المهدي المنتظر»، و الشوكانى، فى «التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر و الدجال و المسيح» و إدريس العراقى المغربى فى كتاب المهدي، و أبو العباس بن عبد المؤمن المغربى فى كتاب «الوهم المكنون فى الرد على ابن خلدون».

و آخر من كتب فى هذا الشأن بحثا مطولا، و هو مدير الجامعه الإسلاميه فى المدينه المنوره «فى حلقات متعدده فى مجله الجامعه المذكوره».

ثم تضيف الرساله أيضا، إن جماعه من علماء الإسلام قديما و حديثا صرّحوا فى كتبهم أن الأحاديث الوارده فى المهدي تقرب من التواتر و لا يمكن إنكارها بأى وجه، و منهم.

السخاوى فى «فتح المغيث» و محمّد بن الحسن السفاوينى فى «شرح العقيد» و أبو الحسن الأبرى فى «مناقب الشافعى» و ابن تيميه فى «فتاواه» و السيوطى فى «الحاوى» و إدريس العراقى فى كتابه «المهدي» و الشوكانى فى كتاب «التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر» و محمّد جعفر الكنانى فى «نظم الثناثر» و أبو العباس بن عبد المؤمن فى «الوهم المكنون...».

و تختم الرساله بالقول بأن ابن خلدون وحده أنكر الأحاديث فى المهدي،

وعدّها واهيه لا أساس لها، و أنّها عاريه من الصّحه، إذ قال: لا مهديّ إلاّ عيسى، إلاّ أنّ علماء الإسلام و رجاله ردّوا على مقالته، و خاصّه أبو العباس بن عبد المؤمن في كتابه «الوهم المكنون في الردّ على ابن خلدون» الذي خصّص في كتابه بحثا مسهبيا في هذا الشأن، و قد نشر الكتاب منذ أكثر من ثلاثين سنه.

و يقول حفاظ الأحاديث و العلماء الكبار بصراحه، إن الأحاديث في المهديّ تشتمل على الصحيح و الحسن، و مجموعها متواتر، فبناء على ذلك فالاعتقاد بظهور المهديّ واجب على كل مسلم، و يعدّ هذا من عقائد أهل السنه و الجماعه و لا ينكرها إلاّ الجهله أو المبتدعون... إلخ.

مدير إداره مجمع الفقه الإسلامى محمّد المنتصر الكنائى

الانتظار و آثاره البناءه:

كان الكلام في البحث السابق أن هذا الاعتقاد لم يكن ممّا طرا على التعاليم الإسلاميه، بل هو من أكثر المباحث القطعيه المأخوذه عن مؤسس دعائم الإسلام صلوات الله عليه، و يتفق على ذلك عموم الفرق الإسلاميه، و الأحاديث في هذا الشأن متواتره أيضا.

و الآمن لتقف على آثار الانتظار في المجتمعات الإسلاميه و ما هي عليه من أحوال، لنرى هل أن الإيمان بظهور الإمام المهديّ عليه السّلام يجعل الإنسان عارفا في الوهم و الخيال ثمّ ليستسلم لجميع الظروف، أو هو نوع من الدّعوه إلى النهوض و بناء الإنسان و المجتمع؟! هل يدعو إلى التحرك، أم إلى الركود؟ هل يبعث في الإنسان روح المسؤوليه، أم هو مدعاه للفرار منها؟

و أخيراً:أهو مخدّر، أم موقظ؟ إلاّ أنّه قبل أن نوضح الإجابة على هذه الأسئلة-لا بدّ من الالتفات إلى هذه الملاحظه و هي أن أسمى المفاهيم و أكرم الدساتير متى ما وقعت في أيدي أناس جهله أو غير جديرين بها،فمن الممكن أن تمسح بسوء استفادتهم فتكون النتيجة خلافا للهدف الأصلي تماما و تتعاكس في المسار،و مثل هذا واقع بكثره،و سنرى أن مسأله انتظار المهدي عليه السلام من هذه المسائل أيضا.

و من أجل تحاشي و الأخطاء و الاشتباهات في مثل هذه المباحث،ينبغي-كما قيل-أن ننهل الماء من معينه العذب،لئلا نجد فيه كدر الأنهار أو السواقي المشوبه.

أى علينا أن نراجع النصوص الإسلاميه الأصليه مباشره و أن نفهم الانتظار من لسان رواياتها المختلفه،حتى نطلع على الهدف الأصلي منها!

الزوايات الشريفة:

١-سأل بعضهم الإمام الصادق عليه السّلام:ما تقول في رجل موال للأئمّه عليهم السّلام و ينتظر ظهور حكومه الحق،ثم يموت و هو على هذه الحال؟!

فقال الإمام الصادق عليه السّلام: هو بمنزله من كان مع القائم في فسطاطه.ثم سكت هنيهة،ثم قال:هو كمن كان مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم (١).

و هذا المضمون نفسه ورد في روايات متعدده بتعابير مختلفه:

٢-إذ جاء في بعضها:بمنزله الضارب بسيفه في سبيل الله.

٣-و في بعضها:كمن قارع مع رسول الله بسيفه.

٤-و في بعضها:بمنزله من كان قاعدا تحت لواء القائم.

٥-و في بعضها:بمنزله المجاهدين بين يدي رسول الله.

٦-و في بعضها:بمنزله من استشهد مع رسول الله.

ص: ٢٢

فهذه التشبيهات السبعة فى الروايات الست المذكوره، آنفا فى شأن المهدي عليه السلام، تبين هذه الواقعيه و هى أنّ هناك علاقته و ارتباط بين مسأله الانتظار من جانب، و جهاد العدوّ فى أشدّ أشكاله من جانب آخر «فتأملوا بدقه».

٧- كما ورد فى روايات متعدده أن انتظار مثل هذه الحكومه الحقه من أفضل العبادات، و هذا المضمون ورد فى بعض أحاديث النّبى صلى الله عليه و آله و سلمّ و كلام الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام.

فقد ورد عن النّبى صلى الله عليه و آله و سلمّ أنّه قال: «أفضل أعمال أمّتى انتظار الفرج من الله عزّ و جلّ». (١)

و

قال صلى الله عليه و آله و سلمّ فى حديث آخر: «أفضل العباده انتظار الفرج». (٢)

و هذان الحديثان يشيران إلى انتظار الفرج، سواء الفرج بمفهومه الواسع العام أو بمفهومه الخاص أى انتظار ظهور المصلح و بيّنان أهميه الانتظار بجلاء أيضا.

و مثل هذه التعابير تعنى أنّ الانتظار معناه الثوريه المقرونه بالتهيؤ للجهاد، فلا بدّ أن نتصوّر هذا المعنى لفهم المراد من الانتظار، ثمّ نحصل على النتيجة المتوخاه.

مفهوم الانتظار!

الانتظار: يطلق عاده على من يكون فى حاله غير مريحه و هو يسعى لإيجاد وضع أحسن.

فمثلا المريض ينتظر الشفاء من سقمه، أو الأب ينتظر عوده ولده من السفر، فهما أى المريض و الأب مشفقان، هذا من مرضه و ذاك من غياب ولده، فينتظران الحال الأحسن و يسعيان من أجل ذلك بما فى وسعهما.

و كذلك-مثلا- حال التاجر الذى يعانى الأزمه السوقيه و ينتظر النشاط

ص: ٢٣

١- ١) -الكافي، حسب ما جاء فى البحار، ص ١٣٦ و ١٣٧.

٢- ٢) -المصدر السابق.

الاقتصادى. فهاتان الحالتان أى: الاحساس بالأزمه، و السعى نحو الأحسن هما من الانتظار.

فبناء على ذلك، فإنّ مسأله انتظار حكومه الحق و العدل، أى حكومه «المهدى عليه السّلام» و ظهور المصلح العالمى، مركبه فى الواقع من عنصرين: عنصر نفى، و عنصر إثبات، فعنصر النفى هو الإحساس بغرابه الوضع الذى يعاينه المنتظر، و عنصر الإثبات هو طلب الحال الأحسن! و إذا قدّر لهذين العنصرين أن يحلّا فى روح الإنسان فإنّهما يكونان مدعاه لنوعين من الأعمال و هذان النوعان هما:

١-ترك كل شكل من أشكال التعاون مع أسباب الظلم و الفساد، بل عليه أن يقاومها، هذا من جهه.

٢-بناء الشخصيه و التحرك الذاتى و تهيئه الاستعدادات الجسميه و الروحيه و الماديه و المعنويه لظهور تلك الحكومه العالميه الإنسانيه، من جهه أخرى.

و لو أمعنا النظر لوجدنا أنّ هذين النوعين من الأعمال هما سبب فى اليقظه و الوعى و البناء الذاتى.

و مع الالتفات إلى مفهوم الانتظار الأصيل، ندرك بصوره جيده معنى الرّوايات الوارده فى ثواب المنتظرين و عاقبه أمرهم، و عندها نعرف لم سمّت الرّوايات المنتظرين بحقّ بأنّهم بمنزله من كان مع القائم تحت فسطاطه «عجل الله فرجه» أو أنّهم تحت لوائه، أو أنّهم كمن يقاتل فى سبيل الله بين يديه كالمستشهد بين يديه، أو كالمتشحط بدمه!... إلخ...

ترى أليست هذه التعابير تشير إلى المراحل المختلفه و درجات الجهاد فى سبيل الحق و العدل، التى تتناسب و مقدار الاستعداد و درجه انتظار الناس؟ كما أنّ ميزان التضحيه و معيارها ليسن فى درجه واحده، إذا أردنا أن نزن تضحيه المجاهدين، فى سبيل الله و درجاتهم و آثار تضحياتهم، فكذلك الانتظار

و بناء الشخصيه و الاستعداد، كل ذلك ليس في درجه واحده، و إن كان كل من هذه «العناوين» من حيث المقدمات و النتائج يشبه العناوين آنفه الذكر. فكل منهما جهاد و كل منهما استعداد و تهيؤ لبناء الذات، فمن هو تحت خيمه القائد و فى فسطاطه يعنى أنه مستقر فى مركز قياده، و عند أمره الحكومه الاسلاميه! فلا يمكن أن يكون إنسانا غافلا جاهلا، فذلك المكان ليس مكانا لكل أحد و إنما هو مكان من يستحقه بجداره! فذلك الأمر عند ما يقاتل المقاتل بين يدي هذا القائد أعداء حكومه العدل و الصلاح، فعليه أن يكون مستعدا بشكل كامل روحيا و فكريا و قتاليا.

و لمزيد التعرف على الآثار الواقعيه لانتظار ظهور المهدي عليه السلام لاحظوا التوضيح التالى:

الانتظار يعنى الاستعداد الكامل:

إذا كنت ظالما مجرما، فكيف يتسنى لى أن أنتظر من سيفه متعطش لدماء الظالمين؟! و إذا كنت ملوثا غير نقى فكيف أنتظر ثوره يحرق لهبها الملوّثين؟! و الجيش الذى ينتظر الجهاد الكبير يقوم برفع معنويات جنوده و يلهمهم روح الثوره، و يصلح نقاط الضعف فيهم إن وجدت، لأنّ كفيهِ الانتظار تناسب دائما و الهدف الذى نحن فى انتظاره.

١-انتظار قدوم أحد المسافرين من سفره.

٢-انتظار عوده حبيب عزيز جدا.

٣-انتظار حلول فصل اقتطاف الثمار و جنى المحاصيل.

كل من هذه الأنواع من الانتظار مقرون بنوع من الاستعداد، ففى أحدها ينبغى تهيئه البيت و وسائل التكريم، و فى الآخر ما ينبغى أن يقتطف به من الأدوات

و السلال و هكذا...و الآن سنتصوّر كيف يكون انتظار ظهور مصلح عالمى كبير و كيف نكون فى انتظار ثوره و تغيير و تحول واسع لم يشهد تاريخ الإنسانيه مثيلا له؟ الثوره التى ليست كسائر الثورات السابقه، إذ هى غير محدوده بمنطقه ما، بل هى عامه و للجميع، و تشمل جميع شؤون الحياه و الناس، فهى ثوره سياسيه، ثقافيه، اقتصاديه، أخلاقيه.

الحكمه الأولى، بناء الشّخصيه الفرديه:

إنّ بناء الشّخصيه-قبل كل شىء-بحاجه إلى عناصر معدّه ذات قيم إنسانيه، ليتمكن للفرد أن يتحمل العبء الثقيل الإصلاحى للعالم، و هذا الأمر بحاجه-أولا- إلى الارتقاء الفكرى و العلمى و الاستعداد الروحى، لتطبيق ذلك المنهج العظيم.

فالتحجر، و ضيق النظر و الحسد، و الاختلافات الصبانيه، و كل نفاق بشكل عام أو تفرقه لا تنسجم و مكانه المنتظرين الواقعيين.

و المسأله المهمه-هنا- أنّ المنتظر الواقعى لا- يمكنه أن يقف موقف المتفرج ممّا أشرنا إليه آنفا، بل لا بدّ أن يقف فى الصف الآخـر، أى صف الثائرين المصلحين، فالإيمان بالتناج و ما يؤول إليه هذا التحول، لا- يسمح له أبدا أن يكون فى صف «المثبطين» المتقاعسين، بل يكون فى صف المخلصين المصلحين، و يكون عمله خالصا و روحه أكثر نقاء، و أن يكون شهما عارفا معرفه كافيه بالأمر.

فإذا كنت فاسدا معوجّا فكيف يمكننى أن أنتظر نظاما لا مكان فيه للفاسدين؟ أليس مثل هذا الانتظار كافيا لأنّ أطهر نفسى و فكرى، و أغسل جسمى و روحى من التلوّث؟! و الجيش الذى ينتظر جهادا تحرريا لا- بدّ له أن يكون فى حاله من الاستعداد الكامل، و أن يهيبى السلاح الجدير بالمعركه، و أن يصنع الملاجئ و المواضع

العسكريه اللازمه و أن يرفع المعنويات القتاليه فى صفوف أفراده، و يقوى روحياتهم، يسرج فى قلوبهم شعله العشق للمواجهه فإن جيشا ليس فيه مثل هذه الاستعدادات لا يكون جيشا(منتظرا)و إذا ادعى الانتظار فهو «كاذب»! إن انتظار المصلح، «العالمى» معناه الاستعداد الكامل فكريا، و أخلاقيا، ماديا و معنويا، الاستعداد لإصلاح العالم كله. فتصوّروا أنّ مثل هذا الاستعداد كم يكون بناءً؟! إصلاح المعموره كلّها، و إنهاء الظلم و الفساد و النواقص ليس عملا بسيطا، و لا هو بالمزاح أو الهزل، بل الاستعداد لمثل هذا الهدف الكبير ينبغى أن يتناسب معه، و أن يكون بسعته و عمقه! فلا بدّ من وجود رجال كبار مصممين ذوى إرادته أقوياء لا ينكصون و لا ينهزمون أبدا، ذوى نظره واسعه و استعداد تام و تفكير عميق، حتى تتحقق مثل هذه الثوره الإصلاحيه العالميه.

و بناء الشخصيه لمثل هذا الهدف يستلزم الارتباط بأشد المناهج الأخلاقيه، و الفكرية و الاجتماعيه أصاله و عمقا، فهذا هو معنى الانتظار الواقعى! ترى هل يستطيع أن ينكر أحد فيقول: إن مثل هذا الانتظار لا يكون فاعلا.

الحكمه الثانيه، التعاون الاجتماعى:

إنّ المنتظرين بحق فى الوقت الذى ينبغى عليهم أن يهتموا ببناء «شخصيتهم» عليهم، أن يراقبوا أحوال الآخريين، و أن يجدّوا فى إصلاحهم جدّهم فى إصلاح ذاتهم... لأنّ المنهج العظيم الذى ينتظرونه ليس منهجا فرديا، بل هو منهج ينبغى أن تشارك فيه جميع العناصر الثوريه، و أن يكون العمل جماعيا عاما، و أن تتسق المساعى و الجهود بشكل يتناسب و تلك الثوره العالميه هم فى انتظارها.

ففى ساحه معركه واسعه يقااتل فيها مجموعه جنبا إلى جنب، لا يمكن لأحد

منهم أن يغفل عن الآخرين بل عليه أن يشدّ أزرهم و أن يسدّ الثغره و يصلح نقطه الضعف إن وجدت و يرمم المواضع المتداعيه و يدعم ما ضعف منها،لأنه لا يمكن تطبيق مثل هذا المنهج دون مساهمه جماعيه نشيطه فعّاله متسقه متناسقه! فبناء على ذلك فالمنتظرون بحقّ عليهم أن يصلحوا حال الآخرين بالإضافة إلى إصلاح حالهم.

فهذا هو الأثر الآخر البّناء،الذى يورثه الانتظار لقيام مصلح عالمى،و هذه حكمه الفضائل التى ينالها،المنتظرون بحق.

الحكمه الثالثه،المنتظرون بحق لا يذوبون فى المحيط الفاسد:

إنّ الأثر المهم الآخر للانتظار هو عدم ذوبان المنتظرين فى المحيط الفاسد، و عدم الانقياد وراء المغريات و التلوّث بها أبدا. و توضيح ذلك:أنه حين يعم الفساد المجتمع،أو تكون الأغلبيه الساحقه منه فاسده،فقد يقع الإنسان النقى الطاهر فى مأزق نفسى،أو بتعبير آخر:فى طريق مسدود«لليأس من الإصلاحات التى يتوخاها».

و ربّما يتصور«المنتظرون»أنه لا- مجال للإصلاح،و أن السعى و الجدّ من أجل البقاء على«النقاء»و الطهاره و عدم التلوّث،كل ذلك لا طائل تحته،أو لا جدوى منه،فهذا اليأس أو الفشل قد يجزّ الإنسان نحو الفساد و الاصطبغ بصبغه المجتمع الفاسد،فلا يستطيع المنتظرون عندئذ أن يحافظوا على أنفسهم باعتبارهم أقلّيه صالحه بين أكثرية طالحه،و أنّهم سيفتضحون إن أصروا على مواصله طريقهم و ينكشفون لأنّهم ليسوا على شاكلة الجماعه.

و الشىء الوحيد الذى ينعش فيهم الأمل و يدعوهم الى المقاومه و التجلّد و عدم الذّوبان و الانحلال فى المحيط الفاسد،هو رجاؤهم بالإصلاح النهائى،فهم فى هذه الحال-فحسب-لا يسأمون عن الجد و المثابره،بل يواصلون طريقهم فى

سبيل المحافظه على الذات و حفظ الآخرين و إصلاحهم أيضا.

و حين نجد- في التعاليم الإسلاميه- أن اليأس من رحمه الله و ثوابه من أعظم الذنوب و الكبائر، فقد يتعجب بعض الجهال: كيف يكون اليأس من رحمه الله من الكبائر و الى هذه الدرجه من الأهميه، حتى أنه أشدّ من سائر الذنوب الأخرى، فإنّ حكمته و«فلسفته» في الحقيقه هو ما أشرنا إليه آنفا، لأنّ العاصي الآيس من رحمه الله لا يرى شيئا ينقذه و يخلصه من عذاب الله، فلا يفكر بإصلاح الخلل، أو- يكفّ عن الذنب على الأقلّ لأنّه يقول في نفسه: أنا الغريق فهل أحشى من البلبل؟ و النهايه الحتميه جهنّم، و قد اشتريتها، فما عسى أن أفعل؟... و ما الى ذلك.

إلاّ أنّه حين تنفتح له نافذه الأمل، فإنّه سيرجو عفو ربّه، و يتجه نحو تغيير نفسه و حاله، و يحصل له منعطف جديد في حياته يدعوه الى التوقف عن مواصله الذنوب و العوده نحو الطهاره و النقاء و الإصلاح.

و من هنا يمكننا أن نعتبر أنّ الأمل عامل تربوي مهم و مؤثر في المنحرفين أو الفاسدين، كما أنّ الصالحين لا- يستطيعون أن يواصلوا مسيرهم في المحيط الفاسد إذا لم يكن لهم أمل بالانتصار على المفساد.

و النتيجة أنّ معنى انتظار ظهور المصلح، هو أنّ الدنيا مهما مالت نحو الفساد أكثر كان الأمل بالظهور أكثر، و الانتظار يكون له أثر نفسى كبير، فيضمن للنفوس القوّه في مواجهه الأمواج و التيارات الشديده كيلا يجرفها الفساد، فهم ليسوا أربط جأشا فحسب، بل بمقتضى قول الشاعر:

عند ما يآزف ميعاد الوصال

فلظى العشاق في أيّ اشتعال

إذن فهم يسعون أكثر للوصول الى الهدف المنشود، و تنشدهم لمواجهه الفساد و مكافحته بشوق لا مزيد عليه.

و ممّا ذكرناه- آنفا- نستنتج أن الأثر السلبي للانتظار إنّما يكون في صورته ما لو مسح مفهومه أو حرّف عن واقعه، كما حرفه المخالفون و الأعداء، و مسخه

الموافقون، غير أنه لو أخذ بمفهومه الواقعي لكان عاملاً تربويًا مهمًا بناءً محرّكًا باعثًا على الأمل و الرجاء.

و ممّا يؤيد هذا الكلام ما ورد عن الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية:

وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ إِذْ جَاءَ أَنْ الْمَرَادُ مِنَ الْآيَةِ هُوَ «القائم و أصحابه». (١)

كما جاء فى حديث آخر أنّها، أى هذه الآية نزلت فى المهدي عليه السّلام.

و قد عبّرت هذه الآية عن الإمام المهدي و أصحابه ب الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

فبناءً على ذلك فإنّ تحقّق هذه الثورة الإصلاحية بدون إيمان مستحکم يقضى على كل أنواع الضعف و التحلّل و بدون عمل صالح يفتح الطريق لإصلاح العالم، فإن هذا التحقّق مستبعد جدًّا.

و الطالبون لهذا التحقّق عليهم أن يزدادوا إيمانًا و معرفه، و أن يجدّوا فى العمل الصالح و إصلاح ذاتهم.

و هؤلاء هم طليعه تلك الحكومه العالميه و أملها المشرق، لا من ركن الى الظلم و الجور....

و ليس المنتظر لتلك الحكومه الأشخاص الضعاف الهمه و الجبناء الذين يخافون حتى من ظلّهم.

و لا البطّالون الساكتون عن الحق التّاركون للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فى محيطهم الفاسد. أجل... هذا هو الأثر الإيجابى البناء لانتظار قيام المهدي عليه السّلام فى المجتمع الإسلامى.

ص : ٣٠

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

التفسير

اشاره

كنز الأموال:

كان الكلام في الآيات المتقدمه عن أعمال اليهود و النصارى المشوبه بالشرك، إذ كانوا يعبدون الأحرار و الرهبان من دون الله. الآيه الأولى محل البحث تقول: إن أولئك مضافا إلى كونهم غير جديرين بالألوهيه فهم غير جديرين بقياده الناس أيضا، و خير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضه المضطره.

فَالآيَةَ هُنَا تَلْتَفِتْ نَحْوَ الْمُسْلِمِينَ فَتَخَاطِبُهُمْ بِالْقَوْلِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .

الطريف هنا أننا نواجه الأسلوب نفسه في القرآن على ما عهدناه في أمكنه أخرى من آياته، فالآية هنا لم تقل: إِنَّ الْأَخْبَارَ وَالرُّهْبَانَ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، بل قالت: إِنَّ كَثِيرًا فَهِيَ تَسْتَشْنِي الْأَقْلِيَةَ الصَّالِحَةَ مِنْهُمْ، وهذا النوع من الدقة ملحوظ في سائر آيات القرآن، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوغ أو مجوز، أو كما عبر القرآن «بالباطل» فقد أشرنا سابقاً إلى ذلك في آيات أخرى كما ورد في التأريخ شيء منه أيضاً، وذلك:

أولاً: إنهم كتموا حقائق التعاليم التي جاء بها موسى عليه السلام في توراته و عيسى عليه السلام في إنجيله، لئلا يميل الناس إلى الدين الجديد، «الدين الإسلامي» فتقطع هداياهم و تغدو منافعهم في خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات (٤١) و (٧٩) و (١٧٤) من سورة البقرة.

و الثاني: إنهم بأخذهم «الرَّشْوَةَ» كانوا يقبلون الحق باطلاً- و الباطل حقاً، و كانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية (٤١) من سورة المائدة.

و من أساليبهم غير المشروعه في أخذ المال هو ما يسمّى بـ «صكوك الغفران و بيع الجنّة» فكانوا يتسلمون أموالاً باهظة من الناس، و يبيعون الجنّة بـ «صكوك الغفران» و الغفران و دخول الجنّة منحصران بإرادة الله و أمره، و هذا الموضوع -أي صكوك الغفران- يضحّج به تأريخ المسيحيّة! كما أثار نقاشات و جدالات عندهم.

و أمّا صدّهم عن سبيل الله فهو واضح، لأنهم كانوا يحرفون آيات الله، أو أنّهم كانوا يكتمونها رعايه لمنافعهم الخاصّة، بل كانوا يتهمون كل من يرويه مخالفاً لمقامهم و منافعهم، و يحاكمونه -في محاكم تدعى بمحاكم التفتيش الدينيّ بأسوأ

وجه، و يصدرون عليه أحكاما جائره قاسيه جدًا.

و لو لم يقوموا بمثل هذه الأعمال و لم يقدموا على صدّ أتباعهم عن سبيل الله، لكان آلاف الآلاف من أتباعهم ملتفين اليوم حول رايه الإسلام و دين الحق من صميم أرواحهم و قلوبهم، فبناء على ذلك يمكن أن يقال- بكل جراه و دون تحفظ - أن آثام الآلاف من الجماعات فى رقاب أولئك «الرهبان و الأحبار» لأنهم كانوا سببا فى بقائهم فى الظلمات، ظلمات الكفر و الضلال...

و ما زالت الكنيسه لحدّ الآن تبذل قصارى وسعها- و لا- يقصر فى ذلك اليهود أيضا- لتغيير أفكار عامّة الناس، و إلفاتهم عن الإسلام، كما وجه اليهود تهما كثيره عجيبه إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم.

و هذا الموضوع من الوضوح و الشمول أنّ جماعه من علماء المسيحيه المثقفين اعترفوا بأنّ أسلوب الكنيسه فى مواجهه الإسلام و محاربتة أحد أسباب جهل الغربيين بالإسلام و عدم اطلاعهم على هذا الدين الطاهر.

و تعقبا على موضوع حب اليهود و النصارى لديناهم و أكل المال بالباطل، فإنّ القرآن يتحدث عن قانون كلّى فى شأن أصحاب المال و ذوى الثراء، الذين يكتزون أموالهم، فيقول: **وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .**

و الفعل «يكتزون» مأخوذ من مادّه «الكتز» و هو المال المدفون فى الأرض، و هو فى الأصل جمع أجزاء الشىء، و من هنا فقد سمى البعير ذو اللحم الكثير بأنّه «كناز اللحم» ثمّ استعمل الكتز فى جمع المال و ادخاره و دفنه، أو فى الأشياء القيمه غاليه الثمن.

فبناء على ذلك فإنّ الكتز ملحوظ فيه الجمع و الإخفاء و المحافظه.

«الذهب و الفضة» معدنان مشهوران، و كان النقد أو العمله سابقا بالدينار الذهبى و الدرهم الفضى.

و لبعض العلماء تعريف طريف فى شأن هذين المعدنين و لعتيها «كما ذكر ذلك العلامة الطبرسى فى مجمع البيان» فقال: إنما سُمى الذهب ذهباً لذهابه عن اليد عاجلاً، و إنما سُميت الفضة لانفضاضها أى لتفَرَّقها، و لمعرفة مآل و حقيقه هذه الثروه فإنّ هذه التسميه كافيه (لكلّ من المالىن-الذهب و الفضة).

و منذ كانت المجتمعات البشريه كانت مسأله المبادله-سلعه بسلعه-رائجه بين الناس، فكان كلّ يبيع ما يجده زائداً على حاجته من المحاصيل الزراعيه أو الدواجن بجنس آخر، أو بضاعه أخرى، لأنّ النقد «الدينار أو الدرهم» لم يكن آنئذ، لكن لما كانت المبادله-أعنى مبادله الأجناس أو البضائع-تحدث بعض المشاكل أو المصاعب، لعدم وجود ما يحتاجه البائع، دائماً فقد يكون هناك شىء آخر-مثلاً-يراد تبديله، فقد دعت الحاجه الى اختراع النقد.

و قد كان وجود الفضة، بل الأهم منه وجود الذهب، مدعاه الى تحقق هذه الفكره، و هى أن تمثل الفضة قيمه الدانيه، و أن يمثل الذهب قيمه الغاليه، و بهما اتّخذت المعاملات رونقاً جديداً بارزاً.

فبناءً على ذلك فإنّ الحكمه الأصيله من النقد-الذهب و الفضة-هى سرعه تحرك عجله المبادلات الاقتصايه.

أمّا الذين يكتزون الذهب و الفضة، فهم لا يكونون سبباً لركود الوضع الاقتصاى و الضرر بالمجتمع فحسب، بل إنّ عملهم هذا مخالف لفلسفه ابتداع النقد و اختراعه.

فالآيه محل البحث تحرم الكنز و جمع المال، و الثروه بصراحه، و تأمر المسلمين أن ينفقوا أموالهم فى سبيل الله و ما فيه نفع عباد الله، و أن يتجنبوا كنزها و دفنها و إبعادها عن تحرك السوق، و إلاّ فليتنظروا «العذاب الأليم».

و هذا العذاب الأليم ليس جزاءهم فى يوم القيامه فحسب، بل يشملهم فى الدنيا-لإرباكهم حاله الاقتصايه و لإيجاد الطبقيه بين الناس «الفقير و الغنى» أيضاً.

و إذا لم يكن أهل الدنيا يعرفون أهميه هذا الدّستور الإسلامى بالأمس، فنحن نستطيع أن ندركه جيدا، لأنّ الأزمات الاقتصادية التى أبتلى بها البشر نتيجة احتكار الثروه من قبل جماعه «أنانيه»، و ظهورها على صوره حروب و ثورات و سفك دماء، غير خاف على أحد أبدا.

حتى يعدّ جمع الثروه كنزا؟

هناك كلام بين المفسّرين فى شأن الآيه -محل البحث- فهل كلّ جمع للمال أو ادخار له يعدّ كنزا، لأنّه زائد على حاجه الإنسان، فهو حرام وفق مفهوم الآيه...

أو أنّ الحكم خاصّ ببدايه الإسلام و قبل نزول حكم الزّكاه ثمّ ارتفع حكم الكنز بنزول حكم الزّكاه...

أو أنّه يجب على الإنسان دفع زكاته سنويا لا غير، فإذا دفع الإنسان زكاه سنته فلا يكون مشمولاً بحكم الكنز و إن جمع المال؟ فى كثير من الروايات الصادره عن أهل البيت عليهم السّلام و روايات أهل السنّه، يلوح لنا التّفسير الثالث،

ففى حديث عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال: «أى مال أديت زكاته فليس بكنز». (١)

كما نقرأ فى بعض الروايات أنّه

لمّا نزلت آيه الكنز ثقل على المسلمين الأمر، فقالوا: ليس لنا أن ندخر شيئا لأبنائنا إذا، ثمّ سألوا النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم فقال: «إن الله لم يفرض الزكاه إلّا ليطيب بها ما بقى من أموالكم، و إنّما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم». (٢)

أى أن جمع المال لو كان -بشكل عام ممنوعا- لما وجدنا لقانون الإرث موضوعا.

ص: ٣٥

١-١) -المنار، ج ١٠، ص ٤٠٤.

٢-٢) -المصدر السابق.

فى كتاب الأمالى للشيخ الطوسى قدس سرّه ورد هذا المضمون ذاته عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم:

«من أدى زكاه مال فما تبقى منه ليس بكنز». (١)

إلا أننا نقرأ روايات أخرى فى المصادر الإسلاميه لا ينسجم ظاهراً-و لأوّل وهله-و التفسير الآنف الذكر، ومنها ما

ورد عن الإمام على عليه السّلام فى مجمع البيان أنّه قال: «ما زاد على أربعة آلاف (٢) فهو كنز أدى زكاته أو لم يؤدّها، و ما دونها فهى نفقه، فبشرهم بعذاب أليم». (٣)

قد ورد فى الكافى عن معاذ بن كثير، أنّه سمع عن الصادق عليه السّلام يقول: «لشيعتنا أن ينفقوا ممّا فى أيديهم فى الخيرات، و ما بقى فهو حلال لهم، إلا- أنّه إذا ظهر القائم حرم جميع الكنوز و الأموال المدخره حتى يؤتى بها إليه و يستعين بها على عدوه، و ذلك معنى قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ . (٤)

و نقرأ فى سيره أبى ذر رضوان الله عليه فى كثير من الكتب أنّه لما كان فى الشام، كان يقرأ الآيه-محل البحث-فى شأن معاويه، و يقول بصوت عال صباح مساء:

«بشر أهل الكنوز بكىّ فى الجباه و كىّ بالجنوب و كىّ بالظهور أبدا حتى يتردّد الحرّ فى أجوافهم». (٥)

كما يظهر من استدلال أبى ذر رضى الله عنه بالآيه فى وجه عثمان، أنّه كان يعتقد أنّ الآيه لا تختص بمانعى الزكاه، بل تشمل غيرهم أيضا.

و يمكن الاستنتاج من مجموع الأحاديث-أنفه الذكر-منضمه إليها الآيه محل البحث، أنّه فى الظروف الاعتياديه المألوفه، حيث يرى الناس آمنين، أو غير محذوق بهم الخطر، و المجتمع فى حال مستقر، فيكفى عندئذ دفع الزكاه و ما تبقى لا

(١-١) -نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.

(٢-٢) -المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنها مخارج السنه.

(٣-٣) -مجمع البيان، ذيل الآيه محل البحث، و نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.

(٤-٤) -نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.

(٥-٥) -نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٤ و تفسير البرهان، ج ١، ص ١٢٢.

يعد كثرًا. و ينبغي الالتفات بطبيعته الحال الى أنه مع رعايه الموازين الإسلاميه، و ما هو مقرر في شأن رؤوس الأموال و الأرباح، فإنّ الأموال لا تتراكم بشكل غير مألوف فوق العاده، لأنّ الإسلام وضع قيودا و شروطا للمال لا يتسنى للإنسان معها جمع الأموال و ادّخارها.

و أمّا في الحالات غير الطبيعیه و غير الاعتياديّه، و عند ما يقتضى حفظ مصالح المجتمع الإسلامى ذلك، فإنّ الحكومه الإسلاميه، تحدّد لجمع المال مقدارا، كما مرّ في حديث الإمام على عليه السّلام أو تطالب الناس بالكنوز و ما جمعه من المال كليا، كما هو الحال في قيام المهدي، إذ مرّت روايه الإمام الصادق عليه السّلام مع ذكر العله...

«فيستعين به (أى المال) على عدوّه».

إلا- أنّنا نكرر القول بأنّ هذا الموضوع يختص بالحكومته الإسلاميه، و هى التى لها حق البتّ و التصميم في مواطن الضروره و الاقتضاء «فلاحظوا بدقّه».

و أمّا قصّه أبى ذر رضى الله عنه فلعلّها ناظره الى هذا الموضوع ذاته، إذا كان المجتمع الإسلامى في حاجه ماسه و شديده للمال، و كان جمع المال و كثره مخالفا لمنافع المجتمع و حفظ وجوده.

و مع أن أبى ذر رضى الله عنه كان ناظرا الى أموال «بيت المال» التى كانت عند عثمان و معاويه، و نحن نعرف أنّه مع وجود المستحقين لا يجوز تأخير دفع المال عنهم لحظه واحده، بل يجب دفعه الى أصحابه فورا، و لا علاقة لمسأله الزكاه بهذا الموضوع أبدا.

على أنّ التواريخ الإسلاميه-سنيّه و شيعيه-مجمعه و شاهده على أنّ عثمان و زرع أموال بيت المال الضخمه الطائله على أقاربه، و أن معاويه بنى من بيت مال المسلمين قصرا ضحما أحيا به أساطير قصور الساسانيين، و كان لأبى ذر رضوان الله عليه الحق في أن يحتج بالآيه محل البحث أمامها.

من المؤاخذات على الخليفة الثالث مسأله إبعاد أبي ذر رضى الله عنه المصحوب بالقسوه و الخشونه الى الرّبذه، تلك المنطقه التى كان يبغضها أبو ذر و التى كانت غير صالحه من حيث الماء و الهواء، حتى انتهى الأمر الى موت هذا الصحابى الجليل و المجاهد المضحى فى سبيل الإسلام، و هو الذى

قال فيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم: «ما أظلت الخضراء و لا أقلت الغبراء من ذى لهجه أصدق من أبى ذر».

و نعرف أنّ الاختلاف بين أبى ذر و عثمان لم يكن لأنّ أبا ذر كان يتمنى المال أو المقام، بل على العكس فقد كان أبو ذر زاهدا عابدا ورعا من جميع الوجوه، بل منشأ الخلاف و أساسه، هو أن عثمان فرّق مال بيت مال المسلمين على ذوى قرياه و أصحابه و أنفقه بلا حساب.

و كان أبو ذر رضى الله عنه متشددا فى الأمور الماليه، و لا سيّما ما كان منها متعلقا ببيت مال المسلمين، و كان يرغب فى أن يسير جميع المسلمين على سنه النبى فى هذا المجال، و التصرف بالمال، لكننا نعرف أنّ الأمور أخذت طابعا آخر فى عصر الخليفه الثالث عثمان.

و على كل حال، فإنّ أبا ذرّ رضى الله عنه لما واجه الخليفه الثالث بشدّه، و عنّفه فى إنفاق المال، أرسله عثمان الى الشام بادئ الأمر، فواجه أبو ذر معاويه هناك بصورة أشدّ نقدا و أكثر صراحه، حتى أنّ ابن عباس قال: لقد برم معاويه من كلام أبى ذر و كتب الى عثمان: إنّه إن كانت لك حاجه فى الشام فخذ أبا ذر، فإنّه إن بقى فيها فسوف يصرف أهلها عنك.

فكتب عثمان كتابا و أحضر أبا ذرّ الى المدينه، و كما يقول بعض المؤرّخين:

كتب عثمان الى معاويه، أن ابعث أبا ذرّ فى جماعه من شرطتك و لا ترفّه عليه، و ليجدّوا به السير ليل نهار، و لا يدعوه يستريح لحظه، حتى أن أبا ذر لما وصل المدينه مرض هناك و لما لم يكن وجوده فى المدينه هينا على عثمان و أتباعه، فقد

نفوه الى «الرّيبه» حتى مات رحمه الله فيها.

و هناك من يحاول الدفاع عن الخليفه الثالث و يتّهم أبا ذر أحيانا بأنّه اشتراكي، إذ كان يرى أنّ جميع الأموال عائده الى الله، و كان ينكر الملكيه الفرديه!! و هذا الاتهام في منتهى الغرابه، فمع أنّ القرآن يحترم الملكيه الفرديه بصراحه- وفق شروط معينه- و كان أبو ذر رضى الله عنه من المقرّبين الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم و تربّى في حضن الإسلام و القرآن، و ما أظلت الخضراء أصدق منه، فكيف يتهم أبو ذر بمثل هذا الاتهام؟! إنّ قاطنى الصحراء البعيدين يعرفون هذا الحكم الإسلامى، و كانوا قد سمعوا الآيات التى تتعلق بالتجاره و الإرث، فكيف يمكن أن يصدق بأن أقرب تلامذه رسول الله كان جاهلا بهذا الحكم؟ أليس ذلك لأنّ المتعصّبين الألداء من أجل تبرئه الخليفه الثالث و الأعجب من ذلك تبرئه معاويه و حكومته- اتهموا أبا ذر بمثل هذا الاتهام، و ما يزال بعض من عمى العيون صمّ الأذان يقلدون أسلافهم؟! أجل إن أبا ذر رضى الله عنه- بوحي و استلهام من آيات القرآن و خاصّه آيه الكنز- كان يعتقد و يصرّح بعقيده أن بيت المال لا ينبغى أن يتحول الى ملكيه فرديه بيد الأشخاص، و يجب ألاّ يحرم المستضعفون و المحتاجون منه، و ينبغى أن ينفق فى سبيل تقويه الإسلام و مصالح المسلمين، فلا يجوز تبذير الأموال، و أن بيت المال ليس ملكا لمعاويه و أضرابه كى يشيد بهذه الأموال القصور على شاكله قصور الأكاسره و القياصره! ثمّ إنّ أبا ذرّ كان يعتقد يومئذ أنّه بإمكان الأغنياء أن يقنعوا بما دون الإسراف، ليواسوا إخوانهم الفقراء، و ينفقوا أموالهم فى سبيل الله.

فإذا كان أبو ذر رحمه الله ذا وزر فوزره ما ذكرناه إلّا- أن المؤرّخين المتملقين، أو الذين يؤرخون للارتزاق و يبيعون دينهم بدنياهم، غيروا صورته هذا الصحابى المجاهد

الناصح فجعلوه اشتراكيا!! و ما يؤخذ على أبي ذر من وزر أيضا هو حبه الشديد للإمام على عليه السلام، فقد كان هذا كافيا لأن يقوم بنو أميه بأساليبهم و أراجيفهم الخبيثة الجهنمية بإسقاط حيشه أبي ذر، إلا- أن نقاءه و طهارته و معرفته بالأحكام الإسلاميه كانت ناصعه الي درجه أنهم افتضحوا و لم يفلحوا في مرامهم.

و من جمله الأكاذيب العجيبه التي ألصقوها بأبي ذر لتبرئه الخليفه الثالث، ما ذكره ابن سعد في «الطبقات»: إن جماعه من أهل الكوفه جاؤوا أبا ذرّ عند ما نفاه عثمان الي الرّبذه فقالوا: إن هذا الرجل (أى عثمان) فعل ما فعل بك، فهل مستعد أن ترفع رايه تقاتل بها عثمان، و نحن نقاتله تحت رايتك؟ فقال أبو ذر: كلاً، لو أرسلنى عثمان من المشرق الي المغرب لكنت مطيعاً لأمره. (1)

و لم يلتفت هؤلاء الوضّاعون الي أنه لو كان مطيعاً لأمره، لما كان عثمان يضيق ذرعا به فيكون عليه- في المدينه- عبئاً ثقيلاً لا يستطيع حمله أبداً.

و الأءعجب من ذلك ما ذكره صاحب المنار- ذيل الآيه محل البحث- مشيراً الي قصّيه أبي ذر و ما جرى بينه و بين عثمان، فيقول: إن قصّه أبي ذر تدل على أن عصر الصحابه- و لا سيما عصر عثمان- كان إظهار العقيدته فيه مألوفاً، و كان العلماء محترمين، و الخلفاء ذوى ولاء، حتى أن معاويه لم يجرأ أن يقول شيئاً لأبى ذر، بل كتب كتاباً الي من هو فوقه مرتبه- أى عثمان- و طلب منه أن يرى فيه رأيه!! و الحق أنّ التعصّب قد يصنع الأعاجيب، فهل كان- التبعيد و النفى الي الأرض اليابسه الحاره المحرقه «الرّبذه» أرض الموت و النار تعبير عن احترام حريه الفكر و محبه العلماء!! هل أن تسليم هذا الصحابى الجليل «بيد الموت» يعدّ دليلاً على حريه العقيدته!!

ص: ٤٠

و إذا كان معاويه لم يستطيع أن يجرأ على قتل أبي ذر أو التآمر عليه-خوفا من إنكار عامه الناس-فهل يعدّ ذلك احتراماً لأبي ذر من قبل معاويه؟! و من عجائب هذه القصّيه-أيضا-أن المدافعين عن الخليفه الثالث يقولون:إن تبعيد أبي ذر كان بحكم قانون[تقديم دفع المفسده على جلب المصلحه؟]

لأنّه و إن كان لوجود أبي ذر في المدينه مصلحه كبيره، و كان الناس يستفيدون من علمه، إلا أنّ عثمان كان يرى أن بقاءه في المدينه يجر المفسده-لطريقه تفكيره- و يحدث انعطافا شديدا لا يمكن تحمله، فلأجل ذلك أغضى عثمان عن المصلحه في وجوده و أخرجه الى الرّبذه دفعا للمفسده و لما كان كل من أبي ذر و عثمان مجتهدا، فلا يمكن توجيه النقد أو الإشكال أو أى شىء آخر إليه. (١)

و نحن بدورنا نتساءل:آيه مفسده كانت تترتب على وجود أبي ذر في المدينه؟! ترى هل في إعاده الناس الى سنه النبي صلى الله عليه و آله و سلّم مفسده؟! و لم لا يشكل أبو ذر رضى الله عنه على الخليفه الأول و لا الثانى اللذين لم يفعلوا ما فعله عثمان في أموال المسلمين«و بيت المال»؟! و هل في إعاده الناس الى المناهج الماليه التى كانت في صدر الإسلام مفسده؟! و هل في نفي أبي ذر و قطع لسان الحق مصلحه؟! ألم تؤد أعمال عثمان و استمراره بإنفاق بيت المال الى أن أصبح ضحيه لكل ذلك؟! ألم يكن ذلك مفسده و تركه مصلحه؟! و لكن ما عسى أن نفعل، فإذا دخل التعصب من باب فّر المنطق من باب آخر!! و على كل حال، فإنّ سيره هذا الصحابى الجليل لا تخفى على أى محقق

ص: ٤١

منصف، و لا مجال لتبرئه الخليفة الثالث ممّا نال من أبي ذر من الأذى أبداً، و المنطق الحق يدين أعمال عثمان.

جزاء من يكنز!

فى الآيه التّاليه إشاره الى واحد ممّا يحيق بمثل هؤلاء ممّن يكنز المال فى العالم الآخر، إذ تقول الآيه: يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ .

و يخاطبهم ملائكه العذاب و هم فى هذا الحال: هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .

و هذه الآيه تؤكد مرّه أخرى هذه الحقيقه، و هى أنّ أعمال الإنسان لا تمضى سدى، بل تبقى و تتجسّد له يوم القيامه، و تكون مدعاه سروره أو مدعاه شقائه.

و هناك كلام بين المفسّرين فى سبب ذكر الجباه و الظهر و الجنوب وحدها من بين سائر أعضاء الجسم.

غير أنّه

روى عن أبى ذرّ رضى الله عنه أنّه كان يقول: «حتى يتردد الحرّ فى أجوافهم» أى أن الحراره المحرقه التى تمس هذه الأعضاء الثلاثه تنفذ الى سائر الجسم و تستوعبه كلّه.

كما قيل: إنّ الوجه فى ذكر هذه الأعضاء الثلاثه دون غيرها، هو أنّ أصحاب المال حين كان يأتيهم المحروم أو الفقير، كان ردّ فعلهم يظهر على جباههم أحيانا، فيظهرون عدم الاعتناء بهم، و تاره ينحرفون عنهم، و تاره يديرون ظهورهم لهم، فهذه الأعضاء الثلاثه تكوى فى نار جهنم، بما حمى عليه من الذهب أو الفضة و ما كنزوه دون أن ينفقوه فى سبيل الله.

و من نافله القول أن نشير الى لطيفه بلاغيه، فى الآيه محل البحث و هى التعبير ب«يوم يحمى عليها» أى يحمى على الذهب و الفضة، و التعبير المطرد أن يقال: يوم

تحمى الفضه أو يحمى الذهب، لا أنه يحمى عليه، كما يقال مثلاً: يحمى الحديد فى النار.

و لعل هذا العبير يشير الى إحراق الذهب و الفضه الى درجه قصوى بحيث توضع النار عليها. إذ أن جعل الفضه و الذهب على النار لا يكفى لأن تكون محرقه «للغايه».

فالقرآن لا يقول: يوم تحمى فى نار جهنم، بل يقول: يحمى عليها، أى توضع النار عليها لتكون فى أسفل النار كيما تشتد حرارتها و هذا التعبير الحىّ يجسد شده عذاب أولى الثروه الذين يكتزونها فى يوم القيامه.

ص: ٤٣

إشاره

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَمَّا يُجَلُّونَهُ عَمَّا لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

التفسير

إشاره

وقف القتال «الإجباري»:

لما كانت هذه السوره تتناول أبحاثا مفصله حول قتال المشركين، فالآيتان - محل البحث - تشيران الى أحد مقدرات الحرب و الجهاد في الإسلام، و هو احترام الأشهر الحرم.

فتقول الأولى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ

والتعبير بـ«كتاب الله» يمكن أن يكون إشارة إلى القرآن المجيد أو سائر الكتب السماوية، إلا أنه بملاحظته جملة يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يبدو أن المعنى الأكثر مناسبة هو كتاب الخلق و عالم الوجود.

و على كل حال، فمنذ ذلك اليوم الذى استقرت عليه المجموعه الشمسيه بنظامها الخاص حدثت السنين و الأشهر، فالسنه عباره عن دوران الأرض حول الشمس دوره كامله و الشهر دوران القمر حول الأرض دوره كامله.

و هذا فى الحقيقه تقويم طبيعى قيم غير قابل للتغيير حيث يمنح حياه الناس جميعا نظاما طبيعيا، و ينظم على وجه الدقه حسابهم التاريخى، و تلك نعمه عظمى من نعم الله للبشر كما بينا تفصيل ذلك فى ذيل الآيه (١٨٩) من سوره البقره:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .

ثم تضيف الآيه -آنفه الذكر- معقبه: مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ .

يرى بعض المفسرين أن تحريم القتال فى هذه الأشهر الأربعة كان من عهد «إبراهيم الخليل عليه السلام»، و كان نافذ حتى فى زمان الجاهليه على أنه سنه متبعه إلا أن عرب الجاهليه كانوا يغيرون هذا الأشهر أحيانا تبعا لميولهم و أهوائهم، إلا أن الإسلام أقر حرمتها على حالها و لم يغيرها، و ثلاثه من الأشهر متواليه و تسمى بالأشهر السرد و هى: ذو القعدة، و ذو الحجه، و المحرم. و شهر منها منفصل عنها، و هو رجب و يسمى بالشهر الفرد.

و ينبغى التنويه على أن تحريم هذه الأشهر إنما يكون نافذ المفعول إذا لم يبدأ العدو بقتال المسلمين فيها، أما لو فعل فلا شك فى وجوب قتاله على المسلمين لأن احترام الشهر الحرام لم ينتقض من قبلهم، بل انتقض من قبل العدو «و قد بينا تفصيل ذلك ذيل الآيه (١٩٤) من سوره البقره».

ثم تضيف الآيه مؤكده: ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ .

و يستفاد من بعض الروايات أن تحريم القتال في هذه الأشهر الحرم، كان مشرعا في الديانة اليهودية و المسيحية و سائر الشرائع السماوية، إضافة الى شريعته إبراهيم الخليل عليه السلام. و لعل التعبير بذلك الدّين القِيم إشارة الى هذه اللطيفه، أى أنّ هذا التحريم كان في أوّل الأمر على شكل قانون ثابت:

ثم تقول الآية: **فَلَا تَظَلُّمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** .

إلاّ أنّه لمّا كان تحريم هذه الأشهر قد يتخذ ذريعه من قبل العدو لمهاجمه المسلمين فيها، فقد عقب الآية بالقول: **وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَإِفَاءَةٍ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَإِفَاءَةٍ** فبالرغم من أنّ هؤلاء مشركين و الشرك أساس التشتت و التفرقه، إلاّ أنّهم يقاتلونكم فى صف واحد، «كافه» فينبغى عليكم أن تقاتلوهم كافه، فذلك منكم أجدر لأنكم موحدون فلا بدّ من توحيد كلمتكم أمام عدوكم و لتكونوا كالبنيان المرصوص.

و تختتم الآية بالقول: **وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** .

و فى الآية الثانيه-من الآيتين محل البحث-إشاره الى إحدى السنن الخاطئه فى الجاهليه، و هى سنه النسيء «تغيير الأشهر الحرم» إذ تقول الآية: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا** ففى أحد الأعوام يقررون حليه الشهر الحرام و يحرمون أحد الأشهر الحلال للمحافظة على العدد أربعة **يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** ! فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفه تحريم الأشهر، و يتلاعبون بحكم الله بحسب ما تمليه عليهم أهواؤهم، و العجيب أنّهم يرضون عن عملهم، و فعلهم هذا كما تقول الآية: **زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ** .

فهم يغيرون الأشهر الحرم و يبدلونها، و يعدّون ذلك تدييرا لحياتهم و معاشهم، أو يتصوّرون أنّ طول فتره إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلا بدّ من إثارة الحرب....

فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِي عِبَادِهِ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْهُدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ، خَلَاهُ وَنَفْسَهُ:

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

بحوث

إشارة

١- فلسفه الأشهر الحرم!

كان تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة أحد الطرق لإيقاف الحروب الطويلة الأمد ووسيله للدعوة نحو الصلح و الدعه، لأنّ المحاربين إذا وضعوا أسلحتهم في هذه الأشهر الأربعة، وأخمدت نيران الحرب و وجدت الفرصه للتفكير، فمن غير المستبعد أن تنتهي الحرب و يحل السّلام محلّه، لأنّ الشروع المجدد بعد إيقاف القتال و انطفاء نار الحرب في غايه الصعوبه، و لا ننسى أن المقاتلين في حرب فيتنام خلال العشرين سنه من الحرب كانوا يواجهون صعوبه كبيره لإيقاف القتال خلال أربع و عشرين ساعه لبدايه العام الميلادي الجديد، إلا أنّ الإسلام جعل لأتباعه قرارا بإيقاف القتال خلال أربعة أشهر، و هذا الأمر بنفسه يدل على روح السلام في الإسلام و المطالبه بالصلح.

إلا أنّ العدو إذا أراد أن يستغلّ هذا القانون الإسلامي، و أن ينتهك حرمه هذه الأشهر فعلى المسلمين أن يواجهوه بالمثل.

٢- مفهوم النسئء و فلسفته في الجاهليّه

«النسئء» على وزن «الكثير» من ماده «نساء» و معناها التأخير و يمكن أن تكون هذه الكلمه اسم مصدر أو مصدرا، و تطلق على ما يؤجل من إعطاء المال أو قبضه.

و كان عرب الجاهليه يؤخرون بعض الأشهر الحرم، فمثلا كانوا ينتخبون شهر

«صفر» بدل شهر محرم في عام فيحرمونه، كما حدث لأحد زعماء قبيله بنى كنانه، إذ خطب في اجتماع كبير نسبيًا في موسم الحج بمنى وقال: إننى أخرت المحرم هذا العام وانتخب شهر صفر مكانه.

وقد روى عن ابن عباس: إنَّ أوَّل من سنَّ هذه السنَّة هو عمرو بن لحي، وقال بعضهم: بل هو قلمس «من بنى كنانه».

وفلسفه هذا العمل «التأخير والنسيء» في عقيدتهم أن توالى ثلاثه أشهر حرم تباعا كذى القعدة و ذى الحجه و المحرم يسبب إضعاف معنويات المحاربين، لأنَّ عرب الجاهليه كانوا يتوقون الى الإغاره و سفك الدماء و الحرب، و أساسا فإنَّ الحرب و الإغاره و ما شاكلهما كان يمثل جزءا من حياتهم، و كان من الصعب عليهم أن يتحملوا ثلاثه أشهر حرم (يتوقف فيها القتال) لذا فقد كانوا يسعون لفصل شهر المحرم عن هذه الأشهر (أو يؤخروه)! كما يرد هذا الاحتمال أيضا، و هو أنَّ ذا الحجه قد يقع في الصيف أحيانا، ممَّا يسبب عليهم، حرجا في موضوع الحج، و نعرف أن الحج لم يكن مسأله عباديه عند العرب فحسب، بل كان موسما كبيرا منذ زمن إبراهيم الخليل عليه السلام يجتمع فيه خلق كبير، و تقام فيه الأسواق التجاريه و الاقتصاديه و المحافل الشعريه و الخطاييه، و يفيدون منها فوائد عامه، لذلك كانوا يبدلون شهر ذى الحجه حسب ميولهم و يجعلون مكانه شهرا آخر طيب الأجواء لطيف الهواء.

و ربّما كانت كلا الغائتين صحيحتين.

و على كل حال، كان هذا العمل باعثا على إشعال نار الحرب أكثر فأكثر، و أن تسحق الغايه من الأشهر الحرم، و أن يتلاعب بمواسم الحج حسب الأهواء ابتغاء المنافع الماديه.

وقد عدَّ القرآن هذا العمل زياده في الكفر، لأنهم إضافه إلى شركهم و كفرهم الاعتقادي فإنهم بسحقهم هذا الدستور كانوا يرتكبون كفرا عمليا، و لا سيما أنهم

كانوا يرتكبون مخالفتين في آن واحد إذ كانوا يحرمون ما أحل الله و يحلّون ما حرّم الله.

٣- وحده الكلمه مقابل العدو

إنّ القرآن يعلمنا في الآيتين آنفتى الذكر أن نقف صفا واحدا بوجه العدو عند الحرب،و يستفاد من هذا النص القرآنى أنّه ينبغي التنسيق حتى في المواجهات السياسيه و الثقافيه،و الاقتصاديه و العسكريه فنحن نكتسب القوه في ظل هذه الوحده التى تنتهل من روح الإسلام و هذا الأمر قد جعل في طى النسيان و كان مدعاه الى انحطاط المسلمين و تأخرهم.

٤- كيف يزّين للناس سوء أعمالهم!؟

إنّ فطره الإنسان إذا كانت نقيّه تميز الصالح من الطالح بصوره جيده،إلاّ أنّه حين يذنب الإنسان و يخطو في طريق الآثام فإنّه يفقد هذا الإحساس «بتميز الصالح من الطالح»تدريجا.

و متى ما واصل الإقدام على السيئات،تبدو له سيئاته و كأنّها أمر حسن و تترين له،و هذ ما أشارت إليه آيات القرآن-في هذا المورد-و في موارد أخرى.

و قد ينسب تزيين الأعمال السيئه للشيطان،كما في الآيه(٦٣)من سوره النحل فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ و قد يسند الفعل الى ما لم يسمّ فاعله و يبنى للمجهول كما في الآى محل بحثنا،و قد يكون الفاعل وسوسه الشيطان أو النفس الأماره بالسوء.و قد ينسب الى الشركاء أى الأصنام،كما في الآيه(١٣٧)من سوره الأنعام،و قد ينسب تزيين الأعمال السيئه الى الله،كما في الآيه(٤)من سوره النمل إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .

و قد قلنا مرارا:إنّ نسبه مثل هذه الأمور الى الله مع أنّها تخصّ عمل الإنسان

نفسه لأن خواص الأشياء بيد الله، فهو مسبب الأسباب. وقلنا بأن مثل هذه النسبه لا تنافى مسأله الإختيار و حريه إراداه الإنسان.

ص : ٥٠

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِثْقَالْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)

سبب النزول

جاء عن ابن عباس و آخرين أن الآيتين-محل البحث-نزلتا في معركة تبوك حين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عائداً من الطائف الى المدينة، وهو يهيب الناس و يعبئهم لمواجهة الروم.

وقد ورد في الروايات الإسلاميه أن النبي لم يكن يبين أهدافه و إقدامه على المعارك للمسلمين قبل المعركة لئلا تقع الأسرار العسكريه بيد أعداء الإسلام، أنه في معركة تبوك، لما كانت المسأله لها شكل آخر، فقد بين كل شيء للمسلمين بصراحه، و أنهم سيواجهون الروم، لأنّ مواجهه امبراطوريه الروم لم تكن مواجهه بسيطه كمواجهه مشركى مكّه أو يهود خيبر، و ينبغى على المسلمين أن يكونوا في

منتهى الاستعداد و بناء الشخصية أضف الى كل ذلك أنّ المسافه بين المدينه و أرض الروم كانت بعيده غايه البعد، و كان الوقت صيفا قائظا، و هو أوان اقتطاف الثمار و حصد الحبوب و الغلات.

هذه الأمور اجتمعت بعضها الى بعض فصعب على المسلمين الخروج للقتال.

حتى أنّ بعضهم تردد في استجابته لدعوه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم.

فالآيتان-محل البحث-نزلتا في هذا الظرف، و أنذرتا المسلمين بلهجه صارمه لمواجهة هذه المعركه الحاسمه. (١)

التفسير

إشاره

التحرّك نحو سوح الجهاد مرّه أخرى

كما أشرنا آنفا في شأن نزول الآتين، فإنّهما نزلتا في غزوه «تبوك».

و تبوك منطقه بين المدينه و الشام، و تعدّ الآن من حدود الحجاز، و كانت آتئذ على مقربه من أرض الروم الشرقيه المتسلطه على الشامات. (٢)

و قد حدثت هذه الواقعة في السنه التاسعه للهجره، أي بعد سنه من فتح مكّه تقريبا.

و بما أن المواجهه في هذا الميدان كانت مواجهه لإحدى الدول الكبرى في ذلك العصر، لا مواجهه لإحدى القبائل العربيه، فقد كان جماعه من المسلمين قلقين مشفقين من المساهمه و الحضور في هذه المواجهه، و لذلك فقد كانت الأرضيه مهيأه لوساوس المنافقين و بذر السموم، فلم يألوا جهدا في إضعاف

ص: ٥٢

١-١) ذكر شأن النزول هذا جماعه من المفسّرين كالطبرسي في مجمع البيان، و الفخر الرازي في تفسيره الكبير، و الألوّسى في روح المعاني.

٢-٢) -الفاصله بين تبوك و المدينه ٦١٠ كم و الفاصله بينها و بين الشام ٦٩٢ كم.

المعنويات و إحياء المؤمنين أبدا. فقد كان الموسم موسم اقتطاف الثمار و جمع المحاصيل الزراعيه، و كان هذا الموسم للمزارعين يعدّ فصلا مصيريا، إذ فيه رفاه سنتهم هذا من جهه.

و من جهه أخرى، فإنّ بعد المسافه و حراره الجوّ- كما أشرنا آنفا- كلّ ذلك كان من العوامل المثبطه للمسلمين في حركتهم نحو مواجهه الأعداء.

فنزول الوحي ليشدّ من أزر الناس، و الآيات تترى الواحده بعد الأخرى لإزاله الموانع و الأسباب المثبطه.

ففى الآيه الأولى- من الآيتين محل البحث- يدعو القرآن المسلمين الى الجهاد بلسان الترغيب تاره و بالعتاب تاره أخرى و بالتهديد ثالثه فهو يدعوهم و يهيؤهم الى الجهاد، و يدخل إليهم من كل باب.

إذ تقول الآيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ .

«اتَّقَلْتُمْ» فعل مشتق من الثقل، و معناه واضح إذ هو خلاف «الخفيف» و جملة «اتَّقَلْتُمْ» كناية عن الرغبه في البقاء في الوطن و عدم التحرك نحو سوح الجهاد، أو الرغبه في عالم ماده و اللصوق بزخارفها و الانشداد نحو الدنيا، و على كل حال فالآيه تخاطب من كان كذلك من المسلمين-ضعاف الإيمان- لا جميعهم، و لا المسلمين الصادقين و عاشقى الجهاد في سبيل الله.

ثمّ تقول الآيه مخاطبه إياهم بلهجه الملامه: أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومه الخسران، و كيف يعوّض متاعاً غالياً لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً؟! ثمّ تتجاوز الآيه مرحله الملامه و العتاب الى لهجه أشدّ و أسلوب تهديديّ جديد، فتقول: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً .

فإذا كنتم تتصورون أنكم إذا توليتم و أعرضتم عن الذهاب الى سوح الجهاد، فإنَّ عجله الإسلام ستتوقف و ينطفئ نور الإسلام،فأنتم فى غايه الخطأ و الله غنى عنكم وَ يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ قَوْمًا أَفْضَلَ مِنْكُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، لا من حيث الشخصيه فحسب،بل من حيث الإيمان و الإراده و الشهامه و الاستجابه و الطاعه وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا .

و هذه حقيقه و ليست ضربا من الخيال أو أمنيه بعيده المدى،فالله عزيز حكيم وَ اللَّهُ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ملاحظات

١- فى الآيتين آنفتى الذكر تأكيد على الجهاد من سبعة وجوه:

الأول: أنها تخاطب المؤمنين يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .

الثانى: أنها تأمر بالتحرك نحو ميدان الجهاد انْفِرُوا .

الثالث: أنها عبرت عن الجهاد ب فى سَبِيلِ اللَّهِ .

الرابع: الاستفهام الإنكارى فى تبديل الدنيا بالآخرة أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ الخامس: التهديد بالعذاب الأليم.

السادس: الاستبدال بالمخاطبين قَوْمًا غَيْرِهِمْ .

السابع: أن الله على كل شىء قدير و لا يضره شىئا و إنما يعود الضرر على المتخلفين.

٢- يستفاد من الآيتين-آنفتى الذكر- أن تعلق قلوب المجاهدين بالحياه الدنيا يضعف همتهم فى أمر الجهاد،فالمجاهدون ينبغى أن يكونوا معرضين عن الدنيا،زهادا غير مكترئين بزخارفها و زبارجها.

دعاء للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام لأهل الثغور و حماه الحدود، إذ تقول: «و أنسهم عند لقائهم العدو ذكر دنياهم الخدّاعه و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون».

و لو عرفنا قيمه الدنيا و حالها شأن الآخره و دوامها معرفه حقّه، لوجدنا أنّ الدنيا زهیده بالمقارنه و الموازنه مع الآخره الى درجه أنّها لا تحسب شيئاً و نقرأ

حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم في هذا الصدد يقول فيه: «و الله ما الدنيا في الآخره إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ثم يرفعا فينظر بم ترجع!» ٣- هناك كلام بين المفسّرين في المراد من قوله تعالى: يَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ الوارد في الآي محل البحث فمن هم هؤلاء؟! قال بعضهم: هم الفرس و قال آخرون: بل هم أهل اليمن. و لكلّ منهم أثره في تقدم الإسلام. و قال آخرون: إنّ المراد بالنص السابق هم أولئك القوم الذين ضحوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله و تقبلوا الإسلام، بعد أن نزلت الآيتان آنفتا الذكر.

اشاره

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

التفسير

اشاره

المدد الإلهي للرسول في أشد اللحظات:

كان الكلام في الآيات المتقدمه عن موضوع الجهاد و مواجهه العدو، و كما أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكدا بعدّه طرق، من ضمنها أنّه لا ينبغي أن تتصوروا أنّكم إذا تقاعستم من الجهاد و نصره النبي صلى الله عليه و آله و سلم فستذهب دعوته و الإسلام أدراج الرياح.

فآيه محل البحث تعقب على ما سبق لتقول: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ . (١)

ص: ٥٦

(١- ١) في هذه الجملة حذف من الناحية الأديبيه، و كانت الجملة في الأصل: إن لا تنصروه ينصره الله. لأنّ الفعل الماضي

و كان ذلك عند ما تأمر مشركو مكّه على اغتيال النّبي صلى الله عليه وآله و سلم و قتله، و قد مرّ بيان ذلك في ذيل الآية (٣٠) من سورة الأنفال بالتفصيل، حيث قرّروا بعد مداورات كثيره أن يختاروا من كل قبيله من قبائل العرب رجلا مسلّحا و يحاصروا دار النّبي صلى الله عليه وآله و سلم ليلا، و أن يهجموا عليه الغداه و يحملوا عليه حملة رجل واحد فيقطعوه بسيوفهم.

و لكن النّبي صلى الله عليه وآله و سلم أطلع - بأمر الله - على هذه المكيدة، فتهيأ للخروج من (مكّه) و الهجره إلى (المدينه) إلا أنّه توجه نحو (غار ثور) الذي يقع جنوب مكّه و في الجبهه المخالفه لجاده المدينه و اختبأ فيه، و كان معه (أبو بكر) في هجرته هذه.

و قد سعى الأعداء سعيا حثيثا للعثور على النّبي، إلا أنّهم عادوا آيسين، و بعد ثلاثه أيام من اختباء النّبي صلى الله عليه وآله و سلم و صاحبه في الغار و اطمئنانه من رجوع العدوّ توجه ليلا نحو المدينه (في غير الطريق المطرّق) و بعد بضعه أيام وصل صلى الله عليه وآله و سلم المدينه سالما، و بدأت مرحله جديده من تأريخ الإسلام هناك.

فالآيه آنفه الذكر تشير إلى أشدّ اللحظات حرجا في هذا السفر التاريخي، فتقول: إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا و بالطبع فإنّهم لم يريدوا إخراجه بل أرادوا قتله، لكن لما كانت نتيجة المؤامره خروج النّبي من مكّه فرارا منهم، فقد نسبت الآية إخراجه إليهم.

ثمّ تقول: كان ذلك في حال هو ثاني اثْنَيْنِ .

و هذا التعبير إشاره إلى أنّه لم يكن معه في هذا السفر الشاق إلا - رجل واحد، و هو أبو بكر إذ هُما في الغار أي غار ثور، فاضطرب أبو بكر و حزن فأخذ النّبي صلى الله عليه وآله و سلم يسرى عنه، و كما تقول الآية: إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا .

(١)

الذي يدل (مفهومه) على وقوعه في الماضي أيضا، لا يمكن أن يقع جزاء للشرط إلا أن يكون الفعل الماضي بمعنى المضارع!

و لعل هذه الجنود الغيبية هي الملائكة التي حفظت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفره الشاق المخيف، أو الملائكة التي نصرته في معركة بدر و حنين و أضرابهما.

وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ

و هي إشاره إلى أنّ مؤامراتهم قد باءت بالخيبه و الفشل و حبطت أعمالهم و آراؤهم، و شِعْر نور الله في كل مكان، و كان الانتصار في كل موطن حليف محمد صلى الله عليه وآله وسلم، و لم لا يكون الأمر كذلك و الله عزيزٌ حكيمٌ؟ فبغزته و قدرته نصر نبيه، و بحكمته أرشده سبل الخير و التوفيق و النجاح.

قصه صاحب النبي في الغار:

هناك كلام طويل بين مفسري الشيعة و أهل السنه في شأن صحبه أبي بكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفره و هجرته، و ما جاءت من إشارات مغلقة في شأنه في الآية أنفا. فمنهم من أفرط، و منهم من فرط.

فالفخر الرازي في تفسيره سعى بتعصبه الخاص أن يستنبط من هذه الآية اثنتي عشره فضيله! أبي بكر، و من أجل تكثير عدد فضائله أخذ يفصل و يسهب بشكل يطول البحث فيه ممّا يتلف علينا الوقت الكثير.

و على العكس من الفخر الرازي هناك من يصرّ على استنباط صفات ذميمة لأبي بكر من سياق الآية.

و ينبغي أن نعرف -أولاً- هل تدل كلمه «الصاحب» على الفضيله؟ و الظاهر أنها ليست كذلك، لأنّ الصاحب في اللغة تدلّ على الجليس أو الملازم للمسافر بشكل مطلق، سواء كان صالحاً أم طالحاً، كما نقرأ في الآية (٣٧) من سورة الكهف عن محاوره رجلين فيما بينهما، أحدهما مؤمن و الآخر كافر قال له صاحبه... أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ؟! كما يصرّ بعضهم على أنّ مرجع الضمير من «عليه» في قوله تعالى فَأَنْزَلَ اللَّهُ

يعود على أبي بكر، لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن بحاجة إلى السكينة، فنزول السكينة إذن كان على صاحبه، أى
أبي بكر.

إلاّ أنه مع الالتفات إلى الجملة التي تليها وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَمَع ملاحظته اتحاد المرجع في الضمائر، يتضح أن الضمير
في «عليه» يعود على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً، ومن الخطأ أن نتصور بأنّ السكينة إنّما هي خاصّة في مواطن الحزن و
الأسى، بل ورد في القرآن -كثيراً- التعبير بنزول السكينة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك حين يواجه الشدائد و
الصعاب، و من ذلك ما جاء في الآية (٢٦) من هذه السورة أيضاً في شأن معركة حنين ثمّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ .

كما نقرأ في الآية (٢٦) من سورة الفتح أيضاً فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ مع أنه لم يرد في الجمل و التعابير
المتقدمة على هاتين الجملتين أى شيء من الحزن و ما إلى ذلك، و إنّما ورد التعبير عن مواجهه الصعاب و التواء الحوادث...

و على كل حال، فإنّ القرآن يدلّ أن نزول السكينة إنّما يكون عند الشدائد، و ممّا لا ريب فيه أنّ النبي صلى الله عليه وآله و
سلم كان يواجه اللحظات الصعبة و هو في (غار ثور)! و الأعب من كل ما تقدم أن بعضا قال: بأنّ التعبير وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
يعود على أبي بكر. مع أنّ جميع المحاور في هذه الآية تدور حول نصره الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، و القرآن يريد أن
يكشف أنّ النبي ليس وحده، و إذا لم ينصره أحد من أصحابه و جماعته، فإنّ الله سينصره. فكيف يمكن لأحد أن يترك الشخص
الذى تدور حوله بحوث الآيه، و يتّجه نحو شخص ثانوى و تبعى في منظور الآيه؟! و هذا يدلّ على أن التعصب بلغ حدّاً
بأصحابه، بحيث منعهم حتى من الالتفات إلى معنى الآية.

إشارة

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42)

التفسير

إشارة

الكسالى الطامعون:

قلنا: إن معركة تبوك كانت لها حالة استثنائية، وكانت مقترنه بمقدمات معقدة و غامضة تماما، و من هنا فإن عددا من ضعاف الإيمان أو المنافقين أخذ «يتعلل» فى الاعتذار عن المساهمة فى هذه المعركة. و قد وردت فى الآيات المتقدمة ملامه للمؤمنين من قبل الله سبحانه لتباطؤهم فى نصره نبىهم عند صدور الأمر بالجهاد، و عدم الإسراع إلى ساحه الحرب و أكثرت بأن الأمر بالجهاد لصالحكم، و إلا فإن بإمكان الله أن يهيب جنودا مؤمنين شجعانا مكان الكسالى الذين لاحظ لهم فى الثبات و الإراده، بل حتى مع عدمهم فهو قادر على أن يحفظ نبيه، كما حفظه «ليلة المبيت»، و فى «غار ثور».

و العجيب أنّ عددا من «خيوط العنكبوت» المنسوجه على مدخل الغار كانت سببا لانحراف فكر الأعداء الألداء، و أن يعودوا قافلين آيسين بعد وصولهم إلى هذا الغار، و أن يسلم النبي صلى الله عليه و آله و سلم من كيدهم.

فحيث أنّ بإمكان الله أن يغيّر مسير التاريخ، ببضعه خيوط من نسيج العنكبوت، فأيه حاجه بهذا أو ذاك ليدي كلّ معاذيره!! و في الحقيقه فإنّ جميع هذه الأوامر هي لتكامل المسلمين أنفسهم، لا لرفع الحاجه لدى الله سبحانه... و تعقيا على هذا الكلام يدعو المؤمن جميعا مرّه أخرى -دعوه عامّه- نحو الجهاد و يعنف المتسامحين فيقول سبحانه: **انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا**.

«الخفاف» جمع الخفيف، «الثقال» جمع الثقيل، و لهاتين الكلمتين مفهوم شامل يستوعب جميع حالات الإنسان. أي انفروا في أيه حاله كنتم شبابا أم شيوخا، متزوجين أم غير متزوجين، تعولون أحدا أم لا- تعولون، أغنياء أم فقراء، مبتلين بشيء أم غير مبتلين، أصحاب تجاره أو زراعه أم لستم من أولئك! فكيف ما كنتم فعليكم أن تستجيبوا لدعوه الداعي إلى الجهاد، و أن تنصرفوا عن أي عمل شغلتم به، و تنهضوا مسرعين إلى ساحات القتال، و في أيديكم السلاح.

و ما قاله بعض المفسرين من أنّ هاتين الكلمتين تعنيان مثلا واحدا ممّا ذكرنا آنفا، لا دليل عليه أبدا، بل إنّ كل واحد ممّا ذكرناه مصداق جلي لمفهومها الواسع.

ثمّ تضيف الآية قائلة: **وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ** أي جهادا مطلقا عاما من جميع الجهات، لأنهم كانوا يواجهون عدوا قويا مستكبرا، و لا يتحقق النصر إلاّ بأن يجاهدوا بكل ما وسعهم من المال و الأنفس.

و لثلا يتوهم أحد أنّ هذه التضحيه يريدّها الله لنفسه و لا تنفع أصحابها، فإنّ الآية تضيف قائلة: **ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ** إنّ كنتم تعلمون .

أى إن كنتم تعلمون بأن الجهاد مفتاح عزتكم و رفعتكم و منعتكم.

و لو كنتم تعلمون بأن أیه أمه فى العالم لن تصل بدون الجهاد إلى الحریه الواقعیه و العداله.

و لو كنتم تعلمون بأن سبیل الوصول إلى مرضاه الله و السعاده الأبديه و أنواع النعم و المواهب الإلهیه، كل ذلك إنما هو فى هذه النهضه المقدسه العامه و التضحیه المطلقه.

ثم یناول القرآن ضعاف الإیمان الكسالى الذین یتشبثون بالحجج الواهیة للفرار من ساحه القتال، فیخاطب النبى مبینا واقعهم فیقول: لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ (١) وَ لَكِنْ بَعُدَتْ عَلَیْهِمُ الشُّقَّةُ (٢) و العجیب أنهم لا- یكتفون بالأعدار الواهیة، بل وَ سَیَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ . فعدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنما هو لضعفنا و عدم اقتدارنا و ابتلائنا!! يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

فهم قادرون على الذهاب إلى ساحات القتال، لكن حیث أن السفر ذو مشقه، و یواجهون صعوبه و حرجا، فإنهم یتشبثون بالكذب و الباطل.

و لم یكن هذا الأمر منحصرًا بغزوه تبوك و عصر النبى صلى الله علیه و آله و سلم فحسب، ففى كل مجتمع فئه من الكسالى و المنافقین و الطامعین و الانتهازیین الذین ینتظرون لحظات الإنتصار لیتحموا أنفسهم فى الصفوف الأولى، و یصرخوا بعالی الصوت أنهم المجاهدون الأوائل و المخلصون البواسل، لینالوا ثمرات جهود الآخرین فى انتصارهم دون أن یبذلوا أى جهد! غیر أن هؤلاء «المجاهدین» المخلصین!! كما یزعمون، حین یواجهون

ص: ٦٢

١- ١) العرض ما یعرض و یزول عاجلا- و لا- دوام له، و یطلق عاده على مواهب الدنیا المادیه، و القاصد معناه السهل. لأنه فى الأصل من قصد، و الناس یسعون فى قصدهم إلى المسائل السهله.

٢- ٢) الشقه تعنى الأرض الصخریه أو الطریق الطویل البعید الذى یجلب على عابره المشقه و النصب.

الشدائد و الأزمات يلوذون بالفرار و يتشبثون بالأعدار الباطله و الحجج الواهيه.

كأن يقول أحدهم: إئى مريض، و يقول الآخر: إنى مبتلى بطفلى، و يقول الثالث:

زوجى مقرب و على و شك الولاده، و يقول الرابع: يا ليتنى كنت معكم لو لا ضعف فى عينى لا أبصر بهما، و يقول الخامس: أنا أدارك مقدمات الأمر و أنا على أتركهم، و هكذا...

إلا- أن على القاده و الصفوه من الناس أن يعرفوا هذه الفئه من بدايه الأمر، و إذا لم يكونوا أهلا للإصلاح فينبغى إخراجهم و طردهم من صفوف المجاهدين.

ص: ٦٣

اشاره

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَافِرِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)

التفسير

اشاره

التعرّف على المنافقين!

يستفاد من الآيات-محل البحث- أنّ جماعه من المنافقين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و بعد أن تذرعوا بحجج واهيه مختلفه-حتى أنّهم أقسموا على صدق مدعاهم-استأذنوا النبي أن ينصرفوا عن المساهمه في معركة تبوك، فأذن لهم النبي بالانصراف.

فالله سبحانه يعتب على النبي في الآيه الأولى من الآيات محل البحث فيقول:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَافِرِينَ

و هناك كلام طويل بين المفسرين في المراد من عتاب الله نبيه المشفوع بالعفو عنه، أهو دليل على أن إذن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان مخالفه، أم هو من باب ترك الأولى، أم

لا- هذا ولا ذاك؟! وقد جنح البعض إلى الإفراط إلى درجة أنهم أسأؤوا إلى مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وساحته المقدسه، وزعموا أن الآيات المذكوره أنفا دليل على إمكان صدور العصيان والذنب من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يراعوا-على الأقل-الأدب الذى رعاه الله العظيم فى تعبيره عن نبيه الكريم، إذ بدأ بالعفو ثم ثنى بالعتاب والمؤاخذه، فوقعوا فى ضلال عجيب.

والإنصاف أنه لا دليل فى الآيه على صدور أى ذنب أو معصيه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحتى ظاهر الآيه لا يدل على ذلك، لأنّ جميع القرائن تثبت أن النبي سواء أذن لهم أم لم يأذن، فإنهم لم يكونوا ليساهموا فى معركة تبوك، وعلى فرض مساهمتهم فيها لم يحلوا مشكله من أمر المسلمين، بل يزيدون الطين بله، كما سنقرأ فى الآيات التالیه قوله تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا .

فبناء على ذلك فإن المسلمين لم يفقدوا أيه مصلحه بإذن النبي لأولئك بالانصراف، غايه الأمر أنه لو لم يأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهم فسرعان ما ينكشف أمرهم ويعرفهم المسلمون، غير أنّ هذا الموضوع لم يكن من الأهميه بحيث أنّ ذهابهم وفقدانهم موجبا لارتكاب ذنب أو عصيان.

وربما يمكن أن يسمى ذلك تركا للأولى فحسب، بمعنى أنّ إذن النبي لهم فى تلك الظروف، وبما أظهره أولئك المنافقون من الأعدار بأيمانهم، وإن لم يكن أمرا سيئا، إلا أن ترك الإذن كان أفضل منه، لتعرف هذه الجماعه بسرعه.

كما يحتمل فى تفسير الآيه هو أنّ العتاب أو الخطاب المذكور أنفا إنّما هو على سبيل الكنايه، ولم يكن فى الأمر حتى «ترك الأولى» بل المراد بيان روح النفاق فى المنافقين ببيان لطيف و كنايه فى المقام.

ويمكن أن يتّضح هذا الموضوع بذكر مثال فلنفرض أن ظالما يريد أن يلطم وجه ابنك، إلا أن أحد أصدقائك يحول بينه وبين مراده فيمسك يده فقد تكون

راضيا عن سلوكه هذا، بل و تشعر بالسرور الباطنى، إلا أنك و لإثبات القبح الباطنى للطرف المقابل تقول لصديقك: لم لا تركته يضربه على وجهه و يطمه؟ و هدفك من هذا البيان إنما هو إثبات قساوه قلب هذا الظالم و نفاقه، الذى ورد فى ثوب عتاب الصديق و ملامته من قبلك؟ و هناك شبهه أخرى فى تفسير الآيه، و هى أنه: ألم يكن النبى صلى الله عليه و آله و سلم يعرف المنافقين حتى يقول له الله سبحانه: لِمَ أَذْنُتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِينَ لِمَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ؟ و الجواب على هذا السؤال، هو:

أولاً: أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن يعرف المنافقين و يعلم حالهم عن طريق العلم الظاهرى، و لا يكفى علم الغيب للحكم فى الموضوعات، بل ينبغى أن ينكشف أمرهم عن طريق الأدله المألوفه و (المعتاده).

ثانياً: لم يكن الهدف الوحيد أن يعلم النبى حالهم فحسب، بل لعل الهدف كان أن يعلم المسلمون جميعاً حالهم، و إن كان الخطاب موجهاً للنبى صلى الله عليه و آله و سلم.

ثم يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين و المنافقين، فيقول: **لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ .**

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد و يدعوهم الإيمان بالله و اليوم الآخر و مسئولياتهم و إيمانهم بمحكمه القيامة، كل ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق و يوصد بوجوههم الأعذار و الحجج الواهيه و الله عليهم بالمتقين .

ثم يضيف القرآن: **إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ .**

و يعقب مؤكداً عدم إيمانهم بالقول: **وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .**

و بالرغم من أن الصفات الواردة فى الآيات آنفا جاءت بصيغه الفعل المضارع،

إلا أن المراد منها بيان صفات المؤمنين و صفات المنافقين و أحوالهم، ولا فرق بين الماضى و الحال و الاستقبال فى ذلك.

و على كل حال فإن المؤمنين-بسبب إيمانهم-لديهم إرادة ثابتة و تصميم أكيد لا يقبل التهاون و الرجوع حيث يرون طريقهم بجلاء و وضوح، فمقصدهم معلوم و هدفهم واضح، و لذلك فهم يمضون بخطى واثقة نحو الأمام و لا يترددون أبدا.

أمّا المنافقون فلأن هدفهم مظلم و غير معلوم، فهم مترددون حائرون ذاهلون، و يبحثون دائما عن الأعذار و الحجج الواهية للتخلص و الفرار من تحمل المسئولية الملقاه على عواتقهم.

و هاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين و المنافقين فى صدر الإسلام و معركة تبوك فحسب، بل يمكن فى عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدّعين الكاذبين بهاتين الصفتين.

فالمؤمن شجاع ذو إرادة و تصميم و خطى واثقة، و المنافق جبان و خائف و متردد و حائر و يبحث عن المعاذير دائما.

ص: ٦٧

اشاره

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِیْكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

التفسير

اشاره

عدم وجودهم أفضل:

في الآيه الأولى-من الآيات أعلاه-بيان لعلامه أخرى من علائم كذبهم، وهي في الحقيقة تكمل البحث الوارد في الآيات المتقدمة آنفا، إذ جاء فيها وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فالآيه محل البحث تقول: وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً .

و لم ينتظروا الإذن لهم، وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ (١) وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

ص: ٤٨

و هناك كلام بين المفسرين في المراد ب«قيل اعدوا» فمن هو القائل؟! أهو الله سبحانه، أم النبي، أم باطنهم؟! الظاهر أنه أمر تكويني نهض من باطنهم المظلم، وإنه مقتضى عقيدتهم الفاسده و أعمالهم القبيحه، و كثيرا ما يرى أن مقتضى الحال يظهره في هيئة الأمر أو النهي. و يستفاد من الآيه محل البحث أن لكل عمل و نية اقتضاء يتلى به الإنسان شاء أم أبى، و ليس لكل أحد قابليه السير في سبيل الله و تحمّل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قبل الله يوليه من يجد فيه طهاره النية و الاستعداد و الإخلاص.

و في الآيه التاليه إشاره إلى هذه الحقيقه، و هي أن عدم مساهمه مثل هؤلاء الأفراد في ساحه الجهاد ليس مدعا للتأثر و الأسف فحسب، بل لعله مدعا للسرور، لأنهم لا ينفعونكم فحسب، بل سيكونون بنفاقهم و معنوياتهم المتزلزله و انحرافهم الأخلاقي مصدرا لمشاكل أخرى جديده.

و الآيه في الحقيقه تعطى درسا للمسلمين أن لا يكثرثوا بكثره المقاتلين أو قتلهم و كميتهم و عددهم، بل عليهم أن يفكروا في اختيار المخلصين المؤمنين و إن كانوا قلة، فهذا درس لمسلمي الماضي و الحاضر و المستقبل.

و تقول الآيه: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ أَي إِلَى تَبُوكَ لِلْقِتَالِ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا .

«الخبال» بمعنى الاضطراب و التردد.

و الخبل على زنه «الأجل» معناه الجنون.

و الخبل على زنه «الطبل» معناه فساد الأعضاء.

فبناء على ذلك فإن حضورهم بتلك الروحيه الفاسده المقرونه بالتردد و النفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك و التردد و تشييط العزائم بين جنود الإسلام.

و تضيف الآيه قائله: وَ لَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ (١)

ص: ٦٩

١ - ١) - أوضعوا من ماده الإيضاع و معناه، الإسراع في الحركة، و معناه هنا الإسراع في النفوذ بين صفوف المقاتلين، و الفتنة هنا بمعنى التفرقه و اختلاف الكلمه.

ثم تنذر المسلمين من المتأثرين بهم في صفوف المسلمين وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ .

«السَّمَاعُ» تطلق على من يسمع كثيرا دون تروُّ أو تدقيق، فيصدق كل كلام يسمعه.

فبناء على ذلك فإنَّ وظيفه المسلمين الراسخين في الإيمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لئلا يقعوا فريسه المنافقين الذئاب. كما يرد هذا الاحتمال، وهو أنَّ المراد من السَّمَاع في الآية هو الجاسوس الذي يتجسس بين المسلمين و يجمع الأخبار للمنافقين.

و تختتم الآية بالقول: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

و في آخر آيه من الآيات محل البحث إنذار للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنَّ هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأول مره إلى التخريب و التفرقه و بذر السموم، بل ينبغي أن تتذكر- يا رسول الله- أنَّ هؤلاء ارتكبوا من قبل مثل هذه الأمور و هم يتربصون الفرص الآن لينالوا مناهم لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ .

و هذه الآية تشير إلى ما جرى في معركة أحد حيث رجع عبد الله بن أبي و أصحابه و انسحبوا و هم في منتصف الطريق، أو أنها تشير إلى مؤامرات المنافقين عامه التي كانوا يكيّدونها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو للمسلمين، و لم يغفل التاريخ أن يسجلها على صفحاته! وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ وَ خَطَّطُوا لِلإِقْبَاعِ بالمسلمين، أو لمنعهم من الجهاد بين يديك، إلا- أن كل تلك المؤامرات لم تفلح، و إنما رقموا على الماء و رشقوا سهامهم على الحجر حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كَارِهُونَ .

غير أن مشيئه العباد و إرادتهم لا- أثر لها إزاء مشيئه الله و إرادته، فقد شاء الله أن ينصرك و أن يبلغ رسالتك إلى أصقاع المعموره، و يزيل العراquil و الموانع عن

منهاجك، و قد فعل.

إلا أنّ ما يهمننا هنا أن نعرف أنّ مدلول الآيات آنفه الذكر لا يختص بعصر النبي صلى الله عليه وآله و سلمّ و زمانه، ففي كل جيل و كل عصر جماعه من المنافقين تحاول أن تنثر سموم التفرقه في اللحظات الحساسه و المصيريه، ليحبطوا روح الوحده و يثيروا الشكوك و التردد في أفكار الناس، غير أنّ المجتمع إذا كان واعيا فهو منتصر بأمر الله و وعده الذي وعد أولياءه، و هو- سبحانه- الذي يذر ما يرقم المنافقون و مخططاتهم سدى، شريطه أن يجاهد أولياؤه في سبيله مخلصين، و أن يراقبوا بحذر أعداءهم المتوغلين بينهم.

ص: ٧١

اشاره

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْتِنِّي لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)

سبب النزول

قال جماعه من المفسرين: إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْجَى الْمُسْلِمِينَ وَيَهَيِّئُهُمْ لِمَعْرَكَةِ تَبُوكَ وَيَدْعُوهُمْ لِلتَّحْرُكِ نَحْوَهَا، فَبَيْنَا هُوَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ إِذَا بَرَجَلَ مِنْ رُؤْسَاءِ طَائِفِهِ «بَنِي سَلْمَةَ» يَدْعَى «جَدَّ بْنَ قَيْسٍ» وَكَانَ فِي صَفْوَفِ الْمُنَافِقِينَ، فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُسْتَأْذِنًا أَنْ لَا يَشْهَدَ الْمَعْرَكَةَ، مُتَذَرِعًا بِأَنَّ فِيهِ شَبَقًا إِلَى النِّسَاءِ، وَإِذَا مَا وَقَعَتْ عَيْنَاهُ عَلَى بَنَاتِ الرُّومِ فَرَبَّمَا سِيهِيمَ وَلَهَا بَهَنَّ وَيَنْسَحِبُ مِنَ الْمَعْرَكَةِ! فَأُذِنَ لَهُ النَّبِيُّ بِالْإِنْصِرَافِ.

فنزلت الآيه أعلاه معنفه ذلك الشخص!

فالتفت النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي سَلْمَةَ وَقَالَ: مَنْ كَبِيرِكُمْ؟ فَقَالُوا: جَدُّ بْنُ قَيْسٍ، إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ بَخِيلٌ وَجَبَانٌ، فَقَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَشْبَعُ مِنَ الْبَخْلِ؟ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ كَبِيرِكُمْ ذَلِكَ الشَّابُّ الْوَضِيءُ الْوَجْهَ بَشَرٌ بِنُ بَرَاءٍ «وَكَانَ رَجُلًا سَخِيًا سَمَحًا بِشَوْشًا».

المنافقون المتذرعون:

يكشف شأن النزول المذكور أن الإنسان متى أراد أن يتصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرع بشتى الحيل، كما تذرع المنافق جد بن قيس لعدم المشاركة فى المعركة و ميدان الجهاد، بأنه ربّما تأسره الوجوه النضرة من بنات الروم و تختطف قلبه، فينسحب من المعركة و يقع فى إشكال شرعى!!...

و يذكرنى قول جد بن قيس بكلام بعض الضالعين فى ركاب الطاغوت، إذ كان يقول: إذا لم نضغط على الناس فإنّ ما نتسلمه من الراتب و الحقوق المالىة مشكل شرعا. فمن أجل التخلص من هذا الإشكال الشرعى لا بدّ من إيذاء الناس و ظلمهم!

و على كل حال فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم ليردّ على مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلا: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنُ لِي وَ لَا تَفْتِنُنِي بِالنِّسَاءِ وَ الْفِتْيَانِ الرَّومِيَّاتِ الْجَمِيلَاتِ.

كما و يحتمل فى شأن نزول الآية أن جد بن قيس كان يتذرع ببقاء امرأته و أطفاله و أمواله بلا حام و لا كفيل بعده ليتخلص من الجهاد.

و لكن القرآن يقول مجيبا عليه و أمثاله: أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

أى أنّ أمثال أولئك الذين تذرعوا بحجّة الخوف من الذنب-هم الآن واقعون فيه فعلا، و أن جهنم محيطه بهم، لأنهم تركوا ما أمرهم الله و رسوله به وراء ظهورهم و انصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهه الشرعيه!!

١- إن أحد طرق معرفه جماعه المنافقين فى كل مجتمع، هو التدقيق فى أسلوب استدلالهم و أعدارهم التى يذكرونها لىتركوا ما عليهم من الوظائف، فهذه الأعدار تكشف-بجلاء- ما يدور فى خلداهم و باطنهم. فهم غالبا ما يتشبهون بسلسله من الموضوعات الجزئيه و المضحكه أحيانا بدلا من الاهتمام بالمواضيع المهمه، و يستعملون المصطلحات الشرعيه لإغفال المؤمنين و يتدرون بالاحكام الشرعيه و أوامر الله و رسوله، فى حين غارقون فى دوامه الخطايا، جادون فى عداوتهم للرسول و دينه القويم.

٢- للمفسرين أقوال مختلفه فى تفسير جملة **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** فقال بعضهم: هذه العبارة كناية عن إحاطه عوامل ورودهم إلى جهنم بهم، أى أن ذنوبهم تحيط بهم! و قال بعضهم: إن هذا التعبير من قبيل الحوادث الحتميه المستقبليه التى تذكر بصيغه الفعل الماضى أو الحال، أى أن جهنم ستحيط بهم بشكل قاطع.

كما و يحتمل أن نفس الجملة بمعناها الحقيقى، و هو أن جهنم موجوده فعلا، و هى عبارة عن باطن هذه الدنيا، فالكفار قابعون فى وسط جهنم فى حياتهم الدنيويه و إن لم يصدر الأمر بتأثيرها، كما أن الجنة موجوده فى هذه الدنيا أيضا و تحيط بالجميع، غاية ما فى الأمر لما كان أهل الجنة جديرين بها فسيكونون مرتبطين بها؛ و أهل النار جديرون بالنار فهم من أهلها أيضا.

إشاره

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بَأْيَدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢)

التفسير

فى الآيات-آنفه الذكر-إشاره إلى إحدى صفات المنافقين و علاماتهم و بهذا تتابع البحث الذى يتناول صفات المنافقين فى ذيل الآيات المتقدمه و الآيات اللاحقه.

تقول الآيات أولاً: إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ .

سواء كانت هذه الحسنه انتصارا على العدو، أو الغنائم التى تنالونها فى المعارك أو أى تقدم آخر.

و هذه المساءه دليل على العداوه الباطنيه و فقدان الإيمان. فكيف يمكن لمن له

أدنى إيمان أن يسوءه انتصار النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو أى مؤمن آخر؟! و لكنهم على خلاف هذه الحال عند الشده و الخطب: وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَ تَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ .

هؤلاء المنافقون عمى القلوب ينتهزون أيه فرصه لصالحهم و منافعهم، و يزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم و عقلهم، إذ لم نساهم فى المعركه الفلانيه و لم نفع فى أى مآزق!! كما أبتلى به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل و التدبر، و بهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم و هم يكادون أن يطيروا فرحا.

و لكنك-يا رسول الله-عليك أن تردّ عليهم بجواب منطقيّ متين و ذلك:

أولاً: قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا أَجَلٌ فَلَا يَرِيدُ بِنَا إِلَّا الْخَيْرَ وَ الصَّلَاحَ: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

فهم يعشقون الله فحسب، و منه يطلبون المدد و العون، و يتوكلون عليه و يلتجئون إليه عند الخطوب.

و هذا خطأ كبير أبتلى به المنافقون، إذ يتخيلون أنهم بعقولهم القاصره و فكرهم المحدود يستطيعون أن يواجهوا جميع المشكلات و الحوادث، و أن يكونوا فى غنى عن رحمه الله و لطفه!!!...إنهم لا يعلمون أن جميع وجودهم لا يعدو ورقه يابسه فى مهبّ العاصفه. أو كقطره ماء فى صحراء محرقه فى يوم قانظ فلو لا لطف الله و مدده فما عسى أن يفعل الإنسان الضعيف أمام الشدائد و الخطوب؟! ثانياً: قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ؟! فإما أن نبير الأعداء فى ساحه الحرب و نبيدهم و نعود منتصرين، أو نقتل فنهل ورد الشهاده العذب، فكلاهما محبب لنا و مصدر افتخارنا.

و هكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إما أن تصيبكم سهام البلايا و المصائب و العقوبات الإلهيه سواء فى الدنيا أو الآخره، أو يكون هلاككم على أيدينا: وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ

بأيدينا فترَبُّوا إنا معكم مترَبُّونَ

ترَبُّوا غبطتنا و سعادتنا و نحن نترَبِّص شقاءكم و سوء عاقبتكم.

بحوث

إشارة

١- المقادير و سعى الإنسان

مما لا شك فيه أن مآلنا و عاقبه أمرنا- بأيدينا- ما دام الأمر يدور في دائره سعينا وجدنا، و القرآن الكريم يصرح بهذا الشأن أيضا، كقوله تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (١)، و كقوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ (٢) و في آيات أخر. بالرغم من أن الجد و السعى هما من السنن الإلهية و بأمره تعالى أيضا.

إلا أنه عند خروج الأمر عن دائره سعينا وجدنا، فإن يد القدر هي التي تتحكم بمآلنا و عاقبه أمرنا، و ما هو جار بمقتضى قانون العليه الذي ينتهي إلى مشيئه الله و علمه و حكمته و هو مقدر علينا، فهو ما سيكون و يقع حينئذ. غايه ما في الأمر أن المؤمنين بالله و علمه و حكمته و لطفه و رحمته، يفسرون هذه المقادير بأنها جاريه وفقا «للنظام الأحسن» و ما فيه مصلحة العباد، و كل يتلى بمقادير تناسبه حسب جدارته التي اكتسبها.

فالجماعه إذا كانوا من المنافقين الجبناء و الكسالى و المتفرقين فهي محكوم به بالفناء حتما. إلا أن الجماعه المؤمنه الواعيه المتحده المصممه، ليس لها إلا النصر و التوفيق مآلا.

فبناء على ذلك يتضح أن الآيات آنفه الذكر لا تنافى أصل الحريه [حريه الإراده و الإختيار]

و ليست دليلا على العاقبه الجبريه للإنسان أو أن سعى الإنسان لا أثر له.

ص: ٧٧

١- ١) سورة النجم، ٣٩.

٢- ٢) المدثر، ٣٨.

نواجه في آخر آيه-من الآيات محل البحث-منطقا محكما متينا يستبطن السير الأساس لانتصارات المسلمين الأوائل جميعا، و لو لم يكن للنبي صلى الله عليه و آله و سلم من تعليم و دستور إلا- ما نجده في هذه الآيه لكان كافيا لانتصار أتباعه و مقتضى منهاجه، و هو أنه لا- مفهوم للهزيمة في صفحات أرواحهم فقد أثبتت الحوادث أنهم منتصرون على كل حال، منتصرون إن استشهدتم!...منتصرون إن قتلتم أعداءكم! و إن للمؤمنين مسلكين لا ثالث لهما، في أيّ منهما ساروا و سلكوا و صلوا إلى هدفهم و غايتهم.

أحدها هو طريق الشهادة التي تمثل أوج الفخر للمؤمنين، و أعظم موهبه يمكن أن تتصور للإنسان أن يبيع الله نفسه، و يشتري الحياة الأبدية الخالده و جوار الله، و التمتع بما لا يمكن وصفه من النعم.

و الآخر هو الإنتصار على العدو و تدمير قواه الشيطانية، و تطهير البيئه و المحيط الإنساني من لوث الظالمين و المنحرفين الضالين، و هذا بنفسه فيض و لطف كبير و فخر مسلم به.

فالجندى الذى يدخل ساحه المعركه بهذه الروحيه و المعنويه لا يفكر بالفرار و الإدبار أبدا، و لا يخاف من أى أحد و لا من أى شىء، فالخوف و الاستيحاش و الاضطراب و التردد ليس لها طريق إلى قلبه و وجوده. و الجيش الذى يتألف من جنود بهذه الروحيه لا يعرف الهزيمة إطلاقا.

و لا يحصل الإنسان على هذه المعنويات العاليه إلا عن طريق اعتماد التعليمات الاسلاميه، فلو أنّ هذه التعليمات تجلّت مرّه أخرى فى نفوس المسلمين بالتريه السليمه و التعليم الصحيح لأمكن جبران كل اشكال التخلف الذى أصاب المسلمين.

أولئك الذين يطالعون و يدرسون أسباب تقدّم المسلمين الأوائل و انتصارهم،

و أسباب تأخرهم فى الوقت الحاضر، و يعدّون الأمر أحجيه و لغزاً لا ينحلّ، من الأفضل لهم أن يأتوا و يفكروا فى هذه الآيه ليتّضح لهم الجواب على ما يرد فى خواطريهم.

مما ينبغى الالتفات إليه آنفه الذكر عند ما تتحدث عن هزيمتى المنافقين و اندحارهم، تبين ذلك بتفصيل و نحن نتربّص بكم أن يَصِّبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا إِلَّا- أنّها تمرّ على بيان انتصار المؤمنين بإجمال، فكأنّ المسأله من الوضوح بمكان حتى أنّها لا تحتاج إلى بيان و شرح، و هذه لطيفه بلاغيه تناولتها الآيه الكريمه.

٣- صفات المنافقين

نوكد مرّه أخرى على أنه لا ينبغى أن نقرأ هذه الآيات و نعدّ موضوعها مسأله تاريخيه ترتبط بما سبق، بل علينا أن نعتبرها درسا ليومنا و أمسنا و غدنا، و لجميع الناس. فليس من مجتمع يخلو من مجموعه منافقين، قلت أو كثرت، و صفاتهم على شاكلة واحده تقريباً.

فالمنافقون عاده أناس جهله أنانيون متكبرون، يزعمون بأنهم يتمتّعون بقسط وافر وافر من العقل و الدرايه! إنّهم فى عذاب و حسره ما دام الناس فى راحه و سرور و يفرحون عند ما تحلّ بهم كارته!

إنّهم يتخبطون فى دوامه من الوهم و الشك و الحيره، و لذلك فهم يخطون تاره نحو الأمام، و أخرى إلى الوراء!! و على خلافهم المؤمنون، فهم يشاركون الناس فى السراء و الضراء، و لا يزعمون أنّهم أولو علم و درايه، و لا يستغنون عن رحمه الله و لطفه، و قلوبهم تعشق الله و لا تخاف فى سبيله من سواه!

اشاره

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَنْ مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ
بِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)

التفسير

تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين و عواقب أعمالهم و نتائجها، و تبين بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها و لا قيمه، و لا تعود عليهم بأي نفع.

و لما كان-من بين الأعمال الصالحه- الإنفاق في سبيل الله «الزكاة بمعناها الواسع» و الصلاة «و هي العلاقه بين الخلق و الخالق»-
لهما موقع خاص، فقد اهتمت الآيات بهذين القسمين اهتماما خاصا! تخاطب الآيات النبي الكريم فتقول: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
لَنْ يُتَقَبَلَ

ثم تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ .

فتياتكم غير خالصه، و أعمالكم غير طاهره، و قلوبكم مظلمه، و إنما يتقبل الله العمل الطاهر من الورع التقى.

و واضح أن المراد من الفسق هنا ليس هو الذنب البسيط و المألوف، لأنه قد يرتكب الإنسان ذنبا و هو فى الوقت ذاته قد يكون مخلصا فى أعماله، بل المراد منه الكفر و النفاق، أو تلوث الإنفاق بالرياء و التظاهر.

كما لا يمنع أن يكون الفسق- فى التعبير آنفا- فى مفهومه الواسع شاملا للمعنيين، كما ستوضح الآية التالى ذلك.

و فى الآية التالى يوضح القرآن مره أخرى السبب فى عدم قبول نفقاتهم فيقول: وَمَا مَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .

و القرآن يعول كثيرا على أن قبول الأعمال الصالحه مشروط بالإيمان، حتى أنه لو قام الإنسان بعمل صالح و هو مؤمن، ثم كفر بعد ذلك فإن الكفر يحبط عمله و لا يكون له أى أثر «بحثنا فى هذا المجال فى المجلد الثانى من التفسير الأمثل».

و بعد أن أشار القرآن إلى عدم قبول نفقاتهم، يشير إلى حالهم فى العبادات فيقول: وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ كَمَا أَنَّهُمْ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ .

و فى الحقيقة أن نفقاتهم لا تقبل لسببين:

الأول: هو أنهم كفروا بالله و برسوله .

و الثانى: أنهم إنما ينفقون عن كره و إجبار.

كما أن صلواتهم لا تقبل لسببين أيضا:

الأول: لأنهم كفروا بالله... .

و الثاني: أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالِي ...!

العبارات المتقدمه فى الوقت الذى تبين حال المنافقين فى عدم النفع من أعمالهم، فهى فى الحقيقة تبين علامه أخرى من علائهم فى الوقت ذاته، وهى أن المؤمنين الواقعيين يمكن معرفتهم من نشاطهم عند أداء العباده، و رغبتهم فى الأعمال الصالحه التى تتجلى فيهم بإخلاصهم.

كما يمكن معرفه حال المنافقين عن طريق كيفيه أعمالهم، لأنهم يؤدّون أعمالهم عاده دون رغبه و مكرهين، فكأنما يساقون إلى عمل الخير سوقا.

و بديهي أن أعمال الطائفه الأولى (المؤمنين) لما كانت تصدر عن قلوب تعشق الله مقرونه بالتحرق و اللهفه، فإن جميع الآداب و مقرراتها مرعيه فيها. إلا أن الطائفه الثانيه لما كانت أعمالها تصدر عن إكراه و عدم رغبه، فهى ناقصه لا روح فيها، و هكذا تكون البواعث المختلفه فى أعمال الطائفتين تظفى على الأعمال شكلين مختلفين.

و فى آخر الآيه - من الآيات محل البحث - يتوجه الخطاب نحو النبى قائلا: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ .

فهى و إن كانت نعمه بحسب الظاهر، إلا أنه إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياه الدنيا وَ تَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ .

و فى الواقع فإنهم يعذبون عن طريقين بسبب هذه الأموال و الأولاد، أى القوه الاقتصاديه و الإنسانيه:

فالأول: إن مثل هؤلاء الأبناء لا يكونون صالحين عاده، و مثل هذه الأموال لا بركه فيها، فيكونان مدعاه قلقهم و ألمهم فى الحياه الدنيا، إذ عليهم أن يسعوا ليل نهار من أجل أبنائهم الذين هم مدعاه أذاهم و قلقهم، و أن يجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التى اكتسبوها عن طريق الإثم و الحرام.

و الثاني: لما كانوا بهذه الأموال و الأولاد متعلقين، و لا يؤمنون بالحياه بعد الموت و لا بالدار الآخره الواسعه و لا بنعيمها الخالد فليس من الهين أن يغمضوا عن هذه الأموال و الدريره، و يخرجون من هذه الدنيا-بحال مزريه و فى حال الكفر.

فالمال و البنون قد يكونان موهبه و سعادته و مدعاه للرفاه و الهدوء و الاطمئنان و الدعاه إذا كانا طاهرين طيبين و إلا فهما مدعاه العذاب و الشقاء و الألم.

ملاحظتان

١- يسأل بعضهم: إن الآيه الأولى- من الآيات محل البحث- تقول: أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ مع أن الآيه الأخرى تقول بصراحه: وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

ترى ألا توجد منافاه بين هذين التعبيرين؟! لكن مع قليل من الدقه يتضح الجواب على هذا السؤال، و هو أن بدايه الآيه الأولى فى صورته القضيه الشرطيه، أى لو أنفقتم طوعاً أو كرها فعلى آيه حال لن تتقبل منكم. و نعرف أن القضيه الشرطيه لا تدل على وجود الشرط، أى على فرض أن ينفقوا طوعاً و اختياراً فإنفاقهم لا فائده فيه، لأنهم غير مؤمنين.

إلا أن ذيل الآيه الأخرى بيان قضيه خارجيه، و هى أنهم ينفقون عن إكراه دائماً.

٢- و الدرس الذى نستفيدة من الآيات الآنفه، هو أنه لا- ينبغى الانخداع بصلاه الناس و صيامهم، لأن المنافقين يؤدون ذلك أيضاً، كما أنهم ينفقون بحسب الظاهر فى سبيل الله. بل ينبغى تمييز الصلاه و الإنفاق بدافع النفاق من غيرهما عن أعمال

المؤمنين البناء و الهادفه، و يمكن معرفه ذلك بالتدقيق و الإمعان فى النظر، و نقرأ

فى الحديث: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإنّ ذلك شىء اعتاده، و لو تركه استوحش و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته».

ص: ٨٤

اشاره

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجِئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)

التفسير

اشاره

علامه أخرى للمنافقين:

ترسم الآيتان أعلاه حاله أخرى من أعمال المنافقين بجلاء، إذ تقول الآية الأولى: وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ و من شدّه خوفهم و فرقههم يخفون كفرهم و يظهرون الإيمان.

و«يفرقون» من ماده «الفرق» على زنه «الشفق» و معناه شدّه الخوف.

يقول «الراغب» في «المفردات» إن الفرق في الأصل معناه التفرّق و التشتت، فكأنهم لشدّه خوفهم تكاد قلوبهم أن تتفرق و تتلاشى.

و في الواقع أنّ مثل هؤلاء لما فقدوا ما يركنون إليه في أعماقهم، فهم في هلع و اضطراب عظيم دائم، و لا يمكنهم أن يكشفوا عمّا في باطنهم لما هم عليه من الهلع و الفرع، و حيث أنّهم لا يخافون الله «لعدم إيمانهم به»، فهم يخافون من كل شيء غيره، و يعيشون في استيحاء دائم، غير أنّ المؤمنين الصادقين ينعمون في

ظل الإيمان بالهدوء و الاطمئنان.

و الآيه التاليه تصوّر شدّه عداوه المنافقين للمؤمنين و نفورهم منهم، فى عبارته موجزه إلا أنّها فى غايه المتانته و البلاغه، إذ تقول: لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُونَ .

«الملجأ» معناه معروف، و هو ما يأوى إليه الخائف عاده، كالقلاع و الكهوف و أضرابهما.

و«المغارات» جمع مغاره.

و«المدخل» هو الطريق الخفى تحت الأرض، كالنقب مثلاً.

و«يجمعون» مأخوذ من الجماع، و معناه الحركه السريعه و الشديده التى لا يتأتى لأى شىء أن يصدّها، كحركه الخيول المسرعه الجامحه التى لا تطاوع أصحابها، و لذلك سمى الجواد الذى لا يطاوع صاحبه جموحاً أو جامحاً.

و على كل حال، فهذه الآيه واحده من أبلغ الآيات و التعابير التى يسوقها القرآن فى وصف المنافقين، و بيان هلّهم و خوفهم و بغضهم إخوانهم المؤمنين، بحيث لو كان لهم سبيل للفرار من المؤمنين، و لو على قمم الجبال أو تحت الأرض، لولّوا إليه و هم يجمعون، و لكن ما عسى أن يفعلوا مع الروابط التى تربطهم معكم من القبيله و الأموال و الثروه، كل ذلك يضطرهم إلى البقاء على رغم أنوفهم.

ص: ٨٦

اشاره

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَشِيخُطُونَ (٥٨) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)

سبب النزول

جاء في تفسير «الدر المنثور» عن «صحيح البخارى» و«النسائى» وجماعه آخرين، أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان مشغولا بتقسيم الأموال (من الغنائم أو ما شاكلها)، و إذا برجل من بنى تميم يدعى ذو الخويصره - هو حرقوص بن زهير - يأتى فيقول له: يا رسول الله، اعدل. فقال رسول الله: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل!» فصاح عمر: يا رسول الله ائذن لى أضرب عنقه. فقال رسول الله: «دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلواتهم و صومهم مع صومه، يمرقون من دين كما يمرق السهم من الرميّه...».

(١)

فنزلت الآيتان عندئذ و نصحت مثل هؤلاء الناس و وعظتهم.

ص: ٨٧

الأنايون السفهاء:

فى الآيه الأولى أعلاه إشاره إلى حاله أخرى من حالات المنافقين، وهى أنهم لا يرضون أبدا بنصيبهم، ويرجون أن ينالوا من بيت المال أو المنافع العامه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، سواء كانوا مستحقين أم غير مستحقين، فصدقتهم و عداوتهم تدوران حول محور المنافع سلبا و إيجابا.

فتمت ملئت جيوبهم رضوا(عن صاحبهم) و متى ما أعطوا حقهم و روعى العدل فى إيتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه، فهم لا يعرفون للحق و العدالة مفهوما «فى قاموسهم» و إذا كان فى قاموسهم مفهوم للحق أو العدل، فهو على أساس أن من يعطيهم أكثر فهو عادل، و من يأخذ حق الآخرين منهم فهو ظالم!! و بتعبير آخر: إنهم يفقدون الشخصيه الاجتماعيه، و يتمسكون بالشخصيه الفرديه و المنافع الخاصه، و ينظرون للأشياء جميعا من هذه الزاويه (المشار إليها آنفا).

لذا فإن الآيه تقول: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزَكَ فِي الصَّدَقَاتِ لَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَنْظُرُونَ إِلَى مَنَافِعِهِمُ الْخَاصَّةِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ .

فهؤلاء يرون أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم غير منصف و لا عادل!! و يتهموناه فى تقسيمه المال!.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ

ترى ألا يوجد أمثال هؤلاء فى مجتمعاتنا الإسلاميه المعاصره؟! او هل الناس جميعا قانعون بحققهم المشروع! فمن أعطاهم حقهم حسبوه عادلا؟! ممّا لا ريب فيه أنّ الجواب على السؤال الآنف بالنفى، و مع كل الأسف فما

يزال الكثيرون يقيسون العدل و يزنون الحق بمعيار المنافع الشخصيّه و لا يقنعون بحقوقهم!! و لو قدّر لأحد أن يوصل إلى جميع الناس حقوقهم المشروعه و لا سيما المحرومين منهم-لتعالى صراخهم و عويلهم!! فبناء على ذلك، لا داعى لأن نقرب و نتصفح سجل التاريخ لمعرفة المنافقين.

فبنظره واحده إلى من حولنا، بل بنظره إلى أنفسنا، نستطيع أن نميز حالنا من حال الآخرين! اللهم، أحي فينا روح الإيمان، و أمت في أنفسنا النفاق و أفكار الشيطان.

اشاره

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)

التفسير

اشاره

موارد صرف الزكاه و دقائقها:

في تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما في مكه، حيث كان هدف النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المسلمين فيها تعليم الأفراد و تربيتهم و نشر التعاليم الإسلاميه. و الثانيه في المدينه، حيث أقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على تشكيل حكومه إسلاميه أجرى من خلالها الأحكام و التعاليم الإسلاميه.

و مِمَّا لا شك فيه أن أول و أهم مسأله واجهت تشكيل الحكومه هي إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تؤمن حاجات الدوله الاقتصاديه، و هي حاجات طبيعيه توجد في كل دوله بدون استثناء، و من هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينه، و تشكل الزكاه أحد موارده، و على المشهور فإن هذا الحكم شرع في السنه الثانيه للهجره النبويه.

و كما سنشير-بعد حين-إلى إرادة الله و حكمه، فإنَّ حكم الزكاه قد نزل من قبل في مكه، لكن لا على نحو وجوب جمعها في بيت المال، بل كان الناس يؤدونها ذاتيا، أمَّا في المدينه فإنَّ قانون جبايه الزكاه و جمعها في بيت المال قد صدر من الله تعالى في الآية (١٠٣) من سوره التوبه.

إنَّ الآيه التي نبعتها، و التي نزلت يقينا بعد آيه وجوب الزكاه-و إن لم يسبق لها ذكر في القرآن الكريم-تبيِّن الموارد المختلفه التي تصرف فيها الزكاه. و ممَّا يلفت النظر أن الآية بدأت بكلمه (إنَّما) الدالّه على الحصر، و هي توحى بأنَّ بعض الأفراد الأنانيين أو المغفلين كانوا يطمعون في أن يحصلوا على نصيب من الزكاه بدون أي وجه لاستحقاقهم لها، لكن كلمه (إنَّما) ردّت أيديهم في أفواههم. و هذا المعنى تبيّنه الآيتان اللتان سبقت هذه الآية، حيث ذكرت أنّ هؤلاء كانوا يعترضون على النبي صلى الله عليه و آله و سلّم في عدم إعطائهم شيئا من الزكاه، و يرضون عنه إذا أعطاهم شيئا منها.

و على أي حال، فإنَّ الآية قد بيّنت-بوضوح-الموارد الحقيقه التي تصرف فيها الزكاه، و أنهت التوقعات غير المنطقيه و حددت موارد صرف الزكاه في ثمانية أصناف:

١-الفقراء.

٢-المساكين: و سيأتى البحث في نهايه تفسير الآية عن الفرق بين الفقير و المسكين.

٣-العاملين عليها: و هم الذين يسعون في جبايه الزكاه، و إداره بيت المال، و ما يعطى لهم هو في الواقع بمنزله أجره عملهم، و لهذا لا يشترط فيهم الفقر على أي حال.

٤-المؤلفه قلوبهم: و هم الذين لا يوجد لديهم الحافز و الدافع المعنوى القوى من أجل النهوض بالأهداف الإسلاميه و تحقيقها، و لكن و يمكن استمالتهم بواسطه بذل المال لهم، و الاستفاده منهم في الدفاع عن الإسلام و تحكيم دولته، و إعلاء

ص: ٩١

كلمته. و سيأتي توضيح أوسع حول هذا القسم.

٥- فى الرقاب: و هذا يعنى أن قسما من الزكاه يخصّص لمحاربه العبوديه و الرق و إنهاء هذه الحاله غير الإنسانيه، و كما قلنا فى محله فإنّ برنامج الإسلام فى معالجه مسأله الرقيق هو اتباع نظام (التحرير التدريجى) الذى ينتهى إلى تحرير جميع العبيد بدون مواجهه ردود فعل اجتماعيه غير متوقعه، و يشكّل تخصيص قسم من الزكاه لهذا الموضوع جانبا من هذا البرنامج المتكامل.

٦- الغارمون: و هم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، و لم يكن هذا العجز نتيجة لتقصيرهم.

٧- فى سبيل الله: و المراد منه- كما سنشير إليه فى آخر تفسير الآيه- جميع السبل التى تؤدى إلى تقويه و نشر الدين الإلهى، و هى أعم من مسأله الجهاد و التبليغ و أمثالها.

٨- ابن السبيل: و هم الذين تخلفوا فى الطريق لعله ماء، و ليس معهم من الزاد و الراحله ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجبهه التى يقصدونها، حتى و لو لم يكونوا فقراء فى واقعهم، لكنهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو قلّه أموالهم أو لأسباب آخر، و مثل هؤلاء يجب أن يعطوا من الزكاه ما يوصلهم إلى مقصدهم أو بلدهم.

و فى خاتمه الآيه نلاحظ التأكيد على صرفها فى الجهات السابقه، و لذلك قال سبحانه: [□]فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ و لا شك أنّ هذه الفريضة قد حسبت بصوره دقيقه جدّا، و بصوره تحفظ مصالح الفرد و المجتمع، لأنّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

و هنا أمور ينبغي ملاحظتها:

١- الفرق بين الفقير و المسكين

هناك بحث بين المفسرين في مفهومى الفقير و المسكين، هل أن مفهومهما واحد، و تكرار اللفظين معا فى الآيه من باب التأكيد فتصبح موارد صرف الزكاه سبعة لا ثمانية، أم أنهما لهما معنيان مختلفان؟ أغلب المفسرين و الفقهاء قالوا بالثانى، لكن وقع البحث حتى بين أنصار هذا القول فى تفسير و تحديد مفهوم كل من الكلمتين، و الذى يبدو أقرب للنظر، أن الفقير هو الشخص الذى يعانى من حاجه مالىه فى حياته و معاشه مع أنه يعمل و يكتسب، لكنه لا يسأل أحدا مطلقا رغم حاجته لعفته و عزه نفسه، أما المسكين فهو أشد حاجه من الفقير، و هو العاجز عن العمل، فهو مضطر لأن يستعطى الناس و يسألهم. و الدليل على ذلك أن الأصل اللغوى لكلمه مسكين مأخوذ من ماده السكون، لأن المسكين لشده فقره كأنه سكن و أخذ إلى الأرض.

ثم إن ملاحظه استعمال الكلمتين فى مواضع متعدده من القرآن يؤيد هذا الرأى، فمثلا: نقرأ فى الآيه (١٦) من سوره البلد: أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ وَ فى الآيه (٨) من سوره النساء: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ وَ يفهم من هذا التعبير أن المراد بالمساكين هم الذين يسألون و يستعطون إذا حضروا مثل هذه المواضع.

و فى الآيه (٢٤) من سوره القلم نقرأ: أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَ هى إشارة إلى السائلين.

و كذلك التعبير ب(إطعام مسكين) أو (طعام مسكين)، فإنه يوحى بأن المساكين هم الجياع الذين يحتاجون إلى الطعام، فى حين أننا نستطيع أن نفهم بوضوح- من خلال بعض الآيات القرآنيه التى وردت فيها كلمه الفقير- أن المراد من الفقراء هم

أفراد محتاجون للمال لكنهم لحفظ ماء الوجه و لعزه أنفسهم لا يسألون الناس مطلقاً، كما تبين ذلك الآية (٢٧٣) من سورة البقره:
لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ .

و بعد كل هذا

ففى روايه رواها محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليهما السّلام، أنّه سأله عن الفقير و المسكين فقال: «الفقير الذى لا يسأل، و المسكين الذى هو أجهد منه الذى يسأل» (١). و بهذا المضمون وردت روايه عن أبى بصير عن الصادق عليه السّلام، و كلتاهما صريحتان فى المعنى السابق.

و نذكر هنا بأنّ قسما من القرائن قد يظهر منه أحيانا خلاف ما قلناه، إلّا أنّنا إذا نظرنا إلى مجموع القرائن أتضح أن الحق ما قلناه.

٢- هل يجب تقسيم الزكاه إلى ثمانية أجزاء متساويه؟

يعتقد بعض المفسّرين و الفقهاء أنّ ظاهر الآية يدلّ على وجوب تقسيم الزكاه إلى ثمانية أجزاء متساويه، و صرف كل جزء فى مورد الخاص إلّا أن يكون مقدار الزكاه من القلّه بحيث لا يمكن تقسيمه إلى ثمانية أقسام.

أمّا الأكثرية الساحقه من الفقهاء فقد ذهبوا إلى أن ذكر الأصناف الثمانية فى الآية يبيّن جواز صرف الزكاه فى هذه الموارد، لا أنّه يجب تقسيم الزكاه إلى ثمانية أجزاء. و السيره الثابته للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم و أئمّه أهل البيت عليهم السّلام تؤيّد هذا المعنى، إضافة إلى أنّ الزكاه إحدى الضرائب الإسلاميه، و الحكومه الإسلاميه هى المسؤوله عن جبايتها من الناس، و الهدف من تشريعها هو تأمين الحاجات المختلفه للمجتمع الإسلامى.

أمّا كيفيه صرف الزكاه فى هذه الموارد الثمانية، فإنّه يرتبط بالضرورات الاجتماعيه من وجه، و برأى و وجهه نظر الحكومه الإسلاميه من جهه أخرى.

ص: ٩٤

٣- متى شرعت الزكاة؟

يستفاد من الآيات القرآنية المختلفه-و من جملتها الآية(١٥٦) من سورة الأعراف، و الآية(٣) من سورة النمل، و الآية(٤) من سورة لقمان، و الآية(٧) من سورة فصلت، و كلها سور مكّيه- أن حكم وجوب الزكاة نزل في مكّه، و كان المسلمون ملزمين بأدائها كواجب شرعى، لكن لما قدم النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى المدينة و أسس الدوله الإسلاميه، و كان لا بدّ من إيجاد بيت المال، أمره الله سبحانه بأن يأخذ الزكاة من الناس بنفسه- لا أنهم يصرفون الزكاة بأنفسهم حسب ما يرونه- فنزلت الآية(١٠٣) من سورة التوبه: **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً...**

و المشهور أنّ ذلك انّ فى السنه الثانيه للهجره، ثم بينت الآية التى نبحتها- الآية(٦٠) من سورة التوبه-موارد صرف الزكاة بصوره دقيقه. و لا ينبغى التعجب من أن تشريع أخذ الزكاة فى الآية(١٠٣)، و بيان موارد صرفها-و الذى يقال أنّه نزل فى السنه التاسعه للهجره- فى الآية(٦٠)، لأننا نعلم أن آيات القرآن لم تجمع و ترتب حسب تأريخ نزولها، بل بأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم، حيث أمر بوضع كل آيه فى مكانها المناسب.

٤- من هم المقصودون ب الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ؟

الذى يفهم من تعبير الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ أن أحد موارد صرف الزكاة هم الأفراد الذين يراد استمالتهم و جلب محبتهم بالزكاة، لكن هل المراد منهم الكفار الذين يمكن الاستعانه بهم فى أمر الجهاد ببذل الزكاة لهم، أم يدخل معهم المسلمون ضعيفو الإيمان؟ و كما قلنا فى المباحث الفقهيّه، فإنّ لهذه الآية، و كذلك للروايات الوارده فى هذا الموضوع مفهوم ما واسعاً، و لهذا فإنّها تشمل كل من يمكن استمالته من أجل نفع و تحكيم الإسلام، و لا دليل على تخصيصها بالكفار.

إذا علمنا أنّ الإسلام يظهر على أنّه مذهب أخلاقي أو فلسفي أو عقائدي بحت، بل ظهر إلى الوجود كدين و قانون كامل و شامل عولجت فيه كل الحاجات الماديه و المعنويه في الحياه، و كذلك إذا علمنا أن تشكيل و تأسيس الدوله الإسلاميه قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، و إذا علمنا أن الإسلام يهتم اهتماما خاصًا بنصره المحرومين و مكافحه الطبقية في المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال و الزكاة التي تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا شك أن في كل مجتمع أفرادا عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، و أمثالهم، و هؤلاء يحتاجون حتما إلى من يحميهم و يرعاهم و يقوم بشؤونهم.

و كذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده و كيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود و نفقاتهم فإنّ الدوله هي التي تلتزم بتأمينها و دفعها إليهم.

و كذلك العاملون في الدوله الإسلاميه، الحكام و القضاة، وسائل الإعلام و المراكز الدينيه و غيرها، فكل قسم من هذه الأقسام يحتاج إلى ميزانيه خاصه و مبالغ طائله لا يمكن تهيئتها دون أن يكون هناك نظام مالي محكم منظم.

و على هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة-التي تعتبر في الحقيقه نوعا من الضرائب على الإنتاج و الأرباح، و على الأموال الراكده- اهتماما خاصا، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، و قد ذكرت-جنبًا إلى جنب-مع الصلاه في كثير من الموارد، بل إنّ اعتبرها شرطًا لقبول الصلاه.

و أكثر من هذا أننا نقرأ في الروايات الإسلاميه أنّ الدوله الإسلاميه إذا طلبت الزكاة من شخص أو أشخاص و امتنع هؤلاء من ذلك فسوف يحكم بارتدادهم، و إذا لم تنفع النصيحه معهم و لم يؤثر المواعظه فيهم، فإنّ الاستعانه بالقوّه العسكريه لمقابلتهم أمر جائز.

فى روايه عن الإمام الصادق عليه السلام: «من منع قيراطا من الزكاه فليس هو بمؤمن، و لا مسلم، و لا كرامه». (١)

و ممّا يلفت النظر أنّ الروايات قد أظهرت أن تعيين الزكاه بهذا المقدار يبيّن دقه حسابات الإسلام، فإنّ المسلمين جميعا لو أدّوا زكاه أموالهم بصوره دقيقه و كامله فسوف لن يبقى فقير أو محروم فى كافه أنحاء البلاد الإسلاميه.

ففى روايه عن الصادق عليه السلام: «و لو أنّ الناس أدّوا زكاه أموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا...

و إن الناس ما افتقروا، و لا احتاجوا، و لا جاعوا، و لا عروا إلاّ بذنوب الأغنياء» (٢).

و كذلك يفهم من الروايات أنّ أداء الزكاه سبب لحفظ أصل الملك و الأموال و تحكيم أسسها، بحيث أنّ الناس إذا أهملوا تطبيق هذا الأصل الإسلامى المهم فإنّ الفاصله و التفاوت بين الطبقات سيصل إلى حد يعرض أموال الأغنياء إلى الخطر.

فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «حصّينوا أموالكم بالزكاه» (٣). و بهذا المضمون نقلت روايات أخرى عن النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين عليه السلام.

و لمزيد الاطلاع على هذه الأحاديث راجع الأبواب: الأوّل و الثالث و الرابع و الخامس من أبواب الزكاه من المجلد السادس من وسائل الشيعة.

٦- ما الفرق بين العطف ب«اللام أو فى»؟

النقطه الأخيره التى ينبغى الالتفات إليها، هى أنّ فى الآيه التى نبحتها أربعه أقسام ذكرت معطوفه على حرف اللام:

ص: ٩٧

١- (١) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٠، باب ٤، حديث ٩.

٢- (٢) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤، باب ١ من أبواب الزكاه حديث ٦.

٣- (٣) وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٦، باب ١، من أبواب الزكاه، حديث ١١.

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ

، وهذا التعبير عادة يفيد الملكية. أما الأقسام الأربعة الأخرى فقد سبقها حرف (في): وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وهذا التعبير عادة يستعمل لبيان مورد الصرف (١).

هناك بحث و نقاش بين المفسرين في سبب اختلاف التعبير، فالبعض يعتقد أن الأصناف الأربعة الأولى يملكون الزكاة، أما الأصناف الأربعة الأخرى فإنهم لا يملكونها، بل إن الزكاة يجوز أن تصرف فيهم.

و البعض الآخر يعتقد أن الاختلاف في التعبير يشير إلى مسأله أخرى، و هي أنّ الطائفة الثانية أكثر استحقاقا للزكاة، لأن كلمه (في) لبيان الظرفيه، لهذا فإن هذه المجموعه الرباعيه تمثل محتوى و مصرف الزكاة، و الزكاة و وعاء لها، في حين أن المجموعه الأولى ليست كذلك.

لكننا نحتمل و نرجح احتمالاً آخر، و هو أن الستة أقسام—و هم: الفقراء و المساكين و العاملون عليها و المؤلفه قلوبهم و الغارمون و ابن السبيل—التي لم تذكر قبلها (في) متساوون و قد عطفت على بعضها البعض، أما القسمان الآخران— و هما في الرقاب و في سبيل الله—اللذان يتتبعهما (في) فإنّ لهما وضعاً خاصاً، و ربّما كان السبب في اختلاف التعبير من جهة إمكان تملك الزكاة من قبل الأصناف الستة، و يمكن أداء الزكاة إليهم (حتى المدنيين و العاجزين عن أداء ديونهم، لكن بشرط الاطمئنان إلى أنّ هؤلاء يصرفونها في سداد ديونهم).

أما الصنفان الآخران فلا يملكون الزكاة، و لا يمكن دفع الزكاة إليهم، بل تصرف في جهتهم، فمثلاً يجب الشراء العبيد و تحريرهم عن طريق الزكاة، و من الواضح أنّهم لا يملكون الزكاة في هذه الحالة، بل صرفت الزكاة في جهه

ص: ٩٨

١-١) ينبغي الانتباه إلى أن (في) قد ذكرت صريحا في موردين، و عطف على مجرور (في) في موردين، كما أن اللام قد ذكرت في مورد واحد، و عطف الباقي عليها.

تحريرهم. وكذلك الحال بالنسبة إلى الموارد التي تندرج تحت عنوان (فى سبيل الله) كنفقات الجهاد، وإعداد الأسلحة، أو بناء المساجد و المراكز الدينيه، وأمثال هذه المفردات لا تملك الزكاه بل أنها مورد لصرف الزكاه. و على أى حال، فإنّ التفاوت الاختلاف فى التعبير يوضح الدقه المتناهيه فى التعبيرات القرآنيه.

اشاره

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

سبب النزول

اشاره

هذا حسن لا قبيح!

ذكرت عدّه أسباب متباينه لنزول الآيه المذكوره و منها أنّ الآيه نزلت في جماعه من المنافقين كانوا يذكرون النبي صلى الله عليه و آله و سلم بسوء، فنهاهم أحدهم و قال: لا تتحدثوا بهذا الحديث لئلا يصل إلى سمع محمد فيذكرنا بسوء و يؤلب الناس علينا.

فقال له أحدهم - و اسمه جلاس - : لا يهمننا ذلك، فنحن نقول ما نريد، و إذا بلغه ما نقول سنحضر عنده و ننكر ما قلناه، و سيقبل ذلك منا فإنه سريع التصديق لما يقال له، و يقبل كل ما يقال من كل أحد، فهو أذن، فنزلت الآيه و أجابتهم.

التفسير

تحدث الآيه - كما يفهم من مضمونها - عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه و آله و سلم بكلامهم و يقولون أنه أذن و يصدق كل ما يقال له سريعاً و منهم الذين

«الأذن» في الأصل تطلق على الجزء الظاهر من الحاسه السامعه (الصيوان)، لكنها تطلق على الأفراد الذين يصغون كثيرا لكلام الناس أو كما يقال: سَمَاع.

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفه - التي هي سمه ايجابيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والتي يجب توفرها في أى قائد كامل - نقطه ضعف في سيرته و معاملته صلى الله عليه وآله وسلم، وكأنهم غفلوا عن أن القائد إذا أراد أن يحبه الناس لا بد أن يظهر لهم كل محبّه و لطف، وأن يقبل عذر المعتذر ما أمكن، ويستتر على عيوبهم، (إلا - أن تكون هذه الصفه الحميده سببا لاستغلالها من قبل البعض).

من هنا نلاحظ أن القرآن قد ردّهم مباشره، وأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول لهم بأنه إذا كان يصغى لكلامكم، و يقبل أعتذاركم، أو كما تظنون بأنه أذن، فإنّ ذلك في مصلحتكم و لمنفعتكم قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ، فإنه بذلك يحفظ ماء و جوهكم و شخصيتكم، و لا يجرح شعوركم و عواطفكم، و بذلك - أيضا - يسعى لحفظ وحدتكم و اتحادكم و مودتكم، و لو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحه، و يفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضرّكم ذلك و شق عليكم، و افتضح عدّه منكم، و عندها سيغلق أمامهم باب التوبه ممّا يؤدي إلى توغّلهم في الكفر و الابتعاد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن كان من المحتمل هدايتهم.

إن القائد الرحيم و المحنك يجب أن يكون مطلعاً على كل شيء، لكن لا ينبغي له أن يجابه أفراده بأمورهم الخاصه و المجهوله عند الآخرين حتى يتربى من لهم الاستعداد و القابليه و تبقى اسرار الناس في طي الكتمان.

و يحتمل في تفسير الآيه أن يراد معنى آخر، و هو أن الله سبحانه و تعالى يقول في جواب هؤلاء الذين يعيبون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم إصغاه للآخرين: ليس الأمر كما تظنون بأنه يسمع كل ما يقال له، بل إنه يصغى إلى الكلام الذي فيه نفعكم، أى أنه يسمع الوحي الإلهي، و الاقتراح المفيد، و يقبل اعتذار الأفراد إذا كان هذا القبول

و من أجل أن لا يستغل المتبعون لعيوب الناس ذلك، و لا يجعلون هذه الصفة وسيله لتأكيد كلامهم، أضاف الله تعالى أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم يؤمن بالله و يطيع أوامره، و يصغى إلى كلام المؤمنين المخلصين، و يقبله و يرتب عليه الأثر، يؤمن بالله و يؤمن للمؤمنين، و هذا يعنى أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان له طريقان و أسلوبان فى عمله:

أحدهما: الحفاظ على الظاهر و الحيلولة دون هتك الأستار و فضح أسرار الناس.

و الثانى: فى مرحله العمل، فقد كان صلى الله عليه و آله و سلم فى البدايه يسمع من كل أحد، و لا ينكر على أحد ظاهراً، أما فى الواقع العملى فإنه لا- يعتنى و لا- يقبل إلا- أوامر الله و اقتراحات و كلام المؤمنين المخلصين، و القائد الواقعى يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنه رحمه للمؤمنين و رحمه للذين آمنوا .

و يمكن أن يطرح هنا سؤال، و هو أننا نلاحظ فى بعض الآيات التعبير عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم بأنه رحمه للعالمين ، (٢) لكننا نقرأ هنا أنه رحمه للمؤمنين، فهل يتطابق ذلك العموم مع هذا التخصيص؟ إلا- أننا إذا لا حظنا نقطه دقيقه سيتضح جواب هذا السؤال، و هى أن للرحمه درجات و مراتب متعدده، فإحداها مرتبه (القابليه و الاستعداد)، و الأخرى (الفعليه).

فمثلاً: المطر رحمه إلهيه، أى أن هذه القابليه و اللياقه موجوده فى كل قطرات المطر، فهى منشأ الخير و البركه و النمو و الحياه، لكن من المسلم أن آثار هذه

ص: ١٠٢

١- ١) فى الحقيقه، بناء على التفسير الأول فإن أذن خيرٍ التى هى مضاف و مضاف إليه من قبيل إضافه الموصوف إلى الصفه، و على التفسير الثانى فهى من قبيل إضافه الوصف إلى المفعول، فعلى الاحتمال الأول يكون المعنى، إنه إنسان يقبل الكلام و هو خير لكم، و على الاحتمال الثانى فالمعنى: إنه يسمع الكلام المفيد الذى ينفعكم، لا أنه يسمع كل كلام.

٢- ٢) الأنبياء، ١٠٧.

الرحمة لا- تظهر إلا- في الأراضى المستعدّه، و على هذا فإنه يصح قولنا: إن جميع قطرات المطر رحمه، كما يصح قولنا: إن هذه القطرات أساس الرحمة في الأراضى التى لها القابليه و الاستعداد لتقبل هذه الرحمة، فالجمله الأولى إشاره إلى مرحله (الاقتضاء و القابليه)، و الجمله الثانيه إشاره إلى مرحله (الوجود و الفعل)، و على هذا فإنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلّم أساس الرحمة لكل العالمين بالقوه، أمّا بالفعل فهو مختص بالمؤمنين.

بقى هنا شىء واحد، و هو أنّ هؤلاء الذين يؤذون النبى صلى الله عليه و آله و سلّم بكلامهم و يتتبعون أحواله لعلهم يجدون عيبا يشهرون به يجب أن لا يتصوروا أنّهم سوف يبقون بدون جزاء و عقاب، فصحيح أن النبى صلى الله عليه و آله و سلّم مأمور، و من واجبه- كقائد- أن يقابل هؤلاء برحابه صدر و لا يفضحهم، لكن هذا لا يعنى أنّهم سوف يبقون بدون جزاء، و لهذا قال تعالى فى نهايه الآيه: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

اشاره

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

سبب النزول

يستفاد من أقوال بعض المفسرين أنّ الآيتين المذكورتين مكملتان للآية السابقة، و من الطبيعي أن يكون سبب نزولها نفس السبب السابق، إلا أن جمعا آخر من المفسرين ذكر سببا آخر لنزول هاتين الآيتين، وهو أنه لما نزلت الآيات التي ذمت المتخلفين عن غزوه تبوك و وبختهم قال أحد المنافقين: أقسم بالله أنّ هؤلاء أشرفنا و أعياننا، فإن كان ما يقوله محمّد حقّا فإنّ هؤلاء أسوأ حالا من الدواب، فسمعه أحد المسلمين و قال: و الله إن ما يقوله لحق، و إنّك أسوأ من الدابه. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم فبعث إلى ذلك المنافق فأحضر، فسأله عن سبب قوله ذلك الكلام، فحلف أنّه لم يقل ذلك، فقال الرجل المؤمن الذي كان طرفا في خصومه الرجل و أبلغ كلامه لرسول الله: اللهم صدّق الصادق و كذب الكاذب. فنزلت الآيتين أعلاه.

المنافقون و التظاهر بالحق:

إن إحدى علامات المنافقين و أعمالهم القبيحة و التي أشار إليها القرآن مرارا هي إنكارهم الأعمال القبيحة و المخالفه للدين و العرف، و هم إنما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السيء و إخفاء الصورة الحقيقية لهم، و لما كان المجتمع يعرفهم و يعرف كذبهم في هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبه من أجل مخادعه الناس و إرضائهم.

و في الآيات السابقة الذكر نرى أنّ القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهه، و يحذّر المسلمين من تصديق الإيمان الكاذبه من جهه أخرى.

في البدايه يخاطب القرآن الكريم المسلمين و ينبههم إلى أنّ هدف هؤلاء من القسم هو إرضاءكم [□] يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ، و من الواضح إذن أن هدف هؤلاء من هذه الأيمان لم يكن بيان الحقيقة، بل إنهم يسعون عن طريق المكر و الخديعه إلى أن يصوروا لكم الأشياء و الواقع على غير صورته الحقيقيه، و يصلون عن هذا الطريق إلى مقاصدهم، و إلا فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإنّ إرضاء الله و رسوله أهم من إرضاء المؤمنين، غير أنا نرى أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا الله و رسوله، و لذا عقب الآيه فقالت: [□] وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

مما يلفت النظر أن الجملة المذكوره لما كانت تتحدث عن الله و رسوله، فعلى القاعده النحويه ينبغي أن يكون الضمير في «يرضوه» ضمير التثنيه غير أن المستعمل هنا هو ضمير المفرد، و هذا الاستعمال و التعبير يشير إلى أن رضا النبي صلى الله عليه و آله و سلم من رضا الله. بل أنّه لا- يرتضى من الأعمال إلا- ما يرتضيه الله سبحانه، و بعبارة أخرى: فإنّ هذا التعبير يشير إلى حقيقته (توحيد الأفعال)، لأنّ النبي

الأ-كرم صلى الله عليه وآله وسلم لا- يملك استقلاله العمل في مقابل الله، بل إن غضبه و رضاه و كل أعماله تنتهي إلى الله، فكل شيء من أجل الله و في سبيله.

روى أنّ رجلا- في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ضمن كلامه: من أطاع الله و رسوله فقد فاز، و من عصاهما فقد غوى. فلما سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلامه غضب- حيث أن الرجل ذكر الله و رسوله بضمير التثنيه فكأنه جعل الله و رسوله في درجه واحده- و قال: «بئس الخطيب أنت، هلا قلت: و من عصى الله و رسوله» (1)!

و في الآيه الثانيه نرى أنّ القرآن يهدد المنافقين تهديدا شديدا، فقال: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يُؤَكِّدَ ذَلِكَ أَضَافَ تَعَالَى ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ .

(يحادد) مأخوذ من (المحادّه) و أصلها (حدّ)، و معناها نهايه الشيء و طرفه، و لما كان الأعداء و المخالفون يقفون في الطرف الآخر المقابل، لذا فإنّ مادّه (المحادّه) قد وردت بمعنى العداوه أيضا، كما نستعمل كلمه (طرف) في حياتنا اليوميه و نريد منها المخالفه و العداوه.

ص: ١٠٦

١-١) تفسير أبي الفتوح الرازي، ذيل الآيه.

اشاره

يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِنْ أَلَّ اللَّهُ مُخْرَجًا مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَ لَيْسَ سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَشْتَهَرُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَهُ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

سبب النزول

ذكرت عدّه أسباب لنزول هذه الآيات، و كلّها ترتبط بأعمال المنافقين بعد غزوه تبوك. فمن جملةتها: إنّ جمعا من المنافقين كانوا قد اجتمعوا فى مكان خفى و قرّروا قتل النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم عند رجوعه من غزوه تبوك، و كانت خطتهم أن ينصبوا كميناً فى إحدى عقبات الجبال الصعبة، و عند ما يمر النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم من تلك العقبة ينفرون بغيره، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فأمر جماعه من المسلمين بمراقبه الطريق و الحذر، فلما وصل النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم إلى العقبة -و كان عمار يقود الدابة و حذيفه يسوقها- اقترب المنافقون متلّثمين لتنفيذ مؤامرتهم فأمر النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم حذيفه أن يضرب وجوه دوابهم و يدفعهم، ففعل حذيفه ذلك.

فلما جاوز النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم العقبة -و قد زال الخطر- قال لحذيفه: هل عرفتهم؟ فقال:

لم أعرف أحدا منهم، فعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهم، فقال حذيفه: ألا ترسل إليهم من يقتلهم؟ فقال: «إني أكره أن تقول العرب: إن محمدا لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه».

وقد نقل سبب النزول هذا عن الإمام الباقر عليه السلام، وجاء أيضا في العديد من كتب التفسير والحديث.

وذكر سبب آخر للنزول وهو: أن مجموعة من المنافقين لما رأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تهيأ للقتال واصطف أمام الأعداء، قال هؤلاء بسخريه: أظن هذا الرجل أنه سيفتح حصون الشام الحصينه ويسكن قصورها، إن هذا الشيء محال، فأطلع الله نبيه على ذلك، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسدوا عليهم المنافذ والطرق، ثم ناداهم ولا مهمم وأخبرهم بما قالوا، فاعتذروا بأنهم إنما كانوا يمزحون وأقسموا على ذلك.

التفسير

إشارة

مؤامره أخرى للمنافقين:

لا- حظنا في الآيات السابقة كيف أن المنافقين اعتبروا نقاط القوه في سلوك النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقاط ضعف، وكيف حاولوا استغلال هذه المسألة من أجل بث التفرقة بين المسلمين. وفي هذه الآيات إشارة إلى نوع آخر من برامجهم وطرقهم.

فمن الآيه الأولى يستفاد أن الله سبحانه وتعالى يكشف الستار عن أسرار المنافقين أحيانا، وذلك لدفع خطرهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفضحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، ويحذروهم ويعرف المنافقون موقع اقدامهم ويكفوا عن تأمرهم، ويشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم وتكشف خبيثه أسرارهم فقال:

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُبَيِّنُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ

إلا أن العجيب في الأمر أن هؤلاء ولشدهم حقدهم وعنادهم لم يكفوا عن استهزائهم وسخريتهم، لذلك تضيف الآيه: بأنهم مهما سخروا من أعمال النبي صلى الله عليه وآله وسلم

فإن الله لهم بالمرصاد و سوف يظهر حيث أسرارهم و يكشف عن دنىء نياتهم، فقال: قُلِ اسْتَهْزِؤْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ .

تجدر الإشارة إلى أنّ جملة (استهزاءوا) من قبيل الأمر لأجل التهديد كما يقول الإنسان لعدوّه: اعمل كل ما تستطيع من أذى و إضرار لترى عاقبه أمرك، و مثل هذه الأساليب و التعبيرات تستعمل فى مقام التهديد.

كما يجب الالتفات إلى أنّنا نفهم من الآية بصورة ضمنية أنّ هؤلاء المنافقين يعلمون بأحقية دعوه النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم و صدقها، و يعلمون فى ضميرهم و وجدانهم ارتباط النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم بالله سبحانه و تعالى، إلاّ أنّهم لعنادهم و إصرارهم بدل أن يؤمنوا به و يسلموا بين يديه، فإنّهم بدأوا بمحاربتة و إضعاف دعوته المباركة، و لذلك قال القرآن الكريم: يَحَدَّرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ .

و ينبغى الالتفات إلى أنّ جملة تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ لا تعنى أن أمثال هذه الآيات كانت تنزل على المنافقين، بل المقصود أنّها كانت تنزل فى شأن المنافقين و تبين أحوالهم.

أما الآية الثانية فإنّها أشارت إلى أسلوب آخر من أساليب المنافقين، و قالت:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ

(١)

أى إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينه قالوا: نحن نمزح و بذلك ضمنا طريق العوده، فهم من جهه كانوا يخططون المؤامرات، و يبثون السموم، فإذا تحقق هدفهم فقد وصلوا إلى مآربهم الخبيثه أما إذا افتضح أمرهم فإنّهم سيتذرعون و يعتذرون بأنّهم كانوا يمزحون، و عن هذا الطريق سيتخلصون من معاقبه النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم و الناس لهم.

إنّ المنافقين فى أى زمان، تجمعهم وحده الخطط، و الضرب على نفس الوتر،

ص: ١٠٩

١- ١) خوض على وزن حوض، و هو- كما ورد فى كتب اللغه- بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى مختلف الأعمال من باب الكنايه، إلاّ أنّها جاءت فى القرآن غالبا بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحه البديئه.

لذا فلهم نغمه واحده، و هم كثيرا ما يستفيدون و يتبعون هذا الطريق، بل إنهم فى بعض الأحيان يطرحون أكثر المسائل جديده لكن بلباس المزاح الساذج البسيط، فإن وصلوا إلى هدفهم و حققوه فهو، و إلا فإنهم يفلتون من قبضه العدالة بحجّه المزاح.

غير أنّ القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامه، و جابههم بجواب لا مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطبهم قُلْ أَلَيْسَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ، أى إنه يسألهم: هل يمكن المزاح و السخرية حتى بالله و رسوله و آيات القرآن؟! هل إنّ هذه المسائل التى هى أدق الأمور و أكثرها جديده قابله للمزاح؟! هل يمكن إخفاء قضيه تنفير البعير و سقوط النبي صلى الله عليه و آله و سلم من تلك العقبه الخطيره، و التى تعنى الموت، تحت عنوان و نقاب المزاح؟ أم أنّ السخرية و الاستهزاء بالآيات الإلهيه و إخبار النبي بالانتصارات المستقبلية من الأمور التى يمكن أن يشملها عنوان اللعب؟ كل هذه الشواهد تدل على أنّ هؤلاء كان لديهم أهداف خطيره مستتره خلف هذه الأستار و العناوين.

ثمّ يأمر القرآن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يقول للمنافقين بصراحه: [□] لَا تَعْتَدِرُوا، و السبب فى ذلك أنّكم قد كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، فهذا التعبير يشعر أن هذه الفئه لم تكن منذ البدايه فى صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنهم ضعيفو الإيمان، بعد هذه الحوادث الأنفه الذكر سلكوا طريق الكفر.

و يحتمل أيضا فى تفسير العبارة أعلاه أن هؤلاء كانوا منافقين من قبل، إلا أنّهم لم يظهروا عملا مخالفا، فإنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمون كانوا مكلفين أن يعاملوهم كأفراد مؤمنين، لكن لما رفع النقاب بعد أحداث غزوه تبوك، و ظهر كفرهم و نفاقهم أعلم هؤلاء بأنهم لم يعودوا من المؤمنين.

و اختتمت الآيه بهذه العبارة: [□] إِنَّ نَعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَدُّ [□] طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ

فهي تبين أنّ طائفه قد استحققت العذاب نتيجة الذنوب و المعاصي، و هذا دليل على أن أفراد الطائفه الأخرى إنّما شملهم العفو الإلهي لأنهم غسلوا ذنوبهم و معاصيهم بماء التوبه من أعماق وجودهم.

و في الآيات القادمه-كالآيه ٧٤-قربنه على هذا المبحث.

و قد وردت روايات عديده في ذيل الآيه، تبين أن بعض هؤلاء المنافقين الذين مرّ ذكرهم في هذه الآيات قد ندموا على ما بدر منهم من أعمال منافية للدين و الأخلاق فتابوا، غير أن البعض الآخر قد بقى على مسيرته حتى النهايه.

و لمزيد التوضيح و الاطلاع راجع: تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٣٩.

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعِدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَافِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَافِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَافِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

علامات المنافقين:

البحث فى هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين و علاماتهم و صفاتهم، «فآياته الأولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلى، و هو أن روح النفاق يمكن أن تتجلى بأشكال مختلفة و تبدو فى صور متفاوتة بحيث لا تلفت النظر فى أول الأمر، خصوصا أن روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل و المرأة، لكن يجب أن لا- يخدع الناس بتغيير صور النفاق بين المنافقين، المنافقين يشتركون فى مجموعه من الصفات تعتبر العامل المشترك فيما بينهم، لذلك يقول الله سبحانه: الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ .

و بعد ذلك يشرع القرآن الكريم فى ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الأولى و الثانية: إنهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات و يرغبونهم فيها من جهة، و يبعدونهم و ينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من جهة أخرى يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ أى أنهم يسلكون طريقا و يتبعون منهاجا هو عكس طريق المؤمنين تماما، فإن المؤمنين يسعون دائما- عن طريق الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر- إلى أن يصلحوا المجتمع و ينقوه من الشوائب و الفساد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية فى المجتمع و اقتلاع جذور الخير و الأعمال الصالحة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، و لا- شك أن وجود مثل هذا المحيط الفاسد و البيئه الملوثة ستساعدهم كثيرا فى تحقيق أهدافهم.

الثالثة: إن هؤلاء بخلاء- لا- يتمتعون بروح الخير للناس فلا- ينفقون فى سبيل الله، و لا- يعينون محروما، و لا- يستفيد أقوامهم و معارفهم من أموالهم، فعبر عنهم القرآن:

وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

و لا- شك أن هؤلاء إنما يبخلون بأموالهم لأنهم لا يؤمنون بالآخرة و الثواب و الجزاء المضاعف لمن أنفق فى سبيل الله، بالرغم من أنهم كانوا

يبدلون الأموال الطائله من أجل الوصول إلى أغراضهم و آمالهم الشريره الدنيئه، و ربّما بذلوها رياء و سمعه، لكنّهم لا يقدمون على البذل على أساس الإخلاص لله سبحانه و تعالى.

الرّابعه: إنّ كل أعمالهم و أقوالهم و سلوكهم يوضح أن هؤلاء قد نسوا الله، و الوضع الذي يعيشونه يبيّن أن الله قد نسيهم في المقابل، و بالتالى فإنّهم قد حرموا من توفيق الله و تسديده و مواهبه السنيه، أى أنّه سبحانه قد عاملهم معامله المنسيين، و آثار و علامات هذا النسيان المتقابل واضحة في كل مراحل حياتهم، و إلى هذا تشير الآيه: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ .

و هنا نوّد الإشارة إلى أن نسبه النسيان إلى الله جلّ و علا ليست نسبه واقعيه و حقيقيه- كما هو المعلوم بديهه- بل هي كناية عن معامله لهؤلاء معامله الناسى، أى إنّهم لا يشملهم برحمته و توفيقه لأنّهم نسوه في البدايه، و مثل هذا التعبير متداول حتى في الحياه اليوميه بين الناس، فقد نقول لشخص مثلا: إنّنا سوف ننساك عند إعطاء الأجره أو الجائزه لأنّك قد نسيت واجبك، و هذا تعبير يعنى أنّنا سوف لا نعطيه أجره و مكافأته. و هذا المعنى ورد كثيرا في روايات أهل البيت عليهم السّلام (١).

و ممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ موضوع نسيان الله تعالى قد عطف بفاء التفرّيع على نسيان هؤلاء القوم، و هذا يعنى أنّ نتيجة نسيان هؤلاء لأوامر الله تعالى و طغيانهم و عصيانهم هي حرمانهم من مواهب الله و رحمته و عنايته.

الخامسه: إنّ المنافقين فاسقون و خارجون من دائره طاعه أوامر الله سبحانه و تعالى، و قالت الآيه: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

و نلاحظ أنّ هذه الصفات المشتركه متوفره في المنافقين في كل الاعصار.

فمنافقو عصرنا الحاضر و إن تلبسوا بصور و أشكال جديده، إلا أنّهم يتحدون في الصفات و الأصول المذكوره أعلاه مع منافقى العصور الغابره، فإنّهم كسابقيهم

ص: ١١٤

يدعون الناس إلى الفساد و يرغبونهم فيه، و ينهون الناس عن فعل الخير و يمنعونهم إن استطاعوا، و كذلك فى بخلهم و إمساكهم و عدم إنفاقهم، و بعد كل ذلك فإنهم يشتركون فى الأصل الأهم، و هو أنهم قد نسوا الله سبحانه و تعالى فى جميع مراحل حياتهم، و تعديلهم على قوانينه و فسقهم. و مما يثير العجب أن هؤلاء بالرغم من كل هذه الصفات القبيحة السيئه يدعون الإيمان بالله و الإعتقاد الرصين بأحكام الدين الإسلامى و أصوله و مناهجه! فى الآيه التى تليها نلاحظ الوعيد الشديد و الإنذار بالعذاب الأليم و الجزاء الذى ينتظر هؤلاء حيث تقول: وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ و أنهم سيخلدون فى هذه النار المحرقة خالدين فيها و أن هذه المجازاه التى تشمل كل أنواع العذاب و العقوبات تكفى هؤلاء، إذ هى حسبيهم و بعبارة أخرى: إن هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبه أخرى غير النار، حيث يوجد فى نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسميه منها و الروحيه.

و تضيف الآيه فى خاتمتها أن الله تعالى قد أبعد هؤلاء عن ساحه رحمته و جازاهم بالعذاب الأبدى و لعنهم الله و لهم عذابٌ مُّقيماً، بل إن البعد عن الله تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم و أشد عقوبه و ألمها.

تكرار التأريخ و الإعتبار به:

من أجل توعيه هؤلاء المنافقين، و وضعت الآيه الآتية مرآه التاريخ أمامهم، و دعتهم إلى ملاحظه حياتهم و سلوكهم و مقارنتها بالمنافقين و العتاه المرده الذين تمردوا على أوامر الله سبحانه و تعالى، و أعطتهم أوضح الدروس و أكثرها عبره، فذكرهم بأنهم كالمنافقين الماضين و يتبعون نفس المسير و سيلقون نفس المصير:

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

علما أن هؤلاء كانوا أشد منكم قوه و أكثر أموالاً و أولاداً .

و كما أن هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم فى هذه الحياه الدنيا، و صرفوا أعمارهم فى

طريق قضاء الشهوات و المعصيه و الفساد و الانحراف، فإنكم قد تمتعتم بنصيبيكم كهؤلاء: فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ و الخلاق فى اللغه بمعنى النصيب و الحصه، يقول الراغب فى مفرداته:

أنها مأخوذه من ماده (خلق)، و يحتمل -على هذا- أن الإنسان قد يستفيد و يتمتع بنصيبه فى هذه الحياه الدنيا بما يناسب خلقه و خصاله.

ثم تقول بعد ذلك: إنكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتم و سلكتم مسلك الاستهزاء و السخرية، تماما كهؤلاء: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا (١).

ثم تبين الآيه عاقبه أعمال المنافقين الماضين لتحذر المنافقين المعاصرين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و كل منافق العالم فى جملتين:

الأولى: إن كل أعمال المنافقين قد ذهبت أدراج الرياح، فى الدنيا و الآخرة، و لم يحصلوا على أى نتيجة حسنه، فقالت: حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ .

الثانيه: إن هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئه:

وَ أَوْلَيْكَ هُمُ الخَاسِرُونَ

إن هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا و يحققوا بعض المكاسب و الامتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت و محدود، فإننا إذا أمعنا النظر فسنرى أن هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئا، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، كما يعكس التاريخ هذه الحقيقه، و يبين كيف أن المنافقين على مرّ الدهور و الأيام قد توالى عليهم النكبات و أزرت بهم و حكمت عليهم بالفناء و الزوال، كما أن ممّا لا شك فيها أنّ هذه العاقبه الدينويه تبين المصير الذى ينتظرهم فى الآخرة.

ص: ١١٦

١- ١) إن جمله كَالَّذِي خَاضُوا فى الواقع بمعنى: كَالَّذِي خَاضُوا فِيهِ، و بعبارة أخرى، فإنها تشبيه لفعل منافق اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبّهت الجملة السابقه استفاده هؤلاء من النعم و المواهب الإلهيه فى طريق الشهوات كالسابقين منهم، و على هذا فإنّ هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل (الذى) بمعنى (الذين) أى المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

إن الآيه الكريمة تنبه المنافقين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فتقول لهم: إنكم ترون أن هؤلاء السابقين رغم تلك الإمكانيات والقدرات والأموال والأولاد لم يصلوا إلى نتيجه، وأن أعمالهم قد أصبحت هباء منثورا لأنها لم تستند إلى أساس محكم، بل كانت أعمال نفاق و مراوغه، فإنكم ستواجهون ذلك المصير بطريق أولى، لأنكم أقل من هؤلاء قدره وقوه وامكانيات.

وبعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين و يتوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و يتبع أسلوب الاستفهام الإنكاري، فتقول الآيه: **أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ (١)** فإن هذه الأقوام كانت في الأزمان السالفه تسيطر على مناطق مهمه من العالم، إلا أن كل فئه قد ابتليت بنوع من العقاب الإلهي نتيجة لانحرافها و طغيانها و إجرامها، و فرارها من الحق و العداله، و إقدامها على الظلم و الاستبداد و الفساد.

فقوم نوح عوقبوا بالطوفان و الغرق، و قوم عاد(قوم هود) بالرياح العاصفه و الرعب، و قوم ثمود(قوم صالح) بالزلازل و الهدم و الدمار، و قوم إبراهيم بسلب النعم، و أصحاب مدين(قوم شعيب) بالصواعق المحرقه، و قوم لوط بخسف المدن و فنائهم جميعا. و لم يبق من هؤلاء إلا الجثث الهامده، و العظام النخره تحت التراب أو في أعماق البحار.

إن هذه الحوادث المرعبه تهز وجدان و أحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس و شعور عند مطالعتها و تحقيقها.

و رغم طغيان هؤلاء و تمردهم فإن الله الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته و عطفه لحظه، و قد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم و إنقاذهم من الضلاله إذ **أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ** إلا أن هؤلاء لم يصغوا إلى آيه موعظه و لم

ص: ١١٧

١- ١) المؤتفكات مأخوذه من ماده الائتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى و بالعكس، و هي إشارة إلى مدن قوم لوط التي قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزه.

يقبلوا نصيحه من أنبياء الله و أوليائه، و لم يقيموا وزنا لجهاد و متاعب هؤلاء الأبرار و تحملهم كل المصاعب في سبيل هدايه خلق الله، و إذا كان العقاب قد نالهم فلا يعنى أن الله عزّ و جلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجزموا فاستحقوا العذاب فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

ص: ١١٨

اشاره

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

التفسير

اشاره

صفات المؤمنين الحقيقيين:

مرّ في الآيات السابقة ذكر بعض الصفات المشتركة بين المنافقين، الرجال منهم و النساء، و تلخصت في خمس صفات: الأمر
بالمعروف، و النهي عن المعروف، و البخل و عدم الإنفاق، و نسيان الله سبحانه و تعالى، و مخالفته و عصيان أوامر الله.

و تذكر هذه الآيات صفات و علامات المؤمنين و المؤمنات، و تتخلص في خمس صفات أيضا، فتقابل كل صفة منها صفة من
صفات المنافقين، و احده بواحد، لكنّها في الاتجاه المعاكس.

و تشرع الآيه بذكر صفات المؤمنين و المؤمنات، و تبدأ ببيان أن بعضهم لبعض ولى و صديق و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعضهم .

إن أول ما يلفت النظر أن كلمه (أولياء) لم تذكر أثناء الكلام عن المنافقين، بل ورد (بعضهم من بعض) التي توحى بوحده الأهداف و الصفات و الأعمال، و لكنّها تشير ضمنا إلى أن هؤلاء المنافقين و إن كانوا فى صف واحد ظاهرا و يشتركون فى البرامج و الصفات، إلاّ أنهم يفتقدون روح الموده و الولايه لبعضهم البعض، بل إنهم إذا شعروا فى أى وقت بأنّ منافعهم و مصالحهم الشخصيه قد تعرضت للخطر فلا مانع لديهم من خيانه حتى أصدقائهم فضلا عن الغرباء، و إلى هذه الحاله تشير الآيه (١٤) من سوره الحشر: تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى .

و بعد بيان هذه القاعده الكليه، تشرع ببيان الصفات الجزئيه للمؤمنين:

١- فى البدايه تبين أن هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ .

٢- إنهم ينهون الناس عن الرذائل و المنكرات وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

٣- إنهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا الله، فإنهم يقيمون الصلاه، و يذكرون الله فتحيا قلوبهم و تشرف عقولهم وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .

٤- إنهم على عكس المنافقين و الذين كانوا يبخلون بأموالهم- ينفقون أموالهم فى سبيل الله و فى مساعده عباد الله و بناء المجتمع و إصلاح شؤونه، و يؤدون زكاه أموالهم وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ .

٥- إنّ المنافقين فساق و متمردون، و خارجون من دائره الطاعه لأوامر الله، أما المؤمنون فهم على عكسهم تماما، إذ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ .

أمّا ختام الآيه فإنّه يتحدث عن امتيازات المؤمنين، و المكافأه و الثواب الذى ينتظرهم، و أول ما تعرضت لبيانه هو الرحمه الإلهيه التى تنتظرهم ف أولئك سَيَرَحْمُهُمُ اللَّهُ .

إن كلمة (الرحمة) التي ذكرت هنا لها مفهوم واسع، و يدخل ضمنه كل خير و بركة و سعادته، سواء في هذه الحياه أو في العالم الآخر، و هذه الجملة في الواقع جاءت مقابله لحال المنافقين الذين لعنهم الله و أبعدهم عن رحمته.

و لا شك أن وعد الله للمؤمنين قطعي و يقيني لأن الله قادر و حكيم، و لا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، و ليس الله القادر بعاجز عن الوفاء بوعدده حين وعد إن الله عزيز حكيم .

الآية الثانية شرحت جانباً من هذه الرحمة الإلهية الواسعة التي تعم المؤمنين في بعديها المادي و المعنوي. فهي أولاً تقول: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، و من خصائص هذه النعمة الكبيره أنها لا زوال لها و لا فناء، بل الخلود الأبدى، لذا فإن المؤمنين و المؤمنات سيكونون خالدين فيها .

و من الموهب الإلهية الأخرى التي سوف ينعمون بها هي المساكن الجميله، و المنازل المرفهه التي أعدها الله لهم وسط الجنان و مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ .

(عدن) في اللغة تعني الإقامة و البقاء في مكان ما، و لهذا يطلق على المكان الذي توجد فيه مواد خاصه اصطلاح (معدن)، و على هذا المعنى فإن هناك شباها بين الخلود و عدن، لكن لما أشارت الجملة السابقه إلى مسأله الخلود، يفهم من هذه الجملة أن جنات عدن محل خاص في الجنه يمتاز على سائر حدائق الجنه.

لقد وردت هذه الموهبه الإلهية بأشكال و تفسيرات مختلفه في الروايات و كلمات المفسرين، فنطالع

في حديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «عدن دار الله التي لم ترها عين، و لم يخطر على قلب بشر، لا- يسكنها غير ثلاثه: النبيين، و الصديقين، و الشهداء» (١).

و

في كتاب الخصال نقل عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قوله: «من سره أن يحيا حياتي، و يموت مماتي، و يسكن جنتي التي واعدني الله ربي، جنات عدن... فليوال علي بن أبي

ص: ١٢١

١-١) مجمع البيان، ذيل الآيه.

طالب عليه السّلام و ذريته عليهم السّلام من بعده» (١) و يتّضح من هذا الحديث أن جنات عدن حدائق خاصّه فى الجنّه سيستقر فيها النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم و جماعه من خلّص أصحابه و أتباعه.

و هذا المضمون قد ورد فى حديث آخر عن على عليه السّلام، و يدل على أن جنات عدن مقر إقامة نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم.

بعد ذلك تشير الآيه إلى الجزاء المعنوى المعد لهؤلاء، و هو رضى الله تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، و هو أهم و أعظم جزاء، و يفوق كل النعم و العطايا الأخرى وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ .

إنّ اللذّه المعنويه و الإحساس الروحى الذى يحس و يلتذ به الإنسان عند شعوره برضى الله سبحانه و تعالى عنه لا يمكن أن يصفه أى بشر، و على قول بعض المفسّرين فإنّ نسّمه و لحظه من هذه اللذّه الروحيه تفوق نعم الجنّه كلها و مواهبها المختلفه و المتنوعه و اللامتناهيه.

من الطبيعى أنّنا لا نستطيع أن نجسم و نرسم صوره فى أفكارنا عن أى نعمه من نعم الحياه الأخرى و نحن فى قفص الحياه الدنيا و حياتها المحدوده، فكيف سنصل إلى إدراك هذه النعمه المعنويه و الروحيه الكبرى؟! نعم، يمكن إيجاد تصور ضعيف عن الاختلافات الماديه و المعنويه التى نعيشها فى هذه الدنيا، فمثلا يمكن إدراك الاختلاف فى اللذّه بين اللقاء بصديق عزيز جدا بعد فراق طويل و لذّه الإحساس الروحى الخاص الذى يعترى الإنسان عند إدراكه أو حلّه لمسأله علميه معقده صرف فى تحصيلها و الوصول إلى دقائقها الشهور، بل السنين، أو الانشداد الروحى الذى يبعث على النشاط و الجد فى لحظات خلوص العباده، أو النشوه عند توجه القلب و حضوره فى مناجاه متمرج بهذا الحضور، و بين اللذّه التى نحس بها من تناول طعام لذيذ و أمثالها من اللذائد، و من الطبيعى أن هذه اللذائد الماديه لا يمكن مقارنتها باللذائد المعنويه، و لا يمكن

ص: ١٢٢

أن تصل إلى مصافها.

من هنا يتضح التصور الخاطئ لمن يقول بأن القرآن الكريم عند ما يتحدث عن الجزاء و العطاء الإلهي الذي سيناله المؤمنون الصالحون يؤكد على النعم المادية، ولا يتطرق إلى النواحي المعنوية، لأن الجملة أعلاه-أي: رضوان من الله أكبر- ذكرت أن رضوان الله أكبر من كل النعم، خاصه و أنها وردت بصيغه النكره، و هي تدل على أن قسما من رضوان الله أفضل من كل النعم المادية الموجوده في الجته، و هذا يبين القيمه الساميه لهذا العطاء المعنوى.

إن الدليل على أفضليه الجزاء المعنوى واضح أيضا، لأن الروح فى الواقع بمثابة(الجوهر) و الجسم بمكان(الصدف)، فالروح كالآمر و القائد، و الجسم كالجندي المطيع و المنفذ، فالتكامل الروحى هو الهدف، و الجسم وسيله و لهذا السبب فإن إشعاعات الروح و آفاقها أوسع من الجسم و اللذائذ الروحيه لا يمكن قياسها و مقارنتها بالذائذ الماديه و الجسميه، كما أن الآلام الروحيه أشد ألما من الآلام الجسميه.

و فى نهايه أشارت الآيه إلى جميع هذه النعم الماديه و المعنويه، و عبرت عنها بأن ذلك هو الفوز العظيم .

ص: ١٢٣

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأْمُؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)

التفسير

اشاره

جهاد الكفار و المنافقين:

و أخيراً، صدر القرار الإلهي للنبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم في وجوب جهاد الكفار و المنافقين بكل قوه و حزم يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ. و هذا العقاب هو العقاب الدنيوي، أما في الآخرة فإن محلهم و مأواهم جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ .

إن طريقه جهاد الكفار واضح و معلومه، فإن جهادهم يعني التوسل بكل الطرق و الوسائل في سبيل القضاء عليهم، و بالذات الجهاد المسلح و العمل العسكري، لكن البحث في أسلوب جهاد المنافقين، فمن المسلم أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يجاهدهم عسكرياً و لم يقابلهم بحد السيف، لأنَّ المنافق هو الذي أظهر الإسلام، فهو يتمتع بكل حقوق المسلمين و حمايه القانون الإسلامي بالرغم من أنه يسعى لهدم الإسلام في الباطن فكم من الأفراد لا حظ لهم من الإيمان، و لا يؤمنون حقيقه بالإسلام، غير أننا لا نستطيع أن نعاملهم معاملة غير المسلمين.

اذن، فالمستفاد من الروايات و أقوال المفسرين هو أن المقصود من جهاد

المنافقين هو الاشكال و الطرق الأخرى للجهاد غير الجهاد الحربى و العسكرى، كالذم و التوبيخ و التهديد و الفضيحة، و ربّما تشير جملة وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ إِلَى هذا المعنى.

و يحتمل فى تفسير هذه الآية: أنّ المنافقين يتمتعون بأحكام الإسلام و حقوقه و حمايته ما دامت أسرارهم مجهولة، و لم يتّضح وضعهم على حقيقته، أمّا إذا تبين وضعهم و انكشفت خبيثه أسرارهم فسوف يحكمون بأنّهم كفار حريون، و فى هذه الحالة يمكن جهادهم حتى بالسيف.

لكن الذى يضعف هذا الاحتمال أنّ إطلاق كلمة المنافقين على هؤلاء لا يصح فى مثل هذه الحالة، بل إنّهم يعتبرون من جملة الكفار الحربيين، لأنّ المنافق- كما قلنا سابقا- هو الذى يظهر الإسلام و يبطن الكفر.

اشاره

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)

سبب النزول

ذكرت في سبب نزول هذه الآيات أقوال و آراء مختلفه، و كلها تتفق على أن بعض المنافقين قد تحدثوا بأحاديث سيئه و غير مقبوله حول الإسلام و النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و بعد أن فشا أمرهم و انتشرت أسرارهم أقسموا كذبا بأنهم لم يتفوهوا بشيء، و كذلك فإنهم قد دبروا مؤامره ضد النبي صلى الله عليه و آله و سلم، غير أنها قد أحبطت.

و من جملتها: أن أحد المنافقين - و اسمه جلاس - سمع بعضا من خطب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أيام غزوه تبوك، و أنكرها بشده و كذبها، و بعد رجوع المسلمين إلى المدينه حضر رجل يقال له: عامر بن قيس - كان قد سمع جلاس - عند النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أبلغه كلام جلاس، فلما حضر جلاس و سأله النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن ذلك أنكره، فأمرهما

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْسَمَا بِاللَّهِ - فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْمَنْبَرِ - أَنْهُمَا لَا يَكْذِبَانِ، فَاقْتَرَبَا مِنَ الْمَنْبَرِ فِي الْمَسْجِدِ وَاقْسَمَا، إِلَّا أَنْ عَامَرَا دَعَا بَعْدَ الْقَسْمِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيَّ نَبِيَّكَ آيَةً تَعْرِفُ الصَّادِقَ، فَأَمَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى دَعَائِهِ. فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى: فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ قَالَ جَلَّاسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ اقْتَرَحَ عَلَيَّ التَّوْبَةَ، وَإِنِّي قَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَتْ مِنِّي، وَأَتُوبُ مِنْهُ، فَاقْبَلِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَوْبَتَهُ.

وَمَا أَشْرْنَا سَابِقًا فَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْمُنَافِقِينَ صَمَّمُوا عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْعَقْبَةِ نَفَرُوا بَعِيرَهُ لِيَسْقُطَ فِي الْوَادِي، إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَطْلَعَ بِنُورِ الْوَحْيِ عَلَى هَذِهِ النَّيَّةِ الْخَبِيثَةِ، فَدَرَسَ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوَرِهِمْ وَأَبْطَلَ مَكْرَهُمْ. وَكَانَ زَمَامُ النَّاقَةِ بِيَدِ عَمَارٍ يَقُودُهَا، وَكَانَ حَذِيفَةُ يَسُوقُهَا لِتَكُونَ النَّاقَةَ فِي مَأْمَنٍ تَامٍ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَسْلُكُوا طَرِيقًا آخَرَ حَتَّى لَا يَخْفَى الْمُنَافِقُونَ أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَنْقُذُوا خَطَّتَهُمْ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى سَمْعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَعَ أَقْدَامُ هَؤُلَاءِ أَوْ حَوَافِرُ خَيْولِهِمْ أَمْرًا بَعْضُ أَصْحَابِهِ أَنْ يَدْفَعُوهُمْ وَيَبْعُدُوهُمْ، وَكَانَ عَدَدُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ اثْنَيْ عَشَرَ أَوْ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَكَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ أَخْفَى وَجْهَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْوَضْعَ لَا يَسَاعِدُهُمْ عَلَى تَنْفِيزِ مَا اتَّفَقُوا تَوَارَوْا عَنِ الْأَنْظَارِ، إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَرَفَهُمْ وَذَكَرَ أَسْمَاءَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ (١).

لَكِنَّ الْآيَةَ - كَمَا سَنَرَى - تُشِيرُ إِلَى خَطَّتَيْنِ وَبِرَنَامَجَيْنِ لِلْمُنَافِقِينَ: إِحْدَاهُمَا:

أَقْوَالُ هَؤُلَاءِ السَّيِّئَةِ. وَالْأُخْرَى: الْمُؤَامَرَةُ وَالْخَطَّةُ الَّتِي أَحْبَطْتُ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَإِنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ كَلَامَ سَبِيِّ النَّزُولِ صَحِيحَانِ مَعًا.

ص: ١٢٧

(١ - ١) مَا ذَكَرْنَاهُ اقْتِبَاسًا مِنْ تَفْسِيرِ مَجْمَعِ الْبَيَانِ وَالْمَنَارِ وَرُوحِ الْمَعَانِي وَتَفَاسِيرِ أُخْرَى.

مؤامره خطره:

إن ارتباط هذه الآيه بالآيات السابقه واضح جدًا، لأنّ الكلام كان يدور حول المنافقين، غايه ما فى الأمر أنّ هذه الآيه تزيح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقين، وهو أن هؤلاء عند ما رأوا أن أمرهم قد انكشف، أنكروا ما نسب إليهم بل أقسموا باليمين الكاذبه على مدّعاهم.

□ فى البدايه تذكر الآيه أن هؤلاء المنافقين لا يرتدعون عن اليمين الكاذبه فى تأييد إنكارهم، و لدفع التهمه فإنهم يخلفون بالله □ ما قالوا فى الوقت الذى يعلمون أنّهم ارتكبوا ما نسب إليهم من الكفر و لقد قالوا كلمه الكفر و على هذا فإنهم قد اختاروا طريق الكفر بعد إعلانهم الإسلام و كفّروا بغير الإسلامهم. □ و من البديهي أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين منذ البدايه، بل إنهم أظهروا الإسلام فقط، و على هذا فإنهم بإظهارهم الكفر قد هتكوا و مزقوا حتى هذا الحجاب المزيف الذى كانوا يتسترون به.

و فوق كل ذلك فقد صمّموا على أمر خطير لم يوفقوا لتحقيقه و همّوا بما □ لم يذألوا و يمكن أن يكون هذا إشاره إلى تلك المؤامره لقتل النبى صلى الله عليه و آله و سلّم فى ليله العقبه، و التى مرّ ذكرها آنفاً، أو أنه إشاره إلى كل أعمال المنافقين التى يسعون من خلالها إلى تحطيم المجتمع الإسلامى و بثّ بذور الفرقة و الفساد و النفاق بين أوساطه، لكنهم لن يصلوا إلى أهدافهم مطلقاً.

مما يستحق الانتباه أن يقظه المسلمون تجاه الحوادث المختلفه كانت سببا فى معرفه المنافقين و كشفهم، فقد كان المسلمون -دائماً- يرصدون هؤلاء، فإذا سمعوا منهم كلاماً منافياً فإنهم يخبرون النبى صلى الله عليه و آله و سلّم به من أجل منعهم و تلقى الأوامر فيما يجب عمله تجاه هؤلاء. □ إن هذا الوعى و العمل المضاد المؤيّد بنزول الآيات أدى إلى فضح المنافقين و إحباط مؤامراتهم و خططهم الخبيثه.

الجملة الأخرى تبين واقع المنافقين القبيح و نكرانهم للجميل فتقول الآية: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَرَوْا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ
أى خلاف أو أذى، و لم يتضرروا بأى شىء نتيجة للتشريع الإسلامى، بل على العكس، فإنهم قد تمتعوا فى ظل حكم الإسلام
بمختلف النعم المادية و المعنوية وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ (١) و هذه قومه اللؤم.

و لا شك أنّ إغناءهم و تأمين حاجاتهم فى ظل رحمة الله و فضله و كذلك بجهود النبي صلى الله عليه و آله و سلم لا يستحق
أن ينقسم من جرائه هؤلاء المنافقون، بل إنّ حقّ الشكر و الثناء، إلاّ- أنّ هؤلاء اللؤماء المنكرين للجميل و المنحرفى السيره و
السلوك قابلوا الإحسان بالإساءة.

و مثل هذا التعبير الجميل يستعمل كثيرا فى المحادثات و المقالات، فمثلا نقول للذى أنعمنا عليه سنين طويله و قابل إحساننا
بالخيانه: إنّ ذنبا و تقصيرنا الوحيد أنّنا آويناك و دافعنا عنك و قدّمنا لك منتهى المحبّه على طبق الإخلاص.

غير أنّ القرآن- كعادته- رغم هذه الأعمال لم يغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبه و الرجوع إلى الحق على مصراعيه إن
أرادوا ذلك، فقال: فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ. و هذه علامه واقعيه للإسلام و اهتمامه بمسأله التربيّه، و معارضته لاستخدام الشدّه
فى غير محلّها و هكذا فتح باب التوبه حتى بوجه المنافقين الذين طالما كادوا للإسلام و تآمروا على نبيّه و حاكوا الدسائس و
التهم ضده، بل إنّ دعاهم إلى التوبه أيضا.

هذه فى الحقيقه هى الصوره الواقعيه للإسلام، فما أظلم هؤلاء الذين يرمون

ص: ١٢٩

١- ١) ممّا يستحق الانتباه أن الجملة أعلاه بالرغم من أنّها تتحدث عن فضل الله و رسوله، إلاّ أن الضمير فى مِنْ فَضْلِهِ جاء مفردا
لا- مثنى، و السبب فى ذلك هو ما ذكرناه قبل عدّه آيات من أن أمثال هذه التعبيرات لأجل إثبات حقيقه التوحيد، و أن كل
الأعمال بيد الله سبحانه، و أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم إذا ما عمل عملا- فهو بأمر الله سبحانه، و لا ينعزل عن إرادته
سبحانه.

الإلام بأنه دين القوه و الإرهاب و الخشونه! هل توجد فى عالمنا المعاصر دوله مستعده لمعامله من يسعى لإسقاطها و تحطيمها كما رأينا فى تعامل الإسلام السامى مع مناوئيه، مهما ادعت أنها من أنصار المحبه و السلام؟! و كما مرّ علينا فى سبب نزول الآيه، فإنّ أحد رؤوس النفاق و المخططين له لما سمع هذا الكلام تاب ممّا عمل، و قبل النبى صلى الله عليه و آله و سلّم توبته.

و فى نفس الوقت و من أجل أن لا يتصور هؤلاء أن هذا التسامح الإسلامى صادر من منطق الضعف، حذّره بأنهم إن استمروا فى غيهم و تنكروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشديد سينالهم فى الدارين و إن يتولّوا يُعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا و الآخره و إذا كانوا يظنون أنّ أحدا يستطيع أن يمدّ لهم يد العون مقابل العذاب الالهى فإنّهم فى خطأ كبير، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فسء صباح المنذرين: ﴿مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

من الواضح بديهه أنّ عذاب هؤلاء فى الآخره معلوم، و هو نار جهنم، أمّا عذابهم فى الدنيا فهو فضيحتهم و مهانتهم و تعاستهم و أمثال ذلك.

اشاره

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعَقَبَهُمُ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

سبب النزول

المعروف بين المفسرين أنّ هذه الآيات نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثعلبه بن حاطب، وكان رجلاً فقيراً يختلف إلى المسجد دائماً، وكان يصر على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو له بأن يرزقه الله مالا وفيراً،

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» أو ليس الأولى لك أن تتأسى بنبي الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتحيا حياه بسيطه و تقنع بها؟ لكن ثعلبه لم يكف و لم يصرف النظر عن أمله، وأخيراً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: والهدى بعثك بالحق نبياً، لئن رزقني الله لأعطين كل الحقوق و أؤدي كل الواجبات، فدعا له النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فلم يمض زمان -و على روايه -حتى توفي ابن عم له، وكان غنياً جداً،

فوصلت إليه ثروه عظيمه، و على روايه اخرى أنه اشترى غنما، فلم تزل تتوالد حتى أصبح حفظها و رعايتها فى المدينه أمرا غير ممكن، فاضطر أن يخرج إلى أطراف المدينه، فألهته أمواله عن حضور الجماعه، بل و حتى الجمعه.

و بعد مدّه أرسل النبي صلى الله عليه و آله و سلّم عاملا إلى ثعلبه ليأخذ الزكاه منه، غير أن هذا الرجل البخيل الذى عاش لتوّه حياه الرفاه امتنع من أداء حقوق الله تعالى، و لم يكتف بذلك، بل اعترض على حكم الزكاه و قال: إنّ حكم الزكاه كالجزيه، أى أننا أسلمنا حتى لا- نؤدى الجزيه، فإذا وجبت علينا الزكاه فأى فرق بيننا و بين غير المسلمين؟ قال هذا فى الوقت الذى لم يفهم معنى الجزيه و لا- معنى الزكاه، أو أنه فهمه، إلا أن حبّ الدنيا و تعلقه بها لم يسمح له ببيان الحقيقه و إظهار الحق، فلما بلغ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم ما قاله

قال: «يا ويح ثعلبه! يا ويح ثعلبه»، فنزلت هذه الآيات.

و قد ذكرت أسباب آخر لنزول هذه الآيات تشابه قصّه ثعلبه مع اختلاف يسير.

و يفهم من أسباب النزول المذكوره و من مضمون الآيات أنّ هذا الشخص- أو الأشخاص المذكورين- لم يكونوا من المنافقين فى بدايه الأمر، لكنّهم لهذه الأعمال ساروا فى ركابهم.

التفسير

إشارة

المنافقون و قلّه الاستيعاب:

هذه الآيات فى الحقيقه تضع إصبعها على صفه أخرى من صفات المنافقين السيئه، و هى أنّ هؤلاء إذا مسّ بهم البؤس و الفقر و المسكنه عزفوا على و تر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أنّ هؤلاء يمكن أن يكونوا يوما من جمله المنافقين، بل ربّما ذمّوا و لاموا الذين يمتلكون الثروات و القدرات الواسعه على عدم استثمارها فى خدمه المحرومين و مساعدته المحتاجين!

إلا- أن هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادى فإنهم سينسون كل عهودهم و مواثيقهم مع الله و الناس، و يغرقون فى حبّ الدنيا، و ربّما تغيّرت كل معالم شخصياتهم، و يبدوون بالتفكير بصورة أخرى و بمنظار مختلف تماما، و هكذا يؤدى ضعف النفس هذا إلى حبّ الدنيا و البخل و عدم الإنفاق و بالتالى يكرّس روح النفاق فيهم بشكل يوصد أمامهم أبواب الرجوع إلى الحق.

فآليه الأولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدون الله على البذل و العطاء لخدمه عباده إذا ما أعطاهم الله المال الوفير و منهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ و لنكوننّ من الصالحين .

إلا أنهم يؤكّدون هذه الكلمات و الوعود ما دامت أيديهم خاليه من الأموال فلما آتاهم من فضله بخلوا به و تولّوا و هم معرضون غير أن عملهم هذا و مخالفتهم للعهود التى قطعوها على أنفسهم بذرت روح النفاق فى قلوبهم و سيبقى إلى يوم القيامة متمكنا منهم فأعقبتهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونّه و إنما استحقوا هذه العاقبه السيئه غير المحموده بما أخلفوا الله ما وعده و بما كانوا يكذبون .

و فى النهايه و بخت الآيه هؤلاء النفر و لامتهم على النوايا السيئه التى يضمرونها، و على انحرافهم عن الصراط المستقيم، و استفهمت بأنهم أ لم يعلموا أنّ الله يعلم سرهم و نجواهم و أنّ الله علام الغيوب .

ملاحظات

و هنا يجب الانتباه إلى عدّه ملاحظات:

١- يمكن أن نرى بوضوح تام من خلال جملة فأعقبتهم نفاقاً فى قلوبهم أنّ النسبه و العلاقه بين الكثير من الذنوب و الصفات السيئه، بل و حتى بين الكفر

و النفاق، هي نسبه و علاقته العله و المعلول، لأنّ الجملة الآنفه الذكر تبيّن و تقول بصراحه: إنّ سبب النفاق الذى نبت فى قلوبهم و حرفهم عن الجاده هو بخلهم و نقضهم لعهودهم، و كذلك الذنوب و المخالفات الأخرى التى ارتكبوها، و لهذا فإننا نقرأ فى بعض العبارات أن الكبائر فى بعض الأحيان تكون سببا فى أن يموت الإنسان و هو غير مؤمن، إذ ينسلخ منه روح الإيمان بسببها.

٢- إنّ المقصود من يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ و الذى يعود ضميره إلى الله سبحانه و تعالى هو يوم القيامة، لأنّ تعبير لِقَاء رَبِّهِ و أمثاله فى القرآن يستعمل عادة فى موضوع القيامة. صحيح أن فتره العمل-التى هى الحياه الدنيا-تنتهى بموت الإنسان، و بموته يغلق ملف أعماله الصالحه و الطالحه، إلا أن آثار تلك الأعمال تبقى تؤثر فى روح الإنسان إلى يوم القيامة.

و قد احتمل جماعه أنّ ضمير (يلقونه) يعود إلى البخل، فيكون المعنى: حتى يلاقوا جزاء بخلهم و عقابه. و يحتمل كذلك أن يكون المراد من لقاء الله: لحظه الموت. إلا أن جميع هذه خلاف ظاهر الآيه، و الظاهر ما قلناه.

و لنا بحث فى أنه ما هو المقصود من لقاء الله فى ذيل الآيه (٦٤) من سوره البقره.

٣- و يستفاد أيضا-من الآيات أعلاه- أنّ نقض العهود و الكذب من صفات المنافقين، فهؤلاء سحقوا جميع العهود المؤكده مع ربهم و لم يعيروها أيه أهميه، فإنهم يكذبون حتى على ربهم، و الحديث المعروف المنقول عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم يؤكّد هذه الحقيقه، حيث

يقول صلى الله عليه و آله و سلم: «للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان» (١).

و من الملفت للنظر وجود هذه العلامات الثلاث مجتمعه فى القصه المذكوره- قصه ثعلبه-فإنه كذب، و أخلف وعده، و خان أمانه الله، و هى الأموال التى رزقه الله

ص: ١٣٤

(١-١) مجمع البيان، ذيل الآيه.

قد ورد الحديث المذكور في الكافي بصورة أشد تأكيداً عن الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف» (١).

نذكر هنا أن من الممكن أن تصدر الذنوب المذكورة من المؤمنين، إلا أنها نادرة، أما استمرار صدورها فهو علامه روح النفاق في ذلك الشخص.

٤- وهنا ملاحظة أخرى ينبغي أن ننبه عليها، وهي أن ما قرأناه في هذه الآيات ليس بحثاً تاريخياً مختصاً بحقه مضت من الزمان، بل هو بيان واقع أخلاقي واجتماعي يوجد في كل عصر و زمان، وفي كل مجتمع - بدون استثناء - توجد نماذج كثيرة تمثل هذا الواقع.

إذا لا - حظنا واقعا الذي نعيشه و دققنا فيه - وربما إذا نظرنا إلى أنفسنا - فسنتكشف نماذج من أعمال ثعلبه بن حاطب، وطريقه تفكيره في صور متعددة و أشخاص مختلفين، فإن الكثيرين في الأوضاع العادية أو عند إفسادهم و فقرهم يكونون من المؤمنين المتحرقين على دينهم و الثابتين على عهدهم حيث يحضرون في الحلقات الدينية، و ينضون تحت كل لواء يدعو إلى الإصلاح و إنقاذ المجتمع، و يضمون أصواتهم إلى كل مناد الحق و العدالة، و لا يألون جهداً في سبيل أعمال الخير، و يصرخون و يقفون بوجه كل فساد.

أمّا إذا فتحت أمامهم أبواب الدنيا و نالوا بعض العناوين و المراكز القيادية أو تسلطوا على رقاب الناس، فستغير صورهم و سلوكهم، و الأدهى من كل ذلك أن تتبدل ماهيتهم، و عندئذ سيخمد لهيب عشقهم لله، و يهدأ ذلك الهيجان و التحرق على دين الله، و تفتقد لهم تلك الحلقات و الجلسات الدينية، فلا يساهمون في أية خطة إصلاحية و لا يسعون من أجل ذلك الحق، و لا تثبت لهم قدم في مواجهه

هؤلاء و قبل أن يصلوا الى مآربهم لم يكن لهم محل من الإعراب، أو أثر فى المجتمع، لذا سيعاهدون الله و عباده بألف عهد و ميثاق بأنهم إن تمكنوا من الأمر، أو امتلأت أيادهم من القدرات و الأموال فسيفعلون كذا و كذا، و يتوسلون للوصول الى أهدافهم بطرح الآلف الإشكالات و الانتقادات فى حق المتصددين و يتهمونهم بعدم معرفتهم بإداره الأمور، و عدم إحاطتهم بوظائفهم و واجباتهم، أمّا إذا وصلوا الى ما يرومونه و تمكنوا من الأمر، فسيسنون كل تلك الوعود و العهود و يتنكرون لها، و ستبخر كل تلك الإيرادات و الانتقادات و تذوب كما يذوب الجليد فى حراره الصيف.

نعم، إنَّ ضعف النفس هذا واحده من العلامات البارزه و الواضحه للمنافقين، و هل النفاق إلاّ كون صاحبه ذا وجهين، و بتعبير آخر: هل هو إلاّ ازدواج الشخصيه؟ إن سيره هكذا أفراد و تأريخهم نموذج للشخصيه المزدوجه، لأن الإنسان الأصيل ذو الشخصيه المتينه لا يكون مزدوج الشخصيه.

و لا شك أنّ للنفاق درجات مختلفه، كالإيمان، تماما، فالبعض قد ترسخت فيهم هذه الخصله الخبيثه الى درجه اقتلعت كل زهور الإيمان بالله من قلوبهم، و لم تبق لها أثرا، بالرغم من أنّهم ألصقوا أنفسهم بالمؤمنين و ادعوا أنّهم منهم.

لكن البعض الآخر مع أنّهم يملكون إيمانا ضعيفا، و هم مسلمون بالفعل، إلاّ أنّهم يرتكبون أعمالا تتفق مع سلوك المنافقين، و تفوح منها رائحه الازدواجيه، فهؤلاء ديدنهم الكذب، إلاّ أن ظاهرهم الصدق و الصلاح، و مثل هؤلاء يصدق عليهم أيضا أنّهم منافقون و ذوو وجهين.

أليس الذى عرف بالأمانه لظاهره الصالح، و استطاع بذلك أن يكسب ثقته و اطمئنان الناس فأودعوه أماناتهم، إلاّ أنّه يخونهم فى أماناتهم، هو فى واقع الحال مزدوج الشخصيه؟

و كذلك الذين يقطعون العهود و المواثيق، لكنهم لا- يفون بها مطلقا، ألا- يعتبر عمل المنافقين؟ إن من أكبر الأمراض الاجتماعية، و من أهم عوامل تخلف المجتمع وجود أمثال هؤلاء المنافقين في المجتمعات البشرية و نحن نستطيع أن نحصى الكثير منهم في مجتمعاتنا الاسلاميه إذا كنا واقعيين و لم نكذب على أنفسنا. و العجب أننا رغم كل هذه العيوب و المخازي و البعد عن روح التعليمات و القوانين الإسلاميه، فإننا نحمل الإسلام تبعه تخلفنا عن الركب الحضارى الأصيل!

ص: ١٣٧

اشاره

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اِسْتَعْفِرُوا لَكُمْ أَوْ لَا - تَسْتَغْفِرُوا لَكُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُوا لَكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

سبب النزول

وردت عدّه روايات فى سبب نزول هذه الآيات فى كتب التفسير و الحديث، يستفاد من مجموعها أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابله العدو- و ربّما كان ذلك فى غزوه تبوك- و كان محتاجا لمعونه الناس فى هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاه أو الإنفاق، و وضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

أمّا الفقراء، كأبى عقيل الأنصارى أو سالم بن عمير الأنصارى، لما لم يجدوا ما ينفقونه لمساعدته جنود الإسلام، فقد عمدوا إلى مضاعفه عملهم، و استقاء الماء

ليلاً فحصلوا على صاعين من التمر، فادخروا منه صاعاً لمعيشتهم و معيشه أهليهم، و أتوا بالآخر إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قدموه، و شاركوا بهذا الشيء اليسير-الذى لا قيمه له ظاهراً- فى هذا المشروع الإسلامى الكبير.

غير أنّ المنافقين الذين لا همّ لهم إلاّ تتبع ما يمكن التشهير به بدلاً من التفكير بالمساهمة الجديه فإنّهم عابوا كلا الفريقين، أمّا الأغنياء فاتهموهم بأنّهم إنّما ينفقون رياء و سمعه، و أمّا الفقراء الذين لا يستطيعون إلاّ جهدهم، و الذين قدموا اليسير و هو عند الله كثير، فإنهم سخروا منهم بأن جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، و هدّتهم تهديداً شديداً و حذرتهم من عذاب الله.

التفسير

إشارة

خبث المنافقين:

فى هذه الآيات إشارة إلى صفة أخرى من الصفات العامّة للمنافقين، و هى أنّهم أشخاص لجوجون معاندون و همهم التماس نقاط ضعف فى أعمال الآخرين و احتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع و محاوله إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير و بذلك يزرعون بذور النفاق و سوء ظن فى أذهان المجتمع، و بالتالى إيقاف عجله الإبداع و تطور المجتمع و خمول الناس و موت الفكر الخلاق.

لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التى يتبعها هؤلاء، و عرّفها للمسلمين لكى لا يقعوا فى حبال مكر المنافقين و من ناحيه أخرى أراد أن يفهم المنافقون أن سهمهم لا يصيب الهدف فى المجتمع الإسلامى.

ففى السدياه يقول: إنّ هؤلاء الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين فى الصدقات و الذين لا يجدون إلاّ جهدهم فيسخرّون منهم
سخرّ الله منهم و لهم عذاب

«يلمزون» مأخوذه من مادته (لمز) بمعنى تتبع العيوب و العثرات، و«المطووعين» مأخوذه من مادته (طوع) على وزن (موج) بمعنى الطاعة، لكن هذه الكلمه تطلق عادة على الأفراد الذين دأبهم عمل الخيرات، و هم يعملون بالمستحبات علاوه على الواجبات.

و يستفاد من الآيه أعلاه أنّ المنافقين كانوا يعيبون جماعه، و يسخرون من الأخرى، و من المعلوم أن السخريه كانت تنال الذين يقدمون الشيء القليل، و الذين لا يجدون غيره لبيد لوه فى سبيل الإسلام، و على هذا لا بد أن يكون لمزهم و طعنهم مرتبطا بأولئك الذين قدموا الأموال الطائله فى سبيل خدمه الإسلام العزيز، فكانوا يرمون الأغنياء بالرياء، و يسخرون من الفقراء لقله ما يقدمونه.

و نلاحظ فى الآيه التى تليها تأكيداً أشد على مجازاه هؤلاء المنافقين، و تذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام و تحويله من الغيبه إلى الخطاب، و المخاطب هذه المره هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقالت: **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .**

و إنما لن يغفر الله لهم لأنهم قد أنكروا الله و رساله رسوله، و اختاروا طريق الكفر، و هذا الإختيار هو الذى أرداهم فى هاويه النفاق و عواقبه المشؤومه ذلك بأنهم كفروا بالله و رسوله . و من الواضح أن هدايه الله تشمل السائرون فى طريق الحق و طلب الحقيقه، أما الفساق و المجرمون و المنافقون فإن الآيه تقول: **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .**

و هنا نلفت الأنظار إلى عدّه ملاحظات:

١- إنّ نوع العمل هو المهم لا مقداره، وهذه الحقيقة في القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند في أى مورد إلى كثره العمل و مقداره، بل هو يؤكّد دائماً-و في كل الموارد-على أن الأساس هو نوع العمل و كفاءته، و هو يولى الإخلاص في العمل أهميه خاصّه، و الآيات المذكوره نموذج واضح لهذا المنطق القرآنى.

و كما رأينا- أنّ القرآن الكريم مجّد عملا مختصرا لعامل مسلم بقى يعمل إلى الصباح فى استقاء الماء بقلب يغمره عشق الله و محبته، و ينبض بالمسؤوليه تجاه مشاكل المجتمع الإسلامى ليحصل على صاع من تمر و يقدمه لمقاتلى الإسلام فى لحظات حساسه و فى مقابل ذلك نرى القرآن قد ذمّ الذين حقّروا هذا العمل الصغير ظاهرا، الكبير واقعا، و هدّدهم و أوعدهم بالعذاب الأليم الذى ينتظرهم.

و من هذه الواقعه تتّضح حقيقه أخرى، و هى أنّ المسلمين فى المجتمع الإسلامى الواقعى السالم يجب أن يحسوا جميعا بالمسؤوليه تجاه المشاكل التى تعترض المجتمع و تظهر فيه، و لا يجب أن ينتظروا الأغنياء و المتمكنين يقوموا و حدهم بحل هذه المشاكل و المصاعب، بل على الضعفاء أيضا أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر و قل ما يقدمونه، لأنّ الإسلام يتعلّق بالجميع لا بفئه منهم، و على هذا، فعلى الجميع أن يسعوا فى حفظ الإسلام و لو ببذل النفوس و الدماء، و يعملوا بكل وجودهم من أجل حياته و صيائه. المهم أن كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، و لا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثره العطاء و قلته، بل الإحساس بالمسؤوليه و الإخلاص فى العمل.

و من المناسب فى هذا المقام أن نطالع حديثا نقل

عن النبى صلى الله عليه و آله و سلّم، حيث سئل:

أى الصدقه أفضل؟ فقال صلى الله عليه و آله و سلّم: «جهد المقل».

٢- إنّ الصفه التى ذكرتها الآيات السابقه كسائر صفات المنافقين الأخرى لا

تختص بمنافقى عصر النبوه، بل هى مشتركه بين منافقى كل العصور و الأزمنه، فإن هؤلاء يسعون بسوء ظنهم و دناءه سريرتهم أن يقللوا من أهميه أعمال الخير بأساليب مختلفه، و إماتة الحوافز الخيره فى الناس و السخريه و الاستهزاء، و الاستهانه بأعمال الفقراء المخلصه و الخاليه من كل شائبه، و تحطيم شخصيه هؤلاء، كل ذلك من أجل إطفاء جذوه الخير فى المجتمع لينالوا ما يطمحون إليه من الشر و الفساد.

إلا أن الواجب على المسلمين الواعين فى كل عصر و زمن أن ينتبهوا إلى أهداف المنافقين و خططهم، و أن يشمروا الساعد و يحثوا السير فى الاتجاه المضاد لعمل هؤلاء، فيدعون الناس إلى عمل الخير، و يوقرون و يعظمون العمل الصغير إذا صدر من الفقراء، و يكبرون فيهم تلك النفوس التى لم تقصير عن خدمه الإسلام حسب طاقتهم، و عن هذا الطريق سيشجعون الصغير و الكبير على الاستمرار فى هذه الأعمال، بل و يكثرون منها إذا قدروا، و كذلك عليهم أن يبينوا لهم خطط المنافقين الهدامه فى سبيل تحطيمهم، فإذا عرفها المجتمع فسوف لا- تؤثر فيه دعاياهم و سموهم، و عندها سيستمر فى طريق الخير و خدمه الدين الحنيف و تثبيت هذه العقيدة التى اختارها.

□
٣- ليس المراد من جمله سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ سَيَعْمَلُ أَعْمَالًا تَشَابَهَ أَعْمَالَهُمْ، بل المراد- كما قاله المفسرون- أَنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ تَعَالَى سَيَجَازِيهِمْ عَلَى مَا عَمَلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، أو أَنَّهُ تَعَالَى سَيَحْقِرُهُمْ كَمَا حَقَرُوا عِبَادَهُ وَ سَخَرُوا مِنْهُمْ.

٤- لا- شك أن عدد السبعين الوارد فى الآية يدل على الكثرة لا- على نفس العدد، و بعبارة أخرى: إن معنى الآية، أنك مهما استغفرت لهؤلاء فلن يغفر الله لهم، تماما كما يقول شخص لآخر: إذا أصررت و كررت قولك مائة مره فلن أقبل منك، و لا يعنى هذا أنه لو كرر قوله مائة مره و زاد واحده فسوف يقبل قوله، بل المراد أن قوله سوف لن يقبل مطلقا مهما كرره.

إن مثل هذا التعبير يفيد تأكيد المراد، ولهذا فقد ذكر هذا الموضوع بنفسه في الآية (٦) من سورة المنافقين، وقد نفى نفيًا مطلقًا، حيث تقول الآية: **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** .

و الدليل الآخر على هذا الكلام، العلة التي ذكرت في آخر الآية، وهي: **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** وهي توضح أن الاستغفار لأمثال هؤلاء مهما كثر وعظم فإنه سوف لا ينجيهم، ولا يمكن أن يكون سببا في خلاصهم مما ينتظرهم.

العجيب في الأمر أن عدّه روايات نقلت من مصادر أهل السنه،

ورد فيها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال بعد أن نزلت هذه الآية: «لأزيدن في الاستغفار لهم على سبعين مرّه!» رجاء منه أن يغفر الله لهم، فنزلت: **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (١)** .

وهذه الروايات تعنى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد فهم من هذه الآية أن المراد من السبعين هو العدد بالذات، ولهذا

قال: «لأزيدن في الاستغفار لهم على سبعين مرّه» في الوقت الذي تريد الآية- كما قلنا- أن تقول لنا: إن العدد المذكور ذكر على وجه الكثرة والمبالغة، وكنايه عن النفي المطلق المقترن بالتأكيد، خصوصا مع ملاحظه العله التي ذكرت في ذيل الآية التي توضح ما ذكرناه.

و على هذا الأساس فإنّ هذه الروايات لا يمكن قبولها لأنها تخالف القرآن، خاصّه و أن أسانيدها غير معتبره عندنا.

التوجيه الوحيد الممكن لهذه الروايات- بالرغم من أنه خلاف الظاهر- هو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول ذلك قبل نزول الآيات المذكوره، و لما نزلت هذه الآيات كف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الاستغفار لهؤلاء.

ونقلت روايه أخرى في هذا الموضوع، قد تكون هي الأصل للروايات

ص: ١٤٣

١- ١) لقد وردت روايات كثيره بهذا المضمون ذكرت في تفسير الطبرى، ج ١٠، ص ١٣٨.

الأخرى المذكوره، وإنما اختلفت الروايات لأنها نقلت بالمعنى لا بالنص، وهي

أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لو علمت إنني لو زدت على السبعين مرة غفر لهم لفعلت»، ومعنى هذا الكلام-خاصه مع ملاحظه(لو)الداله على الامتناع-أني أعلم أن الله سبحانه لا يغفر لهؤلاء، غير أن قلبي يحرص على هدايه عباد الله و نجاتهم، بحيث لو عملت-فرضا-أن الزيادة في الاستغفار عن السبعين مرة ستنجيهم لفعلت ذلك.

و على كل حال، فإن معنى الآيات المذكوره واضح، و كل حديث يخالفها فإمّا أن يوجه بحيث يوافقها أو يطرح جانباً.

ص: ١٤٤

اشاره

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيُبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدْوًّا إِنْكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)

التفسير

اشاره

إعاقه المنافقين مزه أخرى:

يستمر الحديث في هذه الآيات حول تعريف المنافقين و أساليب عملهم و سلوكهم و أفكارهم ليعرفهم المسلمون جيدا، و لا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم و خططهم الخبيثة و سمومهم.

في البدايه تتحدث الآيه عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد في غزوه تبوك،

و تعذروا بأعداء واهيه كبيت العنكبوت، و فرحوا بالسلامه و الجلوس فى البيت بدل المخاطره بأنفسهم و الاشتراك فى الحرب رغم أنها مخالفه لأوامر الله و رسوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ و بدل أن يضعوا كل وجودهم و إمكاناتهم فى سبيل الله لينالوا افتخار الجهاد و عنوان المجاهدين، فإنهم امتنعوا و كرهوا أن يُجاهدوا بِأَمْوَالِهِمْ و أَنْفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ .

إلا- أن هؤلاء النفر لم يكتفوا بتخلفهم و تركهم لهذا الواجب المهم، بل إنهم سعوا فى تحذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشيطانية و محاوله إخماد جذوه الحماسه الملتبهه فى صدور المسلمين و تشبث المنافقون بكل عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى و لو كان العذر الحر!! و قالوا لا تَنْفِرُوا فى الْحَرِّ . و فى الحقيقه إن هؤلاء كانوا يطمعون فى أضعاف إرادته المسلمين، و من جهه أخرى كانوا يحاولون سحب أكبر عدد ممكن إلى مستنقع رذيلتهم، حتى لا ينفردوا بالجرم.

ثم تتغير وجهه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فيأمره الله سبحانه و تعالى أن يجيبهم بلهجه شديده و أسلوب قاطع: قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . لكنهم للأسف لضعف إيمانهم، و عدم الإدراك الكافى لا يعلمون آيه نار تنتظرهم، فشراره واحده من تلك النار أشد حراره من جميع نيران الدنيا و أشد حرقة و ألما.

و تشير الآيه الثانيه إلى أن هؤلاء قد ظنوا بأنهم قد حققوا نصرا بتخلفهم و تحذيلهم المسلمين و صرف أنظارهم عن مسأله الجهاد، و ضحكوا لذلك و قهقهوا بملء أفواههم، و هذا هو حال المنافقين فى كل عصر و زمن، إلا أن القرآن حذرهم من مغبه أعمالهم فقال: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا و لِيُنْكُوا كَثِيرًا .

نعم، ليكوا على مستقبلهم المظلم ليكوا على العذاب الأليم الذى ينتظرهم ليكوا على أنهم أعلقوا كل أبواب العوده بوجوههم، و أخيرا ليكوا على ما أنفقوا من قوتهم و قدراتهم و عمرهم الثمين، و اشتروا به الخزى و الفضيحه و سوء العاقبه و تعاسه الحظ.

و فى نهايه الآيه بيّن الله تعالى أنّ هذه العاقبه التى تنتظرهم هى جزاءٌ بما كانوا يكسبون .

مما قلناه يتّضح أنّ المقصود هو: إنّ هذه الجماعه يجب أن يضحكوا قليلا فى هذه الدنيا و يبكوا كثيرا، لأنّهم لو اطلعوا على ما ينتظرهم من العذاب الأليم لبكوا كثيرا و لضحكوا قليلا بالفعل.

إلا- أنّ بعض المفسّرين يذكر رأيا آخر فى تفسير هذه الآيه، و هو أنّهم مهما ضحكوا فإنّ ضحكهم قليل لقصر عمر الدنيا، و سيكون فى الآخره بكاء بحيث أن كل بكاء الدنيا لا يعادل شيئا من ذلك البكاء.

غير أن التفسير الأوّل أنسب و أوفق لظاهر الآيه، و للتعبيرات المشابهه لها سواء وردت فى الأقوال أم الكتابات، خاصّه إذا علمنا أن اللازم من التفسير الثّانى أن يكون معنى الأمر فى الآيه هو الإخبار لا الأمر، و هذا خلاف الظاهر.

و يشهد للمعنى الأوّل

الحديث المعروف عن النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم، و الذى ذكره كثير من المفسّرين، حيث قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا». (فتأمل جيدا).

و فى آخر آيه- من الآيات محلّ البحث- إشاره إلى طريقه أخرى دقيقه و خطره من طرق المنافقين، و هى أنّهم حينما يفعلون ما يخالف القانون الإسلامى، فإنّهم يظهرون أعمالا يحاولون بها جبران ما صدر منهم، و محاوله تبرئه ساحتهم ممّا يستحقون من العقوبه، و بهذه الأعمال المناقضه لأعمالهم المخالفه للقانون فإنّهم يخفون وجوههم الحقيقه، أو يسعون إلى ذلك.

إنّ الآيه الكريمه تقول: فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَيَّدًا و لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عِدًّا أَي أنّ النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم يجب أن يزرع اليأس فى نفوس هؤلاء، و يعلمهم أن هذا التلون سوف لا- ينطلى على أحد، و لن يخدع بهم أحد، و الأوّل لهم أن يحزموا أمتعتهم و يرحلوا من هذا المكان إلى

مكان آخر، فإنَّ أحدا سوف لا يقع في مكائدهم و حباثلهم في هذه المدينة.

و توجد هنا مسألة ينبغي التنبيه إليها، و هي أنَّ جملة طَائِفَةٍ مِنْهُمْ توحى أن هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا و يطلبوا من النَّبى صلى الله عليه و آله و سلَّم السماح لهم فى الخروج إلى الجهاد، ربّما لأنَّ بعضهم كانوا مفضوحين إلى حد يدخلون معه من الحضور فى مجلس النَّبى صلى الله عليه و آله و سلَّم و طلب الخروج معه.

ثمَّ تبيّن الآيه أن سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء و طلبهم ب إِنْكُمْ رَضِيْتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ .

ملاحظات

١- لا شك أنَّ هذه المجموعه من المنافقين لو كانوا قد ندموا على تخلفهم و تابوا منه، و أرادوا الجهاد فى ميدان آخر من أجل غسل ذنبهم السابق، لقبيل الله تعالى منهم ذلك، و لم يردهم النَّبى صلى الله عليه و آله و سلَّم، فعلى هذا يتبيّن لنا أن طلبهم هذا بنفسه نوع من المراوغه و الشيطنه و عمل نفاقى، أو قل: إنَّه كان تكتيكا من أجل إخفاء الوجه القبيح لهم، و الاستمرار فى أعمالهم السابقه.

٢- إنَّ كلمه (خالف) تأتي بمعنى المتخلف، و هي إشارة إلى المتخلفين عن الحضور فى ساحات القتال، سواء كان تخلفهم لعذر أو بدون عذر.

و ذهب البعض قال: إنَّ خالف بمعنى مخالف، أى اذهبوا أيها المخالفون و ضموا أصواتكم إلى المنافقين لتكونوا جميعا صوتا واحدا.

و فسرها البعض بأنَّ معناها (فاسد) لأنَّ الخلوف بمعنى الفساد، و خالف: جاء فى اللغه بمعنى فاسد.

و يوجد احتمال آخر، و هو أنَّه قد يراد من الكلمه جميع المعانى المذكوره، لأنَّ المنافقين و أنصارهم توجد فيهم كل هذه الصفات الرذيله.

٣- وكذا ينبغي أن نذكر بأن المسلمين يجب أن يستفيدوا من طرق مجابهة المنافقين في الأعصار الماضيه، و يطبقوها في مواجهه منافقى محيطهم و مجتمعهم، كما يجب اتباع نفس أسلوب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم معهم، و يجب الحذر من السقوط فى شباكههم و أن لا ينخدع المسلم بهم، و لا يرق قلبه لدموع التماسيح التى يذرفونها، «فإن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين».

ص: ١٤٩

اشاره

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تَعْجَبْكَ أُمَّةٌ مِنْهُمْ
وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)

التفسير

اشاره

أسلوب أشد في مواجهه المنافقين:

بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم في ميدان القتال، و علم الناس تخلفهم الصريح، و فشا سرهم، أمر الله سبحانه و تعالى نبيه بأن يتبع أسلوبا أشد و أكثر صراحة ليقطع و إلى الأبد- جذور النفاق و الأفكار الشيطانية، و ليعلم المنافقون بأنهم لا محل لهم في المجتمع الإسلامي، و كخطوه عمليه في مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهي و لَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ .

إن هذا الأسلوب- في الواقع- هو نوع من الكفاح السلبي الفاعل في مواجهه المنافقين، لأن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يستطع- للأسباب التي ذكرناها آنفا- أن يأمر بقتل

هؤلاء صراحه لتطهير المجتمع الإسلامى منهم، أما هذا الأسلوب السلبي فهو مؤثر فى احتقار هؤلاء و تحجيم دورهم، و تقزيمهم و طردهم من المجتمع الإسلامى.

من المعلوم أنّ المؤمن الحقيقى محترم فى الشرع الإسلامى حيا و ميتا، و لهذا نرى الدين الإسلامى الحنيف قد أصدر ضمن تشريعاته الأمر بتغسيل الميت و تكفينه و الصلاه عليه و دفنه، و أوجب أن يولى احتراما كبيرا، و أن يودع التراب بمراسم خاصه، و حتى بعد دفنه فإنّ من حقوقه أن يزور المؤمنون قبره، و يستغفروا له، و يطلبوا رحمه له.

إنّ عدم إجراء هذه المراسم لفرد معين يعنى طرده من المجتمع الإسلامى، و إذا كان الطارد له هو النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم نفسه، فإنّ الصدمه و الأثر النفسى على نفسيته و وجوده سيكون شديدا جدا.

إن هذا البرنامج و الأسلوب الدقيق فى الواقع - كان قد أعد لمقابله منافقى ذلك العصر، و يجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب، أى أنّ هؤلاء المنافقين ما داموا يظهرون الإسلام، فمن الواجب عليهم أن يعاملوهم كمسلمين و إن كان باطنهم شيئا آخر، أما إذ أظهروا نفاقهم، و كشفوا اللثام عن وجوههم الحقيقيه، فعندئذ يجب أن يعاملوهم كأجانب عن الإسلام.

و فى آخر الآيه يتّضح سبب هذا الأمر الإلهى ب إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ رَغِمَ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ لَم يَفْكَرُوا بِالتَّوْبَةِ وَ لَم يَنْدَمُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ لِيَغْسِلُوهَا بِالتَّوْبَةِ، بل إِنَّهُمْ بَقُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَ مَاتُوا وَ هُمْ كَافِرُونَ .

و هنا يمكن أن يسأل أحدكم: إنّ المنافقين إذا كانوا - حقيقه - بهذا البعد عن رحمه الله، و على المسلمين أن لا يظهروا أى ود أو محبه تجاههم، فلما ذا فضّلهم الله تعالى و منحهم كل هذه القوى الاقتصاديه من الأموال و الأولاد؟ فى الآيه الأخرى يوجه الله سبحانه و تعالى الخطاب إلى النّبى وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مِنْهُ وَ مَحَبَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُؤْلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، بل

على العكس تماما، فإن هذه الأموال والأولاد ليست لسعادتهم، بل إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا و تزهد أنفسهم و هم كافرين .

إن هذه الآية-كنظيرتها التي مرّت في هذه السوره، و هي الآية ٥٥- تشير إلى حقيقه، و هي أن هذه الإمكانيات و القدرات الاقتصاديه و القوى الإنسانيه للأشخاص الفاسدين ليست غير نافع لهم فحسب، بل هي -غالبا- سبب لابتلائهم و تعاستهم، لأن أشخاصا كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم في مواردنا الصحيحه ليستفيدوا منها الفائدته البناءه، و لا يتمتعون بأبناء صالحين كي يكونوا قره عين لهم و معتمدتهم في حياتهم. بل إن أموالهم تصرف غالبا في طريق الشهوات و المعاصي و نشر الفساد و تحكيم أعمده الظلم و الطغيان، و هي السبب في غفلتهم عن الله سبحانه و تعالى، و كذلك أولادهم في خدمه الظلمه و الفاسدين، و مبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقيه، و بذلك سيكونون سببا في تراكم البلايا و المصائب.

غايه الأمر إن الذين يظنون أن الأصل في سعادته الإنسان هو الثروه و القوه البشريه فقط، أما كيفيه صرف هذه الثروه و القوه فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحه حياتهم مفرحه و مبهجه ظاهرا، إلا أننا لو اقتربنا منها و اطلعنا على دقائقها، و علمنا أن الأساس في سعادته الإنسان هو كيفيه الاستفاده من هذه الإمكانيات و القدرات لعلمنا أن هؤلاء ليسوا سعداء مطلقا.

و هنا يجب الانتباه لمسألتين:

١- لقد وردت في سبب نزول الآية الأولى روايات متعدده لا تخلو من الاختلاف.

فيستفاد من بعض الروايات، أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم لما مات عبد الله بن أبي -المنافق المشهور- صلى عليه، و وقف على قبره و دعا له، بل لفته بقميصه ليكون كفنا له،

فنزلت الآيه ونهت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن تكرار هذا الفعل.

فى الوقت الذى يفهم من روايات أخرى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد صمّم أن يصلى عليه، فنزل جبرئيل و تلا هذه الآيه، ومنعه من هذا العمل.

و تقول عده روايات أخرى أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل عليه، ولم يكن عزم على هذا العمل، غاية ما فى الأمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل قميصه ليكفن به لترغيب قبيله عبد الله بن أبى فى الإسلام، ولما سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن سبب فعله هذا أجاب صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ قميصه سوف لن ينجيه من العذاب، لكنّه يأمل أن يسلم الكثير بسبب هذا العمل، وبالفعل قد حدث هذا، فإنّ الكثير من قبيله الخزرج قد أسلموا بعد هذه الحادثه.

و بالنظر إلى اختلاف هذه الروايات اختلافا كثيرا، فإنّا قد صرفنا النظر عن ذكرها كسب للنزول، خصوصا على قول بعض المفسرين الكبار بأنّ وفاه عبد الله بن أبى كانت سنه (٩) هجرية، أمّا هذه الآيات فقد نزلت فى حدود السنه الثامنه. (١)

غير أن الذى لا- يمكن إنكاره، أنّ الظاهر من أسلوب الآيه ونبرتها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى على المنافقين، وكان يقف على قبورهم قبل نزول هذه الآيات، لأنّ هؤلاء كانوا مسلمين ظاهرا (٢)، لكنّه امتنع من هذه الأعمال بعد نزول هذه الآيه.

٢- وكذلك يستفاد من الآيه المذكوره جواز الوقوف على قبور المؤمنين

ص: ١٥٣

(١-١) راجع الميزان، ج ٩، ص ٣٦٧.

(٢-٢) يستفاد من مجموعه من الروايات أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى على المنافقين بعد نزول هذه الآيه أيضا، إلاّ أنّه يكبر أربعا لا أكثر، أى أنّه كان يصرف النظر عن التكبير الخامس الذى هو دعاء للميت. إنّ هذه الروايه يمكن قبولها فيما لو كان معنى الصلاه هنا الدعاء، و(لا تصل) فى الآيه هو(لا تدع)، أمّا لو كان المراد(لا تصل) فإنّ هذه الروايه تخالف ظاهر القرآن، و(لا- يمكن قبولها. و(لا- يمكن إنكار أن جمله(لا- تصل) ظاهره بالمعنى الثانى، و لذلك فإنّنا لا نستطيع-من وجهه نظر الحكم الإسلامى- أن نصلى على المنافقين الذين اشتهر نفاقهم بين الناس، و أن نرفع اليد عن ظهور الآيه لروايه مبهمه.

و الدعاء لهم و الترحم عليهم، لأنّ النهى الوارد فى الآيه مختص بالمنافقين، و على هذا فإنّ هذه الآيه تعنى بمفهومها جواز زياره قبور المؤمنين، أى: الوقوف على قبورهم و الدعاء لهم. إلاّ- أن الآيه قد سكنت عن مسأله إمكان التوسل بقبور هؤلاء المؤمنين، و طلب قضاء الحاجات ببركتهم من الله تعالى، رغم جواز ذلك من وجهه نظر الروايات الإسلاميه.

اشاره

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ إِسِيْتَأَذْنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

التفسير

اشاره

دناءه الهمه

الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول المنافقين، إلا أن هذه الآيات تقارن بين الأعمال القبيحه للمنافقين و أعمال المؤمنين الحقيقيين الحسنه، و توضح من خلال هذه المقارنه انحراف هؤلاء المنافقين و دناءتهم.

فالآيه الأولى تتحدث عن حال المنافقين إذا ما دعا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الناس إلى

الثبات على الإيمان و الجهاد فى سبيل الله، فإنهم- أى المنافقون- رغم قدرتهم الجسميه و المالىه سيطلبون العذر و السماح لهم بعدم المشاركه و البقاء مع ذوى الأعذار: وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ .

كلمه «الطول» على وزن فعل- جاءت بمعنى القدره و الاستطاعه المالىه، و على هذا فإنَّ أُولُوا الطَّوْلِ بمعنى المستطيعين و القادرين ماليا و جسميا على الحضور فى ميدان الحرب، و رغم ذلك فهم يميلون إلى التخلف مع أولئك الذين لا قدره لديهم- ماديا أو بدنيا- على الحضور و المشاركه فى الجهاد.

و أصل هذه الكلمه مأخوذ من «الطول» ضد العرض، و الاشتراك و الارتباط بين هذين المعنيين واضح، لأنَّ القدره المالىه و الجسميه يعطى معنى الاستمراريه و الدوام و طول القدره.

و فى الآيه التى تليها و بخ القرآن هؤلاء و ذمهم و قبحهم بأنهم رضوا بأن يكونوا مع الخوالم، و كما أشرنا سابقا، فإنَّ خوالم جمع خالفه، و أصلها من (خلف)، و لذلك يقال للمرأة إذا خرج الرجل من المنزل، و بقيت فى المنزل: إنَّها خالفه. و المقصود من الخوالم فى هذه الآيه كل الذين عذروا عن المشاركه فى الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مستئين أو مرضى أو صبيان. و قد أشارت بعض الأحاديث الوارده فى تفسير الآيه إلى هذا الموضوع.

ثم أضافت الآيه: بأن هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب و النفاق و صلوا إلى مرحله و طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون. و قد بحثنا فى بدايه سوره البقره معنى الطبع على القلب. (١)

ثم تحدثت الآيه التى تليها فى الجانب المقابل عن صفات و روحيات الفئه التى تقابل المنافقين، و هم المؤمنون المخلصون، و عن أعمالهم الحسنه، و بالتالى عاقبه

ص: ١٥٦

(١- ١) راجع المجلد الأول من الأمثل (ذيل آيه ٧ من سوره البقره).

أعمالهم المعاكسه تماما لعاقبه أولئك.فهي تقول: لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنْ يَتَمَتَّعُوا بِكُلِّ الْخَيْرَاتِ وَالسَّعَادَةِ وَاللَّذَائِدِ الْمَادِيَةِ وَالْمَعْنَوِيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

كلمه(الخيرات)صيغه جمع محلّى بالألف و اللام،و من ذلك يستفاد عموميتها، فهي تعبير جامع لكل توفيق و خير و نصر و موهبه،و هي تشمل الماديه منها و المعنويه.

كما أن تعبير هاتين الجملتين -حسب القواعد التي قررت في المعاني و البيان- يدل على الحصر، أي أن هذا التعبير يدل على أن(المخلصين) و حدهم يمثلون هذا الجانب المقابل، و يدل على أن هؤلاء و حدهم الذين يستحقون كل خير و سعاده، هؤلاء الذين يجاهدون بكل وجودهم و بكل ما يمتلكون.

و يستفاد بوضوح من هذه الآيه أن«الإيمان»و«الجهاد»إذا اتحدا في شخص، فسيصحبهما كل خير و بركه، و لا سبيل إلى الفلاح و الإخلاص، أو إلى شيء من الخيرات و البركات الماديه و المعنويه إلا في ظل هذين العاملين.

و هناك نقطه أخرى تستحق التنبيه لها، و هي أننا نستفيد من خلال مقارنه صفات هاتين المجموعتين أنّ المنافقين -لفقدانهم الإيمان، و تلوثهم المضاعف بالمعاصي و الذنوب-أفراد جاهلون، لذلك فهم محرومون من(علو الهمة)التي هي وليده الفهم و الشعور و الوعي، فهم يرضون أن يكونوا مع القاعدين من المرضى و الصبيان، و يأبون الحضور في سوح الجهاد رغم افتخاراته و امتيازاته.

أمّا في المقابل، فإنّ المؤمنين قد اتضحت لهم الأمور و أدركوا عواقبها فعلت همتهم بحيث رأوا أن الجهاد هو الطريق الوحيد للانتصار على المشاكل التي تعترضهم، فسعوا إليه بكل وجودهم و قدراتهم.

إن هذا الدرس الكبير هو الذي علمنا القرآن إياه في كثير من آياته، و مع ذلك

فنحن غافلون عنه.

□
و في آخر آيه من الآيات التي نبحثها إشاره إلى قسم من الجزاء الأخرى المعد لهؤلاء المؤمنين، فهي تبشرهم بأنهم قد أعدَّ اللهُ □
لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ □ و تؤكد لهم بأن هذه المواهب و النعم سوف لا تفنى و لا تنفذ، بل سيقون خالدين فيها، ثم
تبيِّن أن ذلك هو الفَوْزُ الْعَظِيمُ .

□
إنَّ تعبيرَ أَعِدَّ اللهُ علامه جليه على مدى الاحترام الذي أولى اللهُ هؤلاء المؤمنين به، حيث أعدلهم من قبل كل هذه المواهب و
النعم.

ص: ١٥٨

إشاره

وَإِذَا الْمَعْدُرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠)

التفسير

في هذه الآيه -و لمناسبه البحث هنا للأبحاث السابقه حول المنافقين الذين يتعدرون بكل عذر و يتمسكون بأئفه الحجج- إشاره إلى وضع و واقع مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد:

الأولى: و هم المعذورون فعلا في عدم مشاركتهم في القتال.

و الثانيه: و هم المتخلفون عن أداء هذا الواجب الكبير تمردا و عصيانا، و ليس لهم أى عذر في تخلفهم هذا.

ففي البدايه تقول الآيه أنّ هؤلاء الأعراب رغم أنّهم كانوا معذورين في عدم الاشتراك في الجهاد، فإنهم حضروا بين يدي النبي صلى الله عليه و آله و سلم و طلبوا منه أن يأذن لهم في الجهاد: وَإِذَا الْمَعْدُرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ. و في مقابل ذلك فإن الفئه الأخرى التي كذبت على الله و رسوله قد تخلف أفرادها دون أى عذر، وَقَعَدَ

و في النهايه هددت الآيه المجموعه الثانيه تهديدا شديدا و أذرتهم بأنه سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

إن ما قلناه في تفسير الآيه المذكوره هو الأنسب للقرائن الموجوده، فإننا نرى من جهه أن هاتين الفتيتين تقابل إحداهما الأخرى، و من جهه أخرى فإن كلمه (منهم) تدل على أن أفراد المجموعتين لم يكونوا كفارا بأجمعهم، و من هاتين القرينتين يفهم أن (المعذرين) هم المعذورون حقيقه.

إلا أنه قيل في مقابل هذا التفسير تفسيران آخران:

الأول: إن المقصود من (المعذرين) هم الذين كانوا يتمسكون بالأعدار الواهيه و الكاذبه للفرار من الجهاد. و المقصود من المجموعه الثانيه هم الذين لا يكلفون أنفسهم حتى مشقّه الاعتذار، بل إنهم يمتنعون علنا و بكل صراحه عن إطاعه أوامر الله عزّ و جلّ.

الثاني: إن كلمه (المعذرين) تشمل كل الفئات التي تعتذر بأعدار ما عن الذهاب إلى ميادين الحرب و الجهاد، سواء كانت هذه الأعدار صادقه أم كاذبه.

إلا أن القرائن تدل على أن (المعذرين) هم المعذورون الحقيقيون.

اشاره

لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بَأَن يُكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)

سبب النزول

نقل فى سبب نزول الآيه الأولى أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المخلصين قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا رسول الله، إني شيخ كبير أعمى وعاجز، وليس لى حتى من يأخذ بيدى ليذهب بى إلى ميدان القتال، فهل أعذر إذا لم أحضر وأشارك فى الجهاد؟ فسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت الآيه وعذرت مثل هؤلاء الأفراد.

و يستفاد من سبب النزول هذا أن المسلمين -حتى الأعمى منهم- لم يكونوا

ليسمحوا لأنفسهم أن يمتنعوا عن الحضور في ميدان الجهاد، وربما كان ذلك لأنهم كانوا يحتملون أن وجودهم بهذه الحالة قد يرغب المجاهدين في الانضمام إلى جيوش المسلمين و مشاركتهم في أمر الجهاد، أو أنهم يكثرون السواد على أقل التقادير.

و بالنسبة للآيه الثانيه ورد في الروايات أن سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و طلبوا منه وسيله للمشاركة في الجهاد، و لما لم يكن لدى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شيء من ذلك خرجوا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أعينهم تفيض من الدمع، ثم عرفوا بعد ذلك ب«البكائين».

التفسير

اشاره

العشق للجهاد و دموع الحسره:

هذه الآيات قسمت المسلمين في مجال المشاركة في الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحيه القدره على الجهاد، أو العجز عنه، و أشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذوره حقيقه و واقعا، و الخامسه هم المنافقون.

الآيه الأولى تقول: إِنَّ الضُّعْفَاءَ، وَالْعَاجِزِينَ لِكَبْرٍ أَوْ عَمَى أَوْ نَقْصٍ فِي الْأَعْضَاءِ، وَالَّذِينَ لَا وَسِيلَةَ لَهُمْ يَتَنَقَّلُونَ بِهَا وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا فِي الْمَشَارِكَةِ فِي الْجِهَادِ، لَا حَرْجَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَخَلَّفُوا عَنْ هَذَا الْوَاجِبِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَهْمِ: لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرْجًا. هذه الأقسام الثلاث تعذر في كل قانون إذا لم تشارك، و العقل و المنطق يمضى هذا التسامح، و من المسلم أن القوانين الإسلاميه لا تنفصل عن المنطق و العقل في أى مورد.

كلمه «الحرص» في الأصل تعنى مركز اجتماع الشيء، و لما كان اجتماع الناس و كثرتهم في مكان و مركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هذه الكلمه بمعنى الضيق و الإزعاج و المسؤوليه و التكليف، و يكون معناها في هذه الآيه هو

المعنى الأخير، أى المسئولية و التكليف.

ثم بينت الآيه شرطا مهما فى السماح لهؤلاء بالانصراف، و هو إخلاصهم و حبهم لله و رسوله، و رجاؤهم و عملهم كل خير لهذا الدين الحنيف، لذا قالت: إِذَا نَصَّحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ أَى إِنَّ هَؤُلَاءِ إِذَا لَمْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى حَمْلِ السَّلَاحِ وَ الْمَشَارَكَةِ فِى الْقِتَالِ، فَإِنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى اسْتِعْمَالِ سِلَاحِ الْكَلِمَةِ وَ السَّلُوكِ الْإِسْلَامِى الْأَمْثَلِ، وَ بِهَذَا يَسْتَطِيعُونَ تَرْغِيبَ الْمَجَاهِدِينَ، وَ يَثِيرُونَ الْحِمَاسَ فِى نَفُوسِ الْمُقَاتِلِينَ، وَ يَرْفَعُونَ مَعْنَوِيَاتِهِمْ بِذِكْرِهِمُ الثَّمَرَاتِ الْمُتْرَبَّةَ عَلَى الْجِهَادِ وَ ثَوَابِهِ الْعَظِيمِ.

و كذلك يجب أن لا يقصروا فى هدم و تضعيف معنويات العدو، و تهيئه أرضيه الهزيمة فى نفوس أفراد قدر المستطاع لأن كلمه (نصح) فى الأصل بمعنى (الإخلاص) و هى كلمه جامعها شامله لكل شكل من أشكال طلب الخير و الإقدام المخلص فى هذا السبيل، و لما كان الكلام عن الجهاد، فإنها تنظر إلى كل جهد و سعى يبذل فى هذا المجال.

ثم تذكر الآيه الدليل على هذا الموضوع، فتذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يألون جهدا فى عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو يوبخوا أو يعاقبوا، إِذْ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ .

بعد ذلك اختتمت الآيه بذكر صفتين عظيمتين من صفات الله عز و جل - و كل صفاته عظيمه - كدليل آخر على جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(غفور) مأخوذه من ماده الغفران، أى الستر و الإخفاء، أى إن الله سبحانه و تعالى سيلقى الستار على أعمال هؤلاء المعذورين و يقبل أعتذارهم، و كون الله «رحيما» يقتضى أن لا يكلف أحدا فوق طاقته، بل يعفيه من ذلك، و إذا أجبر هؤلاء على الحضور فى ميدان القتال، فإن ذلك لا يناسب غفران الله و رحمته، و هذا يعنى

أَنَّ اللَّهَ الْغَفُورَ الرَّحِيمَ سِيعْفَى هُوَلاءِ عَنِ الْحُضُورِ حَتْمًا، وَ يَعْفُو عَنْهُمْ.

و يستفاد من جملة من الروايات التي نقلها المفسرون في ذيل هذه الآية، أَنَّ هذه المجموعات المعذورة لا يقتصر الأمر فيهم على السماح لهم في التخلف و عدم مؤاخذتهم فحسب، بل إِنَّ أفرادها لهم من الجزاء و الثواب كثواب المجاهدين الذين حضروا و قاتلوا، كل على قدر اشتياقه و تحرقه للمشاركة، فنحن نقف على

حديث عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ نَقَرَأُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَمَّا قَفَلَ مِنْ غَزْوِهِ تَبَوَّكَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: «لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا سَرْتُمْ فِي مَسِيرِ، وَ لَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقِهِ، وَ لَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ قَالُوا: «و كَيْفَ يَكُونُونَ مَعَنَا وَ هُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ:

حِسْبَهُمُ الْعَذْرُ» (١).

ثم تشير الآية إلى الفئة الرابعة من المعفو عنهم و هؤلاء هم الذين حضروا- بشوق- عند النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ طلبوا منه أن يحملهم على الدواب للمشاركة في الجهاد، فاعتذر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ، فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَ عَيُونُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزْنًا وَ أَسْفًا عَلَى مَا فَاتَهُمْ، وَ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مَا يَنْفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزْنًا إِلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ .

«تفيض» من مادة الفيضان، أي الانسكاب و التساقط بعد الامتلاء، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَهَمَّهُ أَمْرٌ أَوْ دَهَمَتْهُ مَصِيبَةٌ، فَإِذَا لَمْ تَكُنْ شَدِيدَةً اغْرُورَقَتْ عَيْنَاهُ بِالدَّمْعِ وَ امْتَلَأَتْ دُونَ أَنْ تَجْرِيَ، أَمَّا إِذَا وَصَلَتْ إِلَى مَرَحَلَةٍ يَضَعُ الْإِنْسَانُ عَنْ تَحْمِيلِهَا سَالَتْ دَمُوعَهُ.

إِنَّ فِي هَذِهِ دَلَالَةً عَلَى أَنَّ هُوَلاءِ النَّفَرِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كَانُوا عَشَاقًا وَ مَوْلِيَيْنَ بِالْجِهَادِ إِلَى دَرَجَةِ أَنَّهُمْ لَمَّا رَخِصَ لَهُمْ فِي الْبَقَاءِ لَمْ يَكْتَفُوا بِالتَّأْسَفِ وَ الْهَمِّ لِهَذِهِ الرَّخِصَةِ، بَلْ إِنَّهُمْ جَرَتْ دَمُوعُهُمْ كَمَا لَوْ فَقَدَ إِنْسَانٌ أَعَزَّ أَصْدِقَائِهِ وَ أَحِبَّائِهِ،

ص: ١٦٤

و بكوا بكاء مرًا لهذا الحرمان.

لا شك أن الفئه الرابعه لا تفترق عن الفئه الثالثه المذكوره فى الآيه و لكنهم لهذه الحاله الخاصه من العشق، و لامتيازهم بها عن السابقين، و لتكريمهم جسمت الآيه و وضعهم بصورة مستقله ضمن نفس الآيه، و كانت خصائصهم هى:

أولاً: إنهم لم يقتنعوا بعدم ملكهم لمستلزمات الجهاد، فحضرُوا عند النَّبى صلى الله عليه و آله و سلم طمعا فى الحصول عليها، و أصروا عليه إصرارا شديدا فى تهيتها إن أمكنه ذلك.

ثانياً: إنَّ النَّبى صلى الله عليه و آله و سلم لما اعتذر عن تلبيه طلبهم لم يكتفوا بعدم الفرحه بذلك، بل انقلبوا بهم و حزن فاضت دموعهم بسببه، و لهاتين الخصلتين ذكرهم الله سبحانه و تعالى مستقلا فى الآيه.

أما آخر الآيه فتبين وضع الفئه الخامسه، و هم الذين لم يعذروا، و لن يعذروا عند الله تعالى، فإنهم قد توفرت فيهم كل الشروط، و يملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتما، لكنهم رغم ذلك يحاولون التملص من أداء هذا الواجب الإلهى الخطير، فجاءوا إلى النَّبى صلى الله عليه و آله و سلم يطلبون الإذن فى الانصراف عن الحرب، فبيئت الآيه أنهم سيؤاخذون بتهربهم و يعاقبون عليه: **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْيَاءٌ .**

و تضيف الآيه بأنَّ هؤلاء يكفيهم عارا و خزيا أن يرضوا بالبقاء مع العاجزين و المرضى رغم سلامتهم و قدرتهم، و لم يهتموا بأنهم سيحرمون من فخر الاشتراك فى الجهاد: **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ .** و كفى به عقابا أن يسلبهم الله القدره على التفكير و الإدراك نتيجة أعمالهم السيئه هذه، و لذلك أبغضهم الله وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

ص: ١٦٥

١- تتضح من هذه الآيات-بصوره جليه و واضحه-المعنويات القويه العاليه لجنود الإسلام، و كيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، و تحرق عشقا للجهاد و الشهاده، و هذا الفخر و الوسام مقدم على جميع الأوسمه و الصفات الأخرى التى كانوا يمتلكونها، و من هنا يتضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام و تطوره و انتشاره فى ذلك اليوم، و تخلفنا فى الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

كيف يمكننا أن نجعل من بيكى ألما و حسره لحرمانه من الجهاد، و إن كان لعذر، و من يحاول التذرع بألف عذر و عذر من أجل الفرار من صف المجاهدين، فى صف واحد و مرتبه واحده؟ إذا رجعت إلينا روح الإيمان و حبّ الجهاد و عشقه، و الافتخار بالشهاده فى سبيل الله، و دبت فى واقعنا الميت، فإننا سنحصل على نفس الامتيازات و الانتصارات التى حققها و حصل عليها مسلمو الصدر الأول.

إنّ تعاستنا و تخلفنا يكمن فى أننا التزمنا بالإسلام ظاهرا، و اتخذناه رداء دون أن ينفذ إلى أعماقنا و وجودنا، و رغم ذلك فإننا نتوقع أن نصل بهذا الواقع إلى مستوى المسلمين الأوائل! ٢- و نستفيد من الآيات السابقه أيضا، أنّه لا يستثنى أحد-بصوره عامه- من المشاركه فى أمر الجهاد، من دعم المجاهدين، و إسنادهم فى جهادهم، حتى المرضى و العاجزين عن حمل الأسلحه و المشاركه فى ميدان الحرب، فإنّهم إن عجزوا عن ذلك فهم قادرون أن يرغبوا المجاهدين و يثيروا حماسهم بكلامهم و بيانهم و سلوكهم، و أن يدعموا جهادهم بذلك، و فى الحقيقه فإنّ للجهاد مراحل متعدده، فإذا عذر الإنسان عن احدى مراحلها فإنّ ذلك لا يعنى سقوط بقيه المراحل عن ذمته.

٣- إنّ جملة ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ أصبحت منبعا قانونيا و اسعا فى

المباحث الفقهيّة حيث استفاد الفقهاء منها أحكاماً كثيرة، فمثلاً: إذ تلفت الوديعة في يد الأمين بدون أي إفراط أو تفريط منه، فإنّه لا- يكون ضامناً، و من جملة الأدلّة على هذه المسألة هي الآية المذكورة، لأنّه محسن، و لم يرتكب مخالفته، فإذا اعتبرناه مسئولاً و ضامناً، فإنّ هذا يعني أنّ المحسن مؤاخذ.

ليس هناك شك في أنّ الآية المذكورة قد وردت في المجاهدين، إلّا أنّنا نعلم أنّ مورد الآية لا ينقص من عموميتها، و بعبارة أخرى، فإن مورد الآية لا يخصص الحكم مطلقاً.

نهاية الجزء العاشر من القرآن المجيد.

بدايه الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم

ص: ١٦٩

اشاره

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمِثْلُ آبَائِهِمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

سبب النزول

يقول بعض المفسرين: إن هذه الآيات نزلت في جماعه من المنافقين يبلغ عددهم ثمانين رجلا، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رجع من غزوه تبوك أمر أن لا يجالسهم أحد ولا يكلمهم، فلما رأى هؤلاء هذه المقاطعه الاجتماعيه الشديده بدأوا يعتذرون عما بدر منهم، فنزلت هذه الآيات لتبين حال هؤلاء و حقيقتهم.

لا تصغوا إلى أعدائهم و إيمانهم الكاذبه:

تستمر هذه السلسله من الآيات فى الحديث عن الأعمال الشيطانيه للمنافقين، و تزيح الستار عنها الواحد تلو الآخر، و تحذر المسلمين من الانخداع بريائهم أو الوقوع تحت تأثير كلماتهم المعسوله.

الآيه الأولى تبين للمسلمين أن هؤلاء إذا علموا بقدمكم فسيأتون يعتذرون إليكم إذا رجعتهم إليهم. إن التعبير ب(يعتذرون) بصيغه المضارع، يظهر منه أن الله تعالى قد أطلع النبي صلى الله عليه و آله و سلم من قبل على كذب المنافقين، و أنهم سيأتونهم ليعتذروا إليهم، و لذلك فإنه تعالى علمهم كيفية جواب هؤلاء إذا قدموا إليهم ليعتذروا منهم.

ثم يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم -باعتباره قائد المسلمين- بأن يواجه المنافقين قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم لأننا على علم بأهدافكم الشيطانيه و ما تضمرون و ما تعلنون، إذ قد نبأنا الله من أخباركم. إلا أنه فى الوقت نفسه سيبقى باب التوبه و الرجوع إلى الصواب مفتوحا أمامكم و سيرى الله عملكم و رسوله .

و احتمال البعض فى تفسير هذه الآيه أن التوبه ليست هى المقصوده من هذه الجملة، بل المقصود أن الله و رسوله سيطلعان على أعمالكم و يريانها فى المستقبل كما رآها الآن، و سيحبطان كل مؤامراتكم، و على هذا فلا يمكن أن تصنعوا شيئا، لا اليوم و لا غدا، و لنا بحث مفصّل حول هذه الجملة، و مسأله عرض أعمال الأممه على نبيها صلى الله عليه و آله و سلم سيأتى فى ذيل الآيه (١٠٥) من هذه السوره.

ثم قالت الآيه: إن كل أعمالكم و نياتكم ستثبت اليوم فى كتبكم ثم تُردون إلى عالم الغيب و الشهاده فيبئكم بما كنتم تعملون .

و فى الآيه التاليه إشاره أخرى إلى إيمان المنافقين الكاذبين، و تنبيه للمسلمين على أن هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبه لتغفروا لهم خطيئاتهم و تصفحوا عنهم

سَيُخْلَفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

فى الحقيقه، إنَّ هؤلاء يطرقون كل باب ليردوا منه، فتاره يريدون إثبات براءتهم و عدم تقصيرهم بالاعتذار، و تاره يعترقون بالتقصير ثم يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربّما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا- تتأثروا بأى أسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ .

إنَّ هؤلاء يطلبون منكم أن تعرضوا عن أفعالهم، أى أن تصفحوا عنهم، لكنكم يجب أن تعرضوا عنهم، لكن لا بالصفح و العفو، بل بالتكذيب و الإنكار عليهم، و هذان التعبيران المتشابهان لفظا لهما معنيان متضادان تماما، و لهما هنا من جمال التعبير و جزالته و بيانه ما لا يخفى على أهل الذوق و البلاغه.

و لتأكيد المطلب و توضيحه و بيان دليله عقبت الآيه بأن السبب فى الاعراض هؤلاء إِنَّهُمْ رَجِسُ، و لأنهم كذلك فإن مصيرهم وَ مَيِّأُوا لَهُمْ جَهَنَّمَ لِأَنَّ الْجَنَّةَ أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، و ليس فيها موضع للأرجاس الملوّثين بالمعاصى. إن كل العواقب السيئه التى سيلقونها إنما يرونها جزاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

فى الآيه الأخيره التى نبحتها هنا إشاره إلى يمين أخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين يَخْلَفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ .

الفرق بين اليمين فى هذه الآيه و اليمين فى الآيه السابقه، أنّ المنافقين فى الآيه السابقه أرادوا تهدئه خواطر المؤمنين فى الواقع العملى أمّا اليمين التى فى هذه فإنها تشير إلى أنّ المنافقين أرادوا من المؤمنين مضافا إلى سكوتهم العملى إظهار الرضا القلبى عنهم.

الملفت للنظر هنا أن الله تعالى لم يقل: لا- ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تشم منه رائحه التهديد، إذ تقول عزّ و جلّ: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

لا شك أن هؤلاء من الناحية الدينيه و الأخلاقية لا يعيرون اهتماما لرضى المسلمين، بل إن الهدف من عملهم هذا هو رفع النظره السلبيه و الغضب عليهم من أفكار و قلوب المسلمين، ليكونوا في المستقبل في مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية، إلا أن الله تعالى لما عبر بقوله: لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ نبه المسلمين على أن هؤلاء فاسقون، و لا معنى لرضاكم عنهم، فإن هؤلاء دأبهم يضحكوا على الأذقان، فانتبهوا وعوا أمر هؤلاء و لا تقعوا في شراكمهم.

كم هو مهم و جيد أن يراقب المسلمون في كل زمان خطط المنافقين الشيطانيه و يعرفوهم، حتى لا يستفيدوا من الخطط السابقه للوصول إلى أهدافهم المشؤومه عبر هذه الوسائل و الخطط الخبيثه.

اشاره

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) فَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

التفسير

اشاره

الأعراب القساه و المؤمنون:

في هذه الآيات الثلاث-استمرارا للبحث المتقدم حول منافقى المدينة- حديث و بحث حول وضع منافقى الأعراب-و هم سكان البوادي-و علاماتهم و أفكارهم،و كذلك قد تحدثت حول المؤمنين الخالص منهم.

و ربما كان السبب فى تحذير المسلمين من هؤلاء،هو أن لا يتصور المسلمون أن المنافقين هم فقط-هؤلاء المتواجدون فى المدينة،بل إنَّ المنافقين من

الأعراب أشدّ وأقسى، وشواهد التأريخ الإسلامى تدل على المسلمين قد تعرضوا عدّه مرات لهجوم منافقى البادية، و لعل الانتصارات المتلاحقه لجيش الإسلام هى التى جعلت المسلمين فى غفله عن خطر هؤلاء.

على كل حال، فالآيه الأولى تقول: إنّ الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم و التريه، و عدم سماعهم الآيات الرّبانيه و كلام النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم، أشدّ كفرا و نفاقا من مشابههم فى المدينه: **الأعراب أشدّ كفراً و نفاقاً** و لهذا البعد و الجهل فمن الطبيعى، بل الأولى أن يجهلوا الحدود و الأحكام الإلهيه التى نزلت على النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم: **وَ أَجِدْرُ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ .**

كلمه «الأعراب» من الكلمات التى تعطى معنى الجمع، و لا- مفرد لها فى لغه العرب، و على ما قاله أئمه اللغه- كمؤلف القاموس و الصحاح و تاج العروس و آخرون- فإن هذه الكلمه تطلق على سكان الباديه فقط، و مختصه بهم، و إذا أرادوا إطلاقهم على شخص واحد فإنّهم يستعملون نفس هذه الكلمه و يلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابى. و على هذا فإنّ أعراب ليست جمع عرب كما يظن البعض.

أمّا «أجدر» فهى مأخوذه من الجدار، و من ثمّ أطلقت على كل شىء مرتفع و مناسب، و لهذا فإنّ (أجدر) تستعمل -عاده- بمعنى الأنسب و الأليق.

و تقول الآيه أخيرا: **وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** أى إنّّه تعالى عند ما يحكم على الأعراب بمثل هذا الحكم، فلائّه يناسب الوضع الخاص لهم، لأنّ محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن و من أجل لا يتوهم بأنّ كل الأعراب أو سكان البوادي يتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآيه التاليه إلى مجموعتين من الاعراب.

ففى البدايه تتحدث عن أن قسما من هؤلاء الأعراب- لنفاقهم أو ضعف إيمانهم- عند ما ينفقون شيئا فى سبيل الله، فإنّهم يعتبرون ذلك ضررا و خساره

لحقت بهم، لا أنه توفيق و نصر و تجاره رابحه: وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا (١).

و من الصفات الأخرى لهؤلاء أنهم دائما ينتظرون أن تحيط بكم المصائب و النوائب و المشاكل، و يرميكم الدهر بسهمه: وَ يَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرُ .

«الدوائر» جمع دائره، و معناها معروف، و لكن العرب يقولون للحادثه الصعبه و الأليمه التي تحل بالإنسان: دائره، و جمعها (دوائر).

فى الواقع أن هؤلاء أفراد ضيقو النظر، و بخلاء و حسودون، و بسبب بخلهم فإنهم يرون كل إنفاق فى سبيل الله خساره، و بسبب حسدهم فإنهم ينتظرون دائما ظهور المشاكل و المشاغل و المصائب عند الآخرين. ثم تقول الآية - بعد ذلك - إن هؤلاء ينبغى أن لا يتربصوا بكم، و ينتظروا حلول المصائب و الدوائر بكم، لأنها فى النهايه ستحل بهم فقط: عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ (٢).

ثم تختتم الآية الحديث بقولها: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، فهو تعالى يسمع كلامهم، و يعلم بنياتهم و مكنون ضمائرهم.

أمّا الآية الأخرى فقد أشارت إلى الفئه الثانيه من الأعراب، و هم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لهذا السبب فإنهم لا يعتبرون الإنفاق فى سبيل الله خساره أبدا، بل وسيله للتقرب إلى الله و دعاء الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، لإيمانهم بالجزاء الحسن و العطاء الجزيل الذى ينتظر

ص: ١٧٧

١ - ١) مغرم - كما ورد فى مجمع البيان - مأخوذه من ماده (غرم) على وزن (جرم)، و هى فى الأصل بمعنى ملازمه الشىء، و لهذه المناسبه قيل للدائن و المدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، و أيضا قيل: غرامه، لنفس هذه المناسبه لأنها تلازم الإنسان و لا - تنقطع عنه إلا - بأدائها. و يقال للعشق الشديد: غرام، لأنه ينفذ إلى روح الإنسان بصوره لا يمكن تصور الانفصال معها. و مغرم يساوى غرامه من حيث المعنى.

٢ - ٢) استفاد من جمله عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ الحصر، أى إن حوادث السوء ستنال هؤلاء فقط. و استفاده الحصر هذه من أن (عليهم) خبر مقدم على المبتدأ.

المنفقين في سبيل الله: وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ .

هنا يؤيد الله تعالى و يصدق هذا النوع من التفكير، و يؤكد على أنّ هذا الإنفاق يقرب هؤلاء من الله قطعاً: أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ و لهذا سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ و إذا ما صدرت من هؤلاء هفوات و عثرات، فإنّ الله سيغفرها لهم لإيمانهم و أعمالهم الحسنه، ف إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

إنّ التأكيدات المتواليه و المكرره التي تلاحظ في هذه الآيه تجلب الانتباه حقاً، فإنّ (ألا) و (إن) يدل كلاهما على التأكيد، ثمّ جملة سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ خصوصاً مع ملاحظه (في) التي تعنى الدخول و الغوص في الرحمه الإلهيه، و بعد ذلك الجملة الأخيره التي تبدأ ب (إن) و تذكر صفتين من صفات الرحمه و هما غَفُورٌ رَحِيمٌ كل هذه التأكيدات تبين منتهى اللطف و الرحمه الإلهيه بهذه الفئه.

و ربّما كان هذا الاهتمام بهؤلاء لأنهم رغم حرمانهم من التعليم و التربيه، و عدم الفهم الكافي لآيات الله و أحاديث النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، فإنهم قبلوا الإسلام و آمنوا به بكل وجودهم، و رغم قلّه إمكانياتهم الماليه-التي يحتمها وضع البادية-فإنهم لم يمتنعوا عن البذل و الإنفاق في سبيل الله، و لذلك استحقوا كل تقدير و احترام، و أكثر ممّا يستحقه سكان المدينه المتمكنون.

و يجب الالتفات إلى أنّ القرآن قد استعمل عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ في حق الأعراب المنافقين، التي تدل على إحاطه التعاسه و سوء العاقبه بهم، أمّا في حق المؤمنين فقد ذكرت عبارته في رَحْمَتِهِ لَتَبَيَّنَ إحاطه الرحمه الإلهيه بهؤلاء، فقسم تحيط به الرحمه الإلهيه، و الآخر تحيط به الدوائر و المصائب.

و هنا ملاحظات تسترعى الانتباه:

١- التجمعات الكبيره

يبدو بوضوح- من الآيات المذكوره-مدى الأهميه التي يوليها الإسلام للمجتمعات الكبيره،و الأماكن المزدحمه بالسكان،و الجميل فى الأمر أنّ الإسلام قد نهض و بزغ نوره من محيط متخلف،محيط لا تشم منه رائحه التمدن و التطور، إلاّ أنّه فى الوقت نفسه يهتم اهتماما خاصّا بالعوامل البناءه التي تنهض بالمجتمع، و تحلّق به فى أجواء التطور و الرقى،فنراه يقرر أنّ هؤلاء الذين يعيشون فى مناطق نائية عن المدينه أكثر تخلفا من أهل المدن،لأنّهم لا يملكون الوسائل الكافيه للتعليم و التربيه فتخلفوا،و لهذا نقرأ

فى نهج البلاغه قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الزموا السواد الأعظم،فإنّ يد الله مع الجماعة» (١).

إلاّ أنّ هذا الكلام لا- يعنى أن يتجه كل الناس إلى المدن،و يتركوا القرى-التي هى أساس عمران المدن-تعبث بها يد الخراب،بل يجب السّعى فى إيصال علم و تقدم المدينه إلى القرية،و تقويه أسس التربيه و التعليم و أصول الدين و الوعى و نشرها بين صفوف القرويين.

و لا شك أنّ سكان القرى إذا تركوا على حالتهم و لم تفتح عليهم نافذه من العلوم المدينه و آيات الكتب السماويه،و تعليمات و توجيهات النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و الهداه الكرام،فسيحل بهم الكفر و النفاق سرّيعا و يأخذ منهم مأخذا عظيما.إنّ هؤلاء لهم استعداد أكبر لقبول التربيه السليمه و التعليم الصحيح لصفاء قلوبهم،و بساطه أفكارهم،و قلّه انتشار المكر و المراوغه التي تعم المدن بينهم.

ص: ١٧٩

إنَّ كلمة (الأعرابي) وإن كانت تعنى ساكن البادية، إلاّ- أنّها استعملت بمعنى أوسع فى الأخبار و الروايات الإسلاميه، و بتعبير آخر: فإنّ مفهومها الإسلامى لا يرتبط أو يتحدد بالمنطقه الجغرافيه التى يشغلها الأعراب، بل تعبر عن منهجيه فى التفكير، فإنّ من كان فى منأى عن الآداب و السنن و التربيه الإسلاميه فهو من الأعراب و إن كان سكان المدن، أمّا سكّان الباديه الملتزمون بالآداب و السنن الإسلاميه فليسوا بأعراب.

الحديث المشهور المنقول عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من لم يتفقه منكم فى الدين فهو أعرابي» (١) دليل قوى و شاهد واضح على الكلام أعلاه.

و فى خبر آخر نقرأ: «من الكفر التعرب بعد الهجره».

و نقل أيضا

عن على عليه السّلام فى نهج البلاغه أنّه خاطب جماعه من أصحابه العاصين لأمره فقال: «و اعلموه أنّكم صرتم بعد الهجره أعرابا» (٢) فى الحديثين أعلاه جعل «التعرب» مقابل «الهجره»، و إذا لا- حظنا أنّ للهجره أيضا مفهوما واسعا لا يتحدد بالجانب المكانى، بل إنّ أساسها انتقال الفكر من محور الكفر إلى محور الإيمان، اتّضح معنى كون الفرد أعرابيا، أى أنّه يعنى الرجوع عن الآداب و السنن الإسلاميه إلى الآداب و العادات الجاهليه.

٣- نطالع فى الآيه المذكوره أعلاه الوارده فى حق المؤمنين من الأعراب، أنّ هؤلاء يعتبرون إنفاقهم أساس القرب من الله تعالى، خاصّه و أنّ هذه الكلمه قد وردت بصيغه الجمع (قربات)، و هى توحى أنّ هؤلاء لا يبتغون من إنفاقهم قربه واحده، بل قربات.

ص: ١٨٠

١- ١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٥٤.

٢- ٢) نهج البلاغه، الخطبه القاصعه، ص ١٩٢.

وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْقُرْبَ وَالْقُرْبَةَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا تَعْنِي الْقُرْبَ الْمَكَانِي، بَلِ الْقُرْبَ الْمَقَامِي، أَيْ السَّيْرَ إِلَى
الذَّاتِ الْمُقَدَّسَةِ وَالْكَمَالَ الْمَطْلُوقَ وَالتَّعَرُّضَ لِأَنْوَارِ صِفَاتِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَفِي دَائِرَةِ الْفِكْرِ وَالرُّوحِ.

ص: ١٨١

اشاره

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

التفسير

اشاره

السابقون إلى الإسلام:

بالرغم من أن المفسرين قد نقلوا أسبابا عديدة للنزول، إلا أن أيا منها- كما سنرى- ليس سببا للنزول، بل إنها في الواقع بيان المصداق و الوجود الخارجى لها.

على كل حال، فإن هذه الآيه- التى وردت بعد الآيات المتحدثه عن حال الكفار و المنافقين- تشير إلى مجموعات و فئات مختلفه من المسلمين المخلصين، و قسمتهم إلى ثلاثه أقسام:

الأول: السابقون فى الإسلام و الهجره: وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ .

الثانى: السابقون فى نصره و حمايه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه المهاجرين:

وَالْأَنْصَارِ

الثالث:الذين جاؤوا بعد هذين القسمين و اتبعوا خطواتهم و مناهجهم،و قبولهم الإسلام و الهجره،و نصرتهم للدين الإسلامى،فإنهم ارتبطوا بهؤلاء السابقين:

وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ

(١)

مِمَّا قَلْنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ المقصود من «إحسان» فى الحقيقه هو بيان الأعمال و المعتقدات لهؤلاء السابقين إلى الإسلام التى ينبغى اتباعها،و بتعبير آخر فإنّ (إحسان)وصف لبرامجهم التى تتبّع.

و قد احتمل أيضا فى معنى الآية أنّ(إحسان)بيان لكيفيه المتابعه،أى أن هؤلاء يتبعونهم بالصوره اللائقه و المناسبه.ففى الصوره الأولى الباء فى(إحسان)بمعنى (فى)،و فى الصوره الثانية بمعنى(مع).إلا أنّ ظاهر الآية مطابق للتفسير الأوّل.

و بعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة قالت الآية: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ .

إن رضى الله سبحانه و تعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم و أعمالهم الصالحه التى عملوها،و رضاهم عن الله لما أعد لهم من الجزاء و العطايا المختلفه التى لا تدركها عقول البشر. و بتعبير آخر،فإنّ هؤلاء قد نفذوا كل ما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهُمْ،و فى المقابل أعطاهم الله كل ما أرادوا،و على هذا فكما أنّ الله سبحانه راض عنهم، فإنّهم راضون عن الله تعالى.

و مع أنّ الجمله السابقه قد تضمنت كل المواهب و النعم الإلهيه،الماديه منها و المعنويه،الجسميه و الروحيه،لكن الآية أضافت من باب التأكيد،و بيان التفصيل بعد الإجمال: وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ و من امتيازات هذه النعمه أنّها خالدّه،و سيقى هؤلاء خالدين فيها و إذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب الماديه و المعنويه أيقنا أنّ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

ص: ١٨٣

١-١) لقد عدّ الكثير من المفسرين (من)الوارده فى جمله وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ تبعيضيّه،و ظاهر الآية أيضا كذلك،لأنّ حديث الآيه عن طلائع الإسلام و السابقين إليه،لا عن جميع المسلمين.أمّا الباقون فإنّهم يدخلون فى مفهوم الجمله التاليه،أى:(التابعون).

أى فوز أعلى و أكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه و معبوده و مولاه قد رضى عنه، و قد وقّع على قبول أعماله؟ و أى فوز أعلى من أن يحصل الإنسان على مواهب خالده نتيجة أعمال محدوده يعملها فى أيام هذا العمر الفانى؟

بحوث

أشاره

١- موقع السابقين

فى كل ثورة اجتماعيه جباره تقوم ضد أوضاع المجتمع الفاسده، فإنّ طلائع الثورة هم أعمدتها، و على عاتقهم يقع حملها و ثقلها، و هؤلاء فى الحقيقه هم أوفى عناصر الثورة، لأنّهم نصرّوا قائدهم و قدوتهم فى أحلك الظروف و التفوا حوله فى ساعات المحنه و الوحده رغم أنّهم محاصرون و تحيط بهم أنواع الأخطار إلا أنّهم لم يتخلوا عن دعمهم و نصرتهم و تضحياتهم. خاصّه و إن مطالعه تاريخ صدر الإسلام تعطى صورته واضحه عن مدى ضخامه المشاكل التى واجهها السابقون و الرعيل الأوّل من المسلمين! كيف كانوا يؤذونهم و يعذبونهم لكنّهم لم يصرخوا و لم يتأوهوا رغم شدة آلامهم، كانوا يتهمونهم، يسحبونهم بالسلاسل، و بالتالى يقتلونهم. و رغم كل ذلك، فإنّ هؤلاء قد وضعوا قدما فى هذا السبيل بإرادته حديديه، و عشق ملتبه، و عزم راسخ، و إيمان عميق، و وطنوا أنفسهم على تحمل أنواع المخاطر و المصاعب.

و من بين هؤلاء كان سهم المهاجرين الأوّلين هو الأرحح، و من بعدهم الأنصار الأوائل، أى الذين دعوا النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم إلى المدينه و استقبلوه برحابه و أسكنوا أصحابه و اعتبروهم كإخوانهم، و دافعوا عنهم بكل وجودهم، بل قدموهم حتى على قومهم. و إذا كانت الآيه أعلاه قد أولت هذين القسمين اهتماما خاصا، فلهداه العوامل.

ص: ١٨٤

إلا أن القرآن الكريم فى الوقت نفسه- كما هى طريقته دائما- لم يبخس حق الآخرين، و ذكر كل الأقسام و الفئات الأخرى الذين التحقوا فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو الأعصار التاليه، و الذين هاجروا، أو آووا المهاجرين و نصرؤهم تحت عنوان التابعين بإحسان، و بشر الجميع بالأجر و الجزاء الحسن.

٢- من هم التابعون؟

اصطلح جماعه من العلماء على أن كلمه «التابعين» تعنى تلامذه الصحابه، و جعلوها من مختصاتهم، أى أولئك الذين لم يروا النبى الأ-كرم صلى الله عليه و آله و سلم، لكنهم تصدوا لاكتساب العلوم الإسلاميه و وسعوها، و بعبارة أخرى: إنهم اكتسبوا علومهم الإسلاميه من صحابه النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و لكن مفهوم الآيه- كما قلنا قبل قليل- من الناحيه اللغويه و إلا ينحصر بهذه المجموعه و لا يختص بها، بل يشمل كل الفئات و المجموعات التى اتبعت برامج و أهداف الطلائع الإسلاميه و السابقون إلى الإسلام فى كل عصر و زمان.

و توضيح ذلك أنه على خلاف ما يعتقد بعض من أن الهجره و النصره- اللتين هما من المفاهيم الإسلاميه البناءه- مختصتان بعصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فإنهما توجدان فى كل عصر- و حتى فى عصرنا الحاضر- و لكن بأشكال أخرى، و على هذا فإن كل الأفراد الذين يسيرون فى هذا المسير- مسير الهجره و النصره- يدخلون تحت هذين المفهومين.

إذن، المهم أن نعلم أن القرآن الكريم بذكره كلمه (إحسان) يؤكد على أن اتباع خط السابقين إلى الإسلام، و السير فى طريقهم يجب أن لا- يبقى فى حدود الكلام و الادعاء، بل و حتى مجرد الإيمان الخالى من العمل، بل يجب أن تكون هذه المتابعه أو الاتباع اتباعا فكريا و عمليا و فى كل الجوانب.

٣- من هو أول من أسلم؟

إن أكثر المفسرين يطرح هنا سؤالاً- لمناسبه بحث الآيه- وهو: من هو أول من أسلم، و ثبت هذا الافتخار العظيم باسمه في التاريخ؟ و في جواب هذا السؤال، فقد قالوا بالإجماع، إن أول من أسلم من النساء خديجه زوجته النبي صلى الله عليه وآله و سلم الوفيه المضحيه. و أما من الرجال فكل علماء الشيعة و مفسريهم، و فريق كبير من أهل السنه قالوا: إن علياً عليه السلام أول من أسلم و لبي دعوه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله و سلم.

إن اشتهاار هذا الموضوع بين علماء أهل السنه بلغ حداً ادعى جماعه منهم الإجماع عليه و اتفقوا على ذلك. و من جمله هؤلاء الحاكم النيسابورى فى (المستدرک على الصحيحين) و فى كتاب (المعرفه)، فإنه يقول فى ص ٢٢: لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أن علي بن أبى طالب رضى الله عنه أولهم إسلاماً، و إنما اختلفوا فى بلوغه (١).

و كتب ابن عبد البر فى (الاستيعاب) ج ٢، ص ٤٥٧: اتفقوا على أن خديجه أول من آمن بالله و رسوله و صدقه فيما جاء به، من على بعدها (٢).

و كتب أبو جعفر الإسكافى: قد روى الناس كافة افتخار على بالسبق إلى الإسلام. (٣)

و بعد هذا، فإن الروايات الكثيره التى نقلت عن النبي صلى الله عليه وآله و سلم و عن على عليه السلام نفسه، و الصحابه- فى هذا الباب بلغت حد التواتر، و كنموذج لها نورد هنا بعض الأحاديث:

-١

قال النبي صلى الله عليه وآله و سلم: «أولكم وروداً على الحوض أولكم إسلاماً، على بن أبى

ص: ١٨٦

١- ١) تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٠٧٥.

٢- ٢) -الغدیر، ج ٣، ص ٢٣٨ و ٢٣٧.

٣- ٣) المصدر السابق.

نقل جماعه من علماء أهل السنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أخذ بيد علي عليه السلام وقال:

«إنّ هذا أول من آمن بي، وهذا أول من يصفحني، وهذا الصديق الأكبر». (٢)

نقل أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه وضع يده بين كتفى علي عليه السلام وقال:

«يا علي، لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة: أنت أول المؤمنين بالله إيماناً، وأفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله...» (٣) وكما أشرنا سابقاً، فإنّ عشرات الروايات فى مختلف كتب التاريخ و التفسير و الحديث قد نقلت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم و آخرين فى هذا الباب، و من أراد مزيد الاطلاع فليراجع الجزء الثالث من الغدير ص ٢٢٠-٢٤٠، و كتاب إحقاق الحق الجزء ٣ ص ١١٤-١٢٠.

و هنا التفاته لطيفه، و هى أنّ جماعه لما لم يستطيعوا إنكار سبق علي عليه السلام فى الإيمان و الإسلام سعوا إلى إنكار ذلك بأساليب أخرى، أو التقليل من أهميه هذا الموضوع، و البعض يحاول أن يجعل أبا بكر مكان علي عليه السلام، و يدعى أنه أول من أسلم.

فهم يقولون تاره إنّ علياً عليه السلام فى ذلك الوقت كان فى العاشره من عمره، و هو غير بالغ طبعاً، و على هذا فإن إسلامه يعنى إسلام صبي، و مثل هذا الإسلام لم يكن له تأثير فى تقويه جبهه المسلمين و زياده اقتدارهم فى مقابل الأعداء (هذا القول ذكره الفخر الرازى فى تفسيره فى ذيل الآيه).

و هذا عجب حقاً، و هو فى الحقيقه إيراد و اعتراض على شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم،

١- ١) الحديث أعلاه- حسب نقل الغدير- جاء فى مستدرک الحاكم، ج ٢، ص ١٣٦، و الإستيعاب، ج ٢، ص ٤٥٧، و شرح ابن أبى الحديد، ج ٣، ص ٢٥٨.

٢- ٢) فى المصدر السابق إنّ هذا الحديث قد نقل عن الطبرانى، و البيهقى، و الميثمى فى المجتمع، و الحافظ الكنجى فى الكفايه، و الإكمال، و كنز العمال.

٣- ٣) هذا الحديث- حسب نقل الغدير- قد نقل فى كتاب حليه الأولياء، ج ١، ص ٦٦.

لأننا نعلم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عرض الإسلام على عشيرته وقومه يوم الدار، ولم يقبله إلا على عليه السلام حين قام وأعلن إسلامه، فقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إسلامه، بل وخاطبه بأنك:

أخي ووصي وخليفتي.

إنّ هذا الحديث الذي نقله جماعه من حفاظ الحديث، من الشيعة والسنة، في كتب الصحاح والمسائيد، وكذلك جمع من مؤرخي الإسلام، واستندوا عليه، يبيّن أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مضافاً إلى قبوله إسلام على عليه السلام في ذلك السن الصغير، فإنّه عرفه للحاضرين -و للناس فيما بعد- بأنّه أخوه ووصيه وخليفته (١).

و يعبرون تاره أخرى بأنّ أول من أسلم من النساء خديجه، ومن الرجال أبو بكر، ومن الصبيان على عليه السلام، وأرادوا بهذا التعبير أن يقللوا من أهميه إسلام على عليه السلام. (ذكر هذا التعبير المفسّر المعروف والمتعصّب صاحب المنار في ذيل الآيه المبحوثه).

إلا أنّ أولاً: كما قلنا، إنّ سن على عليه السلام الصغير في ذلك اليوم لا يقدح في أهميه الأمر بأى وجه، ولا يقلل من شأنه، خاصّه وأن القرآن الكريم قال في شأن يحيى:

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا

(٢)

، وكذلك نقرأ ما قاله في شأن عيسى عليه السلام من أنّه تكلم وهو في المهد، وخاطب أولئك الذين وقعوا في حيره وشك من أمره وقال: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣).

إننا إذا ما ضمنا مثل هذه الآيات إلى الحديث الذي نقلناه آنفاً من أنّه صلى الله عليه وآله وسلم جعل علياً عليه السلام وصيه وخليفته اتضح أن كلام صاحب المنار لم يصدر إلا عن تعصب مقيت.

ص: ١٨٨

١ - ١) هذا الحديث نقل عبارات مختلفه، وما أوردناه أعلاه هو ما نقله أبو جعفر الإسكافي في كتاب (نهج العثمانيه)، وبرهان الدين في (أنباء نجباء الأبناء)، وابن الأثير في (الكامل)، وآخرون. لمزيد الاطلاع والاستيضاح راجع الجزء الثاني من الغدير، ص ٢٧٨-٢٨٤.

٢ - ٢) مريم، ١٢.

٣ - ٣) مريم، ٣٠.

ثانياً: إن من غير المسلم تاريخياً أن أبا بكر هو ثالث من أسلم، بل ذكروا في كثير من كتب التاريخ والحديث جماعه أخرى أسلمت قبله.

و ننهي هذا البحث بذكر هذا المطلب، و هو أن عليا عليه السّلام أشار مرارا و تكرارا في خطبه إلى أنّه أوّل من أسلم، و أوّل من آمن، و أوّل من صلّى مع النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، و بيّن موقعه من الإسلام، و هذه المسألة قد نقلت عنه في كثير من الكتب.

إضافه إلى أن ابن أبي الحديد نقل عن العالم المعروف أبي جعفر الإسكافي المعتزلي، أن البعض يقول: إذا كان أبو بكر قد سبق إلى الإسلام، فلما ذا لم يستدل لنفسه بذلك في أي موقف؟ بل و لم يدّع ذلك أي أحد من مواليه من الصحابه. (1)

٤- هل كان الصحابه كلهم صالحين؟

لقد أشرنا سابقا إلى هذا الموضوع، و إلى أن علماء أهل السنه يعتقدون-عاده- بأن جميع أصحاب النبي فاضلون و صالحون و من أهل الجنّه. و لمناسبه الآيه لهذا البحث، و التي جعلها البعض دليلا- قاطعا على هذا المدعى، فإننا هنا نحلل و نفصل هذا الموضوع المهم الذي يعتبر أساسا و منبعا لاختلاف كثيره أخرى في المسائل الإسلاميه.

إن كثيرا من مفسّري أهل السنه نقلوا حديثا في ذيل هذه الآيه، و هو أن حميد بن زياد قال: ذهبت إلى محمّد بن كعب القرظي و قلت له: ما تقول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم في الجنّه، محسنهم و مسيئهم! فقلت: من أين قلت هذا؟ فقال: اقرأ هذه الآيه: **و السّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ تَمَّ قَالَ: لكن قد اشترط في التابعين أن يتبعوا الصحابه في أعمال الخير** (ففي هذه الصوره فقط هم من

ص: ١٨٩

الناجين، أما الصحابه فلم يشترط عليهم هذا الشرط (١).

إلا أن هذا الادعاء لا يمكن قبوله، وهو مردود بأدله كثيره:

أولاً: إن الحكم المذكور فى الآيه يشمل التابعين أيضاً، والمقصود من التابعين - كما أشرنا سابقاً - كل الذين يتبعون المهاجرين و الأنصار السابقين فى معتقداتهم و أهدافهم و برامجهم، و على هذا فإن كل الأئمه بدون استثناء ناجيه.

و أمّا ما ورد فى حديث محمد بن كعب، من أن الله سبحانه و تعالى قد ذكر قيد الإحسان فى التابعين، أى أتباع الصحابه فى أعمالهم الحسنه، لا فى ذنوبهم، فهو أعجب البحوث و أغربها، لأن مفهوم ذلك إضافه الفرع إلى الأصل، فعند ما يكون شرط نجاه التابعين أن يتبعوا الصحابه فى أعمالهم الحسنه، فاشترط هذا الشرط على الصحابه أنفسهم يكون بطريق أولى.

و بتعبير آخر فإن الله تعالى بيّن فى الآيه أن رضاه يشمل كل المهاجرين و الأنصار السابقين الذين كانت لهم برامج و أهداف صالحه، و كل التابعين لهم، لا أنه قد رضى عن المهاجرين و الأنصار، الصالح منهم و الطالح، أما التابعون فإنه يرضى عنهم بشرط.

ثانياً: إن هذا الموضوع لا يناسب الدليل العقلى بأى وجه من الوجوه، لأنّ العقل لا يعطى أى امتياز لأصحاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فما الفرق بين أبى جهل و أمثاله، و بين من آمنوا أولاً ثم انحرفوا عن الدين؟ و لماذا لا تشمل رحمه البارى و الرضوان الإلهى الأشخاص الذين جاؤوا بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم بسنوات و قرون، و لم تكن تضحياتهم و جهادهم أقل ممّا عمله أصحاب النبى صلى الله عليه و آله و سلم، بل قد امتازوا بأنهم لم يروا نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، لكنهم عرفوه و آمنوا به؟ إن القرآن الذى يقول: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** كيف يرضى هذا التبعض و التفرقه غير المنطقيه؟

ص: ١٩٠

(١-١) تفسير المنار، و تفسير الفخر الرازى فى ذيل الآيه أعلاه.

إنّ القرآن الذى يلعن الظالمين و الفاسقين فى آياته المختلفه، و يعدهم ممّن استوجب العقاب و العذاب الإلهى، كيف يوافق و يقرّ هذه الصيانه غير المنطقيه للصحابه فى مقابل الجزاء الإلهى؟! هل إنّ مثل هذه اللعنات و التهديدات القرآنيه قابله للاستثناء، و أن يخرج من دائرتها قوم معينون؟ لماذا و لأجل أى شىء؟! و إذا تجاوزنا عن كل ذلك، ألا يعتبر مثل هذا الحكم بمثابة إعطاء الضوء الأخضر للصحابه ليرتكبوا من الذنب و الجريمه ما يحلو لهم؟ ثالثا: إنّ هذا الحكم لا يناسب المتون التاريخيه الإسلاميه، لأنّ كثيرا ممّن كان فى صفوف المهاجرين و الأنصار قد انحرف عن طريق الحق، و تعرض لغضب الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم الملازم لغضب الله عزّ و جلّ. ألم نقرأ فى الآيات السابقه قصّه ثعلبه بن حاطب الأنصارى، و كيف انحرف و أصبح مورد لعنه و غضب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم؟! و نقول بصوره أوضح: إذا كان مقصود هؤلاء أنّ أصحاب النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم لم يرتكبوا أى معصيه، و كانوا معصومين، فهذا من قبيل إنكار البديهيّات.

و إن كان مقصودهم أنّ هؤلاء قد ارتكبوا المعاصى، و عملوا المخالفات، إلا أنّ الله تعالى راض عنهم رغم ذلك، فإنّ معنى ذلك أن الله سبحانه قد رضى بالمعصيه! من يستطيع أن يبرئ ساحه طلحه و الزبير اللذين كانا فى البدايه من خواص أصحاب النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم، و كذلك عائشه زوجة النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم من دماء سبعة عشر ألف مسلم أريقّت دماؤهم فى حرب الجمل؟ هل أنّ الله عزّ و جلّ كان راضيا عن إراقه هذه الدماء؟! هل إنّ مخالفه على عليه السّلام خليفه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم-الذى إذا لم نقبل النّص على خلافته فرضا، فعلى الأقلّ كان قد انتخب بإجماع الأمّة-و شهر السلاح بوجهه و بوجه أصحابه الأوفياء شىء يرضى الله عنه؟ فى الحقيقه، إنّ أنصار نظريه (تنزيه الصحابه) بإصرارهم على هذا المطلب

والمبحث قد شوها صوره الإسلام الطاهر الذى جعل الإيمان و العمل الصالح هو المعيار و الأساس الذى يستند عليه فى تقييم الأشخاص فى كل المجالات و على أى الأحوال.

و آخر الكلام إن رضى الله سبحانه و تعالى فى الآيه التى نبحثها قد اتخذ عنوانا كليا، و هو الهجره و النصره و الإيمان و العمل الصالح، و كل الصحابه و التابعين تشملهم رحمه الله و رضاه ما داموا داخلين تحت هذه العناوين، فإذا خرجوا منها خرجوا بذلك عن رضى الله تعالى.

مما قلنا يتضح بصوره جليه أن قول المفسر العالم-لكنه متعصب-أى صاحب المنار،الذى يشن هنا هجوما عنيفا و تقريرا لادعا على الشيعة لعدم اعتقادهم بنزاهه الصحابه جميعا،لا قيمه له، إذ الشيعة لا ذنب لهم إلا أنهم قبلوا حكم العقل و شهادته التاريخ، و شواهد القرآن و أدلته التى وردت فى هذه المسأله، و لم يعتبروا الامتيازات الواهيه، و الأوسمه التى أعطها المتعصبون للصحابه بدون استحقاق.

ص: ١٩٢

اشاره

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا يَتْلَمَهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَيُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

التفسير

مره أخرى يدير القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين و فئاتهم، فيقول: وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ أى يجب أن لا- تركروا اهتمامكم على المنافقين الموجودين داخل المدينة، بل ينبغي أن تأخذوا بنظر الاعتبار المنافقين المتواجدين فى أطراف المدينة، وتحذروهم، و تراقبوا أعمالهم و نشاطاتهم الخطره. و كلمه (أعراب) كما أشرنا تقال عادة لسكان البادية.

ثم تضيف الآيه بأنّ فى المدينة نفسها قسما من أهلها قد وصلوا فى النفاق إلى أقصى درجاته، و ثبتوا عليه، و أصبحوا ذوى خبره فى النفاق: وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ .

(مردوا) مأخوذه من ماده (مرد) بمعنى الطغيان و العصيان و التمرد المطلق، و هى فى الأصل بمعنى التعرى و التجرد، و لهذا يقال لمن لم ينبت الشعر فى وجهه:

(أمرد)، و شجره مرداء، أى خاليه من أى ورقه، و المارد هو الشخص العاصى الذى خرج على القانون و عصاه كليه.

و قال بعض المفسرين و أهل اللغة: إن هذه ماده تأتي بمعنى (التمرين) أيضا.

(ذكر فى تاج العروس و القاموس أن التمرين واحد من معانى هذه الكلمه). و ربّما كان ذلك، لأنّ التجرد المطلق من الشىء، و الخروج الكامل من هيمنته لا يمكن تحقّقه بدون تمرين و ممارسه.

على كل حال، فإنّ هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق و الحقيقه، و تسلطوا على أعمال النفاق إلى درجه أنّهم كانوا يستطيعون أن يظهرُوا فى مصاف المؤمنين الحقيقين، دون أن يتنبه أحد إلى حقيقتهم و مراوغتهم.

إنّ هذا التفاوت فى التعبير عن المنافقين الداخليين و الخارجيين فى الآيه يلاحظ جليا، و ربّما كان ذلك إشاره إلى أنّ المنافقين الداخليين أكثر تسلطا على النفاق، و بالتالى فهم أشدّ خطرا، فعلى المسلمين أن يراقبوا هؤلاء بدقه، لكن يجب أن لا يغفلوا عن المنافقين الخارجيين، بل يراقبونهم أيضا. لذلك تقول الآيه مباشره بعد ذلك لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ و من الطبيعى أنّ هذا إشاره العلم الطبيعى للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم، و لكن هذا لا- ينافى أن يقف كاملا- على أسرارهم عن طريق الوحي و التعليم الإلهي.

و فى النهايه تبيّن الآيه صوره العذاب الذى سيصب هؤلاء: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

لا- شك أنّ العذاب العظيم إشاره إلى عذاب يوم القيامه، إلا- أنّ بين المفسرين نقاشا و احتمالات عديده فى نوعيه العذابين الآ-خرين و ماهيتهما. إلا- أنّ الذى يرجحه النظر أن واحدا من هذين العذابين هو العقاب الاجتماعى لهؤلاء، و المتمثل فى فضيحتهم و هتك أسرارهم، و الكشف عمّا فى ضمائرهم من خبيث النوايا، و هذا يستتبع خسرانهم لكل وجودهم الاجتماعى، و الدليل على ذلك ما

قرأناه في الآيات السابقة، وقد ورد في بعض الأحاديث أنّ أعمال هؤلاء عند ما كانت تبلغ حد الخطر، كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم يعرف هؤلاء الناس بأسمائهم و صفاتهم، بل و ربما طردهم من المسجد.

و العذاب الثاني هو ما أشارت إليه الآية (٥٠) من سورة الأنفال، حيث تقول هناك: **وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَاذْءَابُهُمْ .**

و يحتمل أيضا أن يكون العذاب الثاني إشاره إلى المعاناه النفسيه و العذاب الروحي الذي كان يعيشه هؤلاء نتيجة انتصارات المسلمين في كل الجوانب و الأبعاد و المجالات.

وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

سبب النزول

نقلت روايات عديده فى سبب نزول هذه الآيه، و نواجه فى أكثرها اسم (أبى لبابه الأنصارى) فهو -حسب روايه- قد امتنع مع اثنين -أو أكثر- من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من الاشتراك فى غزوه تبوك، لكنهم لما سمعوا الآيات التى نزلت فى ذم المتخلفين ندموا أشد الندم، فجاءوا إلى مسجد النبى صلى الله عليه و آله و سلم و ربطوا أنفسهم بأعمدته، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و بلغه أمرهم قالوا بأنهم أقسموا أن لا يفكوا رباطهم حتى يفك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بأنه يقسم أيضا أن لا يفعل ذلك حتى يأذن له الله، فنزلت الآيه، و قبل الله توبتهم، ففك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم رباطهم.

فأراد هؤلاء أن يشكروا ذلك، فقدموا كل أموالهم بين يدى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قالوا: إن هذه الأموال هى التى صرفتنا و منعتنا عن الجهاد، فاقبلها منا، و أنفقها فى سبيل الله، فأخبرهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأنه لم ينزل عليه شىء فى هذا. فلم تمض مدّه

حتى نزلت الآيه التي تلى هذه الآيه، وأمرت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يأخذ قسما من أموال هؤلاء، وحسب بعض الروايات فإنه قبل ثلثها.

ونقرأ في بعض الروايات، أن هذه الآيه قد نزلت في قصه بنى قريظه مع أبى لبابه، فإن بنى قريظه قد استشاروا أبى لبابه فى أن يسلموا لحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأوامره، فأشار إليهم بأنهم إن سلموا له فسيقتلهم جميعا، ثم ندم على ما صدر، فتاب وشد نفسه بعمود المسجد، فنزلت الآيه، وقبل الله تعالى توبته (1).

التفسير

إشاره

التوابون:

بعد أن أشارت الآيه السابقه إلى وضع المنافقين فى داخل المدينه و خارجها، أشارت هذه الآيه هنا إلى وضع جمع من المسلمين العاصين الذين أقدموا على التوبه لجبران الأعمال السيئه التى صدرت منهم، و رجاء لمحوها: وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَيَسْمَلَهُمْ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ .

إنّ التعبير ب(عسى) فى الآيه، و التى تستعمل فى الموارد التى يتساوى فيها احتمال الفوز و عدمه، أو تحقق الأمل و عدمه، ربّما كان ذلك كما يعيش هؤلاء حاله الخوف و الرجاء، و هما سيلتان مهمتان للتكامل و التريه.

و يحتمل أيضا أنّ التعبير ب(عسى) إشاره إلى وجوب الالتزام بشروط أخرى فى المستقبل، مضافا إلى الندم على ما مضى و التوبه منه و عدم الاكتفاء بذلك بل يجب أن تجبر الأعمال السيئه التى ارتكبت فيما مضى بالأعمال الصالحه مستقبلا.

إلا أننا إذا لا حظنا أن الآيه تختم ببيان المغفره و الرحمه الإلهيه، فإن جانب

ص: ١٩٧

الأمل و الرجاء هو الذى يرجح.

و هناك ملاحظه واضحه أيضا، و هى أن نزول الآيه فى أبى لبابه، أو سائر المتخلفين عن غزوه تبوك لا يخصص المفهوم الواسع لهذه الآيه، بل إنها تشمل كل الأفراد الذين خلطوا الأعمال الصالحه الحسنه بالسيئه، و ندموا على أعمالهم السيئه.

و لهذا نقل عن بعض العلماء قولهم: إن هذه الآيه أرجى آيات القرآن الكريم، لأنها فتحت الأبواب أمام المذنبين العاصين، و دعت التوابين إلى الله الغفور الرحيم.

ص: ١٩٨

اشاره

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِلَاتَكَ سَيَكُنْ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

التفسير

اشاره

الزَّكَاةُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ:

في الآيه الأولى من هذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمّة، وهي مسألة الزكاة، حيث تأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشكل عام أن خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً .

إنّ كلمه (من) التبعيضية توضح أنّ الزكاة تشكل -دائما- جزءا من الأموال، لا أنّها تستوعب جميع الأموال، أو الجزء الأكبر منها.

ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية للزكاة، حيث تقول:

تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا

فهى تطهرهم من الرذائل الأخلاقية، و من حبّ الدنيا

و عبادتها، و من البخل و غيره من مساوئ الأخلاق، و تزرع مكانها خلال الحب و السخاء و رعايه حقوق الآخرين في نفوسهم. و فوق كل ذلك فإنّ المفاسد الاجتماعيه و الانحطاط الخلقى و الاجتماعى المتولّد من الفقر و التفاوت الطبقي و الذى يؤدى إلى وجود طبقه محرومه، كل هذه الأمور ستتقلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهيه و أدائها، و هى التى تطهر المجتمع من التلوث الذى يعيشه و يحيط به، و كذلك سيفعل التكافل الاجتماعى، و ينمو و يتطور الإقتصاد فى ظل مثل هذه البرامج.

و على هذا فإنّ حكم الزكاه مطهر للفرد و المجتمع من جهه و يكرّس الفضيله فى النفوس من جهه أخرى، و هو سبب فى تقدم المجتمع أيضاً، و يمكن القول بأنّ هذا التعبير أبلغ ما يمكن قوله فى الزكاه، فهى تزيل الشوائب من جهه، و وسيله للتكامل من جانب آخر.

و يحتمل أيضاً فى معنى هذه الآيه أن يكون فاعل (تطهّروا) هو الزكاه، و فاعل (تزيكهم) (النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم)، و على هذا سيكون معنى هذه الآيه هو: إنّ الزكاه تطهّروا، و إنّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم هو الذى يرييهم و يزيكهم.

إلاّ أنّ الأظهر أنّ الفاعل فى كلا الفعلين هو النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، كما شرحنا و بينا ذلك فى البدايه، رغم أنّه ليس هناك فرق كبير فى النتيجة.

ثمّ تضيف الآيه فى خطابها للنّبي صلى الله عليه و آله و سلّم بأنّك حينما تأخذ الزكاه منهم فادع لهم و صلّ عليهم. إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس و تقديرهم، حتى إذا كان ما يؤدونه واجبا عليهم و حكما شرعيا يقومون به، و ترغيبهم بكل الطرق، و خاصّه المعنويه و النفسيه، و لهذا

ورد فى الرّوايات أنّ الناس عند ما كانوا يأتون بالزكاه إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم كان يدعو لهم يقول: «اللهم صل عليهم».

ثمّ تقول الآيه: [□] إِنَّ صِيَالَتَكَ سَيَكُنُّ لَهُمْ لَأَنَّ مِنْ بَرَكَاتِ هَذَا الدُّعَاءِ أَنْ تَنْزِلَ الرَّحْمَةُ الْإِلَهِيَّةَ عَلَيْهِمْ، و تغمر قلوبهم و نفوسهم الى درجه أنّهم كانوا يحسون بها.

مضافا إلى ثناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو من يقوم مقامه في جمع زكاه أموال الناس بحد ذاته يبعث على خلق نوع من الراحة النفسية والفكرية لهم، بحيث يشعرون بأنهم إن فقدوا شيئا بحسب الظاهر، فإنهم قد حصلوا-قطعا-على ما هو أفضل منه.

اللطف في الأمر، أننا لم نسمع لحد الآن أن المأمورين بجمع الضرائب مأمورين بشكر الناس و تقديرهم، إلا أن هذا الحكم الذي شرع كحكم مستحب في الأوامر والأحكام الإسلامية يعكس عمق الجانب الإنساني في هذه الأحكام.

□
وفي نهاية الآية نقراً: **وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** وهذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث في الآية، إذ أن الله سبحانه يسمع دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومطلع على نيات المؤدين للزكاه.

ملاحظات

إشارة

١- يتضح من سبب النزول المذكور لهذه الآية، أن هذه الآية ترتبط بالآية التي سبقتها في موضوع توبه أبي لبابه و رفاقه، لأنهم-و كشكر منهم لقبول توبتهم-أتوا بأموالهم و وضعوها بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليصرفها في سبيل الله، إلا أنه صلى الله عليه وآله وسلم اكتفى بأخذ قسم منها فقط.

إلا أن سبب النزول هذا لا ينافي-مطلقا-أن هذه الآية بينت حكما كليا عاما في الزكاه، ولا يصح ما طرحه بعض المفسرين من التضاد بين سبب نزولها و ما بينته من حكم كلي، كما قلنا ذلك مكررا في سائر آيات القرآن و أسباب نزولها.

السؤال الوحيد الذي يبقى هنا، هو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم-حسب روايه- قد قبل ثلث أموال أبي لبابه و أصحابه، في الوقت الذي لا يبلغ مقدار الزكاه الثلث في أي مورد، ففي الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب العشر أحيانا، و أحيانا جزء من عشرين جزءا، و في الذهب و الفضة (٢،٥٪)، و في الأنعام (البقر و الغنم و الإبل) لا

يصل إلى الثلث مطلقاً.

لكن يمكن الإجابة على هذا السؤال بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذ قسماً من أموالهم بعنوان الزكاة، والمقدار الإضافي الذي يكمل الثلث بعنوان الكفارة عن ذنوبهم، وعلى هذا فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذ الزكاة الواجبة عليهم، ومقداراً آخر لتطهيرهم من ذنوبهم وتكفيرها فكان المجموع هو الثلث.

٢- إنّ حكم (خذ) دليل واضح على أنّ رئيس الحكومه الإسلاميه يستطيع أن يأخذ الزكاة من الناس، لا أنّه ينتظر الناس فإن شاؤوا أدوا الزكاة، وإلا فلا.

٣- إنّ جملة صلّ عليهم وإن كانت خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلاّ أنّه من المسلّم أنّها في معرض بيان حكم كلّى - لأنّ القانون الكلّي يعنى أن الأحكام الإسلاميه تجرى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وباقي المسلمين على السواء، ومختصات النبي من جانب الأحكام يجب أن تثبت بدليل خاص - وعلى هذا فإنّ المسؤولين عن بيت المال في كلّ عصر و زمان يستطيعون أن يدعوا لمؤدى الزكاة بجملة: «اللهم صلّ عليهم».

و ممّا يثير العجب أنّ بعض المتعصبين من العامه لم يجوز الصلاه مستقله على آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أى أنّ شخصاً لو قال: (اللهم صلّ على عليّ أمير المؤمنين) أو:

(صلّ على فاطمه الزهراء) فإنّهم اعتبروا ذلك ممنوعاً وحراماً! فى الوقت الذى نعلم أنّ منع مثل هذا الدعاء هو الذى يحتاج إلى دليل، لا جوازه! إضافه إلى أنّ القرآن الكريم - كما قلنا سابقاً - قد أجاز بصراحه مثل هذا الدعاء فى حق أفراد عاديين، فكيف بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه؟! لكن، ماذا يمكن عمله؟ فإنّ التعصبات قد تقف أحياناً مانعه حتى من فهم آيات القرآن.

ولما كان بعض المذنبين - كالمخلفين عن غزوه تبوك - يصرّون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى قبول توبتهم، أشارت الآيه الثانيه من الآيات التى بين يدينا إلى أنّ قبول التوبه ليس مرتبطاً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل باللّه الغفور الرحيم، لذا قالت: أَلَمْ يَعْلَمُوا

ص: ٢٠٢

و لا ينحصر الأمر بتوقف قبول التوبه على قبول الله لها، بل إنه تعالى هو الذى يأخذ الزكاه و الصدقات الأخرى التى يعطيها العباد تقربا إليه، أو تكفيرا لذنوبهم: وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ .

لا شك في أن الذى يأخذ الزكاه هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو الإمام المعصوم عليه السلام أو خليفه المسلمين و قائدهم، أو الأفراد المستحقون، و فى كل هذه الأحوال فإن الله تبارك و تعالى لا يأخذ الصدقات ظاهرا، و لكن لما كانت يد النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الثواب الحقيقيين يد الله سبحانه- لأنهم خلفاء الله و وكلاؤه- قالت الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ. و كذلك العباد المحتاجون، فإنهم يأمر الله يأخذون مثل هذه المساعدات، و هم فى الحقيقه و كلاء الله، و على هذا فإن يدهم يد الله أيضا.

إن هذا التعبير من أطف التعبيرات التى تجسد عظمه هذا الحكم الإسلامى- أى الزكاه- فبالرغم من ترغيب كل المسلمين و دعوتهم إلى القيام بهذه الوظيفه الإلهيه الكبيره، فإنها تحذرهم بشده و تأمرهم بأن يراعوا الآداب الإسلاميه و يتقيدوا باحترام من يؤدونها إليه، لأن من يأخذها هو الله عز و جل، و إنما حذرتهم حتى لا يتصور بعض الجهال، أنه لا مانع من تحقير المحتاجين، أو إعطائه الزكاه بشكل يودى إلى تحطيم شخصيه آخذ الزكاه، بل بالعكس عليهم أن يؤدوها بكل أدب و خضوع، كما يوصل العبد شيئا إلى مولاه.

ففى روايه عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى يَدِ السَّائِلِ» (١) ! و

فى حديث آخر عن الإمام السجاد عليه السلام: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَقَعُ فِي يَدِ الْعَبْدِ حَتَّى تَقَعُ فِي يَدِ الرَّبِّ» (٢) .

بل إن روايه صرحت بأن كل أعمال ابن آدم تتلقاها الملائكه إلا الصدقه، فإنها

١- (١) مجمع البيان، ذيل الآية.

٢- (٢) تفسير العياشى، على ما نقل فى تفسير الصافى فى ذيل الآية.

تصل مباشرة إلى يد الله سبحانه (١).

هذا المضمون قد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام بعبارات مختلفه، و

نقل أيضا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق العامه، فقد جاء في صحيح مسلم و البخارى: «ما تصدق أحدكم بصدقه من كسب حلال طيب- ولا يقبل الله إلا الطيب- إلا أخذها الرحمن بيمينه، و إن كانت تمره، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل» (٢).

إن هذا الحديث المشحون بالتشبيهاً و الكنايات، و العظیم المعنى، مؤشر و دليل على الأهميه الخاصه للخدمات الإنسانيه و مساعده المحتاجين و المحرومين فى الأحكام الإسلاميه.

لقد وردت عبارات حديثه أخرى فى هذا المجال، و هى مهمه و ملفته للنظر إلى درجه أن اتباع هذا الدين يرون أنفسهم خاضعين لمن يأخذ منهم صدقاتهم، و كأن ذلك المحتاج يمن على المتصدق و يتفضل عليه بقبول صدقته.

فمثلا- نجد فى بعض الأحاديث، أن الأئمة المعصومين عليهم السلام كانوا أحيانا يقبلون الصدقه احتراماً و تعظيماً للصدقته، ثم يعطونها الفقراء، أو إنهم كانوا يعطونها للفقير ثم يأخذونها منه يقبلونها و يشمونها ثم يعيدونها إليه، لماذا؟ لأنهم وضعوها فى يد الله سبحانه! و بهذا ندرك عظيم الفاصله بين الآداب الإسلاميه و بين الأشخاص الذين يحقرون المحتاجين فيما إذا أرادوا أن يعطوا الشىء اليسير، أو يعاملونهم بخشونه و قسوه، بل و يرمون مساعدهتهم أحيانا بلا- أدب و خلق؟! و كما قلنا فى محلّه، فإن الإسلام يسعى بكلّ جدّ على أن لا- يبقى فقير واحد فى المجتمع الإسلامى، إلا- أنه ممّا لا شك فيه أن فى كلّ مجتمع أفراداً عاجزين أطفال،

ص: ٢٠٤

١- ١) تفسير العياشى، على ما نقل فى تفسير البرهان فى ذيل الآيه.

٢- ٢) تفسير المنار، ج ١١، ص ٣٣. و قد نقل هذا الحديث عن طريق أهل البيت عليهم السلام عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا. راجع: بحار الأنوار، ج ٩٦، ص ١٣٤، الطبعة الجديده.

يتامى، مرضى... و أمثال هؤلاء ممن لا قدره له على العمل، و هؤلاء يجب تأمين احتياجاتهم عن طريق بيت المال و الأغنياء، لكن هذا التأمين يجب أن يرافقه احترامهم و صيانه شخصياتهم.

ثم قالت الآية فى النهايه من باب التأكيد: **وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** .

التوبه و الجبران:

يستفاد من عدّه آيات فى القرآن الكريم أنّ التوبه لا تعنى الندم على المعصيه فحسب، بل يجب أن يرافقه ما يجبر و يكفر عن الذنب، و يمكن أن يتمثل جبران هذا الخطأ بمساعدته المحتاجين ببذل ما يحتاجونه، كما هو فى هذه الآيات، و كما مرّ فى قصّه أبى لبابه.

و لا فرق فى كون الذنب المقترف ذنبا ماليا، أو أى ذنب آخر، كما هو الحال فى قضيه المتخلفين عن غزوه تبوك، فإنّ الهدف فى الواقع هو تطهير الروح التى تلوّث بالمعصيه من آثار هذه المعصيه، و ذلك بالعمل الصالح، و هذا هو الذى يرجع الروح إلى طهارتها الأولى التى كانت عليها قبل الذنب.

و تؤكد الآيه التى تليها البحوث التى مرّت بصوره جديده، و تأمر النبى صلى الله عليه و آله و سلّم أن يبلغ الناس: **وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ** فهى تشير إلى أن لا- يتصور أحد أنه إذا عمل عملا، سواء فى خلوته أو بين الناس فإنّه سيخفى على علم الله سبحانه، بل إنّ الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنون يعلمون به إضافه إلى علم الله عزّ و جلّ.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقه و الإيمان بها له أعمق الأثر فى تطهير الأعمال و النيات، فإنّ الإنسان-عاده- إذا أحسّ بأنّ أحدا ما يراقبه و يتابع حركاته و سكناته، فإنّه يحاول أن يتصرّف تصرفا لا نقص فيه حتى لا يؤاخذه عليه من يراقبه، فكيف إذا أحسّ و آمن بأنّ الله و رسوله و المؤمنون يطلعون على أعماله!؟

إنّ هذا الاطلاع هو مقدمه للشّواب أو العقاب الذي ينتظره في العالم الآخر، لذا فإنّ الآيه الكريمة تعقب على ذلك مباشرة و تقول: وَ سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُبَيَّنُّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

ملاحظات

اشاره

١-مسأله عرض الأعمال

إنّ بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السّلام، و نتيجته للأخبار الكثيره الوارده عن الأئمّه عليهم السّلام، عقيدته معروفه و مشهوره، و هي أنّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و الأئمّه عليهم السّلام يطلعون على أعمال كل الأئمّه، أى أنّ الله تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصه عليهم.

إنّ الزّوايات الوارده في هذا الباب كثيره جدّاً، و ربّما بلغت حدّ التواتر، و ننقل هنا أقساماً منها كنماذج:

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «تعرض الأعمال على رسول اللّهم أعمال العباد كل صباح، أبرارها و فجارها، فاحذروها، و هو قول الله عزّ و جلّ: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ سَكَتَ (١) .

و

في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «إنّ الأعمال تعرض على نبيكم كل عشيه الخميس، فليستح أحدكم أن يعرض على نبيّه العمل القبيح» (٢) .

و

في روايه أخرى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام، أنّ شخصاً قال له: ادع الله لى و لأهل بيتى، فقال: «أ و لست أفعل؟ و الله أنّ أعمالكم لتعرض علىّ في كل يوم و ليله». يقول الراوى، فاستعظمت ذلك، فقال لى، «أما تقرأ كتاب الله عزّ و جلّ:

ص: ٢٠٦

١-١) أصول الكافي، ج ١، ص ١٧١، باب عرض الأعمال.

٢-٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٥٨.

وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

، هو و الله على بن ابي طالب» (١).

إنّ بعض هذه الأخبار ورد فيها ذكر النّبي صلى الله عليه وآله و سلّم فقط، و في بعضها على عليه السّلام، و في بعضها الآخر ذكر النّبي صلى الله عليه وآله و سلّم و الأئمّه عليهم السّلام، كما أنّ بعضها قد خص وقت عرض الأعمال بعصر الخميس، و بعضها جعله كل يوم، و بعضها في الأسبوع مرّتين، و بعضها في أوّل كل شهر، و بعضها عند الموت و الوضع في القبر.

و من الواضح أنّ لا منافاه بين هذه الروايات، و يمكن أن تكون كلّها صحيحه، تماما كما هو الحال في دستور عمل المؤسسات الخيره، فالمحصله اليوميه تعرض في نهايه كل يوم، و الأسبوعيه منها في نهايه كل أسبوع، و الشهريه أو السنويه في نهايه الشهر أو السنه على المسؤولين في المراتب العليا.

و هنا يطرح سؤال، و هو: هل يمكن استفاده هذا الموضوع من نفس الآيه مع غضّ النظر عن الروايات التي وردت في تفسيرها؟ أم أنّ الأمر كما قاله مفسّر و العامّه، و هو أنّ الآيه تشير إلى أمر طبيعي، و هو أنّ الإنسان إذا عمل أى عمل، فإنّه سيظهر، شاء أم أبى، و مضافا إلى علم الله سبحانه، فإنّ النّبي صلى الله عليه وآله و سلّم و المؤمنون سيطلعون على ذلك العمل بالطرق الطبيعه؟ و في الجواب عن هذا السؤال يجب أن يقال: الحق أنّ لدينا شواهد على هذا الموضوع من نفس الآيه، و ذلك:

أولا: إنّ الآيه مطلقه، و هي تشمل جميع الأعمال، فإنّا نعلم أن جميع الأعمال لا يمكن أن تتّضح للنّبي صلى الله عليه وآله و سلّم و المؤمنون بالطرق العاديه الطبيعه، لأنّ أكثر المعاصى ترتكب في السر، و تبقى مستتره عن الأنظار و العلم غالبا، بل إنّ الكثير من أعمال الخير أيضا تعمل في السرّ، و يلفها الكتمان. و دعوى أن كل الأعمال، الصالحه منها و الطالحه، أو أغلبها تتّضح للجميع واضحه و البطالان و بعيده كل البعد عن المنطق و الحكمه. و على هذا فإنّ علم النّبي صلى الله عليه وآله و سلّم و المؤمنون بأعمال الناس يجب أن يكون

ص: ٢٠٧

١-١) أصول الكافي، ج ١، ص ١٧١، باب عرض الأعمال.

عن طريق غير طبيعي، بل عن طريق التعليم الإلهي.

ثانياً: إنَّ آخر الآيه يقول: **فَيَسْبُغُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ولا شك أنَّ هذه الجملة تشمل كل أعمال البشر-العلنيه منها و المخفيه- و ظاهر تعبير الآيه أنَّ المقصود من العمل الوارد في أولها و آخرها واحد، و على هذا فإن أول الآيه يشمل أيضا كل الأعمال- الظاهره منها و الباطنه- و لا شك أنَّ الوقوف عليها كاملا لا يمكن بالطرق المعروفه الطبيعيه.

و بتعبير آخر، فإنَّ نهايه الآيه تتحدث عن جزاء جميع الأعمال، و كذلك تبحث بدايه الآيه علم الله و رسوله و المؤمنين بكل الأعمال، فهنا مرحلتان: إحداهما:

مرحله الاطلاع و العلم، و الأخرى: مرحله الجزاء، و الموضوع واحد في المرحلتين.

ثالثاً: إنَّ ضميمه المؤمنين في الآيه إلى الله و رسوله يصح في صورته يكون المقصود فيها كل الأعمال و بطرق غير الطبيعيه، و إلاَّ فإنَّ الأعمال العلنيه يراها المؤمنون و غير المؤمنين على السواء، و من هنا تتضح مسأله أخرى بصوره ضمنيّه، و هي أنَّ المقصود من المؤمنين في الآيه- كما ورد في الروايات الكثيره أيضا- ليس جميع المؤمنين، بل فئه خاصه منهم، و هم الذين يطلعون على الأسرار الغيبيه بإذن الله تعالى، و نعى بهم خلفاء النبي صلى الله عليه و آله و سلّم الحقيقيين.

و المسأله الأخرى التي يجب الانتباه لها هنا، و هي- كما أشرنا سابقاً- أنَّ مسأله عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقدين بها، فإنّي إذا علمت أنَّ الله الموجود في كل مكان معي، و بالإضافة إلى ذلك فإنَّ نبيي صلى الله عليه و آله و سلّم و أنمتي عليهم السّلام يطلعون على كل أعمالى، الحسنه و السيئه في يوم كل يوم، أو في كل أسبوع، فلا شك أنّى سأكون أكثر مراقبه و رعايه لما يبدر منى من أعمالى، و أحاول تجنب السيئه منها ما أمكن، تماما كما لو علم العاملون في مؤسسه ما بأنّ تقريراً يومياً أو أسبوعياً، تسجل فيه جزئيات أعمالهم، يرفع إلى المسؤولين ليطلعوا على دقائق أعمالهم.

٢- هل الرؤيه هنا تعنى النظر؟

المعروف بين جميع من المفسرين أنّ الرؤيه الوارده فى قوله تعالى: فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ... [□] تعنى المعرفه، لا- العلم، لأنها لم تأخذ أكثر من مفعول واحد و لو كانت الرؤيه بمعنى العلم لأخذت مفعولين.

لكن لا- مانع أن تكون الرؤيه بمعناها الأصلي، و هو مشاهده المحسوسات، لا بمعنى العلم، و لا بمعنى المعرفه، فإنّ هذا الموضوع بالنسبه إلى الله سبحانه و تعالى الموجود فى كل مكان، و المحيط بكل المحسوسات لا مناقشه فيه.

و أما بالنسبه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمه عليهم السلام، فلا مانع من ذلك أيضا، حيث أنّهم يرون نفس الأعمال عند عرضها، لأننا نعلم أنّ أعمال الإنسان لا تبنى، بل تبقى إلى يوم القيامه.

٣- لا شك أنّ الله عزّ و جلّ يعلم بالأعمال قبل وقوعها، و الذى فى جمله:

[□]
فَسَيَرَى اللَّهُ

إشاره إلى تلك الأعمال بعد تحققها فى عالم الوجود.

اشاره

وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

سبب النزول

قال جماعه من المفسرين: إن هذه الآيه نزلت في ثلاثه من المتخلفين عن غزوه تبوك، وهم: «هلال بن أميه» و«مراره بن ربيع» و«كعب بن مالك»، و سيأتي بيان ندمهم على ذلك و كيفية توبتهم في ذيل الآيه (١١٨) من هذه السوره، إن شاء الله تعالى.

و يستفاده من بعض الروايات الأخرى أنّ هذه الآيه نزلت في بعض الكفار الذين قتلوا الشخصيات الإسلاميه الكبرى - كحمزه سيد الشهداء في ساحات الحروب، ثم اهدوا و دخلوا في دين الإسلام.

التفسير

اشاره

في هذه الآيه إشاره إلى مجموعه من المذنبين الذين لم تتضح جيدا عاقبه أمرهم، فلا هم مستحقون حتما للرحمه الإلهيه، و لا من المغضوب عليهم حتما، لذا فإن القرآن الكريم يقول في حقهم: وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ

«مرجون» مأخوذ من مادّه (إرجاء) بمعنى التأخير و التوقيف، و فى الأصل أخذت من (رجاء) بمعنى الأمل، و لما كان الإنسان قد يؤخر شيئاً ما أحياناً رجاء تحقق هدف من هذا التأخير، فإنّ هذه الكلمه قد جاءت بمعنى التأخير، إلاّ أنّه تأخير ممزوج بنوع من الأمل.

إنّ هؤلاء فى الحقيقه ليس لهم من الإيمان الخالص و العمل الصالح بحيث يمكن عدّهم من أهل السعاده و النجاه، و ليسوا ملوّثين بالمعاصى و منحرفين عن الجاده بحيث يكتبون من الأشقياء، بل يوكل أمرهم إلى اللطف الإلهى كيف سيعامل هؤلاء، و هذا طبعاً حسب أوضاعهم الروحيه و مواقعهم.

و تضيف الآيه - بعد ذلك - أنّ الله سبحانه سوف لا - يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقتضى بعلمه و حكمته: **وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**.

سؤال:

و هنا يطرح سؤال مهم قلّمياً بحثه المفسّرون بصوره وافيّه، و هو ما الفرق بين هذه الفئه، و الفئه التى مرّ بيان حالتها فى الآيه (١٠٢) من هذه السوره؟ فإنّ كلا - الجماعتين كانوا من المذنبين، و كلا - المجموعتين تابوا، لأنّ المجموعه الأولى اعترفوا بذنوبهم، و أظهروا الندم عليها، و المجموعه الثانيه تستفاد توبتهم من قوله تعالى: **وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**. و كذلك فإنّ كلا الفئتين ينتظر أفرادها الرحمه الإلهيه و يعيشون حاله الخوف و الرجاء.

و للجواب على هذا السؤال نقول: إنّهُ يمكن التفرقه بين هاتين الطائفتين عن طريقين:

١- إنّ الطائفه الأولى تابوا بسرعه، و أظهروا ندمهم بصوره واضحه، فمثلاً - نرى أبا لبابه قد أوثق نفسه بعمود المسجد، و بعبارة موجزه: **إنّ هؤلاء أعلنوا ندمهم**

صريحا، و أظهروا استعدادهم لتحمل الكفاره البدنيه و الماليه مهما كانت.

أما أفراد الطائفه الثانيه فإنهم لم يظهرُوا ندمهم في البدايه، و لو أنّهم ندموا في أنفسهم و وجدانهم، و لم يظهرُوا استعدادهم لتحمل ما يترتب على ذنبهم و معصيتهم، فهم في الواقع كانوا يطمحون إلى العفو عن ذنوبهم الكبيره بكل بساطه و يسر.

إنّ هؤلاء - و مثالهم الواضح هو الثلاثه الذين أشير إليهم، و سيأتي بيان وضعهم - بقوا في حاله الخوف و الرجاء، و لهذا نرى أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أمر الناس أن يقاطعوهم و يبتعدوا عنهم، و بهذا فقد عاشوا محاصره اجتماعيه شديده اضطروا نتيجتها أن يسلكوا في النهايه نفس الطريق الذي سلكه أتباع الفريق الأوّل، و لما كان قبول توبه هؤلاء في ذلك الوقت يظهر بنزول آيه، فقد بقى النبي صلى الله عليه و آله و سلّم في انتظار الوحي، حتى قبلت توبتهم بعد خمسين يوما أو أقل.

و لهذا فإننا نرى الآيه نزلت في حق الطائفه الأولى قد ختمت بقوله: **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** و هو دليل على قبول توبتهم، أما الطائفه الثانيه فما داموا لم يغيروا مسيرهم فقد جاءت جمله: **وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** التي لا تدل من قريب أو بعيد على قبول توبتهم.

و لا مجال للتعجب من أنّ الندم لوحده لم يكن كافيا لقبول التوبه من المعاصي الكبيره، خاصّه في عصر نزول الآيات، بل يشترط مع ذلك الإقدام على الاعتراف الصريح بالذنب، و الاستعداد لتحمل كفارته و عقوبته، و بعد ذلك نزول الآيه التي تبشر بقبول التوبه.

٢- الفرق الثاني بين هاتين الطائفتين، هو أنّ الطائفه الأولى بالرغم من أنّهم عصوا بتخلفهم عن أداء واجب إسلامي كبير، أو لتسريبهم بعض الأسرار العسكريه إلى الأعداء، إلا أنّهم لم يرتكبوا الكبائر العظيمه كقتل حمزه سيد الشهداء، و لهذا فإنهم بمجرد أن تابوا و استعدوا للجزاء قبل الله توبتهم. غير أن قتل حمزه و أمثاله

لم يكن بالشىء الذى يمكن جبرانه، ولهذا فإنّ نجاه هذا الفريق مرتبطه بأمر الله و إرادته، إمّا يعفو عنهم أو يعاقبهم.

و على أى حال، فإنّ الجواب الأوّل يناسب تلك المجموعه من الروايات الوارده فى سبب النزول، و التى تربط الآيه بالثلاثه المتخلفين عن غزوه تبوك، أمّا الجواب الثّانى فإنّه يوافق الروايات العديده الوارده من طرق أئمّه أهل البيت عليهم السّلام، و التى تقول إنّ هذه الآيه تشير إلى قاتلى حمزه و جعفر و أمثالهما (١).

و لو دققنا النظر حقا لرأينا أن لا منافاه بين الجوابين، و يمكن أن يكون كل منهما مقصودا فى تفسير الآيه.

ص: ٢١٣

١-١) للاطلاع على هذه الروايات، راجع تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٦٥، و تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٠٦.

إشاره

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرًّا ۖ وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْهَابًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنِيَّ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيَاتُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيَاتُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُيَاتُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

سبب النزول

تحدث الآيات أعلاه عن جماعه أخرى من المنافقين الذين أقدموا-من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومه-على بناء مسجد في المدينة، عرف فيما بعد ب(مسجد الضرار).

وقد ذكر هذا الموضوع كل المفسرين الإسلاميين، وكثير من كتب التاريخ والحديث، مع وجود اختلافات في جزئياته.

و خلاصه القضية - كما تستفاد من التفاسير و الأحاديث المختلفه - أنّ جماعه من المنافقين أتوا إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و طلبوا منه أن يسمح لهم ببناء مسجد في حى بنى سليم - قرب مسجد قبا - حتى يصلى فيه العاجزون و المرضى و الشيوخ، و كذلك يصلى فيه جماعه من الناس الذين لا يستطيعون أن يحضروا مسجد قبا فى الأيام الممطره، و يؤدوا فرائضهم الإسلاميه، و كان ذلك فى الوقت الذى كان فيه النبي صلى الله عليه و آله و سلم عازما على التوجه إلى تبوك.

فأذن لهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم، إلا أنهم لم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن يصلى فيه، فأخبرهم بأنه عازم على السفر الآن، و عند عودته يأذن الله فسوف يأتي مسجدهم و يصلى فيه.

فلما رجع النبي صلى الله عليه و آله و سلم من تبوك حضروا عنده و طلبوا منه الحضور فى مسجدهم و الصلاه فيه، و أن يدعوا الله لهم بالبركه، و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يدخل بعد أبواب المدينه، فنزل الوحي و تلا عليه هذه الآيات، و كشف الستار عن الأعمال هؤلاء، فأمر النبي بحرق المسجد المذكور، و بهدم بقاياها، و أن يجعل مكانه محلا لرمى القاذورات و الأوساخ.

إذا نظرنا إلى الوجه الظاهري لهذا العمل، فسوف نتحير فى البدايه، فهل أن بناء مسجد لحمايه المرضى و الطاعنين فى السنن من الظروف الطارئه، و الذى هو فى حقيقته عمل ديني و خدمه إنسانيه، يعدّ عملا مضرا و سيئا حتى يصدر فى حقّه هذا الحكم؟ إلا أنّنا إذا دققنا النظر فى الواقع الباطني و حققناه رأينا أنّ هذا الأمر بهدمه فى منتهى الدقه.

و توضيح ذلك، أنّ رجلا فى زمن الجاهليه يقال له: أبو عامر، كان قد اعتنق النصرانيه، و سلك مسلك الرهبانيه، و كان يعد من الزهاد و العباد و له نفوذ واسع فى

و عند ما هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة واحتضنه المسلمون ونصروه و بعد انتصار المسلمين على المشركين في معركة بدر، رأى أبو عامر -الذى كان يوما من المبشرين بظهور النبي صلى الله عليه وآله وسلم- أنّ الناس قد انفضوا من حوله، وبقى وحيدا، وعند ذلك قرر محاربه الإسلام، فهرب من المدينة إلى كفار مكّه، واستمد منهم القوّه لمحاربه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و دعا قبائل العرب لذلك فكان ينفذ و يقود جزءا من مخططات معركة أحد، و هو الذى أمر بحفر الحفر بين الصفين و التى سقط النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى أحدها فجرت جبهته و كسرت ربايعته.

فلَمّا انتهت غزوه أحد بكل ما واجه المسلمون فيها من مشاكل و نوائب، دوى صوت الإسلام أكثر من ذى قبل، و عمّ كل الأرجاء، فهرب أبو عامر من المدينة و ذهب إلى هرقل ملك الروم ليستعين به قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و ليرجع إلى المسلمين و يقاتلهم فى جحفل لجب و جيش عظيم.

و يلزم هنا أن نذكر هذه النقطة، و هى أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى صدر منه من التحريض و الدعوه لقتال المسلمين و نبئهم سمّاه (فاسقا).

يقول البعض: إنّ الموت لم يمهلته حتى يطلع هرقل على نواياه و مشاريعه، إلّا- أنّ البعض الآخر يقول: إنّّه اتصل بهرقل و تحمس لوعوده! على كل حال، فإنّّه قبل أن يموت أرسل رساله إلى منافقى المدينة يبشرهم فيها بالجيش الذى سيصل لمساعدتهم، و أكّد عليهم بالخصوص على أن يبنوا له مركزا و مقرّا فى المدينة ليكون منطلقا لنشاطات المستقبل.

و لما كان بناء مثل هذا المقر، و باسم أعداء الإسلام غير ممكن عمليا، رأى المنافقون أن يبنوا هذا المقر تحت غطاء المسجد، و بعنوان مساعدته المرضى و العاجزين.

و أخيرا تمّ بناء المسجد، و يقال أنّهم اختاروا شابا عارفا بالقرآن من بين

المسلمين يقال له: «مجمع بن حارثه» أو «مجمع بن جارية» أو «كلوا له إمامه المسجد».

إلا- أنّ الوحي الإلهي أزاح الستار عن عمل هؤلاء، وربما لم يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشيء قبل ذهابه إلى تبوك ليواجه هؤلاء بكل شدة، من أجل أن يتضح أمرهم أكثر من جهه، ولثلا ينشغل فكريا و هو في مسيره إلى تبوك بما يمكن أن يحدث فيما لو أصدر الأمر.

و كيف كان، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكتف بعدم الصلاة في المسجد و حسب، بل إنّه - كما قلنا- أمر بعض المسلمين -و هم مالك بن دحشم، و معنى بن عدى، و عامر بن سكر أو عاصم بن عدى- أن يحرقوا المسجد و يهدموه، فنفذ هؤلاء ما أمروا به، فعمدوا إلى سقف المسجد فحرقوه، ثم هدموا الجدران، و أخيرا حولوه إلى محل لجمع الفضلات و القاذورات (١).

التفسير

إشارة

معبد و ثنى في صورة مسجد!

أشارت الآيات السابقة إلى وضع مجاميع مختلفه من المخالفين، و تعرّف الآيات التي نبحثها مجموعه أخرى منهم، المجموعه التي دخلت حلبة الصراع بخطه دقيقه و ذكيه، إلا أن اللطف الإلهي أدرك المسلمين، و بدد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم و إبطاء خطتهم.

فآية الأولى تقول: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا (٢) و أخفوا أهدافهم الشريره

ص: ٢١٧

١- ١) مجمع البيان، و تفسير أبي الفتوح الرازي، و تفسير المنار، و تفسير الميزان، و تفسير نور الثقلين، و كتب أخرى.
٢- ٢) بالرغم من أنّ المفسرين قد أبدوا و جهات نظر مختلفه من الناحية الأدبيه حول تركيب هذه الجملة، إلا أنّ الظاهر هو أن هذه الجملة معطوفه على الجمل السابقه التي وردت في شأن المنافقين، و تقديرها هكذا: «و منهم الذين اتخذوا مسجدا...».

تحت هذا الإسلام المقدس، ثم لخصت أهدافهم في أربعة أهداف:

١- إن هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم (ضرارا).

«الضرار» تعنى الإضرار العمدي، وهؤلاء في الواقع بعكس ما كانوا يدعون من أن هدفهم تأمين مصالح المسلمين و مساعدته المرضى و العاجزين عن العمل، كانوا يسعون من خلال هذه المقدمات إلى المكيدة بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و رسالته، و سحق المسلمين، بل إذا استطاعوا أن يقتلعوا الدين الإسلامى و جذوره من صفحة الوجود فإنهم سوف لا يقصرون في هذا السبيل.

٢- تقوية أسس الكفر، و محاولة إرجاع الناس إلى الحالة التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام: (و كفرا).

٣- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأن اجتماع فئه من المسلمين في هذا المسجد سيققل من عظمه التجمع في مسجد قبا الذى كان قريبا منه، أو مسجد النبي صلى الله عليه و آله و سلم الذى كان يبعد عنه، و تفريقاً بين المؤمنين .

و يظهر من هذه الجملة- و كذلك فهم بعض المفسرين- أن المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع في مسجد على جماعه المسجد الآخر، و على هذا فإن الذين يبنون المساجد أحدها إلى جانب الآخر بدافع من التعصب القومى، أو الأغراض الشخصية و يفرقون جماعات المسلمين بحيث تبقى صفوف الجماعه خاليه لا روح فيها و لا جاذبيه، يرتكبون ما يخالف الأهداف الإسلاميه.

٤- الهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقر و مركز لإيواء المخالفين للدين و أصحاب السوابق، السيئه، و الانطلاق من هذا المقر في سبيل تنفيذ خططهم و مؤامراتهم: **وَ إِزْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ .**

إلا أن مما يثير العجب أن هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريره

و الأهداف المشؤومه فى لباس جميل و مظهر خداع، و أنّهم لا يريدون إلاّ الخير:

وَ لِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ

و هذا هو دين المنافقين و ديدنهم فى كل العصور، فإنّهم إضافة إلى تلبسهم بلباس حسن، فإنّهم يتوسلون عند الضروره بأنواع الأيمان الكاذبه من أجل تضليل الرأى العام، و انحراف الأفكار.

إلاّ أنّ القرآن الكريم يبين أنّ الله تعالىّ الذى يعلم السرائر و ما فى مكنون الضمائر، و الذى تساوى لديه الظاهر و الباطن، و الغيب و الشهاده يشهد على كذب هؤلاء: وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

فى هذه الجملة نلاحظ عدّه تأكيدات لتكذيب هؤلاء، فهى جمله اسميه أولاً، ثمّ إنّ كلمه (إن) للتأكيد، و أيضاً اللام فى (لكاذبون)، و التى تسمى لام الابتداء تفيد التأكيد، و كذلك فإنّ مجيء كلمه (كاذبون) مكان الفعل الماضى دليل على استمراريه كذب هؤلاء، و بهذه التأكيدات فإنّ الله سبحانه و تعالىّ قد كذبّ أيمان هؤلاء المغلظه و المؤكده أشدّ تكذيب.

يؤكد الله سبحانه و تعالىّ فى الآيه التاليه تأكيداً شديداً على مسأله حياته مهمّه، و يأمر نبيّه بصراحه أنّ لا تقمّ فيه أبداً بل لمسيّجداً أسس على التّقوىّ من أوّل يومٍ أحقّ أنّ تقومّ فيه لا- المسجد الذى أسس من أوّل يوم على الكفر و النفاق و تقويض أركان الدين.

إنّ كلمه (أحق) و إن كانت أفعل التفضيل، إلاّ أنّها لم تأت هنا بمعنى المقارنه بين شيئين فى التناسى و الملاءمه، بل هى تقارن بين التناسب و عدمه، و الملاءمه و عدمها، و مثل هذا التعبير يستعمل كثيراً فى آيات القرآن الكريم و الأحاديث، بل و فى محادثاتنا اليوميّه، و له نماذج عديده.

فمثلاً- نقول للشخص المجرم و السارق: إنّ الاستقامه و العمل الصالح الصحيح خير لك، فإنّ هذا الكلام لا يعنى أنّ السرقة و التلوث بالجريمه شىء حسن، و أنّ الاستقامه و الطهاره أحسن، بل معناه أنّ الاستقامه و حسن السيره شىء حسن،

و أنّ السرقه عمل سىء و غير مناسب.

و قال المفسّرون: إنّ المسجد الذى أشارت الآيه إلى أنّه يستحق أن يصلّى فيه النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم هو «مسجد قبا» حيث بنى المنافقون مسجد ضرار على مقربه منه.

و احتمال أيضا أن يكون المقصود منه مسجد النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم، أو كل المساجد التى بنيت على أساس التقوى، إلا أنّنا لا حظنا تعبير أوّل يَوْم و أن مسجد قبا هو أوّل مسجد بنى فى المدينه (١)، علمنا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب و الأرجح، و لو أنّ هذه الكلمه تناسب أيضا مساجد أخرى كمسجد النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافه إلى أنّ هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإنّ فيه رجال يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ .

و لكن هل المراد من الطهاره فى هذه الآيه هى الطهاره الظاهريه و الجسميه، أم المعنويه؟ هناك بحث بين المفسّرين فى الزوايه التى نقلت فى تفسير (التبيان) و (مجمع البيان) فى ذيل هذه الآيه

عن النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال لأهل قبا: «ماذا تفعلون فى طهركم، فإنّ الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء؟» قالوا: نغسل أثر الغائط.

و قد نقلت روايات أخرى بهذا المضمون عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام، لكن - كما قلنا سابقا و أشرنا مرارا - مثل هذه الزوايات لا - تدل على انحصار مفهوم الآيه فى هذا المصداق، بل - و كما يشير ظاهر إطلاق الآيه - أنّ للطهاره هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحى من آثار الشرك و الذنوب، أو التطهير الجسمى من الأوساخ و النجاسات.

و فى الآيه الثالثه من الآيات مقارنه بين فريقين و فئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، و المنافقين الذين بنوه على أساس الكفر و النفاق و التفرقه و الفساد. فهى تقول أوّلا:

ص: ٢٢٠

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيَاتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ

«بنيان» مصدر بمعنى اسم مفعول، و يعنى المبني، و(شفا)بمعنى حافه الشىء و طرفه، و(جرف)بمعنى حافه النهر أو حافه البئر التى جرف الماء ما تحتها. و(هار) بمعنى الشخص أو البناء المتصدع المشرف على السقوط، أو هو فى حال السقوط.

إن التشبيه الوارد أعلاه يعطى صورته فى منتهى الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقين و تزلزلها، و فى المقابل استحكام و دوام أعمال المؤمنين و نشاطاتهم و برامجهم، فهو يشبه المؤمنين بمن أراد أن يبنى بناء، فإنه ينتخب الأرض الجيده القويه التى تتحمل البناء، و مختار من مواد البناء الأوليه ما كان جيدا.

أمّا المنافقون فإنه يشبههم بمن يبنى بيته على حافه النهر- و مثل هذه الأرض جوفاء- لأن جريان الماء قد نخرها، و بالتالى فهى عرضة للسقوط فى أى لحظه، و كذلك النفاق، فإن ظاهره حسن لكنه عديم المحتوى كالبنايه الجميله ذات الأساس النخر.

إن هذه البنايه يمكن أن تنهار فى آيه لحظه، و مذهب أهل النفاق أيضا يمكن أن يظهر واقع أتباعه و باطنهم، و بالتالى فضيحتهم و خزيهم.

إن التقوى و السعى فى مرضاه الله تبارك و تعالى يعنى التعامل مع الواقع، و السير وفقا لقوانين الخلقه و هى بدون شك عامل البقاء و الثبات.

أمّا النفاق فإنه يعنى الانفصال عن الواقع و الابتعاد عن قوانين الوجود، و هذا بلا شك هو عامل الزوال و الفناء.

و من هنا، فإنّ المنافقين يظلمون أنفسهم و يظلمون المجتمع أيضا و لذلك فإنّ الآيه اختتمت بقوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. و كما قلنا مرارا، فإنّ الهدايه الإلهيه تعنى تهيئه المقدمات للوصول إلى الغايه، و هى تشمل- فقط- أولئك الذين لديهم الاستعداد لتقبل هذه الهدايه و يستحقونها، أمّا الظالمون الفاقدون لمثل هذا الاستعداد فسوف لا يشملهم هذا اللطف مطلقا، لأنّ الله حكيم، و مشيئته و إرادته

و فى آخر آيه إشاره إصرار المنافقين و عنادهم، فهى تعبّر عن تعصبهم و إصرارهم فى أعمالهم، و عنادهم فى نفاقهم، و حيرتهم فى ظلمه كفرهم، فهم فى شك من بيانهم الذى بنوه، أو فى النتيجة المرجوه منه، و سيقون فى هذه الحال حتى موتهم: لا يزال بُيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ .

إنّ هؤلاء يعيشون حاله دائمه من الحيره و الاضطراب، و إن مقر النفاق الذى أقاموه، و المسجد الضرار الذى بنوه، سيبقى عامل تردد و لجاجه فى أرواح هؤلاء، فبالرغم من أنّ النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم قد أحرق هذا البناء و هدمه، إلا أن أثره و أهدافه قد لا تزول من القلوب.

و تقول الآيه أخيرا: وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فَإِنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَمْرٌ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ بِهِدْمَ هَذَا الْبِنَاءِ الَّذِي يَحْمِلُ صِفَةَ الْحَقِّ ظَاهِرًا، حَتَّى تَتَبَيَّنَ نِيَّاتِ السُّوءِ الَّتِي انطوى عليها هؤلاء، و تنكشف حقائقهم و بواطنهم و هذا الحكم الإلهى هو عين الحكمة، و حسب صلاح المجتمع الإسلامى، و قد صدر على هذا الأساس، لا أنه حكم عجول صدر نتيجة انفعال أو فى لحظه غضب.

بحوث

إشاره

١- درس كبير

إنّ قصه مسجد الضرار درس لكل المسلمين من جميع الجهات، فإنّ قول الله سبحانه و عمل النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم يوضحان تماما بأنّ المسلمين يجب أن لا يكونوا سطحيين فى الرؤيه مطلقا، و أن لا يكتفوا بالنظر إلى الجوانب التى تصطبغ بصبغه الحق، و يغفلون عن الأهداف الأصلية المراد تحقيقها، و المستتره بهذا الظاهر البراق.

المسلم هو الذى يعرف المنافق و أساليب النفاق فى كل زمان، و فى كل مكان، و بأى لباس تلبس، و بأى صورته يظهر بها، حتى و لو كانت صورته الدين و المذهب، أو لباس مناصره الحق و القرآن و المساجد.

إنّ الاستفاده من مذهب ضد مذهب آخر ليس شيئاً جديداً، بل هو طريق الاستعمار و أسلوبه على الدوام، فإنّ وسيلة الجبارين و المنافقين و أسلوبهم فى العمل هو الوقوف على رغبة الناس فى مسأله ما، و استغلال تلك الرغبه فى سبيل إغفالهم و بالتالى استعمارهم، و يستعينون بقدرات مذهب ما فى ضرب و هدم مذهب آخر إن استدعى الأمر ذلك.

و أساساً فإنّ جعل الأنبياء المزورين و المذاهب الباطله، هو تحوير الميول المذهبيه للناس عن هذا الطريق و صبّها فى القنوات التى يريدونها و يديرونها.

و من البديهى أنّ محاربه الإسلام بصوره عنيه فى محيط كمحيط المدينه، و ذلك فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و مع ذلك النفوذ الخارق للإسلام و القرآن، أمر غير ممكن، بل يجب إلباس الكفر لباس الدين، و تغليف الباطل بغلاف الحق لجذب البسطاء و السذج من الناس.

إلاّ أنّ المسلم الحقيقى ليس سطحياً إلى تلك الدرجه بحيث يخدع بهذه الظواهر، بل إنّه يدقق فى العوامل و الأيادى التى وضعت هذه البرامج، و يحقق القرائن الأخرى التى لها علاقه البرامج و ماهيتها، و بذلك سيرى الصوره الباطنيه للأفراد المختبئه خلف الصوره الظاهريه.

المسلم ليس بذلك الفرد الذى يقبل كل دعوه تصدر من أى فم بمجرد موافقتها الظاهريه للحق، و يلبي تلك الدعوه.

المسلم ليس ذلك الشخص الذى يوافق كل يد تمد إليه، و يؤيد و يدعم كل حركه يشاهدها بمجرد رفعها شعاراً دينياً، أو يتعهد بالانضمام تحت أى لواء يرفع باسم المذاهب و الدين، أو ينجذب إلى كل بناء يشيد باسم الدين.

المسلم يجب أن يكون حذرا، وواعيا، واقعيا، بعيد النظر، و من أهل التحليل و التحقيق فى كل المسائل الاجتماعيه.

المسلم يعرف المتمردين العصاه فى لباس الملائكه و الوداعه، و يميز الذئاب المتلبسه بلباس الحراس و الرعاه، و يعد نفسه لمحاربه الأعداء الظاهرين بصوره الأصدقاء.

هناك قاعده أساسيه فى الإسلام، و هى أنه يجب معرفه النيات قبل كل شىء، و أنّ قيمه كل عمل ترتبط بنية، لا بظاهره، فبالرغم من أنّ النيه أمر باطنى، إلاّ أن أحدا لا يمكنه إضمار نيته دون أن يظهر أثرها على جوانب عمله و فلتاته، حتى و لو كان ماهرا و مقتدرا فى اخفائها.

و من هذا سيّضح الجواب عن هذا السؤال، و هو: لماذا أصدر النبى صلى الله عليه و آله و سلمّ أمرا بحرق المسجد الذى هو بيت الله، و يأمر بهدم المسجد الذى لا يجوز شرعا إخراج حصاه واحده من حصاه، و يجعل المكان الذى يجب تطهيره فورا إذا ما تنجس محلا لجمع الفضلات و القاذورات!! و جواب كل هذه الأسئلة موضوع واحد، و هو أنّ مسجد الضرار لم يكن مسجدا بل معبدا للأصنام... لم يكن مكانا مقدسا، بل مقرا للفرقه و النفاق... لم يكن بيت الله، بل بيت الشيطان... و لا يمكن أن تبدل الأسماء و العناوين و الأفعه من واقع الأشياء شيئا مطلقا.

كان هذا هو الدرس الكبير الذى أعطته قصّه مسجد الضرار لكل المسلمين، و فى كل الأزمنه و الأعصار.

و تتّضح من هذا البحث- أيضا- أهميه الوحده بين صفوف المسلمين من وجهه نظر الإسلام، و التى تبلغ حدا بحيث إذا كان بناء مسجد جنب مسجد يؤدى إلى التفرقه و الاختلاف بين صفوف المسلمين فلا قدسيه لذلك المسجد إطلاقا.

الدرس الثاني الذى يمكن أخذه من هذه الآيات، هو أنّ الله سبحانه و تعالى أمر نبيّه صلى الله عليه و آله و سلّم فى هذه الآيات أن لا يصلى فى مسجد الضرار، بل يصلى فى المسجد التى وضعت قواعده و أسسه على أساس التقوى.

إنّ النفي و الإثبات يتجلى فى الإسلام من شعاره الأصيلي (لا إله إلاّ الله) إلى أموره الصغيره و الكبيره الأخرى، يبيّن هذه الحقيقه، و هى ضروره وجود الإثبات إلى جانب النفي دائما على أرض الواقع العملي، فإنّنا إذا نهينا الناس عن الذهاب إلى مراكز الفساد، فيجب أن نبني و نوفر لهم المقابل المراكز النقيه الصالحه لإشباع روح الحياه الجماعيه فى الفرد و إرضائها... إذا منعنا وسائل اللهو المنحرفه، فيجب توفير وسائل لهو سالمه و هادفه... إذا حاربنا الثقافه الاستعماريه، فيجب أن تهيبّ الثقافه الصحيحه و المراكز السليمه و المدارس الصالحه للتربيه و التعليم... إذا شجبنا الانحلال الخلقى و السقوط الاجتماعى، فيجب أن نوفر وسائل الزواج البسيطه و نضعها تحت تصرف الشباب.

الأشخاص الذين صبّوا كل اهتماماتهم فى جانب النفي، دون الاهتمام بالجانب الإيجابى و الإثباتى، عليهم أن يتيقنوا بأن نفيهم لوحده لا يثمر شيئا، لأنّ سنّه الحياه أن تشيع كل الغرائز و الأحاسيس عن الطريق الصحيح، و لأنّ قانون الإسلام المسلّم به أن كل (لا) يجب أن تصحبها (إلا) ليتولد منها التوحيد الذى يهب الحياه.

و هذا هو الدرس الذى نساه الكثير من المسلمين مع الأسف رغم تفصيرهم هذا يشكون من عدم تقدم و تطور البرامج الإسلاميه! هذا فى الوقت الذى لا ينحصر برنامج الإسلام بالنفي كما يتخيل هؤلاء، فإنّهم إذا قرنوا النفي بالإثبات فإنّ تقدمهم سيكون حتميا.

٣- شرطان أساسيان

الدرس القيم الثالث الذى يمكن استنباطه من الآيات محل البحث هو أن المقر و المركز النشط و الإيجابى دينيا و اجتماعيا، هو الذى يتشكل من عنصرين.

الأول: أن يكون الأساس الذى يستند إليه، و الهدف الذى يطمح إلى تحقيقه، طاهرين من البدايه: **أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى** مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

الثانى: أن يكون رواد هذا المركز و حماته أناسا طاهرين و مخلصين و مؤمنين:

فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا

إن فقدان أحد هذين الركنين الأساسيين يعنى انهيار البناء و عدم وصوله إلى الهدف المنشود.

ص: ٢٢٦

اشاره

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَهُ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِاللَّهِ الَّذِي يَبْتَاعُكُمْ بِهٖ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

التفسير

اشاره

تجاره لا نظير لها:

لما كان الكلام في الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإن هاتين الآيتين قد بينتا المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع.

لقد عرف الله سبحانه و تعالى نفسه في هذا المثال بأنه مشتر، و المؤمنين بأنهم بائعون، و قال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ .

و لما كانت كل معاملة تتكون في الحقيقة من خمسة أركان أساسية، و هي عبارته عن: المشتري، و البائع، و المتاع، و الثمن، و سند المعاملة أو وثقتها، فقد أشار الله سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، و المؤمنين بائعين، و أموالهم و أنفسهم متاعاً و بضاعه، و الجنة ثمناً لهذه المعاملة. غايه ما في الأمر أنه بين طريقه تسليم البضاعه بتعبير لطيف، فقال: **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** و في الواقع فإن يد الله سبحانه حاضره في ميدان الجهاد لتقبل هذه البضاعه، سواء كانت روحاً أم مالا يبذل في أمر الجهاد.

ثم يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، و الذي يشكل الركن الخامس فيها، فقال: **وَعِدَاءٌ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ**.

□
إذا أمعنا النظر في قوله: **فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَتَّضِحُ جَلِيًّا أَنْ اللَّهَ تَعَالَى يَشْتَرِي الْأَرْوَاحَ وَالْجُهُودَ وَالْمَسَاعِيَ الَّتِي تَبْذُلُ وَتَصْرَفُ فِي سَبِيلِهِ**، أي سبيل إحقاق الحق و العدالة، و الحرية و الخلاص لجميع البشر من قبضه الكفر و الظلم و الفساد.

□
ثم، و من أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ** أي أن ثمن هذه المعاملة و إن كان مؤجلاً، إلا أنه مضمون، و لا وجود لأخطار النسيئه، لأن الله تعالى لقدرته و استغناؤه عن الجميع أوفى من الكل بعهدده، فلا هو ينسى، و لا يعجز عن الأداء، و لا- يفعل ما يخالف الحكمه ليندم عليه و يرجع عنه، و لا يخلف وعده و العياد بالله، و على هذا فلا يبقى أي مجال للشك في وفائه بعهدده، و أدائه الثمن في رأس الموعد المقرر.

و الأروع من كل شيء أنه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، و يتمنى لهم أن تكون صفقه و فيره الربح، تماماً كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عزّ و جلّ:

فَاسْتَبْشِرُوا (١) بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

ص: ٢٢٨

١- (١) فاستبشروا مأخوذه من ماده البشاره، و التي أخذت في الأصل من البشره، أي وجه الإنسان، و هي إشاره إلى آثار الفرحه و السرور التي تبدو بوضوح على وجه الإنسان.

وقد جاء نظير هذا المبحث بعبارات أخرى، ففي الآيتين (١٠) و(١١) من سورة الصف يقول الله عزّ وجلّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

إنّ الإنسان ليقع في حيره هنا من كل هذا اللطف و الرحمة الإلهيه، فإنّ الله المالك لكل عالم الوجود، و الحاكم المطلق على جميع عالم الخلقه، و كل ما يملكه أيّ موجود فانما هو من فيضه و منحه، يبدو في مقام المشتري لنفس هذه المواهب التي وهبها لعباده، و يشتري ما أعطاه بمئات الأضعاف.

و الأءجب من ذلك، أنّ الجهاد الذي هو السبب في عزّه الإنسان و افتخار الامه، و ثمراته تعود في النهايه عليها، قد اعتبر دفعا و تسليما لهذه البضاعه.

و مع أنّ المتعارف أنّ الثمن يجب أن يعادل المثلثن أو البضاعه، إلاّ أن هذا التعادل لم يلاحظ في هذه المعامله، و جعلت السعاده الأبدية في مقابل بضاعه متزلزله يمكن أن تفنى في أيه لحظه، (سواء كان على فراش المرض أو ساحه القتال).

و الأهم من هذا أنّ الله سبحانه و تعالى مع أنّه أصدق الصادقين، و لا- يحتاج إلى سند و ضمان، فإنّه تعهد بأهم الوثائق و الضمانات أمام عبيده.

و في نهايه هذه المعامله العظيمه، و الصفقه الكبيره، فإنّه قد بارك لهم و بشرهم، فهل تتصور رحمه و محبّه أعلى من هذه؟! و هل يوجد معاملة أكثر ربحا من هذه؟! و لهذا

ورد في حديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه لما نزلت هذه الآيه كان النبي صلى الله عليه و آله و سلّم في المسجد، فتلا هذه الآيه بصوت عال، فكبر الناس، فتقدم رجل من الأنصار و سأل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم: يا رسول الله، أنزلت هذه الآيه؟ فقال النبي صلى الله عليه و آله و سلّم:

«نعم». فقال الأنصاري: بيع ربيع لا نقيلا ولا نستقيل (١).

كما هي طريقه القرآن المجيد، حيث أنه يجمل الكلام في آيه، ثم يعمد إلى التفصيل في الآية التي تليها، فقد بين سبحانه في الآية الثانية حال البائعين للروح و المال لرّبهم عزّ و جلّ، فذكر تسع صفات مميزة لهم:

١- فهم يغسلون قلوبهم و أرواحهم من رين الذنوب بماء التوبه: **التَّائِبُونَ** .

٢- و هم يطهرون أنفسهم في نفحات الدعاء و المناجاة مع ربهم: **الْعَابِدُونَ** .

٣- و هم يحمدون و يشكرون كل نعم الله المادية و المعنوية: **الْحَامِدُونَ** .

٤- و هم يتنقلون من مكان عباده إلى آخر: **السَّائِحُونَ** .

و بهذا الترتيب فإنّ برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر في العبادة، أو في إطار محدود، بل إن كان مكان هو محل عبده لله و جهاد للنفس و تربيته لها بالنسبة لهؤلاء، و كل مكان يوجد فيه درس و عبره لهؤلاء فإنّهم سيقصدونه.

(سائح) في الأصل مأخوذ من (سيح)، و (سياحه) و التي تعني الجريان و الاستمرار.

و هناك بحث بين المفسرين فيما هو المقصود من السائح في الآية، و أي نوع من الجريان و الاستمرار و السياحه هو؟ فالبعض يرى - كما قلنا أعلاه - إن السير في تربية النفس و جهادها إنّما يكون في أماكن العبادة،

ففي حديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «سياحه أمتي في المساجد» (٢).

و البعض الآخر يقول: إنّ السائح يعني الصائم، لأنّ الصوم عمل مستمر طوال اليوم، و

في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «إن السائحين هم الصائمون» (٣).

و البعض الآخر من المفسرين يرى أن السياحه تعني التنقل و التجوال في

ص: ٢٣٠

١- (١) الدر المنثور، كما ورد في تفسير الميزان.

٢- (٢) تفسير الميزان، ذيل الآية.

٣- (٣) تفسير نور الثقلين، و كثير من التفاسير الأخرى.

الأرض لمشاهدته آثار عظمه الله، و معرفه المجتمعات البشريه، و التعرف على عادات و تقاليد و علوم الأقسام التي تحيي فكر الإنسان و تنميه و تطوره.

و فريق آخر من المفسرين يرى أن السياحه تعنى التوجه إلى ميدان الجهاد و محاربه الأعداء، و يستشهدون

بالحديث النبوي: «إنّ سياحه أمّتي الجهاد في سبيل الله». (١)

و أخيرا فإنّ البعض يرى أنّها سير العقل و الفكر في المسائل العلميه المختلفه المرتبطه بعالم الوجود و التفكير فيها، و معرفه عوامل السعاده و الإنتصار، و أسباب الهزيمة و الفشل.

إلا- أنّ أخذ الأوصاف- التي ذكرت قبل السياحه و بعدها- بنظر الإعتبار يرجح المعنى الأول، و يجعله الأنسب من بين المعاني الأخرى، و إن كانت كل هذه المعاني ممكنه في هذه الكلمه، لأنّها جمعت في مفهوم السير و السياحه.

٥- و هم يركعون مقابل عظمه الله: الرَّا كِعُونَ .

٦- و يضعون جباههم على التراب أمام خالقهم و يسجدون له: أَلَسَّاجِدُونَ .

٧- و هم يدعون الناس لعمل الخير: أَلَا مِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ .

٨- و لم يقتنعوا بهذه الدّعوه للخير، بل حاربوا كل منكر و فساد: وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ .

٩- و بعد أدائهم وظيفه الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، يقومون بأداء آخر و أهم واجب اجتماعي، أي حفظ الحدود الإلهيه و إجراء قوانين الله، و إقامه الحق و العداله: وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ .

و بعد ذكر هذه الصفات التسع فإنّ الله يرغب- مرّه أخرى- أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الذين هم ثمره منهج الإيمان و العمل، و يقول للنبي صلى الله عليه و آله و سلم:

وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

ص: ٢٣١

(١- ١) تفسير الميزان، و تفسير المنار في ذيل الآيه.

و لما لم يذكر متعلق البشاره، و بتعبير آخر: إنَّ البشاره لما جاءت مطلقه فإنَّها تعطى مفهوماً أوسع يدخل ضمنه كل خير و سعادته، أى بشر هؤلاء بكل خير سعادته و فخر.

و ينبغي الالتفات إلى أن الصفات الست الأولى ترتبط بجانب جهاد النفس و تربيتها، و الصفه السَّابعه و الثَّامنه ترتبطان بالواجبات الاجتماعيه الحساسه، و تشيران إلى تطهير محيط المجتمع من السلبيات، و الصفه الأخيره تتحدث عن المسؤوليات المختلفه المتعدده المرتبطه بتشكيل الحكومه الصالحه، و المشاركه الجديه فى المسائل السياسيه الإيجابيه.

ص: ٢٣٢

اشاره

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ إِسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدِهِ وَعَدَاهَا إِنِّي تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَيَّرَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)

سبب النزول

جاء في مجمع البيان في سبب نزول الآيات أعلاه، أن جماعه من المسلمين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا تستغفر لأبائنا الذين ماتوا في الجاهليه؟ فنزلت هذه الآيات تنذرهم بأن لا حق لأحد أن يستغفر للمشركين.

وقد ذكرت في سبب نزول هذه الآيات أمور أخرى، سنوردها في نهايه تفسير هذه الآيه.

التفسير

اشاره

ضروره قطع العلاقات مع الأعداء:

نهت الآيه الأولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجه قاطعه

و حاده، فهي تقول: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَكِي تَوَكَّدَ ذَلِكَ قَالَتْ: وَ لَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ .

ثم أن القرآن الكريم بين سبب و دليل هذا الحكم فقال: مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هَذَا الْعَمَلَ -أى الاستغفار للمشركين- عمل لا- معنى له و فى غير محله، لأنَّ المشرك لا- يمكن العفو عنه بأى وجه، و لا- سبيل لنجاء من سار فى طريق الشرك، إضافة إلى أن طلب المغفرة نوع من إظهار المحبة و الارتباط بالمشركين، و هذا هو الأمر الذى نهى عنه القرآن مرارا و تكرارا.

و لما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرءوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، و لذا فمن الممكن جدًّا أن يتبادر الى أذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركا؟ و إذا كان هذا العمل منهيًا عنه فكيف يفعله هذا النبي الكبير؟ لهذا نرى أن الآية الثانية تتطرق لهذا السؤال و تجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَ فُلْمًا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ .

و فى آخر الآية توضيح بأنَّ إبراهيم كان إنسانا خاضعا بين يدي الله عزَّ و جلَّ، و خائفا من غضبه، و حلما واسع الصدر، فقالت: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ .

إنَّ هذه الجملة قد تكون بيانا لسبب الوعد الذى قطعه إبراهيم لآزر بالاستغفار له، لأنَّ حلمه و صبره من جهه، و كونه أواها-و الذى يعنى كونه رحيما طبقا لبعض التفاسير- من جهه أخرى، كانا يوجبان أن يبذل قصارى جهده فى سبيل هدايه آزر، حتى و إن كان بوعدة بالاستغفار له، و طلب المغفرة عن أعماله السابقة.

و يحتمل أيضا أن تكون هذه الجملة دليلا- على أنَّ إبراهيم لخضوعه و خشوعه و خوفه من مخالفه أوامر الله سبحانه لم يكن مستعدا لأن يستغفر للمشركين أبدا، بل إنَّ هذا العمل كان مختصا بزمان كان أمل هدايه آزر يعيش فى قلبه، و لهذا فإنَّه بمجرد أن اتضح أمر عداوته ترك هذا العمل.

فإن قيل: من أين علم المسلمون أن إبراهيم قد استغفر لآزر؟ قلنا: إن آيات سورة التوبه هذه - كما أشرنا في البدايه - قد نزلت في أواخر حياه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد قرأ المسلمون من قبل في سورة مريم، الآية (٤٧) أن إبراهيم بقوله: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيَ كَانَ قَدْ وَعَدَ آزر بالاستغفار، ومن المسلم أن نبي الله إبراهيم عليه السلام لا يعد كذبا، وكما وعد و في بوعده.

و كذلك كانوا قد قرءوا في الآية (٤) من سورة الممتحنه أن إبراهيم قد قال له:

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ و كذلك في الآية (٨٦) من سورة الشعراء، و هي من السور المكيه، حيث ورد الاستغفار صريحا بقوله: وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ .

ملاحظات

اشاره

١- روايه موضوعه!

إن الكثير من مفسري العامه نقلوا حديثا موضوعا

عن صحيح البخارى و مسلم و كتب أخرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه، أنه لما حضرت أبا طالب الوفاه أتى إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و كان عنده أبو جهل و عبد الله بن أبي أميه، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا عم، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله»، فالتفت أبو جهل و عبد الله بن أبي أميه إلى أبي طالب و قالوا: أ تريد أن تصبو عن دين أبيك عبد المطلب؟ أو كرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله، إلا أن أبا جهل و عبد الله منعاه من ذلك. و كان آخر ما قاله أبو طالب: على دين عبد المطلب، و امتنع عن قول: لا إله إلا الله، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندئذ: «سأستغفر لك حتى أنهى عنه» فنزلت الآية: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا... (١).

إلا أن الأدله و القرائن على كذب و وضع هذا الحديث واضحه، لما يلي:

ص: ٢٣٥

(١- ١) تفسير المنار، و تفاسير أخرى لأهل السنه.

أولاً: المعروف و المشهور بين المفسرين و المحدثين أنّ سورة براءه نزلت فى السنه التاسعه للهجره، بل يعتقد البعض أنّها آخر سورة نزلت على النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فى حين أنّ المؤرخين ذكروا أنّ وفاه أبى طالب كانت فى مكّه، و قبل هجره النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و لهذا نرى التخبط و التناقض الصريح الذى وقع فيه بعض المتعصبين كصاحب تفسير المنار، فإنّهم قالوا تاره: إنّ هذه الآيه نزلت مرّتين! مرّه فى مكّه، و مرّه فى المدينه فى السنه التاسعه للهجره و ظنوا أنّهم لما ادّعوا هذا الدليل رفَعوا التناقض الذى سقطوا فيه.

و قالوا تاره أخرى: إنّ من الممكن أنّ تكون هذه الآيه نزلت حين وفاه أبى طالب، ثمّ أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم بوضعها فى سورة التوبه. إلاّ أنّ هذا الادعاء كسابقه السابق عار من الدليل.

ألم يكن من الأجدر بهم بدل أن يتخطبوا فى هذه التوجيهات التى لا أساس لها، أن يترددوا و يشككوا فى صحه الرّوايه السابقه؟! ثانياً: لا شك فى أنّ الله سبحانه و تعالى قد نهى المسلمين فى آيات من القرآن عن محبّه المشركين قبل موت أبى طالب، و نحن نعلم أنّ الاستغفار من أظهر مصاديق إبراز المحبّه و الصداقه، فكيف يمكن و الحال هذه أن يرحل أبو طالب من الدنيا و يقسم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأنّه سيستغفر له حتى ينهيه الله؟! العجيب أنّ الفخر الرازى، الذى عرف بتعصبه فى أمثال هذه المسائل، لما لم يستطع إنكار أنّ هذه الآيه قد نزلت -كبقية سورة التوبه- فى أواخر عمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم عمد إلى توجيه محير و عجيب، و هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم استمر بعد وفاه أبى طالب فى الاستغفار له حتى نزلت هذه الآيه و نهته عن الاستغفار! ثمّ يقول: ما المانع من أن يكون هذا الأمر -أى الاستغفار- مجازاً للنبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين إلى ذلك الوقت؟!

إنّ الفخر الرازي إذا حرر نفسه من قيود التعصب، سالتفت إلى عدم إمكان أن يستغفر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفرد مشرك طوال هذه المدّة، في الوقت الذي كانت آيات كثيرة من القرآن الكريم قد نزلت إلى ذلك الزمان تدين و تشجب أى نوع من موده المشركين و محبتهم (١).

ثالثاً: إنّ الشخص الوحيد الذي روى هذه الروايه هو «سعيد بن المسيب»، و بعضه و عداؤه لأمير المؤمنين على عليه السّلام أشهر من نار على علم، و على هذا لا يمكن الاعتماد على روايته في شأن على عليه السّلام أو أبيه أو أبنائه مطلقاً.

لقد نقل «العلامة الأميني قدس سرّه» -بعد أن أشار إلى الموضوع أعلاه- كلاماً عن «الواقدي» يستحق التوقف عنده، حيث يقول: إن سعيد بن المسيب مر بجنائزه الإمام السجاد على بن الحسين عليه السّلام و لم يصل عليها، و اعتذر بعذر واه، إلاّ أنّه على قول ابن حزم -لما سئل: أتصلي خلف الحجاج أم لا؟ قال: نحن نصلي خلف من هو أسوأ من الحجاج! رابعاً: كما قلنا في الجزء الخامس من هذا التفسير، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ أبا طالب قد آمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، و بيننا الأدله الواضحه على ذلك، و أثبتنا بأنّ ما قيل في عدم إيمان أبي طالب هو تهمة كبيره. و قد صرح بذلك كل علماء الشيعة، و جماعه من علماء السنه كابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغه) و القسطلاني في (إرشاد الساري) و زيني دحلان في (حاشيه السيره الحلبيه).

و قلنا أنّ المحقق المدقق إذا لا حظ المد السياسي المغرض الذي تزعمه حكام بني أميه ضد على عليه السّلام، استطاع أن يقدر بأن كل من ارتبط بأمير المؤمنين عليه

ص: ٢٣٧

١- ١) لقد ورد النهي عن محبّه و موالاه الكافرين صريحاً في الآيه (١٣٩) من سوره النساء، و التي نزلت قبل سوره التوبه مسلماً، و كذلك في الآيه (٣٨) من سوره آل عمران، و هي كذلك نزلت قبل سوره براءه، و في هذه السوره قال الله سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم في الآيات التي سبقت هذه الآيه: **إِسْتَعْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .**

السّلام لم يبق بمنأى عن التعرض المغرض.

فى الحقيقة، أنّ أبا طالب لم يكن له ذنب سوى أنّه أبو على بن أبى طالب عليه السّلام إمام المسلمين، وقائدهم العظيم! ألم يتهموا أبا ذرّ، ذلك المجاهد الإسلامى الكبير لحبّه و عشقه لعلى عليه السّلام، و جهاده ضدّ مذهب عثمان؟! (لمزيد الاطلاع على إيمان أبى طالب الذى كان حاميا لرسول اللّهم صلى اللّهم عليه و آله و سلّم فى جميع مراحل حياته، و مدافعا عنه، و مطيعا لأوامره، راجع الآيه (٢٥) و (٢٦) من سورة الانعام فى المجلد الرّابع من تفسيرنا هذا)

٢- لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار؟

و هنا يطرح سؤال آخر، و هو: كيف وعد إبراهيم عمّه آزر بالاستغفار، و حسب ظاهر هذه الآيه و آيات القرآن الأخرى، فإنّه قد وفى بوعدده، مع العلم أنّه لم يؤمن أبدا، و كان من المشركين و عبده الأصنام الى آخر حياته، و الاستغفار لمثل هؤلاء ممنوع؟ و للإجابة على هذا السؤال ينبغى الانتباه أوّلا إلى أنّه يستفاد من الآيه- بوضوح- أنّ إبراهيم كان يأمل أن يجذب آزر إلى الإيمان و التوحيد عن هذا الطريق، و كان استغفاره فى الحقيقة هو: اللّهم اهده، و تجاوز عن ذنوبه السابقه.

لكن لما ارتحل آزر من هذه الدنيا و هو مشرك- و أصبح من المحتم عند إبراهيم أنّه مات و هو معاد لله، و لم يبق سبيل لهدايته- ترك استغفاره لآزر. و على هذا فإنّ المسلمين أيضا يستطيعون أن يستغفروا لأصدقائهم و أقربائهم المشركين ما داموا على قيد الحياه، و كان هناك أمل فى هدايتهم، بمعنى طلب الهدايه و المغفره من اللّهم سبحانه لهؤلاء، إلا أنّهم إذا ماتوا و هم كفار فلا مجال للاستغفار بعد ذلك.

أمّا ما ورد فى بعض الزوايات من أنّ الإمام الصادق عليه السّلام ذكر أنّ إبراهيم عليه السّلام كان

قد وعد آزر بالاستغفار ان هو أسلم-لا أنه يستغفر له قبل إسلامه، فلما تبين له أنه عدو لله تنفر منه وابتعد عنه، وعلی هذا فإن وعد إبراهيم كان مشروطاً، فلما لم يتحقق الشرط لم يستغفر له أبداً، فإن هذه الرواية إضافة إلى أنها مرسله و ضعيفه، فإنها تخالف ظاهر أو صريح الآيات القرآنية، لأن ظاهر الآية التي نبهنا أن إبراهيم قد استغفر، و صريح الآية (٨٦) من سورة الشعراء أن إبراهيم قد طلب المغفرة له، حيث يقول: **وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ .**

و الشاهد الآخر ما ورد عن ابن عباس أنه قال: إن إبراهيم قد استغفر مرارا لآزر ما دام حياً، فلما مات على كفره و تبين عداؤه لدين الحق، امتنع عن هذا العمل.

و لما كان فريق من المسلمين راغبين في أن يستغفروا للمحسنين الذين ماتوا و هم مشركون، فقد نهاهم القرآن بصراحه عن ذلك، و صرح بأن وضع إبراهيم يختلف تماما عن وضعهم، فإنه كان يستغفر لآزر في حياته رجاء هدايته و إيمانه، لا بعد موته.

٣- ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء

إن هذه الآية ليست الوحيدة التي تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدّه آيات في القرآن الكريم أن كل ارتباط و تضامن و علاقته، العائليه منها و غيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائديه، و يجب أن يحكم الانتماء الى الله و محاربه كل أشكال الشرك و الوثنيه كل اشكاليات الترابط بين المسلمين. لأن هذا الارتباط هو الأساس و الحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعيه، و لا تستطيع العلاقات و الروابط السطحيه و الفوقيه أن تنفيه.

إن هذا درس كبير للأمس و اليوم، و كل الأعصار و القرون.

إشاره

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦)

سبب النزول

قال بعض المفسرين: إن فريقا من المسلمين ماتوا قبل نزول الفرائض والواجبات وتشريعها، فجاء جماعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأظهروا قلقهم على مصير هؤلاء - وكانوا يظنون أن هؤلاء ربما سينالهم العقاب الإلهي لعدم أدائهم الفرائض، فنزلت الآية ونفت هذا التصور (١).

وقال بعض الآخر من المفسرين: إن هذه الآية نزلت في مسأله استغفار المسلمين للمشركين، وإظهارهم محبتهم لهم قبل النهي الصريح الوارد في الآيات السابقه، لأن هذه المسأله كانت باعثا لقلق المسلمين، فنزلت الآية وطأنتهم إلى أن استغفارهم قبل النهي لا يوجب حسابهم ومعاقبتهم.

ص: ٢٤٠

العقاب بعد البيان:

إن الآيه الأولى تشير إلى قانون كلى و عام، يؤيده العقل أيضا، و هو أن الله سبحانه و تعالى ما دام لم يبين حكما، و لم يصل شىء من الشرع حوله، فإنه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحدا، و بتعبير آخر: فإن التكليف و المسئولية تقع دائما بعد بيان الأحكام، و هذا هو الذى يعبر عنه فى علم الأصول بقاعده (قبح العقاب بلا بيان).

و لذلك فأول ما تطالعنا به الآيه قوله: **وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ .**

إن المقصود من (يضل) - فى الأصل الإضلال و التضییع، أو الحكم بالإضلال - كما احتمله بعض المفسرين (كما يقال فى التعديل و التفسير، أى الحكم بعدالة الشخص و فسقه) (١) أو بمعنى الإضلال من طريق الثواب يوم القيامة، و هو فى الواقع بمعنى العقاب.

أو أن المقصود من «الإضلال» ما قلناه سابقا، و هو سلب نعمه التوفيق، و إيكال الإنسان إلى نفسه، و نتيجة ذلك هو الضياع و الحيره و الانحراف عن طريق الهدايه لا محاله، و هذا التعبير إشاره خفيه و لطيفه إلى حقيقه ثابتة، و هى أن الذنوب دائما هى مصدر و سبب الضلال و الضياع و الابتعاد عن طريق الرشاد (٢).

و أخيرا تقول الآيه: **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** أى إن علم الله يحتم و يؤكّد على أن الله سبحانه ما دام لم يبين الحكم الشرعى لعباده، فإنه سوف لا يؤاخذهم أو يسألهم عنه.

ص: ٢٤١

١ - ١) يتصور البعض أن باب (تفعيل) هو الوحيد الذى يأتى أحيانا بمعنى الحكم، فى حين يلاحظ ذلك فى باب (إفعال) أيضا، كالشعر المعروف المنقول عن الكميت، حيث يقول فى بيان عشقه و حبه لآل محمد صلى الله عليه و آله و سلم: و طائفه قد أكفرونى بحبكم.

٢ - ٢) لمزيد التوضيح حول معنى الهدايه و الضلال فى القرآن، راجع ذيل الآيه (٢٦) من سوره البقره.

يتصور بعض المفسرين و المحدّثين أنّ الآيه دليل على أنّ «المستقلات العقلية» - (و هي الأمور التي يدركها الإنسان عن طريق العقل لا عن طريق حكم الشرع، كإدراك قبح الظلم و حسن العدل، أو سوء الكذب و السرقة و الاعتداء و قتل النفس و أمثال ذلك) - ما دام الشرع لم يبينها، فإن أحدا غير مسئول عنها. و بتعبير آخر فإنّ كل الأحكام العقلية يجب أن تؤيد من قبل الشرع لإيجاد التكليف و المسؤولية على الناس، و على هذا فإنّ الناس قبل نزول الشرع غير مسئولين مطلقا، حتى في مقابل المستقلات العقلية.

□
إلا أنّ بطلان هذا التصور واضح، فإنّ جملة حتّى يُبين لهم تجيبهم و تبين لهم أنّ هذه الآيه و أمثالها خاصّه بالمسائل التي بقيت في حيز الإبهام و تحتاج إلى التبيين و الإيضاح، و من المسلّم أنّها لا تشمل المستقلات العقلية، لأنّ قبح الظلم و حسن العدل ليس أمرا مبهما حتى يحتاج إلى توضيح.

الذين يذهبون إلى هذا القول غفلوا عن أنّ هذا القول - إن صحّ - فلا - وجه لوجوب تلبيه دعوه الأنبياء، و لا - مبرر لأن يطالعوا و يحققوا دعوى مدعى النبوه و معجزاته حتى يتبين لهم صدقه أو كذبه، لأنّ صدق النبي و الحكم الإلهي لم يبين لحد الآن لهؤلاء، و على هذا فلا داعي للتحقق من دعواه.

و على هذا فكما يجب الثبوت من دعوى من يدعى النبوه بحكم العقل، و هو من المستقلات العقلية، فكذلك يجب اتباع سائر المسائل التي يدركها العقل بوضوح.

و الدليل على هذا الكلام التعبير المستفاد من بعض الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام،

ففي كتاب التوحيد، عن الصادق عليه السلام أنّه قال في تفسير هذه الآيه: «حتى يعرفهم ما يرضيه و ما يسخطه» (١).

و على كل حال، فإنّ هذه الآيه و أمثالها تعتبر أساسا لقانون كلّ أصولي، و هو

ص: ٢٤٢

أننا ما دمنا لا نملك الدليل على وجوب أو حرمة شيء، فإننا غير مسئولين عنه، وبتعبير آخر فإن كل شيء مباح لنا، إلا أن يقوم دليل على وجوبه أو تحريمه، وهو ما يسمونه ب(أصل البراءة).

و تستند الآيه التاليه على هذه المسأله و تؤكد: إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ أَنْ نِظَامِ الْحَيَاةِ وَ الْمَوْتِ أَيْضَا بِيَدِ قُدْرَتِهِ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ عَلَى هَذَا: وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ، وَ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ كُلُّ الْقُدْرَاتِ وَ الْحُكُومَاتِ فِي عَالَمِ الْوُجُودِ بِيَدِهِ، وَ خَاضِعَةً لِأَمْرِهِ، فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَتَّكِلُوا عَلَى غَيْرِهِ، وَ تَلْتَجِئُوا إِلَى الْبَعِيدِينَ عَنِ اللَّهِ وَ إِلَى أَعْدَائِهِ وَ تُوَادُّوهُمْ، وَ تَوَثَّقُوا عِلَاقَتَكُمْ بِهِمْ عَنِ طَرِيقِ الْإِسْتِغْفَارِ وَ غَيْرِهِ.

ص: ٢٤٣

اشاره

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

سبب النزول

اشاره

درس كبير!

قال المفسرون: إن الآيه الأولى نزلت في غزوه تبوك، و ما واجهه المسلمون من المشاكل و المصاعب العظيمة، هذه المشاكل التي كانت من الكثرة و الصعوبه بمكان بحيث صمم جماعه على الرجوع، إلا أن اللطف الإلهي و التوفيق الرباني شملهم، فثبتوا في مكانهم.

و من جمله من قيل أن الآيه نزلت فيهم أبو خيثمه، و كان من أصحاب النبي صلى الله عليه و آله و سلم، لا من المنافقين، إلا أنه لضعفه امتنع عن التوجه إلى معركة تبوك مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

مرّت عشره أيّام على هذه الواقعة، وكان الهواء حاراً محرقاً، فحضر يوماً عند زوجته، وكان قد هيأ خيمته، وأحضرن الطعام اللذيذ والماء البارد، فتذكر فجأه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و غاص في تفكير عميق، وقال في نفسه: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وضمن له آخرته، قد حمل سلاحه على عاتقه و سار في الصحارى المحرقة، و تحمل مشقّه هذا السفر، أمّياً أبو خيثمه -يعنى نفسه فهو في ظل بارد، يتمتع بأنواع الأَطعمه، و النساء الجميلات!! إنّ هذا ليس من الإنصاف.

فالتفت إلى زوجته و قال: أقسم بالله أن لا أكلم أحداً من كلمه، و لا أستظل بهذه الخيمه حتى ألتحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم. قال ذلك و حمل زاده و جرابه و ركب بعيره و سار، و جهدت زوجته أن يكلمنه فلم يعبا بهما و لم ينس بنت شفاه، و واصل سيره حتى اقترب من تبوك.

فقال المسلمون بعضهم لبعض: من هذا الراكب على الطريق؟،

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

«كن أبا خيثمه» فلمّا اقترب و عرفه الناس، قالوا: نعم، هو أبو خيثمه، فأناخ راحلته و سلّم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و حدثه بما جرى له، فرحّب به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و دعا له.

و بذلك فإنّه كان من جمله الذين مال قلبهم إلى الباطل، إلا أنّ الله سبحانه و تعالى لما رأى استعداده الروحي أرجعه إلى الحق و ثبت قدمه.

و قد نقل سبب آخر لنزول الآية الثانيه، خلاصته:

إنّ ثلاثه من المسلمين و هم: «كعب بن مالك» و «مراره بن ربيع» و «وهلال بن أميه»، امتنعوا من المسير مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم و الاشتراك في غزوه تبوك، إلا أنّ ذلك ليس لكونهم جزءاً من المنافقين، بل لكسلهم و ثقافتهم، فلم يمض زمان حتى ندموا.

فلما رجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غزوه تبوك حضروا عنده و طلبوا منه العفو عن

تقصيرهم، إلا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكلمهم حتى بكلمه واحده، وأمر المسلمين أيضا أن لا يكلموهم.

لقد عاش هؤلاء محاصره اجتماعيه عجيبه و شديده، حتى أنّ أطفالهم و نساءهم أتوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، و طلبوا الإذن منه في أن يفارقوا هؤلاء إلا أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأذن لهم بالمفارقة، لكنّه أمرهم أن لا يقتربوا منهم.

إنّ فضاء المدينه بوسعته قد ضاق على هؤلاء النفر، و اضطروا للتخلص من هذا الذل و الفضيحه الكبيره إلى ترك المدينه و الالتجاء إلى قمم الجبال.

و من المسائل التي أثرت تأثيرا روحيا شديدا، و أوجدت صدمه نفسيه عنيفه لدى هؤلاء ما رواه كعب بن مالك قال: كنت يوما جالسا في سوق المدينه و أنا مغموم، فتوجه نحوي رجل مسيحي شامي، فلما عرفني سلمني رساله من ملك الغساسنه كتب فيها: إذا كان صاحبك قد طردك و أبعذك فالتحق بنا، فتغير حالي و قلت: الويل لي، لقد وصل أمرى إلى أن يطمع بي العدو! خلاصه الأمر: إنّ عوائل هؤلاء و أصدقاءهم كانوا يأتونهم بالطعام، إلا أنّهم لا يكلمونهم قط، و مضت مدّه على هذه الحال و هم يتجرعون ألم الانتظار و الترقب في أن تنزل آيه تبشرهم بقبول توبتهم، لكن دون جدوى في هذه الأثناء خطرت على ذهن أحدهم فكره و قال: إذا كان الناس قد قطعوا علاقتهم بنا و اعتزلونا، فلما ذا لا يعتزل كل منا صاحبه، صحيح أننا مذبون جميعا، لكن يجب أن لا يفرح أحدهم بالذنب الآخر. و بالفعل اعتزل بعضهم بعضا، و لم يتكلموا بكلمه واحده، و لم يجتمع اثنان منهم في مكان. و أخيرا... و بعد خمسين يوما من التوبه و التضرع إلى الله سبحانه و تعالى قبلت توبتهم و نزلت الآيه في ذلك (١).

ص: ٢٤٤

الحصار الاجتماعي للمذنبين:

تحدثت هذه الآيات أيضا عن غزوه تبوك، والمسائل والأحداث التي ترتبط بهذا الحدث الكبير، وما جرى خلاله.

فتشير الآية الأولى إلى رحمه الله اللامتناهية التي شملت النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين والأنصار في اللحظات الحساسة، وتقول: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ .

ثم تبين أن شمول هذه الرحمة الإلهية لهم كان في وقت اشتدت فيه الحوادث والضغوط والاضطرابات إلى الحد الذي أوشكت أن تزل فيه أقدام بعض المسلمين عن جاده الصواب، (وصمموا على الرجوع من تبوك) فتقول: مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ . ثم تؤكد مره أخرى على أن الله سبحانه قد تاب عليهم، فتقول: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُفٌ رَحِيمٌ .

و لم تشمل الرحمة الإلهية هذا القسم الكبير الذي شارك في الجهاد فقط، بل شملت حتى الثلاثة الذين تخلفوا عن القتال وشاركه المجاهدين في ساحه الجهاد: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلْفُوا .

إلا أن اللطف الإلهي لم يشمل هؤلاء المتخلفين بهذه السهولة، بل عند ما عاش هؤلاء - وهم كعب بن مالك و مراره بن ربيع و هلال بن أمية، الذين مر شرح حالهم في سبب النزول - مقاطعه اجتماعيه شديده، وقاطعهم كل الناس بالصوره التي تصورها الآية، فتقول: حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .

بل إن صدور هؤلاء امتلأت همًا و غمًا بحيث ظنوا أن لا مكان لهم في الوجود، فكأنه ضاق عليهم و ضاقت عليهم أنفسهم فابتعد أحدهم عن الآخر و قطعوا العلاقه فيما بينهم.

عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجوههم. فأيقنوا و ظنوا أن لا ملجأ من الله

فأدر كتهم رحمة الله مرّه أخرى، و سهلت و يسرت عليهم أمر التوبه الحقيقه، و الرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

بحوث

اشاره

و هنا بحوث نلفت النظر إليها:

١- المراد من توبه الله على النبي صلى الله عليه و آله و سلم

قرأنا فى الآيه الأولى أن الله سبحانه قد تاب على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المهاجرين و الأنصار، و قبل توبتهم. و لا شك أن النبي معصوم من الذنوب، و لم يرتكب معصيه ليتوب فيقبل الله توبته، و إن كان بعض مفسري العامه قد اعتبروا التعبير فى هذه الآيه دليلا على صدور السهو و المعصيه من النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى أحداث تبوك.

إلا أن التدقيق فى نفس هذه الآيه و سائر آيات القرآن سيرشدنا إلى عدم صحه هذا التفسير، لأن:

أولاً: إن معنى توبه الله سبحانه رجوعه بالرحمه و الرعايه على عباده، و لا يوجد فى هذا المعنى أثر للزلل أو المعصيه، كما قال فى سورة النساء بعد ذكر قسم من الأحكام: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُبُلَ الدِّينِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وفى هذه الآيه و التى قبلها لم يرد حديث عن الزلل و المعصيه، بل الكلام -عن تبيين الأحكام و الإرشاد إلى سنن الماضين القيمه المفيده، و هذا بنفسه يوضح أن التوبه هنا بمعنى شمول رحمه الله سبحانه لعباده.

ثانياً: لقد ورد فى كتب اللغه أن أحد معانى التوبه هو ما ذكرناه، وفى كتاب (القاموس) المعروف ورد فى أن هذا هو أحد معانى التوبه ما لفظه: رجع عليه بفضله

و قبوله:

ثالثاً: إنّ الآيه تحصر الانحراف عن طريق الحق و التخلف عنه بجماعه من المؤمنين، مع أنّها تصرح بأنّ الرحمه الإلهيه تعم الجميع، و هو بنفسه يبيّن أنّ توبه الله هنا ليست بمعنى قبول عذر العباد، بل هي الرحمه الإلهيه الخاصه التي أدركت النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و كل المؤمنين بدون استثناء في اللحظات الحساسه، و ثبتت أقدامهم في أمر الجهاد.

٢- غزوه تبوك و ساعه العسره

«السّاعه» من الناحيه اللغويه بمعنى مقطع زمنى، سواء كان قصيراً أم طويلاً، و لا يقال للزمن الطويل جداً: ساعه. «و العسره» بمعنى المشقه و الصعوبه.

إن تاريخ الإسلام يبيّن أنّ المسلمين لم يعانون مثل ما عانوه في غزوه تبوك من الضغوط و المشقه، لأنّ المسير إلى تبوك كان في وقت اشتداد حر الصيف من جهه.

و من جهه أخرى فإنّ القحط قد أثر في الناس و أنهك قواهم.

و كذلك فإنّ الفصل كان فصل اقتطاف الثمار، و لا بدّ من جمع ما على الأشجار و النخيل لتأمين قوت سنتهم.

و إذا تجاوزنا جميع ذلك، فإنّ المسافه بين المدينه و تبوك طويله جداً.

و العدو الذي كانوا يريدون مواجهته هو إمبراطوريه الروم الشرقيه، التي كانت يومها من أقوى الامبراطوريات العالميه.

إضافه إلى ما مرّ، فإنّ وسائل النقل بين المسلمين كانت قليله إلى الحد الذي قد يضطر أحياناً عشره أشخاص إلى أن يتناوبوا ركوب وسيله واحده، و بعض المشاه لم يكونوا يمتلكون حتى النعل، و كانوا مضطرين إلى العبور على رمال الصحراء الحارقه بأقدام عاريه...

أمّا من ناحيه الطعام و الشراب، فإنّهم كانوا يعانون من قلّه المواد الغذائيه.

بحيث أن عدّه أشخاص يشتركون في تمره واحده أحيانا، فيمص كل منهم التمره و يعطيها لصاحبه حتى لا- يبقى منها إلى النواه...و كان عدّه أفراد يشتركون في جرعه ماء!! لكن، و رغم كل هذه الأوضاع، فإنّ المسلمين كانوا يتمتعون بمعنويات عاليه و راسخه، و بالرغم من كل المشكلات، فإنّهم توجهوا برفقه النبي صلى الله عليه و آله و سلّم نحو العدو، و بهذه الاستقامه و الرجوله فإنّهم سجلوا للمسلمين. و في كل العصور و القرون، درسا كبيرا خالدا في ذاكره الزمن... درسا كافيا لكل الأجيال، و طريقا للانتصار على أكبر الأعداء و أخطرهم و أكثرهم عدّه...

و لا شك أنّ بين المسلمين من كان يمتلك معنويات أضعف، و هم الذين دارت في رؤوسهم فكره الرجوع و الذين عبّر عنهم القرآن الكريم ب **مِنْ بَعِيدٍ مَّا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ لَأَنَّ** (يزيغ) مأخوذه من (زيغ) بمعنى الميل و الانحراف عن الحق نحو الباطل.

لكن، و كما رأينا، فإنّ المعنويات العاليه للأكثرية من المسلمين، و لطف الله سبحانه بهم، هو الذي صرف هؤلاء عن هذه الفكرة، ليلتحقوا بجماعه المجاهدين في طريق الحق.

٣- ما هو معنى خُلّفوا؟

لقد عبرت الآيات عن هؤلاء الثلاثة المقصرين المهملين ب(خُلّفوا) بمعنى الذين تركهم الجيش وراء ظهره، و ذلك لأن المسلمين عند ما كانوا يصادفون من يتخاذل و يكسل عن الجهاد، فإنّهم لا يعبؤون به، بل يتركونه وراء ظهورهم و يتوجهون إلى جبهات الجهاد.

أو لأنّ هؤلاء عند ما حضروا عند النبي صلى الله عليه و آله و سلّم ليعتذروا و يطلبوا الصفح عن ذنبهم لم يقبل عذرهم، و آخر قبول توبتهم.

٤- درس كبير دائمى

من المسائل المهمّة التى تستفاد من هذه الآيات، مسأله مجازاه المجرمين و الفاسدين عن طريق الحصار الاجتماعى و قطع الروابط و العلاقات، فنحن نرى أن قطع الروابط هذا قد وضع هؤلاء الثلاثة فى شدة كانت أصعب عليهم من كل السجنون بحيث ضاقت عليهم الدنيا تحت وطأت الحصار الاجتماعى و قطعوا الأمل من كل شىء.

إنّ هذا الأسلوب قد أثر فى المجتمع الإسلامى آنذاك تأثيرا قويا جدّا، بحيث قلّ بعد هذه الحادثة من يجرءوا أن يرتكبوا مثل هذه المعاصى.

إنّ هذا النوع من العقاب لا- يحتاج إلى متاعب و ميزانيه السجنون، و ليس فيه خاصيه تربيه الكسالى و الأشرار كما هو حال السجنون، إلا أنّ أثره أكبر و أشدّ من تأثير أى سجن، فهو نوع من الإضراب و الجهاد السلبي للمجتمع مقابل الأفراد الفاسدين، فإنّ المسلمين إذا أقدموا على مثل هذه المجابهه فى مقابل المتخلفين عن أداء الواجبات الاجتماعيه الحساسه، فإنّ النصر سيكون حليفهم قطعاً، و سيكون بإمكانهم تطهير مجتمعهم بكل سهوله.

أمّا روح المجامله و المساومه و الاستسلام التى سرت اليوم- مع الأسف- فى كثير من المجتمعات الإسلاميه كمرض عضال، فإنّها لا تمنع و لا تقف أمام أمثال هؤلاء المتخلفين، بل و تشجعهم على أعمالهم القبيحه.

٥- غزوه تبوك و نتائجها

منطقه «تبوك» هى أبعد نقطه وصل إليها النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم فى غزواته، و هذه الكلمه فى الأصل اسم قلعه محكمه و عاليه كانت فى الشريط الحدودى بين الحجاز و الشام، و لذلك سمّيت تلك المنطقه بأرض تبوك.

إنّ انتشار الإسلام السريع فى جزيره العرب كان سببا فى أن يدوى صوت

الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم و نداءؤه فى جميع الدول المجاوره للجزيره العربيه،و لم يكن أحد يعير للحجاز أهميه لغايه ذلك اليوم،فلما بزغ فجر الإسلام،و ظهرت قوّه جيش النّبى صلى الله عليه وآله وسلم الذى وّخّد الحجاز تحت رايه واحده،خاف هؤلاء من عاقبه الأمر.

إنّ دوله الروم الشرقيه المتاخمه للحجاز، كانت تحتل أن تكون من أوائل ضحايا تقدم الإسلام السريع،لذلك فقد جهزت جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل، و كان مجهزا بالأسلحه الكافيه التى كانت تمتلكها قوّه عظمى كإمبراطوريه الروم، و استقر الجيش فى حدود الحجاز،فوصل الخبر إلى مسامع النّبى صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق المسافرين،فأراد النّبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يلقن الروم و باقى جيرانه درسا يكون لهم عبره.

فلم يتأخر عن إصدار أمره بالتهيؤ و الاستعداد للجهداد،و بعث الرسل الى المناطق الأخرى يبلّغون المسلمين بأمر النّبى صلى الله عليه وآله وسلم عليه و آله و سلم فلم يمض زمن حتى اجتمع لديه ثلاثون ألفا لقتال الروميين،و كان من بينهم عشره آلاف راكب و عشرون ألف راجل.

كان الهواء شديد الحر،و قد فرغت المخازن من المواد الغذائيه،و المحصولات الزراعيه لتلك السنه لم تحصد و تجمع بعد،فكانت الحركه فى مثل هذه الأوضاع بالنسبه للمسلمين صعبه جدّا،إلا أنّ أمر الله و رسوله يقضى بالمسير فى ظل أصعب الظروف و طى الصحارى الواسعه و المليئه بالمخاطر بين المدينه و تبوك.

إنّ هذا الجيش نتيجته للمشاكل الكثيره التى واجهها من الناحيه الاقتصاديه، و المسير الطويل،و الرياح السموم المحرقه،و عواصف الرمال الكاسحه،و عدم امتلاك الوسائل الكافيه للنقل،قد عرف ب(جيش العسره)،و لكنّه تحمل جميع هذه المشاكل،و وصل إلى أرض تبوك فى غره شعبان من السنه التاسعه للهجره،و كان النّبى صلى الله عليه وآله وسلم قد خلف عليا عليه السّلام مكانه،و هى الغزوه الوحيداه التى لم يشارك فيها أمير المؤمنين عليه السّلام.

إن قيام النّبى صلى الله عليه وآله وسلم بإقامه على عليه السّلام مكانه كان عملا ضروريا و فى محله،فإنّه

كان من المحتمل جدا أن يستفيد المتخلفون من المشركين أو المنافقين-الذى امتنعوا بحجج مختلفه عن الاشتراك فى الجهاد- من غيبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم الطويله، و يجمعوا أفرادهم و يحملوا على المدينه و يقتلوا النساء و الأطفال و يهدموا المدينه، إلا أن وجود على عليه السلام كان سدا منيعا فى وجه مؤامراتهم و خططهم.

و على كل حال، فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم حينما وصل إلى تبوك لم ير أثرا لجيوش الروم، وربما كان ذلك لأنهم سمعوا بخبر توجه هذا الجيش الإسلامى العظيم، و قد سمعوا من قبل بشجاعه و استبسال المسلمين العجيبه، و ما أبدوه من بلاء حسن فى الحروب، فأروا أن الأصلح سحب قواتهم إلى داخل بلادهم، و ليبتنوا أن خبر تجمع جيش الروم على الحدود، و نيته بالقيام بهجوم على المدينه، شائعه لا أساس لها، لأنهم خافوا من التورط بمثل هذه الحرب الطاحنه دون مبررات منطقيه، فخافوا من ذلك.

إلا أن حضور جنود الإسلام إلى ساحه تبوك بهذه السرعه قد أعطى لأعدائه عدده دروس:

أولا: إن هذا الموضوع أثبت أن المعنويات العاليه و الروح الجهاديه لجنود الإسلام، كانت قويه إلى الدرجه التى لا يخافون معها من الاشتباك مع أقوى جيش فى ذلك الزمان.

ثانيا: إن الكثير من القبائل و أمراء أطراف تبوك أتوا إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم و أمضوا عهدا بعدم التعرض للنبى صلى الله عليه وآله وسلم و محاربتة، و بذلك فقد اطمأن المسلمون من هذه الناحيه، و أمنوا خطرهم.

ثالثا: إن إشعاع الإسلام و أمواجه قد نفذت إلى داخل حدود إمبراطوريه الروم، و دوى صدى الإسلام فى كل الأرجاء باعتباره أهم حوادث ذلك اليوم، و هذا قد هيا الأرضيه الجيده لتوجه الروميين نحو الإسلام و الإيمان به.

رابعا: إن المسلمين بقطعهم هذا الطريق، و تحملهم لهذه الصعاب، قد عبدوا

الطريق لفتح الشام في المستقبل، وقد اتضح للجميع بأن هذا الطريق سيقطع في النهايه.

و هكذا، فإن هذه المعطيات الكبيره تستحق كل هذه المشاق و التعبه و الزحف.

و على كل حال، فإن النبي على عادته-قد استشار جيشه في الاستمرار في التقدم أو الرجوع، و كان رأى الأكثر بأن الرجوع هو الأفضل و الأنسب لروح التعليمات الإسلاميه، خاصه و أن جيوش المسلمين كانت قد تعبت نتيجة المعاناه الكبيره في الطريق، و ضعفت مقاومتهم الجسميه، فأقر النبي صلى الله عليه و آله و سلم هذا الرأى و رد جيوش المسلمين إلى المدينه.

ص: ٢٥٤

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

التفسير

اشاره

كونوا مع الصادقين:

في الآيات السابقه كان الحديث حول جماعه من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع الله و رسوله، و أظهروا عمليا تكذيبهم للإيمان بالله و اليوم الآخر، و رأينا كيف أنّ المسلمين قد أرجعوهم إلى حظيره الإيمان بمقاطعتهم، و تبهوهم على خطئهم.

أمّا هذه الآيه فقد أشارت إلى النقطه المقابله لهؤلاء، فهي تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم و ثبتوا عليه.

في البدايه تقول الآيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ و لأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى الملىء بالمنعطفات و الاخطار بدون اشتباه و انحراف أضافت: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .

و قد احتمل المفتشرون احتمالات مختلفه في المقصود من الصادقين، و من هم؟ إلا أننا إذا أردنا اختصار الطريق، يجب أن نرجع إلى القرآن الكريم نفسه الذي فسر معنى الصادقين في آيات متعدده.

فَنَقْرَأُ فِي سُورَةِ الْبَقْرَةِ، آيَةَ (١٧٧): لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكِتَابِ وَ النَّبِيِّنَ وَ آتَى الْمَالَ عَلَي حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقَابِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ الْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْيَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

فَنَحْنُ نَرَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا بَعْدَ نَهْيِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْبَحْثِ وَ الْمُنَاقَشَةِ حَوْلَ مَسْأَلِهِ تَغْيِيرِ الْقِبْلَةِ، تَفْسِيرَ لَهُمْ حَقِيقَةَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَ الْبِرِّ بِأَنَّهُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ وَ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِينَ وَ الْمَحْرُومِينَ، وَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ، وَ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَ الْاسْتِقَامَةَ وَ الصَّمُودَ أَمَامَ الْمَشَاكِلِ حِينَ الْجِهَادِ، وَ بَعْدَ ذِكْرِ كُلِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ تَقُولُ: إِنَّ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ هُمُ الصَّادِقُونَ وَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

وَ عَلَي هَذَا، فَإِنَّ الصَّادِقَ هُوَ الَّذِي يُوْمِنُ بِكُلِّ الْمَقْدَسَاتِ، ثُمَّ يَعْمَلُ بِمُوجِبِهَا فِي جَمِيعِ النَّوَاحِي، وَ فِي الْآيَةِ (١٥) مِنْ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ نَقَرَا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزِدُوا فِي الْإِيمَانِ وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَيْضًا تَعْرِفُ الصَّادِقَ بِأَنَّهُ مَجْمُوعُ الْإِيمَانِ وَ الْعَمَلِ الَّذِي لَا تَشُوبُهُ أَيَّةُ شَائِبَةٍ مِنْ التَّرَدُّدِ أَوْ الْمَخَالَفَةِ.

وَ نَقَرَا فِي الْآيَةِ (٨) مِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهْجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ فَهَذِهِ الْآيَةُ عَرَّفَتِ الصَّادِقِينَ بِأَنَّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَحْرُومُونَ الَّذِينَ اسْتَقَامُوا وَ ثَبَتُوا رَغْمَ كُلِّ الْمَشَاكِلِ، وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أَمْوَالِهِمْ، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَدَفٌ وَ غَايَةٌ سِوَى رِضَى اللَّهِ وَ نَصْرِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْآيَاتِ نَحْصَلُ عَلَي نَتِيجَتِهِ، وَ هِيَ أَنَّ الصَّادِقِينَ هُمُ الَّذِينَ

يُؤدون تعهداتهم أمام الإيمان بالله على أحسن وجه دون أى تردد أو تماهل ولا يخافون سيل المصاعب والعقبات، بل يثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء والتضحية.

ولا شك أنّ لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض فى قمتهأ، وهم الذين نسميهم بالمعصومين، والبعض فى درجات أقل و أدنى منها.

هل المراد من الصادقين هم المعصومون فقط؟

بالرغم من أنّ مفهوم الصادقين- كما ذكرنا سابقا- مفهوم واسع، إلا أنّ المستفاد من الروايات الكثيره أنّ المراد من هذا المفهوم هنا هم المعصومون فقط.

يروى سليم بن قيس الهلالي: إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام كان له يوماً كلام مع جمع من المسلمين، و من جمله ما قال: «فأنشدكم الله أ تعلمون أن الله أنزل: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**. فقال سلمان: يا رسول الله أ عامّه هى أم خاصّه؟ قال: أمّا المأمورون فالعامّه من المؤمنين أمروا بذلك، و أمّا الصادقون فخاصّه لأخى على و الأوصياء من بعده إلى يوم القيامة» قالوا: اللهم نعم (١).

و يروى نافع عن عبد الله بن عمر: إنّ الله سبحانه أمر أوّلا المسلمين أن يخافوا الله ثمّ قال: **كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** يعنى مع محمّد و أهل بيته (٢).

و بالرغم من أنّ بعض مفسّرى أهل السنه- كصاحب المنار- قد نقلوا ذيل الزوايه أعلاه هكذا: مع محمّد و أصحابه، و لكن مع ملاحظه أن مفهوم الآيه عام و شامل لكل زمان، و صحابه النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم كانوا فى زمن خاص، تبين لنا أنّ العبارة التى وردت فى كتب الشيعة عن عبد الله بن عمر هى الأصح.

و نقل صاحب تفسير البرهان نظير هذا المضمون عن طرق العامّه، و قال: إنّ

ص: ٢٥٧

١-١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧٠.

٢-٢) المصدر السابق.

موفق بن أحمد بإسناده عن ابن عباس، يروى فى ذيل هذه الآية: هو على بن أبى طالب. ثم يقول: أورد ذلك أيضا عبد الرزاق فى كتاب رموز الكنوز (١).

أمّا المطلب الأهم، فهو أنّ الآية تأمر أوّلا- بالتقوى، ثم بالكون مع الصادقين، فلو أنّ مفهوم الصادقين فى الآية عامّا و شاملا لكل المؤمنين الحقيقيين المستقيمين، لكان اللازم أن يقال: و كونوا من الصادقين، لا مع الصادقين. (فتأمل جيدا).

إنّ هذه بذاتها قرينه واضحه على أنّ (الصادقين) فى الآية هم فئة خاصه.

و من جهه أخرى، فليس المراد من الكون معهم أن يكون الإنسان مجالسا و معاشر لهم، بل المراد قطعا هو اتباعهم و السير فى خطاهم.

إذا كان الشخص غير معصوم هل يمكن صدور أمر بدون قيد أو شرط باتباعه و السير فى ركابه؟ أليس هذا بنفسه دليلا على أن هذه الفئة و المجموعه هم المعصومون؟ و على هذا، فإنّ ما استفدناه من الروايات يمكن استفادته من الآية إذا دققنا النظر فيها.

إن الملفت للنظر هنا، أنّ المفسّر المعروف الفخر الرازى، المعروف بتعصبه و تشكيكه، قد قبل هذه الحقيقه-و إن كان أغلب مفسّرى السنه سكتوا عنها عند مرورهم بهذه الآية-و يقول: إنّ الله قد أمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، و على هذا فإنّ الآية تدل على أن من يجوز الخطأ عليهم يجب عليهم الاقتداء بالمعصوم حتى يبقوا مصونين عن الخطأ فى ظلّه و عصمته، و سيكون هذا الأمر فى كل زمان، و لا نملك أى دليل على اختصاص ذلك بعصر النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم.

إلا أنّه يضيف بعد ذلك: إنّنا نقبل أنّ مفهوم الآية هو هذا، و يجب أن يوجد معصوم فى كل وقت، إلا أنّنا نرى أن هذا المعصوم هو جميع الأمّه، لا أنّه فرد

ص: ٢٥٨

واحد! وبتعبير آخر: إنّ هذه الآية دليل على حجيه إجماع المؤمنين، و عدم خطأ مجموع الأمة (١).

و بهذا الترتيب، فإنّ الرازي قد طوى نصف الطريق جيدا، إلاّ أنّه زاغ في النصف الثاني، و لو أنّه التفت إلى النكته التي وردت في متن الآية لأكمل النصف الثاني أيضا بسلامه، و هي أنّه لو كان المقصود من الصادقين مجموع الأمة، فإنّ الأتباع سيكونون جزء من ذلك المجموع و هو في الواقع اتباع الجزء للقدوه و الإمام، و سيعنى ذلك اتحاد التابع و المتبوع، في حين نرى أنّ ظاهر الآية هو أنّ القدوه غير المقتدى، و التابعين غير المتبوعين، بل يفترون عنهم. (دققوا ذلك).

و نتيجة ذلك: إنّ هذه الآية من الآيات التي تدل على وجود المعصوم في كل عصر و زمان.

و يبقى سؤال أخير، و هو أنّ الصادقين جمع، و هل يجب على هذا الأساس أن يكون في كل زمان معصومون متعددون؟ و الجواب على هذا السؤال واضح أيضا، و هو أنّ الخطاب ليس مختصا بأهل زمن و عصر معين، بل إنّ الآية تخاطب كل العصور و القرون، و من البديهي أن المخاطبين على مر العصور لا بد و أن سيكونوا مع جمع من الصادقين. و بتعبير آخر، فإنّه لما كان في كل زمان معصوم، فإنّنا إذا أخذنا كل القرون و العصور بنظر الإعتبار، فإنّ الكلام سيكون عن جمع المعصومين لا عن شخص واحد.

و الشاهد الناطق على هذا الموضوع هو أنّه لا يوجد في زمن النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أحد تجب طاعته غير شخص النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و في الوقت نفسه فإنّ من المسلّم أنّ الآية تشمل المؤمنين في زمانه، و على هذا الأساس سنفهم أن الجمع الوارد في الآية لا يراد منه الجمع في زمان واحد، بل هو في مجموعه الأزمنة.

ص: ٢٥٩

اشاره

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِطُّهُمْ ظَمًا وَلَا نَضَبًا وَلَا نَصَبًا وَلَا مَحْمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُؤْنَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِفْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

التفسير

اشاره

معاناه المجاهدين لا تبقى بدون ثواب:

كان البحث في الآيات السابقة حول توبيخ و ملامه الممتنعين عن الاشتراك في غزوه تبوك، و تبحث هاتان الآيتان البحث النهائي لهذا الموضوع كقانون كلي.

فآليه الأولى تقول: مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ قَائِدُ الْأُمَّةِ، و رسول الله، و رمز

بقاء و حياة الأمة الإسلامية، و إن تركه وحيدا لا يعرض حياه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم للخطر فحسب، بل يعرض دين الله، و كذلك وجود و حياه المؤمنين أيضا أمام الخطر الجدى.

إن القرآن-فى الواقع-يرغب كل المؤمنين بملازمه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و حمايته و الدفاع عنه فى مقابل كل الأخطار و العقبات باستعمال نوع من البيان و التعبير العاطفى، فهو يقول: إن أرواحكم ليست بأعز من روح النبى صلى الله عليه و آله و سلم و حياتكم ليست بأفضل من حياته، فهل يسمح لكم إيمانكم أن تدعو النبى صلى الله عليه و آله و سلم يواجه الخطر و هو أفضل و أعز موجود إنسانى، و قد بعث لنجاتكم و قيادتكم نحو الهدى و تستقلون التضحيه فى سبيله حفاظا على أرواحكم و سلامتكم؟! من البديهى أن التأكيد على أهل المدينة و أطرافها إنما هو لأن المدينة كانت مقر الإسلام يومئذ و مركزه المشع، و إلا فإن هذا الحكم غير مختص بالمدينة و أطرافها، و غير مختص بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم، فإن واجب كل المسلمين، و فى جميع العصور أن يحترموا و يكرموا قاداتهم كأنفسهم، بل أكثر، و يبذلون قصارى جهدهم فى سبيل الحفاظ عليهم، و لا يتركونهم يواجهون الصعاب و الأخطار وحدهم، لأن الخطر الذى يحدق بهؤلاء يحدق بالأمة جميعا.

ثم تشير الآيه إلى مكافآت المجاهدين المعده مقابل كل صعوبه يلاقونها فى طريق الجهاد، و تذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل و الصعاب و ثوابها، فتقول:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُنَّ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ

، و من المحتم أنهم سيقبضون جوائزهم من الله

سبحانه، واحده بواحد، ف إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. و كذلك فَإِنَّهُمْ لَا يَبْذُلُونَ شَيْئًا فِي أَمْرِ الْجِهَادِ:

و لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً

و لا يقطعون أرضاً في ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلا ثبت كل ذلك في كتبهم:

و لَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ

و إنما يثبت ذلك لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

و هنا يجب الانتباه لمسائل:

١- إنَّ جملة لَا يَتَالُونَ مِنْ عَيْدٍ نِيلاً قد فسرها أغلب المفسرين كما ذكر أعلاه، وقالوا: إنَّ المقصود هو أن المجاهدين في سبيل الله لا- يتلقون ضربه من قبل العدو، سواء جرحوا بها أو قتلوا أو أسروا و أمثال ذلك، إلا و تسجل في صحائف أعمالهم ليجزوا عليها، و مقابل كل تعب و صعوبه ما يناسبها من الأجر، و من الطبيعي أننا إذا لا- حظنا أن الآيه في مقام ذكر المصاعب و حسابها، فإن ذلك ممّا يناسب هذا المعنى.

إلا- أننا إذا أردنا أن نفسر هذه العبارة بملا-حظه ترتيب الفقرات و موقع هذه الجملة منها، و ما يناسبها لغويًا، فإن معنى الجملة يكون: إنَّهم لا- ينزلون بالعدو ضربه إلا- كتبت لهم، لأن معنى نال من عدوه في اللغة: ضربه، إلا أن النظر إلى مجموع الآيه يرجح التفسير الأول.

٢- ذكر المفسرون تفسيرين لجملة: أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ: أحدهما على أساس أن كلمه (أحسن) و وصف لأفعالهم، و الآخر على أنّها وصف لجزائهم.

فعلى التفسير الأول و هو ما اخترناه، و هو الأوفق لظاهر الآيه- فإن أعمال المجاهدين هذه قد اعتبرت و عرّفت بأنّها أحسن أعمالهم في حياتهم، و أنّ الله سبحانه سيعطيهم من الجزاء ما يناسب أعمالهم.

و على التفسير الثاني الذي يحتاج إلى تقدير كلمه (من) بعد كلمه (أحسن) فإنّها

تعنى إن جزاء الله أفضل و أثنى من أعمالهم، و تقدير الجملة: ليجزئهم الله أحسن مما كانوا يعملون، أى سيعطيهم الله أفضل مما أعطوا.

٣- إن الآيات المذكوره لا تختص بمسلمى الأمس، بل هى للأمس و اليوم و لكل القرون و الأزمنه.

و لا- شك أنّ الاشتراك فى أى نوع من الجهاد، صغيرا كان أم كبيرا، يستبطن مواجهه المصاعب و المشاكل المختلفه، الجسميه منها و الروحيه و الماليه و أمثالها، إلا- أن المجاهدين أناروا قلوبهم و أرواحهم بالإيمان بالله و وعوده الكبيره. و علموا أن كل نفس و كلمه و خطوه يخطونها فى هذا السبيل لا تذهب سدى، بل إنّها محفوظه بكل دقه دون زياده أو نقصان، و إنّ الله سبحانه سيعطيهم فى مقابل هذه الأعمال- باعتبارها أفضل الأعمال- من بحر لطفه اللامتناهى أنسب المكافئات و أليقها...

إنّهم إذا عاشوا هذا الإحساس فسوف لا- يمتنعون مطلقا من تحمل هذه المصاعب مهما عظمت و ثقلت، و سوف لا يدعون للضعف طريقا إلى أنفسهم مهما كان الجهاد مريرا و مليئا بالحوادث و العقبات.

ص: ٢٦٣

اشاره

وَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

سبب النزول

روى الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان عن ابن عباس، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما سار إلى ميدان القتال، كان جميع المسلمين يسرون بين يديه باستثناء المنافقين و المعذورين، إلا أنه بعد نزول الآيات التى ذمت المنافقين، و خاصيه المتخلفين عن غزوه تبوك، فإن المؤمنين صمموا أكثر من قبل على المسارعه إلى ميادين الحرب، بل و حتى فى الحروب التى لم يشارك فيها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه، فإن جميع السرايا كانت تتوجه الى الجهاد، و يدعون النبى صلى الله عليه وآله وسلم و آله و سلم و وحده، فنزلت الآيه و أعلنت أنه لا ينبغى فى غير الضروره أن يذهب جميع المسلمين إلى الجهاد، بل يجب أن يبقى جماعه منهم ليتعلموا العلوم الإسلاميه و أحكام الدين من النبى صلى الله عليه وآله وسلم و يعلموا أصحابهم المجاهدين عند رجوعهم من القتال.

و قد نقل هذا المفسر الكبير سببا آخر للنزول بهذا المضمون أيضا، و هو أن

جماعه من أصحاب النَّبى صلى الله عليه وآله وسلم انتشروا بين القبائل يدعونهم إلى الإسلام، فرحبوا بهم و أحسنوا إليهم، إلا أن بعضهم قد لا مهم على تركهم النَّبى صلى الله عليه وآله وسلم والتوجه إليهم، وقد تأثر هؤلاء لذلك و رجعوا إلى النَّبى صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت الآية تؤيد عمل هؤلاء فى الدعوه إلى الإسلام، و أزال قلقهم.

و روى سبب ثالث للنزول فى تفسير «التبيان»، و هو أن الأعراب لما أسلموا توجهوا جميعا نحو المدينة لتعلم الأحكام الإسلاميه، فسبب ذلك ارتفاع قيمه البضائع و المواد الغذائيه، و إيجاد مشاكل و مشاغل أخرى لمسلمى المدينة، فنزلت الآية و عرفتهم بأنه لا يجب توجههم جميعا إلى المدينة و ترك ديارهم و أخلاؤها، بل يكفى أن يقوم بهذا العمل طائفه منهم.

التفسير

إشاره

محاربه الجهل و جهاد العدو:

إن لهذه الآية ارتباطا بالآيات السابقه حول موضوع الجهاد، و تشير إلى حقيقه حياتيه بالنسبه للمسلمين، و هى: أن الجهاد و إن كان عظيم الأهميه، و التخلف عنه ذنب و عار، إلا- أنه فى غير الحالات الضروريه لا- لزوم لتوجه المؤمنون كافه إلى ساحات الجهاد، خاصه فى الموارد التى يبقى فيها النَّبى صلى الله عليه وآله وسلم فى المدينة، بل يبقى منهم جماعه لتعلم أحكام الدين و يتوجه الباقون إلى الجهاد: و ما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقه منهم طائفه ليتفقهوا فى الدين .

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام و المعارف الإسلاميه، و يحذرونهم من مخالفتها: و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم و الهدف من ذلك أن يحذر هؤلاء عن مخالفه أوامر الله سبحانه بإنذارهم لعلهم يحذرون .

و هنا ملاحظات ينبغي التوقف عندها:

١- إن ما قيل في تفسير هذه الآية إضافة إلى أنه يناسب سبب نزولها المعروف، فإنه الأوفق مع ظاهر جمل الآية من أى تفسير آخر، إلا أن الشيء الوحيد هنا هو أننا يجب أن نقدر جملة «لتبقى طائفه» بعد «من كل طائفه» أى: لتذهب طائفه من كل فرقه، و تبقى طائفه أخرى، و هذا الموضوع بالطبع مع ملاحظه القرائن الموجوده فى الآية لا يستوجب إشكالا. (فتأمل بدقه).

إلا- أن بعض المفسرين احتمل عدم وجود أى تقدير فى الآية، و المقصود أن جماعه من المسلمين يذهبون إلى الجهاد تحت عنوان الواجب الكفائى، و يعرفون فى ساحات الجهاد أحكام الإسلام و تعاليمه، و يرون بأنفسهم انتصار المسلمين على الأعداء، الذى هو بذاته نموذج من آثار عظمه و أحقيه هذا الدين، و إذا ما رجعوا يكونون أول من يشرح لإخوانهم ما جرى (١).

و الاحتمال الثالث الذى احتمله بعض المفسرين. و هو أن الآية تبين حكما مستقلا عن مباحث الجهاد، و هو أنه يجب على المسلمين واجبا كفائيا أن ينهض من كل قوم عدّه أفراد بمسؤوليه تعلم الأحكام و العلوم الإسلاميه، و يذهبوا إلى معاهد العلم الإسلاميه الكبيره، و بعد تعلمهم العلوم يرجعون إلى أوطانهم و يبدؤون بتعليم الآخرين (٢).

و لكن التفسير الأول كما تقدم- أقرب إلى مفهوم الآية، و إن كانت إرادته كل هذه المعانى ليس ببعيد (٣).

٢- لقد تصور البعض وجود نوع من المنافاه بين هذه الآية و الآيات السابقه، إذ

ص: ٢٦٦

١-١) اختار الطبرى هذا الرأى، نقل ذلك القرطبى فى تفسيره، و ذكره جماعه من المفسرين فى ذيل الآية كاحتمال.

٢-٢) هذا التفسير يناسب سبب النزول الذى أورده المرحوم الشيخ الطوسى فى التبيان.

٣-٣) نلفت انتباهكم إلى أننا نعتبر استعمال كلمه واحده فى عدّه معان أمرا جائزا.

الآيات السابقة أمرت الجميع بالتوجه إلى ساحات الجهاد، و وبخت المتخلفين بشده، أما هذه الآيه فتقول. أنه لا ينبغي للجميع ان يتوجهوا إلى ميدان الحرب.

و لكن من الواضح أنّ هذين الأمرين قد صدرا في ظروف مختلفه، فمثلا- في غزوه تبوك لم يكن هناك بد من توجه كل المسلمين إلى الجهاد لمواجهة الجيش القوى الذى أعدته إمبراطوريه الروم لمحاربه الإسلام و القضاء عليه. أما في حاله مقابله جيوش و مجاميع أصغر و أقل فليست هناك ضروره لتوجه الجميع إلى الحرب، خاصه في الحالات التى يبقّى فيها النبى صلى الله عليه و آله و سلّم بنفسه، فإنّه يجب عليهم أن لا- يخلوا المدينه مع احتمالات الخطر المتوقعه، و أن لا- يغفلوا عن التفرغ لتعلم المعارف و الأحكام الإسلاميه.

و على هذا فلا يوجد أى نوع من التنافى بين هذه الآيات، و ما تصوره البعض من التنافى هو اشتباه محض.

٣- لا- شك أنّ المقصود من التفقه فى الدين هو تحصيل جميع المعارف و الأحكام الإسلاميه، و هى أعم من الأ-صول و الفروع، لأنّ كل هذه الأمور قد جمعت فى مفهوم التفقه، و على هذا، فإنّ هذه الآيه دليل واضح على وجوب توجه فئه من المسلمين وجوبا كفاثيا على الدوام لتحصيل العلوم فى مختلف المجالات الإسلاميه، و بعد الفراغ من التحصيل العلمى يرجعون إلى مختلف البلدان، و خصوصا بلدانهم و أقوامهم، و يعلمونهم مختلف المسائل الإسلاميه.

و بناء على ذلك، فإنّ الآيه دليل واضح على وجوب تعلم و تعليم المسائل الإسلاميه، و بتعبير آخر فإنّها أوجبت التعلم و التعليم معا، و إذا كانت الدنيا فى يومنا الحاضر تفتخر بسنّها التعليم الإيجابى، فإنّ القرآن قد فرض قبل أربعه عشر قرنا هذا الواجب على المعلمين علاوه على المتعلمين.

٤- استدل جماعه من علماء الإسلام بهذه الآيه على مسأله جواز التقليد، لأنّ التقليد إنّما هو تعلم العلوم الإسلاميه و إيصالها للآخرين فى مسائل فروع الدين،

و وجوب اتباع المتعلمين لمعلمين.

و كما قلنا سابقا، فإنّ البحث في هذه الآيه لا ينحصر في فروع الدين، بل تشمل حتى المسائل الأصوليه، و تتضمن الفروع أيضا على كل حال.

الإشكال الوحيد الذى يشار هنا، هو أنّ الاجتهاد و التقليد لم يكن موجودا في ذلك اليوم، و الأشخاص الذين كانوا يتعلّمون المسائل و يوصلونها للآخرين حكمهم كحكم البريد و الإرسال في يومنا هذا، لا حكم المجتهدين، أى إنهم كانوا يأخذون المسأله من النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم و يبلغونها للآخرين كما هي من دون إبداء أى رأى أو وجهه نظر.

و لكن مع الأخذ بنظر الاعتبار المفهوم الواسع للاجتهاد و التقليد يتّضح الجواب عن هذا الإشكال.

و توضيح ذلك: إن ممّا لا شك فيه أن علم الفقه على سعته التى نراها اليوم لم يكن له وجود ذلك اليوم، و كان من السهل على المسلمين أن يتعلّموا المسائل من النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، لكن هذا لا- يعنى أنّ علماء الإسلام كان عملهم هو بيان المسائل فقط، لأن الكثير من هؤلاء كانوا يذهبون إلى الأماكن المختلفه كقضاه و أمراء، و من البديهي أن يواجهوا من المسائل ما لم يسمعوا حكمها بالذات من النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، إلا أنّها كانت موجوده فى عمومات و إطلاقات آيات القرآن المجيد. فكان هؤلاء قطعاً يقومون بتطبيق الكليات على الجزئيات- و فى الاصطلاح العلمى: رد الفروع إلى الأصول و رد الأصول على الفروع- لمعرفة حكم هذه المسائل، و كان هذا بحد ذاته نوعا من الاجتهاد البسيط.

إنّ هذا العمل و أمثاله كان موجودا فى زمن النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم حتما، فعلى هذا فإنّ الجذور الأصلية للاجتهاد كانت موجوده بين أصحاب النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، و لو أنّ الصحابه لم يكونوا جميعا بهذه الدرجه.

و لما كان لهذه الآيه مفهوما عاما، فإنّها تشمل قبول أقوال موضحى و ناقلى

الأحكام، كما تشمل قبول قول المجتهدين، و على هذا، فيمكن الاستدلال بعموم الآية على جواز التقليد.

٥- المسألة المهمّة الأخرى التي يمكن استخلاصها من الآية، هي الأهميه الخاصّه التي أولاها الإسلام لمسألة التعليم و التعلم، إلى الدرجة التي ألزم فيها المسلمين بأن لا يذهبوا جميعاً إلى ميدان الحرب، بل يجب أن يبقى قسم منهم لتعلم الأحكام و المعارف الإسلاميّه.

إنّ هذا يعنى أن محاربه الجهل واجب كمحاربه الأعداء، و لا تقل أهميه أحد الجهادين عن الآخر. بل إن المسلمين ما لم ينتصروا في محاربتهم للجهل و اقتلاع جذوره من المجتمع، فإنّهم سوف لا ينتصرون على الأعداء، (لأنّ الأئمّه الجاهله محكومّه بالهزيمة دائماً).

أحد المفسيّرين المعاصرين ذكر في ذيل هذه الآية بحثاً جميلاً، و قال: كنت أطلب العلم في طرابلس و كان حاكمها الإداري من أهل العلم و الفقه في مذهب الشافعيّه- فقال لي مرّه: لماذا تستثنى الدوله العلماء و طلاب العلوم الدينيه من الخدمه العسكريه و هي واجبه شرعاً و هم أولى الناس بالقيام بهذا الواجب؟ يعرّض بي- أليس هذا خطأ لا- أصل له في الشرع؟ فقلت له على البدايه: بل لهذا أصل في نص القرآن الكريم، و تلوت عليه الآية فاستكثر الجواب على مبتدئ مثلي لم يقرأ التفسير و أثنى ورعا (١).

ص: ٢٦٩

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

التفسير

اشاره

قتال الأقرب فالأقرب:

أشارت الآيه في سياق احكام الجهاد التي ذكرت لحد الآن في هذه السوره- إلى أمرين آخرين في هذا الموضوع الإسلامى المهم، فوجهت الخطاب أولاً إلى المؤمنين وقالت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ .

صحيح أنه تجب محاربه الكفار جميعاً، ولا فرق بينهم في ذلك، إلا أنه من الوجهه التكتيكيه و طريقه القتال يجب البدء بالعدو الأقرب، لأن خطر العدو القريب أكبر، كما أن الدعوه للإسلام و هدايه الناس إلى دين الحق يجب أن تبدأ من الأقرب، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد بدأ بأمر الله سبحانه بدعوه أقاربه و عشيرته، ثم دعا أهل مكه. ثم جزيره العرب و قام بإرسال الرسل إليها، و بعدها كتب الرسائل إلى ملوك العالم، و لا شك أن هذا الأسلوب هو الأقرب للنجاح و الوصول إلى الهدف.

و من الطبيعى أن لكل قانون استثناء، فقد يكون العدو الأبعد- فى بعض الأحيان -أشد خطراً من العدو القريب، و عندها تجب المبادره إلى دفعه أولاً، لكن، كما قلنا، فإن هذا استثناء لا قانون ثابت و دائم.

و أما ما قلناه من أنّ المبادره إلى مجابهه العدو الأقرب هي الأهم و الأوجب.

فإنّ أسبابه واضحه، و ذلك:

أولاً: إنّ خطر العدو القريب أكبر و أشد من العدو البعيد.

ثانياً: إنّ اطلاعنا و علمنا بالعدو القريب أكثر، و هذا من العوامل المساعده و المقربه للنصر.

ثالثاً: إنّ التوجه لمحاربه العدو البعيد لا- يخلو من خطوره اضافيه، فالعدو القريب قد يستغل الفرصه و يحمل على الجيش من الخلف، أو يستغل خلو المقر الأصلي للإسلام فيهجم عليه.

رابعاً: إنّ الوسائل اللازمه و نفقات محاربه العدو القريب أقل و أبسط، و التسلط على ساحه الحرب فى ظل ذلك أسهل.

لهذه الأسباب و أسباب أخرى، فإنّ دفع العدو الأقرب هو الأوجب و الأهم.

و الجدير بالذكر أنّ هذه الآيه لما نزلت كان الإسلام قد استولى على كل جزيره العرب تقريبا، و على هذا فإن أقرب عدو فى ذلك اليوم ربّما كان أمبراطوريه الروم الشرقيه التى توجه المسلمون إلى تبوك لمحاربتها.

و كذلك يجب أن لا ننسى أنّ هذه الآيه بالرغم من أنّها تتحدث عن العمل المسلح و البعد المكانى، إلاّ أنّه ليس من المستبعد أن روح الآيه حاكمه فى الأعمال المنطقيه و الفواصل المعنويه، أى إنّ المسلمين عند ما يعزمون على المجابهه المنطقيه و الإعلاميه و التبليغيه يجب أن يبدؤوا بمن يكون أقرب إلى المجتمع الإسلامى و أشدّ خطرا عليه، فمثلا فى عصرنا الحاضر نرى أن خطر الإلحاد و الماديه يهدد كل المجتمعات، فيجب تقديم التصدي لها على مواجهه المذاهب الباطله الأخرى، و هذا لا يعنى نسيان هؤلاء، بل يجب إعطاء الأهميه القصوى للهجوم نحو الفئه الأخطر، و هكذا فى مواجهه الاستعمار الفكرى و السياسى و الاقتصادى التى تحوز الدرجه الأولى من الأهميه.

و الأمر الثانی فیما یتعلق بالجهاد فی الآیه، هو أسلوب الحزم و الشدّه، فهی تقول: إن العدو یجب أن یلمس فی المسلمین نوعاً من الخشونه و الشدّه:

وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً

و هی تشير إلى أنّ الشجاعه و الشهامه الداخليه و الاستعداد النفسى لمقابله العدو و محاربتة لیست كافیه بمفردها، بل یجب اظهار هذا الحزم و الصلابه للعدو لیعلم أنّکم علی درجه عالیه من المعنویات، و هذا بنفسه سیؤدی إلى هزیمتهم و انهیار معنویاتهم.

و بعبارة أخرى فإنّ امتلاك القدره لیس كافیا، بل یجب استعراض هذه القوه أمام العدو. و لهذا نقرأ فی تأریخ الإسلام أنّ المسلمین عند ما أتوا إلى مكّه لزیاره بیت الله، أمرهم رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم أن یسرعوا فی طوافهم، بل أن یعدوا و یركضوا لیری العدو-الذی كان یراقبهم عن كتب-قوتهم و سرعتهم و لیاقتهم البدنیه.

و كذلك نقرأ فی قصه فتح مكّه أنّ النبی صلی الله علیه و آله و سلم أمر المسلمین فی اللیل أن یشعلوا نیرانا فی الصحراء لیعرف أهل مكّه عظمه جيش الإسلام، و قد أثر هذا العمل فی معنویاتهم. و كذلك أمر أن یجعل أبو سفیان كبیبر مكّه فی زاویه و یتعرض جيش الإسلام العظیم قواته أمامه.

و فی النهایه تبشر الآیه المسلمین بالنصر من خلال هذه العبارة: **وَ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** و یمكن أن یشیر هذا التعبير-إضافه لما قبل-إلى أن استعمال الشدّه و الخشونه یجب أن یقترن بالتقوى، و لا یتعدى الحدود الإنسانیه فی أى حال.

اشاره

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)

التفسير

اشاره

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب:

تشير هاتان الآيتان إلى واحده من علامات المؤمنين و المنافقين البارزه، تكمله لما مرّ من البحوث حولهما.

فتقول أولاً: وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِ إِيْمَانًا (١) و هم يريدون بكلامهم هذا أن يبينوا عدم تأثير سور القرآن فيهم، و عدم اعتنائهم بها، و يقولون: إنّ هذه الآيات لا تحتوى على الشىء المهم و المحتوى الغنى، بل هى كلمات عاديه و معروفه.

ص: ٢٧٣

١- ١) إنّ (ما) فى جملة إِذَا مَا أُنزِلَتْ زائده فى الحقيقه، و هى للتأكيد. و قال البعض أنّها صلّه و هى تسلط أداه الشرط-إي (إِذَا) على جزائها، و تؤكد الجملة.

و لكن القرآن يجيبهم بلهجه قاطعه، و يقول ضمن تقسيم الناس الى طائفتين:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْنَا لَهُمْ إِيمَانًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

و هذا على خلاف المنافقين و مرضى القلوب من الجهل و الحسد و العناد و أمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَزَدْنَا لَهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ .

و فى النهايه، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ بَعَادَهُمْ يَخَادِرُونَ الدُّنْيَا عَلَى الْكُفْرِ: وَ مَا تَوَّأ وَ هُمْ كَافِرُونَ .

ملاحظات

و هنا ملاحظات ينبغى التنبه لها:

١- إنَّ القرآن الكريم يؤكِّد من خلال هاتين الآيتين على حقيقته، و هى أَنَّ وجود البرامج و القوانين الحياتيه لا- تكفى بمفردها لسعاده فرد أو جماعه، بل يجب أن يؤخذ بنظر الإعتبار وجود الأرضيه المهيئه و الاستعداد للتلقى كشرط أساسى.

إنَّ آيات القرآن كقطرات المطر تصيب الحديقه الغناء و الأرض السبخه، فالذين ينظرون إلى الحقائق بروح التسليم و الإيمان و العشق، يتعلمون من كل سوره- بل من كل آيه- درساً يزيد فى إيمانهم، و يفعل سمات الإنسانيه لديهم.

أمَّا الذين ينظرون إلى هذه الآيات من خلف حجب العناد و الكبر و النفاق، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا، بل و تزيد فى كفرهم و رجسهم. و بتعبير آخر فَإِنَّهُمْ يَعْصُونَ كُلَّ أَمْرٍ فِيهَا لِيُرْتَكَبُوا بِذَلِكَ مَعْصِيَهُ جَدِيدَهُ تَضَافُ إِلَى مَعْصِيَتِهِمْ، و يواجهون كل قانون بالتمرد عليه، و يصرون على رفض كل حقيقه، و هذا هو سبب تراكم المعاصى و الآثام فى وجودهم، و بالتالى تتجدَّر هذه الصفات الرذيله فى كيانهم، و فى النهايه إغلاق كل طرق الرجوع بوجوههم و موتهم على الكفر.

و بتعبير آخر فإنّ (فاعليه الفاعل) في كل برنامج تربوي لا تكفى لوحدها، بل إنّ روح التقبل و(قابليه القابل) شرط اساسى أيضا.

٢- «الرجس» في اللغه بمعنى الخبيث النجس السىء، و على قول الراغب في كتاب المفردات، فإنّ هذا الخبث و التلوّث أربعة أنواع: فتاره ينظر إليه من جهه الغريزه و الطبع، و أخرى من جهه الفكر و العقل، و ثالثه من جهه الشرع، و رابعه من كل الجهات.

و لا شك أنّ السوء و الخبث الناشئ من النفاق و اللجاجه و التعنت أمام الحق سيولد نوعا من الشر و الخبث الباطنى و المعنوى بحيث يبدو أثره بوضوح فى النهايه على الإنسان و كلامه و سلوكه.

٣- إنّ جملة وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ مع ملاحظه أنّ أصل كلمه (بشاره) تعنى السرور و الفرح الذى تظهر آثاره على وجه الإنسان، تبيّن مدى تأثير الآيات القرآنيه التربوي فى المؤمنين، و وضوح هذا التأثير بحيث تبدو علاماته فورا على وجوههم.

٤- لقد اعتبرت هذه الآيات «المرض القلبي» نتيجة حتميه و ملازمه للنفاق و الصفات القبيحه. و كما قلنا سابقا فإنّ القلب فى مثل هذه الموارد يعنى الروح و العقل، و مرض القلب فى هذه المواضع بمعنى الرذائل الأخلاقيه و الانحرافات النفسيه، و هذا التعبير يوضح أنّ الإنسان إذا كان يتمتع بروح سالمه و طاهره فلا أثر فى وجوده لهذه الصفات الذميه، و مثل هذه الأخلاق السيئه كالمرض الجسمى خلاف طبيعه الإنسان، و على هذا فإنّ التلوّث بهذه الصفات دليل على الانحراف عن المسير الأصلى و الطبيعى، و دليل على المرض الروحى و النفسى (١).

٥- إنّ هذه الآيات تعطى درسا كبيرا لكل المسلمين، لأنّها تبيّن هذه الحقيقه، و هى أنّ المسلمين الأوائل كانوا يشعرون بروح جديده مع نزول كل سوره من

ص: ٢٧٥

(١- ١) كان لنا بحث آخر عن مرض القلب و مفهومه فى القرآن راجع الآيه (١٦) من سوره البقره.

القرآن، و يتربون تربيته جديده تصل إلى درجه بحيث تبدو آثارها بسرعه على محياهم، بينما نرى اليوم أشخاصا، ظاهرهم أنهم مسلمون، لا تؤثر فيهم السوره إذا قرءوها، بل إن ختم القرآن كله لا يترك أدنى أثر عليهم! هل أن سور القرآن فقدت تأثيرها؟ أم أن تسمم الأفكار، و مرض القلوب، و وجود الحجب المتراكمه من أعمالنا السيئه هي التي أدت إلى خلق حاله عدم الاهتمام، و جعلت على القلوب أكنه لا- يمكن اختراقها؟ يجب علينا أن نلتجئ إلى الله من حالنا هذا، و نسأله أن يمن علينا بقلوب كقلوب المسلمين الأوائل.

اشاره

أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧)

التفسير

يستمر الكلام في هذه الآيات حول المنافقين، و هي توبّخهم و تدمهم فتقول:

أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ

و العجيب أنهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقه لا يعتبرون ثم لا يتوبون و لا هم يذكرون .

و هناك بحث بين المفسرين في أنه ما هو المراد من هذا الاختبار السنوي الذي يجرى مره أو مرتين؟ فالبعض يقول:إنه الأمراض، و البعض الآخر يقول:إنه الجوع و الشدائد الأخرى، و ثالث يقول:إنه مشاهده آثار عظمه الإسلام و أحقيه النبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم في ساحات الجهاد التي كان يحضرها هؤلاء المنافقون بحكم الضغط الاجتماعي و ظروف البيئه التي يعيشونها، و رابع يعتقد أنه رفع الستار عن أسرارهم،

و فضيحتهم.

غير أنا إذا قرأنا آخر الآيه حيث تذكر أنّ هؤلاء لم يتذكروا رغم كل ذلك، سيّضح أنّ هذا الاختبار من الاختبارات التي ينبغي أن تكون سببا في توعيه هذه المجموعه.

و يظهر أيضا من تعبير الآيه أنّ هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذى يواجهه كل الناس فى حياتهم. و إذا أخذنا هذا الموضوع بنظر الإعتبار فسيظهر أن التفسير الرابع- أى إزاحه الستار عن أعمال هؤلاء السيئه و ظهور باطنهم و حقيقتهم- أقرب إلى مفهوم الآيه.

و يحتمل أيضا أن يكون للامتحان و الابتلاء فى هذه الآيه مفهوم جامع بحيث يشمل كل هذه المواضيع.

ثم تشير الآيه إلى الموقف الإنكارى لهؤلاء فى مقابل الآيات الإلهيه، فتقول:

وَ إِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ

إنّ خوف هؤلاء و قلقهم ناشى، من أنّ تلك السوره تتضمن فضيحه جديده لهم، أو لأنهم لا يفهمون منها شيئا لعمى قلوبهم، و الإنسان عدو ما يجهل.

و على كل حال، فإنهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوا هذه الأنغام الإلهيه، إلا أنّهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، و لذلك كان أحدهم يهمس فى أذن صاحبه و يسأله: هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ و إذا ما اطمأنوا إلى أن الناس منشغلون بسماع كلام النبى صلى الله عليه و آله و سلم و غير ملتفتين إليهم خرجوا: ثُمَّ أَنْصَرَفُوا .

إنّ جملة هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ، كانوا يقولونها إمّا بألستهم، أو بإشاره العيون، فى حين أن الجملة الثانيه نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ تبين أمرا واحدا هو نفس ما عينته الجملة الأولى، و فى الحقيقه فإنّ هل يراكم أحد تفسير لنظر بعضهم إلى البعض الآخر.

و تطرقت الآيه فى الختام إلى ذكر عله هذا الموضوع فقالت: إِنَّ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا لَا يَرِيدُونَ سَمَاعَ كَلِمَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَلَا يَرْتَابُونَ
لذَلِكَ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ حَاقَتْ بِهَا الظُّلْمَاتُ لِعِنَادِهِمْ وَ مَعَاصِيهِمْ فَصَرَفَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْحَقِّ، وَ أَصْبَحُوا أَعْدَاءَ لِلْحَقِّ لِأَنَّهُمْ أَنَاسٌ
جَاهِلُونَ لَا فِكْرَ لَهُمْ: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

□
و قد ذكر المفسرون لقوله تعالى: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ احتمالين:

الأول: إنها جملة خبريه. كما فسرناها قبل قليل.

الثانى: إنها جملة إنشائية، و يكون معناها اللعنه، أى إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَصْرِفُ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ عَنِ الْحَقِّ. إلا- أن الاحتمال الأول هو
الأقرب كما يبدو.

ص: ٢٧٩

اشاره

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

التفسير

اشاره

آخر آيات القرآن المجيد:

إن هذه الآيات برأى بعض المفسرين، هي آخر الآيات التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبها تنتهي سوره براءه، فهي في الواقع إشاره إلى كل المسائل التي مرّت في هذه السوره، لأنها تبين من جهه لجميع الناس، سواء المؤمنون منهم أم الكافرون و المنافقون، أنّ جميع الضغوط و التكاليف التي فرضها النبي صلى الله عليه وآله وسلم و القرآن الكريم، و التي ذكرت نماذج منها في هذه السوره، كانت كلها بسبب عشق النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهدايه الناس و تربيتهم و تكاملهم.

و من جهه أخرى فإنّها تخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يقلق و لا يتحرق لعصيان و تمرد الناس، و الذي ذكرت منه- أيضا- نماذج كثيره في هذه السوره، و ليعلم أنّ الله سبحانه حافظه و معينه على كل حال.

و من هنا فإنّ خطاب الآيه الأولى موجه للناس، فهى تقول: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، خاصّه و أنّه قد وردت لفظه مِنْ أَنْفُسِكُمْ بدل منكم، و هى تشير إلى شدة ارتباط النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم بالناس، حتى كأنّ قطعه من روح الناس و المجتمع قد ظهرت بشكل النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم، و لهذا السبب فإنّه يعلم كلّ آلامهم، و مطلع على مشاكلهم، و شريكهم فى غمومهم و همومهم، و بالتالى لا- يمكن أن يتصور صدور كلام منه إلّا- فى مصلحتهم، و لا- يخطو خطوه إلّا- فى سيّلتهم، و هذا فى الواقع أوّل وصف للنّبى صلى الله عليه و آله و سلّم ذكر فى هذه الآيه.

و من العجيب أنّ جماعه من المفسّرين الذين وقعوا تحت تأثير العصبية القوميه و العربيه قالوا: إنّ المخاطب فى هذه الآيه هم العرب! أى أنّ النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم قد جاءكم من هذا الأصل!.

إنّنا نعتقد أنّ هذا هو أسوأ تفسير ذكر لهذه الآيه، لأننا نعلم أنّ الشىء الذى لم يجر له ذكر فى القرآن الكريم هو مسأله الأصل و العرق، ففى كل مكان تبدأ خطابات القرآن ب **يَا أَيُّهَا النَّاسُ** و **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** و أمثالها، و لا يوجد فى أى مورد «يا أيها العرب» و «يا قريش» و أمثال ذلك.

إضافه الى أنّ ذيل الآيه الذى يقول: **بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ** ينفى هذا التفسير بوضوح، لأنّ الكلام فيه عن كل المؤمنين، من أى قوميه أو عرق كانوا.

و ممّا يثير الأسف أنّ بعض العلماء المتعصبين قد حجّموا عالميه القرآن و عموميته لكل البشر، و حاولوا حصره فى حدود القوميه و العرق المحدوده.

و على كل حال، فبعد ذكر هذه الصفه مِنْ أَنْفُسِكُمْ أشارت الآيه إلى أربع صفات أخرى من صفات النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم الساميه، و التى لها الأثر العميق فى إثارة عواطف الناس و جلب انتباههم و تحريك أحاسيسهم.

ففى البدايه تقول: **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** أى أنّ الأمر لا- ينتهى فى أنّه لا- يفرح لأذاكم و مصاعبكم، بل إنّّه لا يقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألّم

لألمكم،و إذا كان يصرّ على هدايتكم و يتحمل الحروب المضنيه الرهييه،فإنّ ذلك لنجاتكم أيضا،و لتخليصكم من قبضه الظلم و الاستبداد و المعاصي و التعاسه.

ثمّ تضيف أنّه حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ و يتحمس لهدايتكم.

«الحرص» فى اللغه بمعنى قوه و شده العلاقه بالشىء،و اللطيف هنا أن الآيه أطلقت القول و قالت: حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ فلم يرد حديث عن الهدايه،و لا- عن أى شىء آخر،و هى تشير إلى عشقه صلى الله عليه و آله و سلّم لكل خير و سعاده ورقى لكم.و كما يقال:إن حذف المتعلق دليل على العموم.

و على هذا،فإنّه إذا دعاكم و سار بكم إلى ساحات الجهاد المريره،و إذا شدّد النكير على المنافقين،فإنّ كل ذلك من أجل عشقه لحریتكم و شرفكم و عزتكم.

و هدايتكم و تطهير مجتمعتكم.

ثمّ تشير إلى الصفتين الثالثه و الرابعه و تقول: بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَحِيمٌ و على هذا فإنّ كل الأوامر الصعبه التى يصدرها،(حتى المسير عبر الصحارى المحرقه فى فصل الصيف المقرون بالجوع و العطش لمواجهه عدو قوى فى غزوه تبوك) فإنّ ذلك نوع من محبته و لطفه.

و هناك بحث بين المفسرين فى الفرق بين «الرؤوف»و«الرحيم»،إلا أنّ الذى يبدو أن أفضل تفسير لهما هو أنّ الرؤوف إشارة إلى محبّته خاصّه فى حقّ المطيعين،فى حين أنّ الرحيم إشارة إلى رحمه تجاه العاصين،إلا- أنّه يجب أن لا- يغفل عن أن هاتين الكلمتين عند ما تفصلان يمكن أن تستعملا فى معنى واحد،أمّا إذا اجتمعتا فتعطيان معنى مختلفا أحيانا.

و فى الآيه التى تليها،و هى آخر آيه فى هذه السوره،وصف للنبي صلى الله عليه و آله و سلّم بأنّه شجاع و صلب فى طريق الحق،و لا ييأس بسبب عصيان الناس و تمردهم،بل يستمر فى دعوتهم إلى دين الحق: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهُوَ حَصْنَةُ الْوَحِيدِ..أجل لا حصن لى إلا الله،فإليه استندت و عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ

إنّ الذى بيده العرش و العالم العلوى و ما وراء الطبيعه بكل عظمتها، و هى تحت حمايته و رعايته، كيف يتركنى وحيدا و لا يعيننى على الأعداء؟ فهل توجد قدره لها قابليه مقاومه قدرته؟ أم يمكن تصور رحمه و عطف أشد من رحمته و عطفه؟ إلهنا، الآن و قد أنهينا تفسير هذه السوره، و نحن نكتب هذه الأسطر، فإن أعداءنا قد أحاطوا بنا، و قد ثارت أمتنا الرشيده لقلع جذور الظلم و الفساد و الاستبداد، بوحده لا نظير لها، و اتحاد بين كل الصفوف و الطبقات بدون استثناء حتى الأطفال و الرضع ساهموا فى هذا الجهاد و المقارعه، و لم يتوان أى فرد عن القيام بأى نوع من التضحيه و الفداء.

ربّاه، إنّك تعلم كل ذلك و تراه، و أنت منبع الرحمه و الحنان، و قد وعدت المجاهدين بالنصر، فعجل النصر و أنزله علينا، و ارو هؤلاء العطاشى و العشاق من زلال الإيمان و العدل و الحره، إنّك على كل شىء قدير.

مکيه و عدد آیاتها مائه و تسع آیات

ص: ۲۸۵

محتوى و فضيله هذه السوره

هذه السوره من السور المكيه، و على قول بعض المفسرين فإنّها نزلت بعد سوره الإسراء و قبل سوره هود، و تؤكد -ككثير من السور المكيه- على عدّه مسائل أساسيه و أصوليه، و أهمها مسأله المبدأ و المعاد.

غايه ما فى الأمر أنّها تتحدث أولاً عن مسأله الوحي و مقام النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، ثمّ تتطرق إلى نماذج و علامات الخلقه العظيمه التى تدل على عظمه الله عز و جل، و بعد ذلك تدعو الناس إلى الالتفات إلى عدم بقاء الحياه الماديه فى هذه الدنيا، و حتميه زوالها، و وجوب التوجه إلى الآخره و التهيؤ لها عن طريق الإيمان و العمل الصالح.

و قد ذكرت السوره -كدلائل و شواهد على هذه المسائل- أقساماً مختلفه من حياه كبار الأنبياء، و من جملتهم نوح و موسى و يونس عليهم السّلام و لهذا سمّيت بسوره يونس.

و قد ذكرت كذلك، لتأييد هذه المباحث، كلاماً عن عناد و تصلب عبده الأوثان، و ترسم و توضح لهم حضور الله سبحانه فى كل مكان و شهادته، و تستعين لإثبات هذه المسأله بأعماق فطره هؤلاء التى تتعلق بالواحد الأحد عند ما يقعون فى المشاكل و المعضلات، حيث يتّضح هذا التعلق الفطرى بالله سبحانه.

و أخيراً فإنّها تستغل كل فرصه للبشاره و الإنذار،البشاره بالنعم الإلهيه التي لا حدود لها للصالحين،و الإنذار و الإرعاب للطاغين و العاصين،لتكملة البحوث أعلاه.

و لهذا فإننا نقرأ

فى روايه عن الإمام الصّيداق عليه السّلام: «من قرأ سورة يونس فى كل شهرين أو ثلاثه مرّه،لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين،و كان يوم القيامة من المقربين» (١)، و ذلك لأنّ آيات التحذير و الوعيد و آيات التوعيه كثيره فى هذه السوره،و إذا ما قرئت بدقه و تأمل،فإنّها ستكشف ظلمه الجهل عن روح ابن آدم، و سيبقى أثرها عدّه أشهر على الأقل،و إذا ما أدرك الإنسان محتوى السوره و عمل بها،فإنّه سيكون-يقينا-يوم القيامة من المقربين.

ربّما لا- نحتاج أن نذكّر بأنّ فضائل السور- كما قلنا سابقا-لا يمكن تحصيله بمجرد تلاوه الآيات من دون إدراك معناها،و من دون العمل بمحتواها،لأنّ التلاوه مقدمه للفهم،و الفهم مقدمه للعمل!.

ص: ٢٨٨

١-١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢٩٠،و تفاسير أخرى.

جاء نظيره في بدايه سورہ البقرہ، يعتبر من التعبيرات الجميله و اللطيفه في القرآن، و هو كناية عن عظمه و رفعه مفاهيم القرآن، لأن المطالب اليسيره و البسيطه يشار لها غالبا باسم الإشاره القريب، أما المطالب المهمه العالیه المستوی، و التي تعانق السحاب في علو أفقها، فإنها تبين باسم الإشاره البعيد.

إن توصيف الكتاب السماوي-أى القرآن- بأنه (حكيم) هو إشاره إلى أن آيات القرآن محكمه و منظمه و دقيقه، بحيث لا يمكن أن يأتيها أو يخالفها أى شكل من أشكال الباطل و الخرافه، فهى لا نقول إلا الحق، و لا تدعو إلا إلى طريق الحق.

أمّا الآيه الثانيه فإنها تبين-و لمناسبه تلك الإشاره التي مرّت إلى القرآن و الوحي الإلهي في الآيه السابقه- واحدا من إشكالات المشركين على النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و هو نفس الإشكال الذي جاء في القرآن بصوره متكرره. و هذا التكرار يبين أن هذا الإشكال من إشكالات المشركين المتكرره، و هو: لماذا نزل الوحي الإلهي من الله على إنسان مثلهم؟ و لماذا لم تتعهد الملائكه بمسؤوليه هذه الرساله الكبيره؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: أ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ .

الواقع أن كلمه «منهم» تضمنت الجواب على سؤالهم، أى إن القائد و المرشد إذا كان من جنس أتباعه، و يعلم أمراضهم، و مطلع على احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثم تشير إلى محتوى الوحي الإلهي. و تلخصه في أمرين:

الأول: إن الوحي الذي أرسلناه، مهمته إنذار الناس و تحذيرهم من عواقب الكفر و المعاصي: أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ .

و الثاني: هو وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

و في الوقت الذي يوجد بحث بين المفسرين في المقصود من «قدم الصديق»، إلا

أن أحد التفاسير الثلاثة المذكوره هنا-أو كل الثلاثة-قابل للقبول بصوره علميه.

فالتفسير الأول: إن «قدم الصدق» هذا إشاره إلى أن الإيمان له ب«سابقه فطريه»، وإن المؤمنين عند ما يظهرون إيمانهم فهم فى الحقيقه يصدقون فطرتهم- لأن أحد معانى القدم هو السابقه- كما يقولون: لفلان قدم فى الإسلام، أو قدم فى الحرب، أى إن له سبقا فى الإسلام أو الحرب.

و الثانى: إنه إشاره إلى مسأله المعاد و نعيم الآخره، لأن أحد معانى القدم هو المقام و المنزله، و هو يناسب كون الإنسان يرد إلى منزله و مقامه برجله، و هذا التفسير يعنى أن للمؤمنين مقاما و منزله ثابتة و حتميه عند الله سبحانه، و أن أى قوه لا تستطيع تغييرها و جعلها فى شكل آخر.

أما التفسير الثالث فهو أن القدم بمعنى القدوه و الزعيم و القائد، أى إننا أرسلنا للمؤمنين قائدا و مرشدا صادقا.

لقد وردت عدّه روايات عن طريق الشيعة و السنه لهذه الآيه تفسر قدم الصدق بأنه النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو ولايه على عليه السلام و تؤيد هذا المعنى (١).

و كما قلنا فإن من الممكن أن تكون البشاره بكل هذه الأمور هى المراده من التعبير أعلاه.

و تنهى الآيه حديثها بذكر اتهام طالما كثره المشركون و اتهموا به النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فقالت: **قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**.

إن كلمه (إن) و «لام» التأكيد و صفه «المبين»، كلها دلائل على مدى تأكيد أولئك الكفار على هذه التهمه، و عبروا ب(هذا) لتصغير مقام النبى صلى الله عليه و آله و سلم و التقليل من أهميته.

أما لماذا اتهموا النبى صلى الله عليه و آله و سلم بالسحر؟ فجوابه واضح، ذلك أنهم لم يكونوا

ص: ٢٩١

١- (١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ١٧٧، و تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣١٤٥.

يملكون الجواب المقنع مقابل إعجاز كلامه و شريعته و قوانينه العادله الرفيعه. فلم يكن لهم سبيل إلا أن يفسروا هذه الظواهر الخارقه للعادة بأنها سحر، و بهذا فقط يمكنهم إبقاء البسطاء تحت سيطره الجهل و عدم الاطلاع على الواقع.

إن أمثال هذه التعبيرات التي كانت تصدر من ناحيه الأعداء ضد النبي صلى الله عليه و آله و سلم دليل بنفسها على أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان يقوم بأعمال خارقه للعادة، بحيث تجذب القلوب و الأفكار نحوها، خاصه و أن التأكيد على السحر في شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع و قوى على الجاذبيه الخارقه الموجوده في هذا الكتاب السماوى، و لأجل خداع الناس فإنهم كانوا يجعلونه في إطار السحر.

و سنتحدث عن هذا الموضوع في الآيات المناسبه إن شاء الله تعالى.

اشاره

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِندَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

التفسير

اشاره

معرفة الله و المعاد:

بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسأله الوحي و النبوه فى بدايه هذه السوره، انتقل فى حديثه إلى أصليين أساسيين فى تعليمات و تشريعات جميع الأنبياء، ألا و هما المبدأ و المعاد، و بين هذين الأصلين ضمن عبارات قصيره فى هاتين الآيتين.

فيقول أولاً: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ. و كما أشرنا سابقاً، فإن كلمه (يوم) فى لغه العرب، و ما يعادلها فى سائر اللغات، تستعمل

فى كثر من الموارء بمعنى المرءه؁ كما نقول: فى يوم ما كان الاستبءاء يحكم بلادنا؁ أما اليوم فهى فى ظل الشوره الاسلاميه تنعم الحريره؁ و يعنى أن مرءه الاستبءاء قء انتهت و جاءت مرءه استقلال الشعب و حريره (١).

و على هذا فإن مفهوم الجملة أعلاه يكون: إن الله سبحانه قد خلق السماء و الأرض فى ستة مراحل؁ و لما كنا قد تحدثنا عن هذه المراحل الستة سابقا؁ فإننا لا نكرر الكلام هنا (٢).

ثم تصيف الآيه: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ . كلمه «العرش» تأتي أحيانا بمعنى السقف؁ و أحيانا بمعنى الشىء الذى له سقف؁ و تاره بمعنى الأسره المرتفعه؁ هذا هو المعنى الأصلى لها؁ أما معناها المجازى فهو القءره؁ كما نقول:

فلاذن تربع على العرش؁ أو تحطمت قوائم عرشه؁ أو أنزلوه من العرش؁ فكلها كناية عن تسلم القءره أو فقءانها؁ فى الوقت الذى يمكن أن لا يكون للعرش أو الكرسى وجود فى الواقع أصلا؁ و لهذا فإن اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ تعنى أن الله سبحانه قد أمسك بزمام أمور العالم (٣).

«التءبر» من مائه (التءبير) و فى الأصل من (ءبر) بمعنى الخلف و عاقبه الشىء؁ و على هذا فإن معنى التءبير هو التءقق من عواقب الأعمال؁ و تقيم المنافع؁ ثم العمل طبق ذلك التقييم. إذن؁ و بعد أن تبين أن الخالق و الموجد هو الله سبحانه؁ أتضح أن الأصنام- هذه الموءوءات الميته و العاجزه- لا- يمكن أن يكون لها أى تأثير فى مصير البشر؁ و لهذا قالت الآيه فى الجملة التاليه: مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ (٤).

ص: ٢٩٤

١- ١) من أجل مزيد التوضيح؁ و ذكر الأمثله فى هذا المجال راجع ذيل الآيه (٥٤) من سوره الأعراف.

٢- ٢) المصدر السابق.

٣- ٣) لمزيد التوضيح و الاطلاع على معانى العرش المختلفه؁ راجع تفسير الآيه (٥٤) من سوره الأعراف و (٢٥٥) من سوره البقره.

٤- ٤) لقد أوضحنا توضيحا كافيا مسأله الشفاعه المهمه فى المجلء الأول فى تفسير الآيه (٤٧) من سوره البقره.

و تتحدث الآيه التاليه- كما أشرنا- عن المعاد، و تبين في جمل قصار أصل مسأله المعاد، و الدليل عليها، و الهدف منها!.

فتقول أولاً: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً و بعد الاستناد إلى هذه المسأله المهمه و التأكيد عليها تضيف: وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ثُمَّ تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أَى إِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِي يَشْكُونَ فِي الْمَعَادِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى بَدْءِ الْخَلْقِ، فَإِنَّ مِنْ أَوْجَدِ الْعَالَمِ فِي الْبِدَايَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِيدَهُ مِنْ جَدِيدٍ. و قد مر بيان هذا الاستدلال بصورة أخرى في الآيه (٢٩) من سوره الأعراف ضمن جمله قصيره تقول: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ و قد سبق شرح ذلك في تفسير سوره الأعراف.

إِنَّ الآيات المرتبطه بالمعاد في القرآن توضح أَنَّ العله الأساسيه في تشكيك و تردد المشركين و المخالفين، هي أَنَّهُمْ كَانُوا يَشْكُونَ فِي إِمْكَانِ حَدُوثِ مِثْلِ هَذَا الشَّيْءِ، و كانوا يسألون بتعجب بَأَنَّ هذه العظام النخره التي تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياه و ترجع إلى حالتها الأولى؟ و لهذا نرى أَنَّ القرآن قد وضع إصبعه على مسأله الإمكان هذه و يقول: لا تنسوا أَنَّ الَّذِي يَبْعَثُ الْوُجُودَ مِنْ جَدِيدٍ، و يحيى الموتى هو نفسه الذي أوجد الخلق في البدايه.

ثُمَّ تَبَيَّنَ الْهَدَفُ مِنَ الْمَعَادِ بِأَنَّهُ لِمُكَافَأَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ حَيْثُ لَا تَخْفَى عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مَهْمَا صَغُرَتْ: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ أَمَا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ اخْتَارُوا طَرِيقَ الْكُفْرِ وَالْإِنْكَارِ، و لم تكن لديهم أعمال صالحه- لِأَنَّ الْإِعْتِقَادَ الصَّالِحَ أَسَاسَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ- فَإِنَّ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ و أنواع العقوبات بانتظارهم: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

و هنا نقطتان تسترعيان الانتباه:

١- لما لم يكن لله سبحانه و تعالى مكان خاص، و خاصه إذا علمنا أنه موجود

فى كل مكان فى جميع العوالم، و أنه أقرب إلنا منّا، فإنّ هذه الحقيقه قد جعلت المفسرين يفسرون إليه مَرَجِعُكُمْ جَمِيعاً فى هذه الآيه، و الآيات الأخرى فى القرآن، تفاسير مختلفه:

فقيل تاره أن المقصود هو أنكم ترجعون إلى جزاء الله سبحانه.

و ربّما اعتبر بعض الجاهلين هذا التعبير دليلا على تجسم الله سبحانه فى يوم القيامة، و بطلان هذه العقيدته أوضح من أن يحتاج إلى بيان و إثبات.

إلاّ أنّ الذى يبدو بدقه من خلال آيات القرآن الكريم، إنّ عالم الحياه كقافله تحركت من عالم العدم و تستمر فى مسيرتها اللانهائيه نحو اللانهايه التى هى ذات الله المقدسه، بالرغم من أنّ المخلوقات محدوده، و المحدود لا يمكن أن يكون لا نهائيا قط، غير أنّ سيره إلى التكامل لا يتوقف أيضا، و حتى بعد قيام القيامة فإنّ السير التكاملى سيستمر، كما أوضحنا ذلك فى بحث المعاد.

يقول القرآن الكريم: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا .

و يقول: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ .

و لما كان بدايه الحركه من جهه الخالق، حيث شعت منه أوّل بارقه للحياه، و أن هذه الحركه التكامليه-أيضا-تسير نحوه، فقد عبّرت الآيه بالرجوع. و بعبارة مختصره فإنّ هذه التعبيرات إضافه إلى أنّها تشير إلى أن بدايه حركه عامّة الموجودات من الله سبحانه، فإنّها تبين أيضا أنّ هدف هذه الحركه و غايتها، هى ذات الله المقدسه. و إذا لا حظنا أن تقديم كلمه «إليه» يدل على الحصر، سيّضح أن اى وجود غير ذات الله المقدسه لا يمكن أن يكون هدفا و غايه لهذه الحركه التكامليه لا الأصنام و لا اى مخلوق آخر، لأنّ كل هذه الوجودات محدوده، و مسير الإنسان مسير لا نهائى.

٢- إنّ كلمه «القسط» تعنى فى اللغه إعطاء سهم آخر، و لذلك فقد أخفى فيها

مفهوم العدل و الإنصاف. و اللطيف أنّ الآيه قد استعملت هذه الكلمه فى حق ذوى الأعمال الصالحه فقط، و لم تذكرها فى جزاء الكافرين و السيئى الأعمال، و ذلك لأنّ العذاب ليس على شكل الحصص و الأرباح، و بتعبير آخر فإنّ كلمه القسط تناسب الجزاء الحسن فقط، لا العقاب.

ص: ٢٩٧

اشاره

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)

التفسير

اشاره

جانب من آيات عظمه الله:

لقد مرّت في الآيات السابقة إشاره عابر إلى مسأله المبدأ و المعاد، إلا أن هذه الآيات و ما بعدها تبحث بصوره مفصله هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوه الأنبياء، و بتعبير آخر فإن الآيات اللاحقه بالنسبه للسابقه بمثابه التفصيل للإجمال.

لقد أشارت الآيه الأولى التي نبحثها إلى جوانب من آيات عظمه الله سبحانه في عالم الخلقه فقالت: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .

إن الشمس التي تعم العالم بنورها لا- تعطى النور الحراره للموجودات فحسب، بل هي العامل الأساس في نمو النباتات و تربيته الحيوانات، و إذا دققنا النظر رأينا

أن كل حركه على وجه الكره الأرضيه،حتى حركه الرياح و أمواج البحار و جريان الأنهار و الشلالات،هى من بركات نور الشمس،و إذا ما انقطعت هذه الأشعه الحياتيه عن كرتنا الأرضيه يوما فإنّ السكون و الظلمه و الموت سيخيم على كل شىء فى فاصله زمنيه قصيره.

و القمر بنوره الجميل هو مصباح ليالينا المظلمه،و لا تقتصر مهمته على هدايه المسافرين ليلا و إرشادهم إلى مقاصدهم،بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء و النشاط لكل سكان الأرض.

ثم أشارت الآيه إلى فائده أخرى لوجود القمر فقالت: **وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** أى إنكم لو نظرتم إلى القمر،و أنه فى أول ليله هلال رفيع، ثم يكبر حتى يكون بدرا فى ليله النصف من الشهر،و بعدها يبدأ بالنقصان التدريجى حتى اليوم أو اليومين الأخيرين حيث يغيب فى المحاق،ثم يظهر على شكل هلال من جديد و يدور إلى تلك المنازل السابقه،لعلمتم أن هذا الاختلاف ليس عبثا،بل إنه تقويم طبيعى دقيق جدّا يستطيع الجاهل و العالم قراءته،و يقرأ فيه تاريخ أعماله و أمور حياته (١).

ثم تضيف الآيه: إن هذا الخلق و الدوران ليس عملا غير هادف،أو هو من باب اللعب،بل **مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ**.

و فى النهايه تؤكد الآيه: **يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** إلا أنّ هؤلاء الغافلين و فاقدى البصيره بالرغم من أنهم يمرون كثيرا على هذه الآيات و الدلائل،إلا أنّهم لا يدركون أدنى شىء منها.

و تتطرق الآيه الثانيه إلى قسم آخر من العلامات و الدلائل السماويه و الأرضيه الداله على وجوده سبحانه،فتقول: **إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**

ص: ٢٩٩

١- ١) لقد بحثنا فى المجلد الثانى حول كون القمر تقويما طبيعيا يمكن من خلال حالاته المختلفه تعيين أيام الشهر بدقه (راجع تفسير الآيه ١٨٩ من سوره البقره).

فليست السماء و الأرض بذاتهما من آيات الله و حسب، بل إن كل واحده من الموجودات التي توجد فيهما تعتبر آيه بحد ذاتها، إلا أن الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سميت أرواحهم و صفت نتيجة لتقواهم و بعدهم عن المعاصي، و هم الذين يقدرون على رؤيه وجه الحقيقه و جمال المعشوق.

ملاحظات

اشاره

و هنا ملاحظات ينبغي الانتباه لها:

١- هناك نقاش طويل بين المفسرين في الفرق بين كلمتي الضياء و النور، فالبعض منهم اعتبرهما مترادفتين و أن معناهما واحدا، و البعض الآخر قالوا: إن الضياء استعمل في ضوء الشمس فالمراد به النور القوي، أما كلمه النور التي استعملت في ضوء القمر فإنها تدل على النور الأضعف.

الرأى الثالث في هذا الموضوع هو أن الضياء بمعنى النور الذاتى، أما النور فإنه أعم من الضياء و يشمل الذاتى و العرضى، و على هذا فإن اختلاف تعبير الآيه يشير إلى هذه النقطه. و هى أن الله سبحانه قد جعل الشمس منبعاً فواراً للنور، فى الوقت الذى جعل للقمر صفه الاكتساب، فهو يكتسب نوره من الشمس.

و الذى يبدو أن هذا التفاوت مع ملاحظه آيات القرآن، هو الأصح، لأننا نقرا فى الآيه (١٦) من سوره نوح: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً وَ فى الآيه (٦١) من سوره الفرقان، وَ جَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَ قَمَراً مُنيراً فإذا لاحظنا أن نور السراج ينبع من ذاته، و هو منبع و عين للنور، و أن الشمس قد شبهت فى الآيتين بالسراج، سيوضح أن هذا التفاوت مناسب جدا فى الآيات مورد البحث.

٢- هناك اختلاف بين أهل الكتاب و كتاب اللغه فى أن (ضياء) جمع أم مفرد،

فالبعض، كصاحب كتاب «القاموس»، اعتبرها مفردا، إلا أن البعض الآخر كالزجاج اعتبر الضياء جمعا للضوء، وقد قبل هذا المعنى صاحب تفسير «المنار» و تفسير «القرطبي»، وخاصة صاحب المنار، حيث استفاد على أساس هذا المعنى استفاده خاصه من الآيه، فهو يقول: إن ذكر الضياء بصيغه الجمع فى شأن نور الشمس إشاره إلى الشئ الذى أثبتته العلم اليوم بعد قرون، وهو أن نور الشمس مكون من سبعة أنوار، و بتعبير آخر سبعة ألوان، هى الألوان التى تظهر فى قوس قرح، و تلاحظ عند مرور النور عبر المنشير البلوريه.

و لكن يبقى هنا سؤال، و هو: هل أن نور القمر، رغم أنه أضعف، غير متكون من الألوان المختلفه؟ ٣- هناك بحث و نقاش بين المفسيرين فى أن ضمير قَدَرَهُ مَنَازِلَ يعود إلى القمر فقط، أم يرجع إلى الشمس و القمر؟ فالبعض يعتقد أن الضمير و إن كان مفردا، إلا أنه يعود إلى الإثنين معا، و نظير ذلك فى الأدب العربى غير قليل.

اختيار هذا الرأى من أجل أن القمر ليس الوحيد الذى له منازل، بل إن للشمس أيضا منازل، ففى كل وقت تكون فى برج خاص، و الاختلاف فى الأبراج هذا هو مبدأ التاريخ و الأشهر الشمسيه.

و الحق أن ظاهر الآيه يوحى بأن هذا الضمير المفرد يعود للقمر فقط، لقربه منه، و هذا بنفسه يحتوى على نكته، ذلك:

أولا: إنَّ الأشهر التى عرفت فى الإسلام و القرآن رسميا هى الأشهر القمريه.

ثانيا: إنَّ القمر كره متحركه و لها منازل، أما الشمس فإنَّها تقع فى وسط المنظومه الشمسيه، و ليس لها حركه ضمن مجموع هذه المنظومه، و إنَّ اختلاف الأبراج و مسير الشمس فى المدار الفلكى ذى الإثنى عشر برجا، و الذى يبدأ من الحمل و ينتهى بالحوت، ليس بسبب حركه الشمس، بل بسبب حركه الأرض حول الشمس، و دوران الأرض هذا هو السبب فى أن نرى الشمس تقابل كل شهر

واحدًا من البروج الفلكية الإثني عشر، و على هذا فليس للشمس منازل مختلفه خلافا للقمر. (دققوا جيدا).

إن هذه الآيه فى الحقيقه تشير إلى إحدى المسائل العلميه المرتبطه بالأجرام السماويه كانت خافيه على البشر فى ذلك الزمان حيث ما يدركوا هذا الفرق بين حركه الشمس و القمر.

٤- لقد عدت الآيات أعلامه اختلاف الليل و النهار من آيات الله سبحانه، و ذلك لأن نور الشمس إذا استمر فى إشعاعه على الأرض، فإن من المسلم أن درجه الحراره سترتفع إلى الحد الذى تستحيل معه الحياه على وجه الأرض.

و كذلك الليل إذا استمر فإن كل شىء سينجمد لشده البروده.

إلا أن الله سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئه أسباب الحياه و المعيشه على وجه الكره الأرضيه (١).

إن أثر العدد و الحساب و التاريخ و السنه و الشهر فى نظام حياه البشر و الروابط الاجتماعيه و المكاسب و الأعمال لا يخفى على أحد.

٥- إن مسأله العدد و الحساب التى أشير إليها فى الآيات أعلاه، هى فى الواقع واحده من أهم مسائل حياه البشر فى جميع النواحي و المجالات.

نعلم إن أهميه أیه نعمه تتضح أكثر عند ما نلاحظ الحياه بدون تلك النعمه، و على هذا فلو أن حساب التاريخ و امتياز الأيام و الأشهر و السنين رفع من حياه البشر، مثلا لا توجد أيام واضحه و محدده للأسبوع، و لا أيام الشهر، و لا عدد الشهور و السنين، ففى هذه الحاله ستتعرض كل المسائل التجارويه و الاقتصاديه و السياسيه و كل الاتفاقيات و البرامج الزمنيه المعده للخلل و عندها سوف لا يثبت حجر على حجر و ستفترط عقده النظم فى الأعمال، و حتى وضع الزراعه و تربيه الحيوانات و الصناعات الإنتاجيه ستعجزها الفوضى و الاضطراب.

ص: ٣٠٢

(١- ١) لقد أوردنا توضيحات أخرى حول هذا الموضوع فى المجلد الأول (راجع تفسير الآيه ١٦٤ من البقره).

لكن لما كان الله سبحانه قد خلق الإنسان ليحيا حياه سعيده مقرونه بالنظام، فإنه قد وضع وسائلها تحت تصرفه.

صحيح أن الإنسان يمكنه تنظيم أعماله إلى حد ما بالأمر الاعتباريه، إلا أنه إذا لم يستند إلى الميزان الطبيعي فإن مقياسه الجعلي لا يكون عاما و شاملا، و ليس قابلا للاعتماد.

إن دوران الشمس و القمر-و بتعبير أصح دوران الأرض حول الشمس- و المنازل التي لهما، يشكل تقويما طبيعيا واضح الأساس و يستفيد منه الجميع في كل مكان، و يعتمدون عليه، فكما أن مقدار اليوم و الليله يعتبر مقياسا تاريخيا صغيرا ينشأ نتيجة عالم طبيعي، أي حركه الأرض حول نفسها، فإن الشهر و السنه يجب أن تستند إلى دوران طبيعي، و على هذا المنوال فإن حركه القمر حول الأرض يشكل مقياسا أكبر، فإن الشهر يساوى ثلاثين يوما تقريبا، و حركه الأرض حول الشمس ينتج منها مقياس أعظم، و هو السنه.

قلنا: إن التقويم الإسلامى يستند إلى التقويم القمري و دوران القمر، و رغم أن دوران الشمس فى الأبراج الإثني عشر طريقه جيده لتعيين الأشهر الشمسيه، أن هذا التقويم مع أنه طبيعى، إلا أنه لا ينفع الجميع، و إنما يستطيع علماء النجوم فقط عبر رصد النجوم من تحديد كون الشمس فى البرج الفلانى، و لهذا السبب فإن الآخرين مجبورون على مراجعه التقاويم التي نظمت من قبل هؤلاء المنجمين. أن دوران القمر المنتظم حول الأرض يعطى تقويما واضحا يستطيع قراءه خطوطه و خرائطه حتى الأميون و سكان البوادي.

و توضيح ذلك إن هيئه القمر تختلف فى كل ليله فى السماء عن الليله السابقه و اللاحقه، بحيث لا توجد ليلتان فى طول الشهر تتحد فيها هيئه القمر فى السماء، و إذا دققنا قليلا فى وضع القمر كل ليله فإننا سنعتاد رويدا رويدا على تعيين تلك الليله من لياالى الشهر.

وقد يتصور البعض أن نصف الشهر الثّاني تتكرر في صور النصف الأوّل بعينها، وأنّ صورته القمر في ليله الإحدى والعشرين مثلا- هي بعينها صورته في الليله السابقه، إلا- أن هذا اشتباه كبير، لأنّ جانب النقص في القمر في النصف الأوّل هو الطرف الأعلى، في حين أنّ جانب نقصه في النصف الثّاني من الطرف الأسفل، وبتعبير آخر فإنّ أطراف الهلال الدقيقه تكون إلى الشرق في البدايه، بينما هي في الجانب الغربى عند أواخر الشهر، إضافة إلى أنّ القمر يرى في الغرب أوائل الشهر، أمّا في أواخره فإنّه يرى في الشرق، ويتأخر كثيرا في طلوعه. و على هذا فإنّه يمكن الاستفاده من شكل القمر مع تغييراته التدريجيّه كعداد يومى، و لتحديد أيام الشهر بدقه من خلال شكل القمر.

على كل حال، فإنّنا في هذه الموهبه التى نسميها «النظام التاريخى»، مدينون لهذا الخلق الإلهى، و لو لا حركات القمر و الشمس (و الأرض) لكان لنا وضع مضطرب و فوضوى فى الحياه لم يكن فى الحسبان تصوره.

إنّ السجناء فى الزنانات الانفراديه المظلمه، و الذين أضاعوا الزمان و الأوقات و لم يهتدوا إليها، قد أحسوا بهذه الحيره و عدم الهدفيه و التكليف.

يقول أحد السجناء فى عصرنا الحاضر الذى قضى شهرا فى زنانه انفراديه مظلمه لعملاء الظالمين: لم تكن لى أيه وسيله أو طريقه لتحديد أوقات الصلاه، إلا أنّهم عند ما كانوا يأتوننى بالغداء كنت أصلى الظهر و العصر، و إذا ما أتوا بالعشاء أصلى المغرب و العشاء، و صلاه الصبح عاده مع الفطور! و لكى أحسب الأيام فإنّنى كنت آخذ وجبات الطعام بنظر الإعتبار، فكل ثلاث وجبات أعدها يوما، غير أنى لا أعلم ماذا حدث عند ما خرجت من السجن، فقد رأيت اختلافا بين حسابى و حساب الناس!.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)

التفسير

اشاره

أهل الجنة والنار:

كما مرت الإشارة، فإن القرآن قد عرض في بدايه هذه السوره بحثا إجماليا عن موضوع المبدأ و المعاد، ثم بدأ بشرح هذه المسأله، ففي الآيات السابقه كان هناك شرح و بحث حول مسأله المعاد، و يلاحظ في هذه الآيات تفصيل حول المعاد و مصير الناس في العالم الآخر.

ففي البدايه يقول: إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا

فهم لا- يعتقدون بالمعاد و تجاهلوا الآيات البينات فلم يتدبروا فيها كما تستيقظ قلوبهم و يتحرك فيهم روح الاحساس بالمسؤوليه و الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ فكلا هاتين الطائفتين مصيرهم الى النار: أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

إنّ النتيجة الطبيعيه و الحتميه لعدم الإيمان بالمعاد هي الارتباط بهذه الحياه المحدوده و العلائق الماديه،و الاطمئنان بها و الاعتماد عليها،و نتيجه ذلك-أيضا- هو تلوث الأعمال و فساد السلوك في أنماط الحياه المختلفه،و لا تكون عاقبه ذلك إلاّ النار.

و كذلك فإنّ الغفله عن الآيات الإلهيه هي أساس البعد عن الله سبحانه، و الابتعاد عن الله هو العله لعدم الإحساس بالمسؤوليه و التلوث بالظلم و الفساد و المعصيه،و عاقبه ذلك لا تكون إلاّ النار.

بناء على هذا،فإنّ كلا- الفريقين أعلاه-أى الذين لا- يؤمنون بالمبدأ،أو لا- يؤمنون بالمعاد-سيكونان ملوثين حتما بالأعمال الذميه،و مستقبل كلا الفريقين مظلم.

إنّ هاتين الآيتين تؤكّدان مرّه أخرى هذه الحقيقه،و هي أنّ إصلاح مجتمع ما و إنقاذه من نار الظلم و الفساد،يتطلب تقويه ركنى الإيمان بالله و المعاد للذين هما شرطان ضروريان و أساسيان،فإنّ عدم الإيمان بالله سبحانه سيقتلع الإحساس بالمسؤوليه من وجود الإنسان،و الغفله عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، و على هذا فإنّ هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعيه.

ثمّ يشير القرآن إلى وضع فئه أخرى فى مقابل هذه الفئه،فيقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ فَإِنَّ نور الهدايه الإلهيه الذى ينبعث

من نور إيمانهم يضيء كل آفاق حياتهم، وقد اتضحت لهم الحقائق باسراقات هذا النور بحيث لم تعد شراك المذاهب المادية و زبارجها، ولا- الوسوس الشيطانية و بريق المطامع الدنيوية قادره على التعيم على افكارهم و دفعهم فى طريق الانحراف عن الصواب و الحق.

إِنَّ وَضِعَ هَؤُلَاءِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى أَنَّهُمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

إِنَّ هَؤُلَاءِ يَرْفَلُونَ فِي مَحِيطٍ مَمْلُوءٍ بِالصَّلْحِ وَالصَّفَاءِ وَ عَشَقِ اللَّهِ وَ أَنْوَاعِ النَّعْمِ، ففَى كُلِّ وَقْتٍ تَنْبُرُ وَجُودَهُمْ نَفْحَهُ وَ رَشْحَهُ مِنْ ذَاتِ اللَّهِ وَ صِفَاتِهِ، فَإِنَّ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ كَلِمَا التَّقَى بَعْضُهُمْ بِالْآخِرِ فَإِنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الصَّفَاءِ وَ السَّلَامِ وَ تَحِيَّتِهِمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرًا فَإِنَّهُمْ كُلَّمَا التَدَوُّوا بِنِعْمِ اللَّهِ الْمُخْتَلَفِ شَكَرُوا ذَلِكَ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

ملاحظات

١- المقصود من لقاء الله الذى جاء فى الآيه الأولى ليس هو اللقاء الحسى قطعاً، بل المقصود أن الإنسان إضافه إلى الحصول على الثواب و عطايا الله، فإنه يشعر يوم القيامة بنوع من الحضور القلبي بالنسبه للذات المقدسه، لأنه حينئذ سيري آيات الله و علاماته بصوره أوضح فى كل مكان، و سيحصل على رؤيه و إدراك جديد لمعرفته (١).

٢- إن الحديث فى قوله تعالى: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ عن هدايه الإنسان فى

ص: ٣٠٧

١- ١) لمزيد التوضيح راجع المجلد الأول من تفسيرنا هذا ذيل الآيه (٤٦) من سوره البقره.

ظل الإيمان، وهذه الهدايه لا- تختص بعالم الآخرة، بل إن الإنسان ينجو بنور إيمانه في هذه الدنيا من كثير من الاشتباهات و الخدع و الأخطاء و المعاصي المتولمه من الطمع و الأنانيه و الأهواء، و سوف يحدد طريقه إلى الجنه في الآخرة في ظل إشعاع هذا الإيمان كما يقول القرآن: **يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ (١)**.

و

في حديث عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورته حسنه فيقول له: أنا عملك، فيكون له نورا و قائدا إلى الجنه» (٢).

٣-ورد في هذه الآيات: **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ** في الوقت الذي عبرت آيات أخرى من القرآن ب **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ**، و بتعبير آخر، فإننا نقرأ في مواضع أخرى أن الأنهار تجري من تحت أشجار الجنه، أما هنا فإن الأنهار تجري من تحت أهل الجنه!

إن هذا التعبير يمكن أن يشير إلى أن قصور أهل الجنه قد تكون مبنيه على الأنهار، و هذا يضيف عليها جمالا خارقا.

و قد يشير إلى أن أنهار الجنه مسخره لأوامرهم و في قبضتهم، كما نقرأ في قصه فرعون أنه كان يقول: **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي (٣)**.

و قد احتمل كذلك أن تكون «تحت» بمعنى «بين أيدي» أي أن أنهار الماء تجري مقابلهم.

٤-مما يلفت النظر أن آخر آيه من الآيات قيد البحث تشير إلى ثلاث حالات، أو ثلاث نعم كبيره لأهل الجنه:

ص: ٣٠٨

١- (١) الحديد، ١٢.

٢- (٢) تفسير الفخر الرازي، الجزء ١٧، ص ٤٠.

٣- (٣) الزخرف، ٥٢.

الحاله الأولى:هى حاله التوجه إلى ذات الله المقدسه،و البهجه التى تحصل لهم نتيجة هذا التوجه لا- يمكن مقارنتها بأيه لذه أخرى.

الحاله الثانیه:الذله التى تحصل نتيجة الارتباط بالمؤمنين الآخرين فى ذلك المحيط المفعم بالودّ و التفاهم،و هذه اللذه هى أحلى لذه بعد لذه التوجه إلى الله سبحانه.

الحاله الثالثه:الذله التى تحصل من التمتع بأنواع نعم الجنّه،و هى تدفعهم إلى التوجه إلى الله أيضا،و بالتالى حمده و شكره.(فتأمل بدقه)

اشاره

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَيْتْ إِلَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

التفسير

اشاره

الهمج الزعاع:

الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الأولى بأن الله سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجله التى يجب بها هؤلاء تحصيل النعم و الخير، فستنتهى أعمار الجميع و لا يبقى لهم أثر: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَيْتْ إِلَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ. إلا- أن لطف الله سبحانه لما كان شاملا- لجميع العباد، حتى المسيئين و الكافرين و المشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم و جزائهم لعلهم يعون و يتوبون، و يرجعون عن الضلال إلى الحق و الهدى.

هذا إضافة إلى أنّ الجزاء إذا ما تمّ بهذه السرعة فإنه يعنى زوال حاله الاختبار التى هى أساس التكليف تقريبا، و ستصنف طاعه المطيعين بالجبر و الاضطرار، لأنهم بمجرد أن يعصوا فسيلاقون جزاءهم الأليم فورا.

و احتمال أيضا فى تفسير هذه الآيه أنّ جماعه من الكفار العنودين،الذين تحدث القرآن عنهم مرارا، كانوا يقولون للأنبياء:إذا كان ما تقولونه حقًا،فادعوا الله أن ينزل علينا البلاء،فإذا استجاب الله تعالى دعوه هؤلاء ما كان ليقى من هؤلاء أحد.

لكن يبدو أنّ التفسير الأوّل هو الأقرب.

و فى الختام تقول الآيه:يكفى عقابا لهؤلاء أن نتركهم و شأنهم ليقوا فى حيرتهم،فلا- هم يميزون الحق من الباطل، و لا- هم يجدون سبيل النجاه من متاهاتهم: فَندُرُ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

عند ذلك تشير الآيه إلى وجود نور التوحيد فى فطره الإنسان و أعماق روحه و تقول: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .

نعم...إنّ خاصيه المشاكل و الشدائد الخطيره،أنها تزيل الحجب عن فطره الإنسان الطاهره،و تحرق فى فرن الحوادث كل الطبقات السوداء التى غطت هذه الفطره،و يسطع عندها-و لو لمدّه قصيره-نور التوحيد.

ثمّ تقول الآيه:إنّ هؤلاء الأفراد الى درجه من الجهل و ضيق الأفق بحيث أنّهم يعرضون بمجرد كشف الضرّ عنهم،حتى كأنهم لم يدعونا و لم نساعدهم: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أمّا من الذى يزين لهم أعمالهم؟فقد بحثنا ذلك فى ذيل الآيه(١٢٢)من سوره الأنعام،و مجمل الكلام هو:

إنّ الله سبحانه هو الذى يزين الأعمال،و ذلك بجعل هذه الخاصيه فى الأعمال

القيح و المحرمه، بحيث أن الإنسان كلما تلوث بها أكثر، فإنه سيتطبع عليها، و بمرور الزمن يزول قبحها تدريجياً، بل و تصل الحال إلى أن يراها حسنه و جميله.

و أما لماذا سمّت الآيه أمثال هؤلاء «مُسرفين» فلائنه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال في وجوده، إلا و هو العمر و السلامه و الشباب و القوى، و يصرفه في طريق الفساد و المعصيه، أو في طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفانى، و لا يربح من ذلك شيئاً.

ألا يعد هذا العمل إسرافاً، و أمثال هؤلاء مسرفين؟ و هنا يجب الالتفات إلى نقطه مهمه:

الإِنسان في القرآن الكريم:

لقد وردت حول الإنسان تعبيرات مختلفه في القرآن الكريم:

فعبرت عنه آيات كثيره أنه «بشر» و عبرت عنه آيات متعدده بالإنسان، و في آيات أخرى «بنى آدم»، و العجيب أن في كثير من الآيات التي عبرت عنه بالإنسان، ذكرت صفاته المذمومه و غير الحميده.

فقد عرفته هذه الآيات بأنه موجود كثير النسيان و ناكث للجميل، و في آيه أخرى بأنه موجود ضعيف: وَ خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (١)، و في آيه أخرى بأنه ظالم و كافر: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٢)، و في موضع آخر أنه بخيل: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (٣)، و في موضع آخر أنه عجول: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (٤) و في مكان

ص: ٣١٢

١-١ (١) النساء، ٣٨.

٢-٢ (٢) إبراهيم، ٣٤.

٣-٣ (٣) الإسراء، ١٠٠.

٤-٤ (٤) الإسراء، ١١.

آخر أنه كفور: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (١)، و في مورد آخر أنه موجود كثير الجدل:

وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا

(٢)

و في موضع آخر أنه ظلوم جهول: إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٣)، و في مكان آخر أنه كفور مبين: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (٤)، و في مكان آخر أنه موجود قليل التحمل و الصبر، ييخل عند النعمة، و يجزع عند البلاء: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٥)، و في مورد آخر مغرور: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)، و في موضع آخر أنه موجود يطغى عند الغنى:

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى

(٧)

و بناء على هذا فإننا نرى القرآن المجيد قد عرّف الإنسان بأنه موجود يتضمّن جوانب و صفات سلبية كثيرة، و نقاط ضعف متعددة.

فهل أنّ هذا هو نفس ذلك الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم و أفضل تكوين: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٨)؟ و هل أنّ هذا هو نفس الإنسان الذي علمه الله ما لم يعلم: عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٩)؟

ص: ٣١٣

١- (٥) الإسراء، ٦٧.

٢- (٦) الكهف، ٥٤.

٣- (٧) الأحزاب، ٧٢.

٤- (٨) الزخرف، ١٩.

٥- (٩) المعارج، ١٩-٢١.

٦- (١٠) الانفطار، ٦.

٧- (١١) العلق، ٦.

٨- (١٢) سورة التين، ٤.

٩- (١٣) العلق، ٥.

و هل هو نفس الإنسان الذى علمه الله البيان: خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (١).

و أخيراً، فهل أنّ هذا هو الإنسان الذى حثّه الله على السعى و الكدح فى المسير إلى الله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا (٢).

يجب أن نرى من هم الذين تتكرّس فيهم كل نقاط الضعف هذه، بالرغم من كل هذه الكرامه و المحبه الإلهيه؟ الظاهر أنّ هذه المباحث تتعلق بمن لم ينشأ فى حجر القاده الإلهيين، بل نشأ و نما كما تنمو الأعشاب، فلا- معلم و لا دليل، و قد اطلق العنان لشهواته و غاص وسط الأهواء و الميول.

من الطبيعى أنّ مثل هذا الإنسان لا يستفيد من إمكاناته و ثرواته العظيمة، و يسخرها فى طريق الانحرافات و الأخطاء، و عند ذلك سيظهر كموجود خطر، و فى النهايه عاجز و بائس. و إلا فالإنسان الذى يستفيد من وجود القاده الإلهيين، و يستغل فكره فى مسير الحركه التكاملية و الحق و العدل، فإنّه يخطو نحو مرتبه الآدميه، و يستحق اسم «بنى آدم» و يصل إلى درجه لا- يرى فيها إلا الله سبحانه، كما يقول القرآن: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَا هُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَا هُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٣).

ص: ٣١٤

١- (١) الرحمن، ٣.

٢- (٢) الإنشاق، ٦.

٣- (٣) الإسراء، ٧٠.

اشاره

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

التفسير

اشاره

الإعتبار بالظالمين السابقين:

تشير هذه الآيات أيضا إلى معاقبه الأفراد الظالمين و المجرمين في هذه الدنيا، و قد نبهت المسلمين-بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم- إلى أنهم إذا سلخوا نفس طريق هؤلاء، فسيتنظروهم نفس المصير.

فالآية الأولى تقول: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ثُمَّ تَضِيفُ: كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

ثم تبين الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة، و تقول: ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

١- إن كلمة «قرون»-جمع قرن-تستعمل عادة بمعنى الزمان الطويل، ولكن حسب ما قاله علماء اللغة فإنها جاءت أيضا بمعنى القوم و الجماعة الذين يعيشون في عصر واحد، لأن مادتها الأصلية بمعنى الاقتران و القرب، و المراد هنا في هذه الآية هو المعنى الأخير، أي: الجماعات و الأقوام الذين يعيشون في عصر واحد.

٢- لقد ذكرت الآيات-أعلاه-أن سبب فناء و هلاك الأقوام السابقة هو الظلم، و ذلك لأن لفظ الظلم من المفهوم و المعنى الجامع ما يدخل ضمنه كل نوع من الذنب و الفساد.

٣- يستفاد من جملة: وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَهْلِكُ فَمَنْ يَشَاءُ يَهْلِكُ فقط أولئك الذين لا أمل في إيمانهم حتى في المستقبل، و على هذا فإن الأقوام التي يمكن أن تؤمن في المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب، لأن الفرق كبير بين أن يقال: لم يؤمنوا، و بين أن يقال: لم يكونوا يؤمنون (فتدبر).

٤- إن جملة لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ لا- تعنى النظر بالعين الباصرة قطعاً، و لا- تعنى التفكير و النظر القلبي، لأن الله سبحانه منزه عن كليهما، بل المراد منها أنها حاله شبيهه بالانتظار، أي إننا ستركم و أنفسكم ثم ننتظر ماذا تعملون؟

اشاره

وَ إِذِ اتَّخَذْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَالْيَوْمَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِنَا نَفْسِي إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُنْجِرُونَ (١٧)

سبب النزول

قال بعض المفسرين: إن هذه الآيات نزلت في عدّه نفر من عبده الأوثان، ذلك أنّهم أتوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و قالوا له: إن ما ورد في هذا القرآن من الأمر بترك عباده أصنامنا الكبيره، اللات و العزى و مناه و هبل، و ذم هذه الآلهه، ممّا لا يمكن أن نتحمّله، فإذا أردت أن تتبعك فأت بقرآن آخر لا يوجد فيه هذا الدم و التويخ

لآلهتنا، أو غير على الأقل هذه الأمور التي وردت في هذا القرآن! فنزلت هذه الآيات و أجابتهم.

التفسير

كتعقيب للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن المبدأ و المعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع و المسائل المتعلقة به.

في البدايه تشير إلى واحد من الاشتباهات الكبيره لعباد الأصنام، و تقول:

وَ إِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ

إن هؤلاء الجهله العاجزين لم يرضوا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم قائدا و مرشدا لهم، بل كانوا يدعون لاتباع خرافاتهم و أباطيلهم و يطلبون منه قرآنا يوافق انحرافاتهم و يؤيدها، لا أنه يصلح مجتمعهم، فبالاضافه الى أنهم لم يؤمنوا بالقيامه، و لم يشعروا بالاثم في مقابل أعمالهم كان قولهم هذا يدل على أنهم لم يفهموا معنى النبوه، أو أنهم كانوا يتخذونها هزوا.

إن القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء الى هذا الاشتباه الكبير، و يأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يقول لهم: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي (١) ثم يضيف للتأكيد: إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ. و لست عاجزا عن تغيير أو تبديل هذا الوحي الإلهي - فحسب - بل: إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

ثم تتطرق الآيه التاليه إلى دليل هذا الموضوع و تقول: قل لهم بآني لست مختارا في هذا الكتاب السماوي: قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ وَ الدليل على ذلك فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ لَكِنَّمَا لَمْ تَسْمَعُوا مِنِّي مِثْلَ هَذَا

ص: ٣١٨

١ - ١) كلمه (تلقاء) مصدر أو اسم مصدر و جاءت بمعنى المقابله و المحاذاه، و في الآيه و أمثالها بمعنى الناحيه و العنديه و الجهه، أي إنني لا أستطيع تغيير ذلك من ناحيتي، أو من عندي.

الكلام مطلقاً، و لو كانت هذه الآيات من عندى لتحدثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أمراً بهذه الدرجة من الوضوح: أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

و كذلك، و من أجل التأكيد يضيف: بأننى أعلم أن أقبح أنواع الظلم هو أن يفترى الإنسان على الله الكذب: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً و على هذا فكيف يمكن أن ارتكب مثل هذا الذنب الكبير؟!.

و كذلك فإنّ التكذيب بآيات الله سبحانه من أشدّ الكبائر و أعظمها: أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ فَإِذَا كُنتُمْ جَاهِلِينَ بِعَظَمَتِهِ مَا تَرْتَكِبُونَهُ مِنَ الْإِثْمِ فِي تَكْذِيبِ و إنكار آيات الحق، فإننى لست بجاهل بها، و على كل حال فإنّ عملكم هذا جرم كبير، و إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ .

ملاحظات

١- إنّ المشركين كانوا يطلبون من النبي صلى الله عليه و آله و سلّم إما أن يستبدل القرآن بكتاب آخر، أو يبدله، و الفرق واضح بين الاثنين، ففي الطلب الأوّل كان هدفهم هو اقتلاع وجود هذا الكتاب تماماً ليحل محله كتاب آخر من طرف النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، أمّا في الطلب الثّانى فكانوا يريدون على الأقل أن تبدل الآيات التى تخالف أصنامهم حتى لا يشعروا بأى ضيق و انزعاج من هذه الناحية.

و نحن نرى كيف أنّ القرآن الكريم أجابهم بلهجه قاطعه بأنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم ليس له أى اختيار و تصرف فى التبديل، و لا التغيير، و لا تسريع نزول الوحي أو تأخره.

و ندرّك من ذلك حماقه و غباء هؤلاء فهم يقبلون بالنبي الذى يتبع خرافاتهم و أهواءهم، لا القدوه و المربى و القائد و الدليل!.

٢- ممّا يستحق الانتباه، أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلّم فى الإجابة عن الطلبين اكتفى بذكر عدم قدره بتنفيذ الطلب الثّانى و قال: إِنِّى لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِى، و بهذا

البيان يكون قد نفى الطلب الأوّل بطريق أولى، لأنّ تغيير بعض الآيات إذا كان خارجا عن حدود صلاحية النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، فهل بإمكانه تبديل كل هذا الكتاب السماوي؟ إنّ هذا نوع من الفصاحة في التعبير، حيث أنّ القرآن الكريم يعيد و يكرر كل المسائل في غايه الضغط و الاختصار في العبارة، بدون جملة أو كلمه زائده إضافيه.

٣- يمكن أن يقال: إنّ الدليل المذكور في الآيات-أعلاه-على أنّ القرآن ليس من النبي صلى الله عليه و آله و سلّم، و أنّه حتما من الله سبحانه، ليس مقنعا. فما هو وجه الملازمه في أنّ هذا الكتاب إذا كان من النبي صلى الله عليه و آله و سلّم فلا بدّ أن يكون قد سمعت منه نماذج و مقاطع من قبل؟ إلاّ أنّ جواب هذا السؤال واضح بأدنى دقه و تأمل، لأنّ النبوغ الفكري و قدره و الاكتشاف و الإبداع في الإنسان-حسب ما قاله علماء النفس-يبدأ من سن العشرين و يصل كحد أقصى إلى سن الخامسة و الثلاثين أو الأربعين، أي إن الإنسان إذا لم يقدم حتى ذلك الوقت على إبداع و ابتكار عمل جديد، فلا يمكنه بعد هذا السن غالبا.

إنّ هذا الموضوع الذي يعتبر اليوم كشفا نفسيا لم يكن في الماضي واضحا إلى هذا الحدّ، إلاّ- أنّ أغلب الناس يعلمون هذا الموضوع بهدائه الفطره، بأن من غير الممكن أن يكون للإنسان معتقد و يعيش بين قوم، و لا يظهر ذلك مطلقا. و القرآن الكريم قد استند أيضا إلى هذا الأساس و هو: كيف يستطيع النبي صلى الله عليه و آله و سلّم إلى هذا العمر أن يمتلك مثل هذه الأفكار و يكتمها الى ذلك الوقت؟ ٤- كما أشرنا في ذيل الآيه (٢١) من سوره الأنعام، فإنّ القرآن قد عرّف في موارد كثيره جماعه من الناس بأنّهم «أظلم» و ربّما يبدو لأوّل وهله أن هناك تناقضا، فإنّا إذا وصفنا جماعه بأنّهم أظلم، فكيف يمكن أن تتقبل مجموعه أخرى

هذه الصفه؟ وقد قلنا فى جواب هذا السؤال: إنَّ كل هذه العناوين ترجع إلى عنوان واحد، و هو مسأله الشرك و الكفر و العناد و الافتراء و التكذيب بالآيات الإلهيه، و فى الآيات التى نبثها، تنحدر من هذا الأصل أيضا. (لمزيد التوضيح راجع تفسير الآيه (٢١) من سوره الأنعام).

ص: ٣٢١

اشاره

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَتَّبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)

التفسير

اشاره

آله بدون خاصيه!

واصلت الآيه الحديث عن التوحيد أيضا، وذلك عن طريق نفي ألوهيه الأصنام، و ذكرت عدم أهليه الأصنام للعباده و انتفاء قيمتها و أهميتها: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ .

من البديهي أن الأصنام-حتى لو فرضنا أنها منشأ الضر و النفع و الربح و الخساره-ليست لها لياقه أن تكون معبوده، إلا أن القرآن الكريم يريد بهذا التعبير أن يوضح هذه النقطة، و هي أن عبده الأصنام لا يمتلكون أدنى دليل على صحه هذا العمل، و يعبدون موجودات لا خاصيه لها مطلقا، و هذه أقبح و أسوأ عباده.

ثم تتطرق إلى ادعاءات عبده الأوثان الواهيه، وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ

أى إن هذه الأصنام والآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سببا للضرر و النفع رغم عجزها عن أى عمل بصورة مستقلة.

لقد كان الاعتقاد بشفاعه الأصنام أحد أسباب عبادتها، و كما جاء فى التواريخ، فإن عمرو بن لحي كبير العرب عند ما ذهب إلى المياه المعدنية فى الشام لمعالجه نفسه بها، جلب انتباهه وضع عبده الأصنام، و لما سأل منهم عن الباعث على هذا العمل و العباده، قالوا له: إن هذه الأصنام هى سبب نزول الأمطار، و حل المشاكل، و لها الشفاعه بين يدى الله، و لما كان رجلا خرافيا وقع تحت تأثير هذه الأجوبه، و طلب منهم بعض الأصنام ليأخذها إلى الحجاز، و عن هذا الطريق راجت عباده الأصنام بين أهل الحجاز.

إن القرآن يقول فى دفع هذا الوهم: قُلْ أَ تَبْتُؤْنَ بِاللَّهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ كِنَايَه عَنْ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَوْ كَانَ لَهُ مِثْل هَؤُلَاءِ الشَّفَعَاءِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ بِوُجُودِهِمْ فِي أَي نَقْطَه كَانُوا مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، لِأَنَّ سَعَه عِلْمَ اللَّهِ لَا تَدَعُ أَصْغَرَ ذَرَه فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا وَ تَحِيطُ بِهَا عِلْمًا.

و بتعبير آخر، إن ذلك يشبه تماما ما لو قيل لشخص: أ عندك مثل هذا الوكيل؟ و هو فى الجواب يقول: لا علم لى بوجود هذا الوكيل، و هذا أفضل دليل على نفيه حيث لا يمكن أن لا يعلم الإنسان بوكيله.

و فى آخر الآيه تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

لقد بحث موضوع الشفاعه بصورة مفصله فى المجلد الأول ذيل الآيه (٤٦) من سوره البقره.

اشاره

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

التفسير

إن هذه الآيه-تتمه للبحث الذى مرّ فى الآيه السابقه حول نفى الشرك و عباده الأصنام-تشير إلى فطره التوحيد لكل البشر، و تقول: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً .

إن فطره التوحيد هذه، و التى كانت سالمه فى البدايه، إلا أنها قد اختلفت و تلوّثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضيقه، و الميول الشيطانيه و الضعف، فانحرف جماعه عن جاده التوحيد و توجهوا إلى الشرك، و قد انقسم المجتمع الإنسانى إلى قسمين مختلفين: قسم موحد، و قسم مشرك: فَاخْتَلَفُوا .بناء على هذا فإنّ الشرك فى الواقع نوع من البدعه و الانحراف عن الفطره، الانحراف المترشح من الأوهام و الخرافات التى لا أساس لها.

و قد يطرح هنا هذا السؤال، و هو: لماذا لا- يرفع الله هذا الاختلاف بواسطه عقاب المشركين السريع، ليرجع المجتمع الإنسانى جميعه موحدًا؟ و يجيب القرآن الكريم مباشره عن هذا السؤال بأنّ الحكمة الإلهيه تقتضى

حرية البشر في مسير الهدايه،فهى رمز التكامل و الرقى،ولو لم يكن أمره كذلك فإنّ الله سبحانه كان سيقضى بينهم فى اختلافاتهم: **وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .**

بناء على هذا فإنّ كَلِمَةٌ فى الآيه إشاره إلى السنّه و قانون الخلقه الذى يقتضى حرية البشر،لأنّ المنحرفين و المشركين لو كانوا يعاقبون سريعا و مباشره، فإنّ إيمان الموحدين سيكون اجباريا و نتيجة للخوف و الرهبه،و مثل هذا الإيمان لا يعدّ فخرا.و لا دليلا على التكامل،و الله سبحانه قد أجل العقاب و الجزاء لعالم الآخره لىتتخب الصالحون و الطاهرون طريقهم بحريه تامه.

ص: ٣٢٥

اشاره

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

التفسير

اشاره

المعجزات المقترحه!

مره أخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان و الإسلام و يقولون لولا أنزل عليه آية من ربه .

من الطبيعي، و بدليل القرائن التي سنشير إليها بعد حين، أن هؤلاء لم يقصدوا أي معجزه، لأن من المسلم أنه كان للنبي صلى الله عليه و آله و سلم إضافة إلى القرآن معاجر أخرى، و تاريخ الإسلام و بعض الآيات القرآنيه شاهده على هذه الحقيقه.

إن هؤلاء كانوا يظنون أن الإعجاز أمر بيد النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و هو يستطيع أن يقوم به في أي وقت و بأيه كيفيه يريد، مضافا الى أنه مأمور أن يستفيد من هذه القوه مقابل كل مدع لجوج معاند و العمل حسب ميله لإقناعه و إقامة الحججه عليه، و لهذا فإن القرآن الكريم يأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم مباشرة: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ و بناء على هذا، فإن المعجزه ليست بيدي لآ-تيكم كل يوم بمعجزه جديده إرضاء لأهوائكم و حسب ميولكم و رغباتكم، ثم لا تؤمنون بعد ذلك بأعدار واهيه و حجج ضعيفه.

و فى النهايه تقول الآيه بلهجه التهديد: فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فانظروا العقاب الإلهى، و أنا أنتظر النصر! أو كونوا بانتظار ظهور مثل هذه المعجزات، و أكون بانتظار عقابكم أيها المعاندون!.

ملاحظتان

إشارة

و هنا ملاحظتان ينبغى الالتفات إليهما:

١- كما أشرنا أعلاه فإنّ كلمه (آيه) أى المعجزه-و إن كانت مطلقه و تشمل كل أنواع المعاجز-إلا أنّ القرائن تبين أنّ هؤلاء لم يطلبوا المعجزه لمعرفة صدق النبى صلى الله عليه و آله و سلّم، بل كانوا طلاب معاجز اقتراحيه، أى إنّهم كانوا كل يوم يقترحون على النبى صلى الله عليه و آله و سلّم معجزه جديده و يأملون أن يطيعهم فى ذلك، فكأنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلّم إنسان لا عمل له سوى صنع المعجزات، و هو منتظر لكل من هبّ و دبّ ليقترح عليه شيئاً فيحقق له اقتراحه، غافلين عن أن المعجزه هى من فعل الله سبحانه أولاً، و لا تتم إلا بأمره و إرادته، و هى -ثانياً- معجزه لمعرفة أحقيّه النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و الاهتداء به، و وقوعها مرّه واحده كاف لهذا الغرض، و علاوه على ذلك فإنّ نبى الإسلام قد أظهر من المعجزات القدر الكافى، فطلب المزيد لا يكون إلا بدافع الاقتراحات الأهوائيه و الشهوانيه.

و الشاهد على أنّ المقصود من (الآيه) هنا المعجزات الاقتراحيه، هو:

أولاً: إنّ نهايه الآيه تهدد هؤلاء، و لو كانوا يطلبون المعجزه لاكتشاف الحقيقه، فلا وجه لهذا التهديد.

ثانياً: رأينا قبل عدّه آيات أن هؤلاء كانوا عنودين و لجوجين إلى الحد الذى اقترحوا فيه على النبى صلى الله عليه و آله و سلّم أن يبدل كتابه السماوى، أو يغير على الأقل الآيات

التي تشير إلى نفى عباده الأصنام.

ثالثا: حسب القاعده المسلمه لدينا بأن «القرآن يفسر بعضه بعضا» فإننا نستطيع أن نفهم جيدا من خلال بعض الآيات- كالأيات (٩٠) و(٩٤) من سوره الإسراء- أن عبده الأصنام اللجوجين هؤلاء، لم يكونوا طلاب معجزه لأجل الهدايه، و لهذا نراهم كانوا يقولون أحيانا: نحن لن نؤمن لك حتى تفجر العيون من هذه الأرض اليابسه، و يقول الآخر: إن هذا ليس بكاف، بل يجب أن يكون لك بيت من ذهب، و ثالث يقول: و هذا أيضا لا يقنعنا حتى ترقى في السماء أمام أعيننا، و يضيف رابع أن هذا الرقى في السماء ليس كافيا أيضا إلا إذا أتيتنا بكتاب من الله لنا!! و أمثال ذلك من السفاسف و الخزعبلات.

إذن، فقد اتضح ممّا قلنا أعلاه أنّ الاستدلال بهذه الآيه على نفى أيه معجزه، أو كل المعجزات غير القرآن الكريم زيف يجانب الحقيقه، (و ستطالعون- إن شاء الله مزيدا من التوضيح حول هذا الموضوع في ذيل الايه (٥٩) من سوره الإسراء).

٢- يمكن أن تكون كلمه «الغيب» في جمله: **إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ إِشَارَةٌ** إلى أنّ المعجزه أمر مربوط بعالم الغيب، و ليست من اختيارات الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم، بل هي مختصه بالله تعالى.

أو أن تكون إشاره إلى أن مصالح الأمور و الوقت المناسب لتزول المعجزه هي جزء من أسرار الغيب و مختصات الله سبحانه، فمتى رأى أن الوقت مناسب لتزول المعجزه، و أنّ طالب المعجزه باحث عن الحقيقه، أنزل المعجزه، لأنّ الغيب و الأسرار الخفيه من مختصات ذاته المقدسه.

إلا أنّ التفسير الأوّل يبدو أقرب للصواب.

إشاره

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ لِيَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

التفسير

يدور الكلام فى هذه الآيات- أيضا- حول عقائد و أعمال المشركين، ثم دعوتهم إلى التوحيد و نفى كل أنواع الشرك.

فألايه الأولى تشير إلى بعض سلوكيات المشركين الحمقاء، و تقول: أننا عند ما

نبتلى الناس بالمشاكل و النكبات من أجل إيقاظهم و تنبيههم، ثم نرفع هذا البلاء عنهم و نذيقهم طعم الراحة و الهدوء بعد تلك الضراء، فإنهم بدلا من أن ينتبهوا لهذه الآيات و يرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسرونها بتفسيرات غير صحيحة، فمثلا يفسرون الابتلاءات و المشاكل بأنها نتيجة غضب الأصنام، و النعم و الطمأنينه بأنها دليل على شفقتها، أو أنهم يعدون كل هذه الأمور صدفه محضه:

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا

إن كلمة «مكر» فى الآيه أعلاه، و التى تعنى بشكل عام أعمال الفكر، تشير إلى التوجيهات الخاطئه و طرق التهزّب التى يفكر بها المشركون عند مواجهه الآيات الإلهيه، و ظهور أنواع البلايا و النعم.

إِلَّا أَنْ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ حَذِرَ هَوْلَاءَ بِوَأَسْطِهِ نَبِيَّهِ، وَ أَمْرَهُ أَنْ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا.

و كما أشرنا مرارا، الى أنّ المكر فى الأصل هو كل نوع من التخطيط المقترن بالعمل المخفى، لا المعنى الذى يفهم من هذه الكلمه اليوم، و هو الاقتران بنوع من الشيطنه، و على هذا فإنه يصدق على الله سبحانه كما يصدق على العباد (1). لكن ما هو مصداق المكر الإلهى فى هذه الآيه؟ الظاهر أنّها إشاره إلى نفس تلك العقوبات الإلهيه التى يحلّ بعضها فى نهايه الخفاء و بدون أيه مقدمه و بأسرع ما يكون، بل إنه يعاقب و يعذب بعض المجرمين بأيديهم أحيانا. و من البديهي أن من هو أقدر من الكل و أقوى من الجميع على دفع الموانع و تهيته الأسباب، ستكون خططه-أيضا-هى الأسرع. و بتعبير آخر فإنّ الله سبحانه فى أى وقت يريد أنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإنّ هذا العقاب سيتحقق مباشرة، فى حين أن الآخرين ليسوا كذلك.

ثم يهدد هؤلاء بأن لا تظنوا أنّ هذه المؤامرات و الخطط ستنسى، بل إنّ رسلنا- أى الملائكه- يكتبون كل هذه المخططات التى تهدف إلى إطفاء نور الحق:

ص: ٣٣٠

١- ١) لمزيد التوضيح راجع المجلد الثانى من تفسيرنا هذا، ذيل الآيه (٥٤) من سوره آل عمران.

إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ

و لذلك يجب أن تهيئوا أنفسكم للجواب و العقاب فى الحياه الأخرى.

و سنبحث كتابه الأعمال و الملائكة المأمورين بها فى الآيات المناسبه.

و تغوص الآيه التاليه فى أعماق فطره البشر، و توضح لهؤلاء حقيقه التوحيد الفطرى، و كيف أن الإنسان عند ما تلم به المشاكل الكبيره و فى أوقات الخطر، ينسى كل شىء إلا الله تبارك و تعالى و يتعلق به، لكنّه بمجرد أن يرتفع البلاء و تزول الشده و تحل المشكله، فإنه سيسلك طريق الظلم و يتعد عن الله سبحانه.

تقول الآيه: هُوَ الَّذِي يُسَبِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَ نَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ فِى هَذَا الْحَالِ بِالضَّبْطِ تَذَكَّرُوا اللَّهَ وَ دَعَوْهُ بِكُلِّ إِخْلَاصٍ وَ بَدُونِ أَيِّ شَائِبَةٍ مِنَ الشَّرِكِ، وَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَيَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ فِى هَذَا الْوَقْتِ لِلدَّعَاءِ: لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فلا نظلم أحدا و لا نشرك بعبادتك غيرك.

و لكن ما أن أنجاهم الله و أوصلهم إلى شاطئ النجاه بدؤوا بالظلم و الجور:

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

لكن يجب أن تعلموا-أيها الناس -إن نتيجه ظلمكم ستصيبكم أنتم يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم و آخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلا فى هذه الدنيا: مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (١) ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

ص: ٣٣١

(١-١) إن كلمه (متاع) منصوبه بفعل مقدر، و فى الأصل كانت: تتمتعون متاع الحياه الدنيا.

و هنا يجب الالتفات إلى عدّه ملاحظات:

١- إنّ ما قرأناه في الآيات أعلاه غير مختص بعبده الأوثان، بل هو قانون كلي ينطبق على كل الأفراد الملوّثين من عبيد الدنيا المشغوفين بها فعند ما تحيط بهم أمواج البلايا و المحن و تقصر أياديهم عن كل شىء، و لا يرون لهم ناصرا و لا معينا، فإنّهم سيمدون أيديهم بالدعاء بين يدي الله سبحانه و يعاهدونه بألف عهد و ميثاق، و يندرون و يقطعون العهود بأنّهم إن تخلصوا من هذه البلايا و الأخطار سيفعلون كذا و كذا.

إلا أنّ هذه اليقظه و الوعي التي هي انعكاس لروح التوحيد الفطري، لا تستمر طويلا عند أمثال هؤلاء، فبمجرّد أن يهدأ الطوفان و تنقش سحب البلاء، فإنّ حجب الغفله ستغشى قلوبهم، تلك الحجب الكثيفه التي لا تنقش عن تلك القلوب إلا بالطوفان.

و رغم أنّ هذه اليقظه مؤقتة، و ليس لها أثر تربوي في الأفراد الملوّثين جدّا، أنّها تقيم الحجّه عليهم، و ستكون دليلا على محكوميتهم.

أمّا الذين تلوّثوا بالمعاصي قليلا، فإنّهم سيتنبهون في هذه الحوادث و يصلحون مسارهم. و أمّا عباد الله الصالحون فأمرهم واضح، فإنّ توجيههم إلى الله سبحانه في السراء بنفس قدر توجيههم إليه في الضراء، لأنّهم يعلمون أن كل خير و بركه تصل إليهم، و تبدو ظاهرا أنّها نتيجة للعوامل الطبيعیه، فإنّها في الواقع من الله تعالى.

و على كل حال، فإنّ هذا التذكير و التذكّر قد جاء كثيرا في آيات القرآن المجيد.

٢- لقد ذكرت «الرحمه» في الآيات أعلاه مقابل «الضراء»، و لم تذكر السراء، و هي إشارة إلى أنّ أي حسن و نعمه تصل إلى الإنسان فهي من الله سبحانه و رحمته اللامتناهيه. في حين أنّ السوء و النقمات إذا لم تكن للعبه، فإنّها من آثار أعمال

٣- إنَّ الضمائر في بدايه الآيه الثانيه من الآيات التي نبحتها وردت بصيغه المخاطب، إلاَّ أنَّها في الأثناء بصيغه الغائب، و من المسلم أن لذلك نكته ما:

قال بعض المفسرين: إنَّ تغيير أسلوب الآيه من أجل أنَّها تبين حال المشركين و تعرضهم في الحال ابتلائهم بالطوفان و البلاء درسا و عبره للآخرين، و لهذا فإنَّها فرضتهم غائبين و فرضت الباقيين حضورا.

و قال البعض الآخر: إنَّ النكته هي عدم الاعتناء بهؤلاء و تحقيرهم، حيث أن الله سبحانه قد قبل حضور هؤلاء و خاطبهم. ثمَّ أبعدهم عنه و تركهم.

و يحتمل أيضا أن تكون الآيه بمثابة تجسيم طبيعي عن وضع الناس، فما داموا جالسين في السفينه و لم يتعدوا عن الساحل فإنَّهم في إطار المجتمع، و على هذا يمكن أن يكونوا مخاطبين، أمَّا عند ما تبعدهم السفينه عن الساحل، و يختفون عن الأنظار تدريجيا، فإنَّهم يعتبرون كالغائبين، و هذا في الواقع تجسيم حي لحالتين مختلفتين عند هؤلاء.

٤- إنَّ جملة أُحِيطَ بِهِمْ تعنى أن هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمه من كل جانب، إلاَّ أنَّها هنا كناية عن الهلاك و الفناء الحتمي لهؤلاء.

اشاره

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

التفسير

اشاره

لوحة الحياه الدنيا:

مرّت الإشاره فى الآيات السابقه إلى عدم استقرار و دوام الحياه الدنيا، فى الآيه الأولى من الآيات التى نبحثها تفصيل لهذه الحقيقه ضمن مثال لطيف و جميل لرفع حجب الغرور و الغفله من أمام نواظر الغافلين و الطغاه إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .

إنّ قطرات المطر هذه تسقط على الأراضى التى لها قابليه الحياه. و بهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التى يستفيد من بعضها الإنسان، و من بعضها

الآخر الحيوانات فَاحْتَلَطَ بِهِ لَبِاتٌ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ .

إنّ هذه النباتات علاوه على أنّها تحتوى على الخواص الغذائية المهمّة للكائنات الحيّة الأخرى، فإنّها تغطى سطح الأرض و تضيف عليها طابعا من الجمال حتّى إذا أَحَدَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ أَزْيَنَتْ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ حَيْثُ تَتَفَتَحُ الْجَنَابِذُ وَ تَوْرُقُ أَعَالَى الْأَشْجَارِ وَ تعطى ذلك المنظر الزاهى و تبتسم الأزهار و تتلألأ- الأعشاب تحت أشعه الشمس، و تتمايل الأغصان طربا مع النسيم، و تظهر حبات الغذاء و الأثمار أنفسها شيئا فشيئا و تجسم جانبا دائب الحركة من الحياه بكل معنى الكلمه، و تملأ القلوب بالأمل، و العيون بالسرور و الفرح، بحيث وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا .. فى هذه الحال و بصوره غير مرتقبه يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارس، أو ثلوج كثيره، أو إعصار مدمر، و نجعلها كأنّ لم تكن شيئا مذكورا أتأها أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصَّةً يَدًا كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ .

لَمْ تَعْنِ

مأخوذه من ماده (غنا) بمعنى الإقامة فى مكان معين، و على هذا فإنّ جملة لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ تعنى أنّها لم تكن بالأمس هنا، و هذا كناية عن فناء الشئء بالكلية بصوره كأنه لم يكن له وجود مطلقا!!.

و للتأكيد تقول الآية فى النهايه: كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

إنّ ما ذكر أعلاه تجسيم واضح و صريح عن الحياه الدنيويه السريعه الانقضاء و الخداعه، و المليئه بالتراويق و الزخارف، فلا دوام لثرواتها و نعيمها، و لا- هى مكان أ من و سلامه. و لهذا فإنّ الآيه التاليه أشارت بجملة قصيره إلى الحياه المقابله لهذه الحياه، و قالت: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ .

فلا- وجود و لا خبر هناك عن مطاحنات و اعتداءات المتكالبين على الحياه الماديه، و لا حرب و لا إراقه دماء و لا استعمار و لا استثمار، و كل هذه المفاهيم قد جمعت فى كلمه دار السلام.

و إذا تلبست الحياه فى هذه الدنيا بعقيده التوحيد و الايمان بالمبدأ و المعاد،

فإنها ستتبدل أيضا إلى دار السلام، ولا تكون حينئذ كالمزرعة التي أتلّفها البلاء و الوباء.

ثمّ تضيف الآية: إنّ الله سبحانه يهدى من يشاء-إذا كان لائقا لهذه الهدايه-إلى صراطه المستقيم، ذلك الصراط التي ينتهي إلى دار السلام و مركز الأمن و الأمان و يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

ملاحظات

١-لما كان القرآن كتاب تربيّه و تكامل للإنسان،فإنّه يستعين بالأمثله لتوضيح الحقائق العقلية في كثير من الموارد، و قد يجتهد المواضيع التي لها امتداد زمني طويل في مسرحيه و تمثليه قصيره و قابله للمطالعه أمام أعين الناس.

إنّ متابعه تأريخ ملء بالحوادث يتعلق بإنسان ما،أو جيل ما،و الذي قد يطول لمائه سنه أحيانا ليس بالأمر الهين بالنسبه للأفراد العاديين،أما عند ما تلخص هذه الساحة و الحياه في عدّه أشهر،كما هو الحال في حياه كثير من النباتات،من الولاده إلى الرشد و النمو و الجمال،ثمّ الهلاك و الموت،و تظهر أمام الإنسان،فإنّه يستطيع أن يرى ببساطه مراحل حياته و كيفيتها في هذه المرآه الشفافه.

جسموا هذه اللقطات أمام أعينكم تماما:حديقه مليئه بالأشجار و الخضره و النباتات الدائمه الثمر،و صخب الحياه يعم كل أرجائها...و فجأه في ليله مظلمه، أو يوم صحو تغطى السحب السوداء وجه السماء،و ترعد و تبرق ثمّ تهب الأعاصير العاتيه و تنهمر الأمطار الشديده من كل جانب و تدمرها.

غدا نأتى لرؤيه تلك الحديقه...الأشجار متكسره...النباتات و الأعشاب مبعثره و ميته،و كل شيء أمامنا ملقى على الأرض بصوره لا نصدق معها أنّ هذه هي تلك الحديقه الغنّاء الجميله التي كانت تبتسم في وجوهنا بالأمس!.

نعم، هكذا هي الحوادث في حياة البشر، خصوصا في عصرنا الحاضر حيث تدمر زلزاله أو حرب لا تطور إلا ساعات قليلة مدينه عامره و جميله، ولا تبقى منها إلا الأنقاض. و أجساد متناثره هنا و هناك.

آه... ما أشد غفله الذين يفرحون بمثل هذه الحياه الزائله الفانيه؟! ٢- في جملة فَأَخْتَلَطَ بِهِ لَبِائُتُ الْمَأْرُضِ ينبغى الالتفات إلى أنّ الاختلاط في الأصل- كما قال الراغب في المفردات- هو الجمع بين شيئين أو أكثر، سواء كانت سائله أو جامده. و الاختلاط أعم من الامتزاج، لأن الامتزاج يطلق عادة على السوائل، و على هذا يكون معنى الجملة أنّ النباتات يختلط بعضها ببعض الآخر بواسطة ماء المطر، سواء النباتات التي تنفع الإنسان، أو الحيوان (١).

و تشير الجملة أعلاه- أيضا-إشارة ضمنيه إلى هذه الحقيقه، و هي أنّ الله سبحانه ينبت من ماء المطر، الذي هو نوع واحد و ليس له إلا حقيقه واحده، أنواع النباتات المختلفه التي تؤمن مختلف حاجات الإنسان و الحيوان من المواد الغذائيه.

ص: ٣٣٧

١- ١) يتّضح ممّا قيل أعلاه أنّ الباء في (به) سببيه، و لكن قد احتمل البعض أنّها بمعنى (مع)، أي إنّ ماء ينزل من السماء و يختلط بالنباتات، و ينميها و ينضجها. إلا أنّ هذا الاحتمال الثّاني لا يناسب آخر الآيه الذي يقول: مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ لِأَنَّ ظَاهِرَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ الْاِخْتِلَاطُ بَيْنَ أَنْوَاعِ الْأَعْشَابِ، لَا اِخْتِلَاطَ الْمَاءِ وَ النَّبَاتِ. دَقِّقُوا ذَلِكَ.

اشاره

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا
السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧)

التفسير

اشاره

بيض الوجوه و سود الوجوه:

مرّت الإشارة في الآيات السابقة إلى عالم الآخرة و يوم القيامة، و لهذه المناسبة فإنّ هذه الآيات تبين مصير الصالحين و عاقبه
المدننين فتقول في البدايه:

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ

(١)

و مع أن هناك بحث بين المفسرين في المقصود من الزيادة في هذه الجملة، إلا أنّنا إذا علمنا أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، رأينا
أنّ المراد هو الإشارة إلى الثواب

ص: ٣٣٨

١ - ١) ينبغي التنبيه إلى أنّ (الحسنى) في هذه الجملة مبتدأ مؤخر، و معنى الآية هكذا. الحسنى للذين أحسنوا، و لذلك
فإنّ (زيادة) المعطوفه عليها مرفوعه، و الحسنى صفه للمثوبه المقدّره، و قد حلّت محلّ الموصوف.

المضاعف الكثير، الذى يتضاعف أحيانا عشر مرات، وأخرى آلاف المرات حسب نسبه الإخلاص و الطهاره و التقوى و قيمه العمل، فنقرأ فى الآية (١٦٠) من سوره الأنعام. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .

و فى الآية (١٢٧) من سوره النساء: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ .

و فى الآيات المرتبطه بالإنفاق فى سوره البقره آيه (٢٦١) يدور الحديث أيضا عن مكافأه الصالحين و مضاعفه عملهم إلى سبعمائه ضعف، أو مضاعفته أضعافا كثيره من قبل الله سبحانه.

و النقطه الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هنا، هى أن من الممكن أن تستمر هذه الزيادة و الإضايفه حتى فى عالم الآخره، أى أنه فى كل يوم سيمنحهم الله سبحانه موهبه و لطفًا جديدًا، و هذا يبين أن حياه العالم الآخر ليست على وتيره واحده، بل تستمر فى حركتها نحو التكامل الى ما لا نهايه.

و الروايات التى وردت عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير هذه الآيه، و التى تبين أن المراد من «الزياده» هو التوجه إلى نور الذات الإلهيه المقدسه و الاستفاده من هذه الموهبه المعنويه الكبيره قد تكون إشاره إلى هذه النكته.

و فى بعض الروايات المنقوله عن أهل البيت عليهم السلام، فسّيرت «الزياده» بزياده النعم الدنيويه التى يتفضل بها الله على الصالحين علاوه على ثواب الآخره، و لكن لا مانع من أن تكون الزيادة فى الآيه أعلاه إشاره إلى كل هذه المواهب.

ثم تضيف الآيه: وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ . «يرهق» مأخوذه من ماده «رهق»، و هى بمعنى التغطيه القهريه و الجبريه، «و القتر» بمعنى «الغبار» و الدخان.

و فى النهايه تقول: أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ التعبير بالأصحاب إشاره إلى التناسب الموجود بين روحيه هذه المجموعه و محيط الجنه.

ثم يأتى الحديث فى الآيه التاليه عن أصحاب النار الذين يشكلون الطرف

المقابل للمجموعه الأولى،فتقول: وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا و هنا لا يوجد كلام عن الزيادة،لأنّ الزيادة فى الثواب فضل و رحمه،أما فى العقاب فإنّ العدالة توجب أن يكون بقدر الذنب و لا يزيد ذره واحده.إلا أن هؤلاء عكس الفريق الأوّل مسوده وجوههم وَ تَرَهَّقُهُمْ ذَلَّةٌ (١).

و يمكن أن يقول قائل:إنّ هؤلاء يجب أن لا يروا من العقاب إلاّ بقدر ذنوبهم، و أنّ اسوداد الوجه هذا،و غبار الذل الذى يغطيهم شىء إضافى.لكن ينبغى الانتباه إلى أن هذه هى خاصيه و أثر العمل الذى ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج،تماما كما نقول:إنّ الأفراد المعتادين على شرب الخمر يجب أن يجلدوا.

و فى الوقت نفسه فإنّ الخمر تولد مختلف أمراض المعده و القلب و الكبد و الأعصاب.

و على كل حال،فقد يظن المسيئون أنّهم سوف يكون لهم طريق للهرب أو النجاء،أو أنّ الأصنام و أمثالها تستطيع أن تشفع لهم،إلاّ أن الجملة التاليه تقول بصراحه: مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ .

إنّ وجوه هؤلاء مظلمه و مسوده إلى الحد الذى كَانُوا أَعْمَىٰ و جُوهُهُمْ قَطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

ص : ٣٤٠

١- ١) من الممكن،بقريته الآيه السابقه،أن تكون جملة(ترهقهم ذله)بتقدير:يرهقهم قتر و ذله)،و بقريته المقابله حذف(قتر)لأجل الاختصار.

اشاره

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ (٢٨)
فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ
وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

التفسير

اشاره

مشهد من قيامه عبده الأوثان:

تتابع هذه الآيات أيضا البحوث السابقه حول المبدأ و المعاد و وضع المشركين، و تجسم حيره و انقطاع هؤلاء عند حضورهم في محكمه العدل الإلهي، و وقوفهم بين يدي الله لمحاسبتهم.

فتقول أولا: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَائِكُمْ (١). و اللطيف أن الآيه أعلاه قد عبّرت عن الأصنام بشركائكم، في

ص: ٣٤١

١- ١) إن (مكانكم) في الواقع مفعول لفعل مقدر، و كانت في الأصل (ألزموا مكانكم أنتم و شركاؤكم حتى تسألوا) و هذه الجملة في الحقيقه تشبه الآيه (٢٤) من سوره الصافات، حيث تقول وَ قِفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ .

حين أنّ المشركين كانوا قد جعلوا الأصنام شريكه لله، لا شريكه أنفسهم.

إنّ هذا التعبير في الحقيقة إشارة لطيفه إلى أن الأصنام لم تكن شريكه لله، وأن أوها م و تخيلات عبده الأوثان هي التي أعطتها هذا المقام، وهذا يشبه تماما ما لو عيّن المشرف على التعليم معلما أو مديرا غير صالح لمدرسه ما، صدرت و منها أعمال قبيحه و غير لائقه. فتقول للمشرف: تعال و انظر، هذا معلمك و هذا مديرك يرتكبان مثل هذه الأعمال، في حين أنّه ليس معلمه و لا مديره، بل معلم المدرسه و مديرها الذي اختارهما.

ثمّ تصيف: أنّا سوف نعزل هاتين الفئتين - أي العابدون و المعبودون - عن بعضهم البعض، و نسأل كلا منهما على انفراد، تماما كما هو المتداول في كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأي دليل جعلتم هذه الأصنام شريكه لله و عبدتموها؟ و نسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ (١).

في هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعتم أوها م هؤلاء: وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَادُونَ فَأَنْتُمْ فِي الْوَاقِعِ كُنْتُمْ تُعْبُدُونَ أَهْوَاءَكُمْ و ميولكم و أوها مكم، لا - أنّكم كنتم تعبدوننا، و لو سلمنا ذلك فإنّ عبادتكم لنا لم تكن بأمرنا و لا برضانا، و العباده كهذه ليست بعباده في الحقيقة.

ثمّ، و من أجل التأكيد الأشد، يقولون: فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا و بَيْنَكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ (٢).

هناك بحث بين المفسرين في المراد من الأصنام و الشركاء، أي معبودات هي؟ و كيف أنّها تتكلم بهذا الكلام؟

ص: ٣٤٢

١- ١) «زيلنا» من ماده التزيل، بمعنى التفريق، قال بعض أرباب اللغة: إن مادتها الثلاثيه، زال يزيل، بمعنى الفرقه، لا أنّها من ماده: زال يزول بمعنى الزوال.

٢- ٢) (إن) في الجملة أعلاه مخففه من الثقيله، و هي للتأكيد و معنى الجملة هو: إنّنا كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ.

فالبعض احتمال أن يكون المراد منها المعبودات الإنسانيه و الشيطانيه، أو من الملائكه التي لها عقل و شعور و إدراك، إلا أنهم رغم ذلك لا يعلمون بأنّ فئه تعبدهم، أمّا لأنهم يعبدونهم حال غيابهم، أو بعد موتهم، و على هذا فإنّ تكلم هؤلاء سيكون أمرا طبيعيا جدّا، و هذه الآيه نظيره الآيه (٤١) من سوره سبأ، التي تقول: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ .

و الاحتمال الآخر الذي ذكره كثير من المفسرين، هو أن الله سبحانه يبعث الحياه و الشعور في الأصنام في ذلك اليوم بحيث تستطيع إعادته الحقائق و ذكرها، و الجملة أعلاه للأصنام التي دعاها الله سبحانه للشهاده، و أنهم كانوا غافلين عن عباده من يعبدهم، و بذلك تكون أكثر تناسبا مع هذا المعنى، لأنّ الأصنام الحجريه و الخشبيه لا تفهم شيئا أصلا.

و يمكن أن نحتمل في تفسير هذه الآيه أنّها تشمل كل المعبودات، غايه ما في الأمر أن المعبودات التي لها عقل و شعور تعيد الحقائق و تذكرها بلسانها، أمّا المعبودات التي لا عقل لها و لا شعور فإنّ الكلام عن لسان حالها، و تتحدث عن طريق انعكاس آثار العمل، تماما كما نقول: إنّ سيماء ك تخبر عن سر ك، و القرآن الكريم يبيّن أيضا في الآيه (٢١) من سوره فصلت أن جلود الإنسان ستنطق يوم القيامه، و كذلك في سوره الزلزله يبيّن أنّ الأرض التي كان يسكنها الإنسان ستذكر الحقائق.

إنّ هذه المسأله ليست صعبه التصور في زماننا الحاضر، فإذا كان شريط أصم يسجل كل كلامنا و يعيده عند الحاجه، فلا عجب أن تعكس الأصنام أيضا واقع أعمال عابديها!.

على كل حال، ففي ذلك اليوم و ذلك المكان و ذلك الحال - كما يتحدث القرآن في آخر آيه من آيات البحث - فإنّ كل إنسان سيختبر كل أعماله التي عملها سابقا و يرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء العابدون و المعبودون المصلون الذين كانوا

يدعون الناس إلى عبادتهم، وسواء المشركون و المؤمنون، من أى قوم و من أى قبيل: هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سِيرَجُ الْجَمِيعِ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِيقِي، و محكمه المحشر تبين أن الحكم لا يتم إلا بأمره وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ .

و أخيرا فإنّ جميع هذه الأصنام و المعبودات المختلفه التى جعلها هؤلاء شريكه لله كذبا ستفنى و تمحى: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ فَإِنَّ الْقِيَامَةَ سَاحَهُ ظُهُورِ كُلِّ الْأَسْرَارِ الْخَفِيَةِ لِلْعِبَادِ، و لا تبقى آيه حقيقه إلا و تظهر نفسها. و من الطبيعى أنّ هناك مواقف و مقامات لا تحتاج إلى سؤال أو جدال و بحث، بل إنّ الحال يحكى عن كل شىء، و لا حاجه للمقال.

ص: ٣٤٤

اشاره

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

التفسير

الحديث في هذه الآيات عن علامات و دلائل وجود الله سبحانه و أهليته للعباده، و تعقب أبحاث الآيات السابقه حول هذا الموضوع.

ففي البدايه تقول: قل لهؤلاء المشركين و عبده الأوثان الحائرين التائهيين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء و الأرض؟ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

«الرزق» يعنى العطاء و البذل المستمر، و لما كان الواهب لكل المواهب فى الحقيقه هو الله سبحانه، فإن «الرازق» و «الرزاق» بمعناهما الحقيقى لا يستعملان

إلا فيه فقط، و إذا استعملت هذه الكلمه فى حق غيره فلا شك أنها من باب المجاز، كالأيه (٢٣٣) من سورة البقره التى تقول فى شأن النساء المرضعات: وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .

و ينبغى- أيضا- أن نذكر بهذه النقطه، و هى أن أكثر أرزاق الإنسان من السماء، فالمطر المحيى للنبات من السماء، الذى تحتاجه كل الكائنات الحيه مستقر فى فضاء الأرض، و الأهم من ذلك كله أشعه الشمس التى لا يبقى بدونها أى كائن حى، و لا تنبعث بدونها أى حركه فى أنحاء الكره الأرضيه فإنها تأتى من السماء، و حتى الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار فإنها حيه بنور الشمس، لأننا نعلم أن غذاء الكثير منها أعشاب صغيره جدًا تنمو فى طيات الأمواج على سطح المحيط مقابل أشعه الشمس، و القسم الآخر من هذه الحيوانات تتغذى على لحوم الحيوانات البحرية الأخرى التى تتغذى على تلك النباتات.

و الأرض وحدها هى التى تغذى جذور النباتات بواسطه موادها الغذائيه، و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الأيه أولاً عن أرزاق السماء، ثم عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجه الأهميه.

ثم تشير الأيه إلى حاستين من أهم حواس الإنسان، و اللتان لا يمكن كسب العلم و تحصيله بدونهما، فقالت: أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ . و فى الواقع فإن هذه الأيه أشارت إلى النعم الماديه أولاً، ثم إلى المواهب و الأرزاق المعنويه التى تصبح النعم الماديه بدونها فاقده للهدف و المحتوى.

إن كلمه (سمع) مفرده، و هى بمعنى الأذن، و «الأبصار» و جمع بصر بمعنى العين، و هنا يأتى هذا السؤال، و هو: لماذا ذكرت كلمه السمع فى كل القرآن بصيغه المفرد، و أمّا البصر فإنها جاءت تاره بصيغه المفرد، و تاره أخرى بصيغه الجمع جواب هذا السؤال المذكور فى المجلد الأول من هذا التفسير ذيل الأيه (٧) من سورة البقره.

ثم تطرقت الأيه إلى ظاهرتى الموت و الحياه اللتين هما أعجب ظواهر عالم

الخلقه، فتقول: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ هَذَا هُوَ نَفْسَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي حَيَّرَ عُقُولَ عُلَمَاءِ الطَّبِيعِيَّةِ وَ عُلَمَاءِ الْحَيَاءِ، وَ هُوَ كَيْفَ أَتَى الْمَوْجُودَ الْحَيَّ إِلَى الْوُجُودِ مِنْ مَوْجُودٍ مَيِّتٍ؟ فَهَلْ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ-الَّتِي لَمْ تَفْلِحْ جُهُودُ وَ مَسَاعَى الْعُلَمَاءِ الْحَيْثِيَّةِ إِلَى الْآنَ فِي كَشْفِ أَسْرَارِهَا-أَمْرًا بَسِيطًا وَ مَرْتَبَطًا بِالصِّدْفَةِ وَ بَدُونِ بَرْنَامِجٍ وَ هَدَفٍ؟ لَا شَكَّ أَنَّ مِنْ وَرَاءِ ظَاهِرِهِ الْحَيَاءِ الْمَعْقَدَةِ وَ الظَّرِيفَةِ وَ الْمَلِيئَةِ بِالْأَسْرَارِ عِلْمٌ وَ قَدْرُهُ خَارِقٌ وَ عَقْلٌ كَلِيٌّ.

إِنَّهُ لَمْ يَخْلُقِ الْكَائِنَ الْحَيَّ فِي الْبِدَايَةِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْأَرْضِيَّةِ الْمَيِّتَةِ وَ حَسَبَ، بَلْ إِنَّهُ قَرَّرَ عَدَمَ خُلُودِ الْحَيَاءِ، وَ لِهَذَا خَلَقَ الْمَوْتَ فِي قَلْبِ الْحَيَاءِ لِيَفْسَحَ الْمَجَالَ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ لِتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ وَ التَّكَامُلِ.

وَ يَحْتَمَلُ-أَيْضًا-فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا تَشْمَلُ الْمَوْتَ وَ الْحَيَاءَ الْمَعْنُويينَ إِضَافَةً إِلَى الْمَوْتَ وَ الْحَيَاءِ الْمَادِيينَ، لِأَنَّنا نَرَى أَناسًا عَقْلَاءَ طَاهِرِينَ وَ رَعِينَ مُؤْمِنِينَ يُولَدُونَ أحيانًا مِنْ أَبوينَ مَلُوثِينَ مُنْحَرِفِينَ لَا إِيمَانَ لَهُمَا، وَ يَلَاظُ أَيْضًا عَكْسَ ذَلِكَ حَيْثُ يَأْتِي إِلَى الْوُجُودِ إِناسًا تَافَهُونَ لَا قِيمَةَ لَهُمْ مِنْ أَبوينَ فَاضِلِينَ (١).

خِلافًا لِقَانُونِ الْوَرَاثَةِ.

طَبَعًا، لَا يَوْجَدُ مَانِعٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ أَعْلَاهُ إِلَى كِلَا الْقَسْمَيْنِ، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ وَ مِنْ الظُّوَاهِرِ الْعَجِيبَةِ فِي الْعَالَمِ، وَ هُمَا مُوضِحَانِ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَ هِيَ أَنَّ لِقَدْرِهِ الْخَالِقِ الْعَالَمِ الْحَكِيمِ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ إِضَافَةً إِلَى الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ.

وَ قَدْ أَعْطَيْنَا تَوْضِيحَاتٍ أُخْرَى حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ فِي الْمَجْلَدِ الْخَامِسِ ذِيْلَ الْآيَةِ (٩٥) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

ثُمَّ تَضْيِفُ الْآيَةُ: وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، وَ الْكَلَامُ فِي الْوَاقِعِ بَدَأَ عَنْ خَلْقِ الْمَوَاهِبِ، ثُمَّ عَنْ حَافِظِهَا وَ حَارِسِهَا وَ مَدْبِرِهَا. وَ بَعْدَ أَنْ يَطْرَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ

ص: ٣٤٧

١- (١) لَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَضْمُونُ فِي رِوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي الْجِزْءِ الْأَوَّلِ ص ٥٤٣ مِنْ تَفْسِيرِ الْبِرْهَانِ فِي ذِيْلِ الْآيَةِ (٥٩) مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ.

الثلاثة يقول مباشرة بأن هؤلاء سيحيون بسرعه: فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .

يستفاد من هذه الجملة جيدا أنه حتى مشركى و عبده الأصنام فى الجاهله كانوا يعلمون أن الخالق و الرازق و المحيى و مدبر أمور عالم الوجود هو الله سبحانه، و قد علموا هذه الحقيقه عن طريق العقل، و كذلك عن طريق الفطره، و هى أن هذا النظام الدقيق للعالم لا يمكن أن يكون وليد الصدفة و الفوضى، أو مخلوقا من قبل هذه الأصنام.

و فى آخر الآيه يأمر الله نبيه فقل أ فلا تتقون فإنّ الوحيد الذى له أهليه العباده هو الذى بيده الخلق و تدبير أمره، و إذا كانت العباده لأجل أهليه و عظمه ذات المعبود، فإنّ هذه الأهليه و العظمه منحصره فى الله تعالى، و إذا كانت من أجل أنه مصدر الضر و النفع، فإنّ ذلك مختص بالله أيضا.

و بعد أن عرضت الآيه السابقه نماذج من آثار عظمه و تدبير الله فى السماء و الأرض، و أيقظت وجدان و عقل المخالفين و دعتهم للحكم فى أمر الخالق، و اعترف هؤلاء بذلك، خاطبتهم الآيه التاليه بلهجه قاطعه و قالت: فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ لَا الْأَصْنَامَ، و لا سائر الموجودات التى جعلتموها شريكه للبارى عزّ و جلّ، و التى تسجدون أمامها و تعظمونها.

كيف يمكن أن يكون هؤلاء أهلا- للعبوديه فى حين أنهم ليسوا فقط غير قادرين على المشاركه فى خلق العالم و تدبيره فحسب، بل منغمسون فى الفقر و الاحتياج من الرأس حتى أخمص القدم.

ثمّ تنتهى إلى ذكر النتيجة: فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ و أنى تولوا و جوهكم عن عباده الله و أنتم تعلمون ألا خالق و لا- معبود حقّا سواه؟ إنّ هذه الآيه فى الواقع تطرح طريقا منطقيا واضحا لمعرفة الباطل و تركه، و هو أن يخطو الإنسان أولا فى سبيل معرفه الحق بآليات الوجدان و العقل، فإذا عرف الحق فإنّ كل ما خالفه باطل و ضلال، و يجب أن يضرب عرض الحائط.

و تقول آخر آيه في بيان العله في عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر و ظهور الحق: كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١) و في الواقع فإن هذه خاصيه الأعمال السيئه المستمره لهؤلاء بحيث تظلم قلوبهم و تلوث أرواحهم إلى درجه لا يرون معها الحق رغم وضوحه و تجليته، و يسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

بناء على ذلك، فإن الآيه أعلاه لا دلالة لها مطلقا على مسأله الجبر، بل هي إشاره إلى آثار أعمال نفس الإنسان، لكن لا شك أن هذه الأعمال لها تلك الخاصيه بأمر الله، تماما كما نقول لشخص: لقد قلنا لك مائه مره أن لا تحوم حول المواد المخدره و المشروبات المسكره و لا تتناولها، لكنك لم تصنع لنا، فأصبحت الآن من المدمنين عليها و محكوما بأن تبقى تعيشا لمدته طويله.

ص: ٣٤٩

١ - ١) كاف التشبيه هنا إشاره إلى المطلب الذي ذكر في آخر جمله من الآيه السابقه، و معنى الآيه هكذا: كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، كذلك حقت كلمه ربك.

اشاره

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

التفسير

اشاره

واحد من علامات الحق و الباطل:

تعقب هذه الآيات أيضا الاستدلالات المرتبطه بالمبدأ و المعاد، و تأمر الآيه الأولى النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم تضيف:

قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ

و لماذا تصرفون و جوهكم عن الحق و تتجهون نحو الضلال؟ و هنا سؤالان:

الأول: إن مشركى العرب غالبا لا يعتقدون بالمعاد، خاصه بالصوره التى

يذكرها القرآن، وإذا كان هذا حالهم فكيف يطلب القرآن منهم الاعتراف به؟ الثاني: في الآيه السابقه كان الكلام عن اعتراف المشركين و إقرارهم، إلا- أن هذه الآيه تأمر النبي أن يقَرَّ هو بهذه الحقيقه، فلما ذا هذا الاختلاف في التعبير؟ إلا أن الانتباه إلى مسأله يوضح جواب كلا السؤالين، و هي: إنَّ المشركين بالرغم من عدم اعتقادهم بالمعاد الجسماني، إلا أن ذلك القدر الذي آمنوا به من أن بدايه الخلق كانت من الله كاف لتقبل المعاد و الإعتقاد به، لأن كل من عمل عملا في البدايه قادر على إعادته، و بناء على هذا فإن الإعتقاد بالمبدأ إذا ما اقترن بشيء من الدقه كاف لإثبات المعاد. و من هنا يتضح لماذا أقر النبي صلى الله عليه وآله و سلم بهذه الحقيقه بدلا من المشركين، فإنه بالرغم من كون الإيمان بالمعاد من لوازم الإيمان بالمبدأ، إلا أن هؤلاء لما لم يتوجهوا إلى هذه الملازمه، اختلف طراز التعبير و أقر النبي مكانهم.

ثم تأمر الآيه الأخرى النبي صلى الله عليه وآله و سلم مره أخرى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ لِأَنَّ الْمَعْبُودَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَادِيًا وَ مُرْشِدًا لِعِبَادِهِ، خَاصَّةً وَ أَنَّهَا هِدَايَةٌ نَحْوَ الْحَقِّ، فِي حِينِ أَنَّ آلِهَةَ الْمُشْرِكِينَ، أَعْمَمَ مِنَ الْجَمَادَاتِ أَوْ الْإِحْيَاءِ، غَيْرِ قَادِرِهِ أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا إِلَى الْحَقِّ بَدُونَ الْهِدَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، لِأَنَّ الْهِدَايَةَ إِلَى الْحَقِّ تَحْتَاجُ إِلَى مَنْزِلَةِ الْعَصْمَةِ وَ الصِّيَانَةِ مِنَ الْخَطَا وَ الْإِشْتِبَاهِ، وَ هَذَا لَا يُمْكِنُ مِنْ دُونِ هِدَايَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَسْدِيدِهِ، وَ لِذَلِكَ فَإِنَّهَا تَضِيفُ مَبَاشَرَهُ: قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ وَ إِذَا كَانَ الْحَالُ كَذَلِكَ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى (١).

و تقول الآيه في النهايه بلهجه التوبيخ و التفرير و الملامه: فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

و في آخر آيه إشاره إلى المصدر الأساس و العامل الأصل لهذه الانحرافات و هو الأوهام و الظنون و مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا وَ فِي

ص: ٣٥١

١- ١) يَهْدَى كَانَتْ فِي الْأَصْلِ يَهْتَدِي، فَبَدَلَتْ التَّاءَ دَالًا وَ أَدْغَمَتْ فَشَدَّدَتْ.

النهاية تخاطب الآيه-بأسلوب التهديد-مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أى منطق سليم و تقول: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

ملاحظات

١-قرأنا فى الآيات أعلاه أنّ الله سبحانه وحده الذى يهدى إلى الحق، وهذا الحصر إمّا لأنّ المقصود من الهدايه ليس. هو إراءه الطريق و حسب، بل هو الإيصال إلى المقصد، وهذا الأمر بيد الله فقط، أو لأنّ إراءه الطريق و الدلاله عليه هو أيضا من عمل الله فى الدرجه الأولى، و أمّا غيره من الأنبياء و المرشدين و المصلحين الإلهيين فإنّهم يطلعون على طريق الهدايه عن طريقه و هدايته، و يصبحون علماء بتعليمه.

٢-إنّ ما نقرؤه فى الآيات أعلاه من أنّ آلهه المشركين لا تستطيع أن تهدى أحدا، بل هى بذاتها محتاجه إلى الهدايه الإلهيه، و إن كان لا يصدق على الأصنام الحجرية و الخشبيه، لأنّها لا تملك العقل و الشعور مطلقا، إلاّ أنّه يصدق تماما فى حق الآلهه التى لها شعور كالملائكه و البشر الذين أصبحوا معبودين.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملة المذكوره بمعنى القضييه الشرطيه، أى على فرض أنّ للأصنام عقلا و شعورا، فإنّها لا تستطيع أن تجد الطريق بدون الهدايه الإلهيه لنفسها، فكيف ستقدر على هدايه الآخرين؟ و على كل حال، فإنّ الآيات أعلاه تبين-بوضوح- أنّ من برامج الله الأصليه لعباده أن يهديهم إلى الحق، و يتمّ ذلك عن طريق منح العقل، و إعطاء الدروس المختلفه عن طريق الفطره، و إرادته و إظهار آياته فى عالم الخلقه، و كذلك عن طريق إرسال الأنبياء و الكتب السماويه.

٣-طالعنا فى آخر آيه من هذه الآيات أنّ أكثر المشركين و عبده الأصنام يتبعون ظنونهم و أوهامهم، و هنا يأتى سؤال، و هو: لماذا لم يقل الله سبحانه: و ما

يتبع كلهم بدل أكثرهم، لأننا نعلم أن جميع المشركين شركاء في هذا الظن الباطل، حيث يعتقدون أن الأصنام آلهة بحق و تملك النفع و الضرر و تشفع عند الله، و لهذا فإنّ البعض اضطر إلى تفسير كلمه «أكثرهم» بأنّها تعنى «جميعهم»، و ذهب أن هذه الكلمه جاءت أحيانا بهذا المعنى.

إلا أنّ هذا الجواب غير وجيه، و الأفضل أن نقول: إن المشركين صنفان: صنف يشكل الأكثرية، و هم الأفراد الخرافيون الجهلاء الذين وقعوا تحت تأثير الأفكار الخاطئه، و اختاروا الأصنام لعبادتها.

أمّا القسم الثّانى، و هم الأقلية، فهم الزعماء و أئمّه الكفر الواعون لحقيقه الأمر و المطلعون على عدم صحه عباده الأصنام و أنّها لا أساس لها، و إلاّ أنّهم يدعون الناس لعبادتها حفظا لمصالحهم، و لهذا السبب فإنّ الله يجيب الصنف الأوّل فقط لأنّهم مؤهلين للهدايه، أمّا الصنف الثّانى فلم يعبا بهم مطلقا لأنّهم سلكوا هذا الطريق عن علم و وعى.

٤- يعتبر جماعه من علماء الأصول هذه الآيه و أمثالها دليلا على أن الظن لا يمكن أن يكون حججه و سندا بأى وجه من الوجوه، و أن الأدله القطعيه هى الوحيده التى يمكن الاعتماد عليها.

إلا أنّ جماعه أخرى يقولون: إنّنا نلاحظ بين الادله الفقهيّه أدلّه ظنيه كثيره، كحججه ظواهر الألفاظ، و شهاده الشاهدين العدلين، أو خبر الواحد الثقه و أمثال ذلك، و لذلك فإنّ الآيه المذكوره دليل على أنّ القاعده الأصليه فى مسأله الظن هى عدم حججته، إلاّ أنّ تثبت حججته بالدليل القطعى كالأمثله أعلاه.

إلا أنّ الحق هو أنّ الآيه أعلاه تتحدث عن الظنون و الأوهام التى لا أساس لها، كظنون و أوهام عبده الأصنام فقط، و لا علاقه لها بالظن الذى يمكن الاعتماد عليه و الموجود بين العقلاء، و بناء على هذا فإنّ هذه الآيه و أمثالها لا يمكن الاستناد إليها بأى وجه فى مسأله عدم حججه الظن. فتدبر جيدا.

اشاره

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ
لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ
وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)

التفسير

اشاره

عظمه دعوه القرآن و حقانيته:

تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمه، فإن هؤلاء لم يجانبوا الصواب في معرفه المبدأ و حسب، بل كانوا يفترون على نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم بأنه هو الذى اختلق القرآن و نسبه إلى الله، و رأينا فى الآيات السابقه

أنهم طلبوا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتي بغير هذا القرآن، أو يغيره على الأقل، وهذا بنفسه دليل على أنهم كانوا يظنون أن القرآن من تأليف النبي! فالآية الأولى تقول: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَاللَّطِيفُ هُنَا أَنَّهَا بَدَلُ أَنْ تَنْفَى هَذَا الْأَمْرَ نَفِيًا بَسِيطًا، نَفْتَهُ نَفِيًا شَأْنِيًا، وَهَذَا يَشْبَهُ تَمَامًا أَنْ يَقُولَ شَخْصٌ مَا فِي مَقَامِ الدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِهِ: لَيْسَ مِنْ شَأْنِي الْكُذْبُ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ أَعْمَقُ وَأَكْثَرُ مَعْنَى مِنْ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَا أَكْذِبُ.

ثم تتطرق الآية إلى ذكر الدليل على أصالة القرآن وكونه وحيا سماويا: فَتَقُولُ وَ لَكِنْ تَصِيدِقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أَي إِنَّ كُلَّ الْبَشَارَاتِ وَالِدَلَالَاتِ الْحَقَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ السَّابِقَةِ تَنْطَبِقُ عَلَى الْقُرْآنِ وَ مِنْ جَاءَ بِهِ تَمَامًا، وَ هَذَا بِنَفْسِهِ يَثْبِتُ أَنَّهُ لَيْسَ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ بَلْ هُوَ حَقٌّ، وَ أَسَاسًا فَإِنَّ الْقُرْآنَ شَهِدَ عَلَى صِدْقِ مَحْتَوَاهُ مِنْ بَابِ أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ دَلِيلٌ عَلَى الشَّمْسِ.

و من هنا يتضح زيف الذين استدلوا بمثل هذه الآيات على عدم تحريف التوراه والإنجيل، لأن القرآن الكريم لم يصدق ما كان موجودا في هذه الكتب في عصر النزول، بل إنه أُيِّدَ العلامات الواردة في هذه الكتب حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم و القرآن. وقد بينا توضيحات أكثر في هذا الباب في المجلد الأول من هذا التفسير في ذيل الآية (٤١) من سورة البقره.

ثم تذكر الآية دليلا آخر على أصالة هذا الوحي السماوي وهو: إِنَّ فِي هَذَا الْقُرْآنِ شَرْحَ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ الْأَصِيلَةِ، وَ بَيَانَ أَحْكَامِهِمُ الْأَسَاسِيَّةِ وَ عَقَائِدِهِمُ الْأَصُولِيَّةِ، وَ لِهَذَا فَلَا شَكَّ فِي كَوْنِهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَتَقُولُ: وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ بَتَعْبِيرٍ آخَرَ: لَا يَوْجَدُ فِيهِ أَيُّ تَضَادٍّ وَ تَنَاقُضٍ مَعَ بَرَامِجٍ وَ أَهْدَافِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ، بَلْ يَلَاحِظُ فِيهِ تَكَامُلٌ تِلْكَ التَّعْلِيمَاتِ وَ الْبَرَامِجِ، وَ إِذَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مَخْتَلِقًا فَلَا بَدَّ أَنْ يَخَالَفَهَا وَ يَنَاقِضَهَا.

و من هنا نعلم أنه لا يوجد أي اختلاف بين الكتب السماوية في أصول

المسائل، سواء كانت فى العقائد الدينيه، أو البرامج الاجتماعيه، أو حفظ الحقوق، أو محاربه الجهل، أو الدعوه إلى الحق و العداله، و كذلك إحياء القيم الأخلاقيه و أمثال ذلك، سوى أن الكتاب الذى ينزل متأخرا يكون أرفع مستوى و أكمل من السابق، تماما كاختلاف مراحل التعليم فى الابتدائيه و الإعداديه و الجامعه، حتى انتهت المراحل بالكتاب الأخير الخاص بالمرحله النهائيه لتحصيل الأمم الدينى، ألا و هو القرآن.

و لا- شك فى وجود الاختلاف فى جزئيات الأحكام بين الأديان و المذاهب السماويه، إلا- أنّ الكلام عن أصولها الأساسيه المتحده و المشتركه فى كل مكان.

و ذكر فى الآيه التاليه دليل ثالث على أصاله القرآن، و خاطبت الذين يدعون أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قد افترى هذا القرآن على الله، بأنكم إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسوره من مثله، و استعينوا فى ذلك بمن شئتم غير الله، و لكنكم لا تستطيعون فعل ذلك أبدا، و بهذا الدليل يثبت أن القرآن من وحى السماء أم يقولون افترأه قُلْ فَآتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

إنّ هذه الآيات من جمله الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بصراحه، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السوره الواحده، و قد خاطبت كل العالمين - بدون استثناء- بأنكم إن كنتم معتقدين بأنّ هذه الآيات ليست من الله فأتوا بمثله، أو بسوره منه على الأقل.

و كما بيّنا فى المجلد الأوّل فى ذيل الآيه (٢٣) من سوره البقره، فإنّ آيات القرآن تتحدى أحيانا أن يؤتى بمثل كل القرآن، و أحيانا بعشر سور، و أحيانا بسوره واحد، و هذا يوضح أنّ جزء القرآن و كلّ معجزه و لما لم تعين الآيه سوره معينه فإنّها تشمل كل سوره من القرآن.

طبعاً لا شك أنّ إعجاز القرآن لا ينحصر فى جوانب الفصاحه و البلاغه و حلاوه البيان و كمال التعبيرات كما ظن ذلك جماعه من قدماء المفسرين، بل إن جانب

الإعجاز يتمثل أيضا إضافه لما مر في بيان المعارف الدينيه، و العلوم التي لم تكن معروفه حتى ذلك اليوم، و بيان الأحكام و القوانين، و ذكر تاريخ السابقين من دون أى خطأ أو تلبس بخرافه، و عدم وجود الاختلاف و التضاد فيه (١).

مظاهر و تجليات جديده من إعجاز القرآن:

مما يلفت النظر أنّ مظاهر جديده من إعجاز القرآن تتضح مع مرور الزمن، حيث لم تكن تجلب الانتباه-سابقا-ولا يهتم بها، و من جملتها المحاسبات الكثيره التي أجريت على كلمات القرآن بواسطه العقول الألكترونيه، و التي أثبتت أن لكلمات و فقرات القرآن و علاقتها بزمن النزول خصوصيات جديده، و ما تقرؤونه أدناه نموذج منها:

إنّ تحقيقات بعض العلماء و المحققين أدت إلى كشف روابط معقده و معادلات حسابيه دقيقه جدّا في آيات القرآن حتى أنّها جمعت بين الحيره و اليقين في وجود مثل هذا النظام العلمى في بناء القرآن، و ذلك عن طريق التحقيق الإحصائى و الرياضى لكشف القواعد الدقيقه و المعادلات الرياضيه للآيات الشريفه و التي تذكرنا من ناحيه الأهميه و المعرفه باكتشاف نيوتن للجاذبيه.

أحد علماء القرآن بدأ عمله من هذه المسأله البسيطه، و هى أنّ الآيات النازله في مكّه قصيره، و الآيات التي نزلت في المدينه طويله، و هذه مسأله طبيعيه، فإنّ كل كاتب أو خطيب بليغ يغير من طول جمله و نغمات كلماته حسب موضوع الحديث، فمثلا تكون جمل التوصيف قصيره، أمّا مسائل التحليل و الاستدلال فهى طويله...و إذا كان الكلام لغرض تحريك العواطف أو للانتقاد او لبيان الأصول العقائديه العامه، فإنّ العبارة تكون قصيره و بأسلوب الشعارات، أمّا إذا كان بدايه قصه أو لبيان الكلام في استخلاص النتائج الأخلاقيه...فإنّ الأسلوب يكون

ص: ٣٥٧

١- ١) لمزيد الاطلاع راجع المجلد الأوّل الآيه (٢٣) و (٢٤) من سوره البقره.

إن المسائل التي طرحت في مكه هي من النوع الأول، بينما المسائل التي طرحت في المدينة من النوع الثاني، فما نزل في مكه كان بدايه ثوره و بيان للمبادئ العامه، الاعتقاديه و الانتقاديه، و الذي نزل في المدينة كان لبناء مجتمع و بيان مسائل حقوقيه و أخلاقيه و قصص تاريخيه و استخلاص النتائج الفكرية و العلميه.

و بما أن القرآن نزل بلغه البشر فلا بد من أن يتبع السبك الجميل و البليغ في كلام البشر، و في النتيجة مراعاة قصر و طول الآيات بما يناسب المفاهيم، و بالتالي يجب أن لا يكون القصر و الطول اعتباطيا و عشوائيا، بل يبدأ حسب قاعده علميه دقيقه من الآيات القصيره، و يسير على وتيره تصاعديه واحده نحو الآيات الطويله، و على هذا الأساس يجب أن تكون كل آيه أقصر من الآيه التي نزلت بعد سنه، و أطول من الآيه التي نزلت قبلها بسنه، و أن يكون مقدار الزيادة محسوبا و دقيقا، و على هذا فلمّا كان الوحي قد نزل خلال ٢٣ سنه، فيجب أن يكون لدينا ٢٣ طولا في الآيات كمعدل، و بناء على هذه القاعده يمكن أن يكون لدينا ٢٣ عمودا بحيث تقسم كل الآيات حسب الطول في هذه الأعمده، و الآن من أين نستطيع أن نعلم أن هذا التقسيم صحيح؟ نحن نعلم سبب نزول بعض الآيات بواسطه الروايات الشريفه التي ذكرت - بصراحه - في آيه سنه نزلت هذه الآيات، و البعض الآخر يمكن تعيينه من خلال مفاهيمه، فمثلا: الآيات التي تبين بعض الأحكام كتغيير القبلة، و تحريم الخمر، و تشريع الحجاب و الزكاه و الخمس، أو الآيات التي تتحدث عن الهجره، فإنّ سنّي تعيين هذه الأحكام معلومه.

و بتعجب مثير للدهشه نرى أن هذه الآيات التي يعلم عام نزولها، قد اجتمعت في نفس الأعمده التي فرضت أنّها أخذت حسب الطول في هذا الجدول. «فتدبر

جيدا» و الأَعْجب هو ملاحظه بعض الاستثناءات فى موردين أو ثلاثه،بمعنى أن سوره المائده مثلا آخر السور الكبار النَّازلَه،فى حين أن عدّه آيات منها يجب أن تكون حسب المعادله-قد نزلت فى السنين الأولى!و بعد التحقيق فى متون التفاسير و الرّوايات الإسلاميه و أقوال المفسّرين المعتمدين،لوحظ أنّهم قالوا:إنّ هذه الآيات القليله نزلت فى البدايه،لكن وضعت فى سوره المائده حسب أمر النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم،و بهذه الطريقه يمكن تعيين سنه نزول كل آيه حسب هذا الحساب الرياضى،و كتابه القرآن حسب سنه النزول أيضا.

أى أديب و بليغ فى العالم يستطيع أن يعين سنه كتابه كل جمله من خلال طول العبارة؟خاصّه و أنّه ليس نسا كتابيا كأي أثر علمى أو أدبى جلس كاتبه مدّه معينه و كتبه و ليس كتابا ألفه كاتبه فى موضوع ما،بل يحتوى على مسائل مختلفه نزلت بالتدرّج حسب احتياج المجتمع،أو هى جواب لمسائل مطروحه من الحوادث و المسائل طرحت على مدى مسيره الدعوه و إبلاغ الرساله،و قد بيّنت من قبل القائد،ثمّ جمعت و نظمت.

بل إنّ موسيقى و لحن لغات و كلمات القرآن الخاصّه-أيضا-معجزه نادره فى نوعها كما ذكر ذلك بعض المفسّرين.و قد ذكروا شواهد مختلفه جميله على هذا الموضوع،و من جملتها الحادثه أدناه التى وقعت لسيد قطب المفسّر المعروف:

يقول فى ذيل الآيه محلّ البحث:

«و لن أذكر نماذج ممّا وقع لغيرى و لكنّى أذكر حادثا وقع لى و كان معى شهود سته،و ذلك منذ حوالى خمسّه عشر عاما..كنا سته نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينه مصريه تمخر بنا عباب المحيط الأطلسى إلى نيويورك،من بين عشرين و مائه راكب و راكبه أجنب ليس فيهم مسلم..و خطر لنا أن نقيم صلاه الجمعه فى المحيط على ظهر السفينه!و الله يعلم-أنّه لم يكن بنا أن نقيم الصلاه

ذاتها أكثر ممّا كان بنا حماسه دينيه إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينه، حاول أن يزاول تبشيريه معنا!...و قد يسر لنا قائد السفينه-و كان إنجليزيا-أن نقيم صلاتنا،و سمح لبحاره السفينه طهاتها و خدمها-و كلّهم نوبيون مسلمون-أن يصلى منهم معنا من لا يكون في «الخدمه» وقت الصلاه!و قد فرحوا بهذا فرحا شديدا، إذ كانت المرّه الاولى التي تقام فيها صلاه الجمعه على ظهر السفينه..

و قمت بخطبه الجمعه و إمامه الصلاه،و الركاب الأجانب-معظمهم-متحلّقون يرقبون صلاتنا!..و بعد الصلاه جاءنا كثيرون منهم يهنتوننا على نجاح «القدّاس»!!!فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا!و لكن سيده من هذا الحشد-عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافيه مسيحيه هاربه من جحيم «تيتو» و شيوعيته!-كانت شديده التأثير و الانفعال،تفيض عيناها بالدمع و لا-تتمالك مشاعرها،جاءت تشدّد على أيدينا بحراره؛و تقول:-في إنجليزيه ضعيفه-إنّها لا تملك نفسها من التأثير العميق بصلاتنا هذه و ما فيها من خشوع و نظام و روح!..

و ليس هذا موضع الشاهد في القصّه..و لكن ذلك مان في قولها:أى لغه هذه التي كان يتحدث بها«قسيسكم»!فالمسكينه لا تتصور أن يقيم«الصلاه»إلا قسيس- أو رجل الدين-كما هو الحال عندها في مسيحيه الكنيسه!و قد صححنا لها هذا الفهم!..و أجبنها..فقالت:إنّ اللغه التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقى عجيب، و إنّ كنت لم أفهم منها حرفا..ثمّ كانت المفاجأه الحقيقه لنا و هي تقول:و لكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أت أسأل عنه..إنّ الموضوع الذي لفت حسى،هو أن «الإمام»كانت ترد في أثناء كلامه-بهذا اللغه الموسيقيه-فقرات من نوع آخر غير بقيه كلامه!نوع أكثر موسيقيه كما لو كان-الإمام-مملوءا من الروح القدس!-حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! تفكرنا قليلا،ثمّ أدركنا أنّها تعنى الآيات القرآنيه التي وردت في أثناء خطبه الجمعه و في أثناء الصلاه!و كانت-مع ذلك-مفاجأه تدعو إلى الدهشه،من سيده

لا تفهم ممّا نقول شيئاً! (١).

و فى الآيه التاليه إشاره إلى واحده من العلل الأساسيه لمخالفه المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لم ينكروا القرآن بسبب الإشكالات و الإيرادات، بل إن تكذيبهم و إنكارهم إنّما كان بسبب عدم اطلاعهم و علمهم به: بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ .

فى الواقع، إنّ سبب إنكارهم هو جهلهم و عدم اطلاعهم، لكن المفسرين احتملوا احتمالات متعدده فيما هو المقصود من هذه الجملة و أن الجهل بأى الأمور كان، و كان تلك الاحتمالات يمكن أن تكون مقصوده من الجملة:

الجهل بالمعارف الدينيه و المبدئ و المعاد، كما ينقل القرآن قول المشركين فى شأن المعبود الحقيقى (الله)، حيث كانوا يقولون: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ (٢). أو أنهم كانوا يقولون فى مسأله المعاد: أَ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَ رُفَاتًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٣)، هل ندلكم على رجلٍ يبئكم إذا مرّقتكم كلّ ممزقٍ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ أفترى على الله كذباً أم به جنّه (٤).

فى الحقيقه لم يكن لهؤلاء أى دليل على نفى المبدأ و المعاد، و كان الجهل و التخلف الناشئ من الخرافات و التعود على مذهب الأجداد هو السد الوحيد فى طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهه.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعه.

ص: ٣٦١

١- (١) تفسير فى ظلال القرآن، ج ٤، ص ٤٢٢.

٢- (٢) سوره ص، ٥.

٣- (٣) الإسراء، ٩٧.

٤- (٤) سوره سبأ، ٨.

أو الجهل بالدروس و العبر التي هي الهدف النهائي من ذكر تاريخ الماضين.

إن مجموع هذه الجهالات و الضلالات كانت تحملهم على الإنكار و التكذيب، في حين أن تأويل و تفسير و تحقق المسائل المجهوله بالنسبه لهؤلاء لم يبين بعد و لَمَّا يَا تِهِمْ تَأْوِيلُهُ .

«التأويل» في أصل اللغة بمعنى إرجاع الشيء و على هذا فإنّ كل عمل أو قول يصل إلى هدفه النهائي نقول عنه: إن تأويله قد حان وقته، و لهذا يطلق على بيان الهدف الأصلي من إقدام معين، أو التفسير الواقعي لكلمه ما، أو تفسير و إعطاء نتيجة الرؤيا، أو تحقق فرضيه في ارض الواقع، اسم التأويل. و قد تحدثنا بصوره مفصله حول هذا الموضوع في المجلد الثاني ذيل الآيه (٧) من سوره آل عمران.

ثمّ يضيف القرآن مبينا أن هذا المنهج الزائف لا ينحصر بمشركى عصر الجاهليه، بل إنّ الأقسام السابقين كانوا مبتلين أيضا بهذه المسأله، فإنهم كانوا يكذبون الحقائق و ينكرونها دون السعى لمعرفة الواقع، أو انتظار تحققه: كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . و قد مرت الإشارة أيضا في الآيات (١١٣) و (١١٨) من سوره البقره إلى وضع الأمم السابقه من هذه الناحيه.

الواقع، إنّ عذر هؤلاء جميعا كان جهلهم و رغبتهم عن التحقيق و البحث في الحقائق الواقعيه، في حين أن العقل و المنطق يحكمان بأنّه لا ينبغي للإنسان انكار ما يجهله مطلقا، بل يبدأ بالبحث و التحقيق.

و في النهايه و جهت الآيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قالت: فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ أَى إِنَّ هَؤُلَاءِ سِيْلَقُونَ أَيْضًا نَفْسَ الْمَصِيرِ.

و أشارت الآيه الأخيره من آيات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لا يبقون جميعا على هذا الحال، بل إنّ جماعه منهم لم تخمد فيهم روح البحث عن الحق و طلبه و سيؤمنون بالقرآن في النهايه. في حين أن الفئه الأخرى ستبقى في عنادها و إصرارها و جهلها، و سوف لا تؤمن أبدا: وَ مِنْهُمْ مَنْ

و من الواضح أنّ أفراد الفئه الثانيه فاسدون و مفسدون، و لذلك قالت الآيه فى النهايه: وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ وَ هى إشاره إلى أنّ الذين لا يدعون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، و لهم دور مهم فى إفساده.

الجهل و الإنكار:

كما يستفاد من الآيات أعلاه أنّ قسما مهماً من مخالفه الحق و محاربتة تنبع عاده من الجهل، و لهذا السبب قالوا: عاقبه الجهل الكفر! إنّ أول مهمه تقع على عاتق كل إنسان يطلب الحق أن يترت فى مقابل ما يجهل، يتحرك صوب البحث ثمّ و تحقيق كل جوانب المطلب الذى يجهله، و ما لم يحصل على الدليل القاطع على بطلانه فلا- ينبغى له رفضه، كما أنّه لا- ينبغى له قبوله و الاعتقاد به إذا لم يحصل لديه دليل قاطع على صحته نقل العلامة الطبرسى

فى مجمع البيان حديثاً رائعاً عن الإمام الصادق عليه السلام فى هذا الباب، حيث يقول «إِنَّ اللَّهَ خَصَّ هَذِهِ الْأُمَّهَ بِآيَاتِنِ مِنْ كِتَابِهِ: أَنْ لَا يَقُولُوا إِلَّا- مَا يَعْلَمُونَ، وَ أَنْ لَا يَرُدُّوا مَا لَا يَعْلَمُونَ، ثُمَّ قَرَأَ: أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَ قَرَأَ: بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ .

اشاره

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَشْتَعِبُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

التفسير

اشاره

العمى و الصم:

تتابع هذه الآيات البحث الذى مرّ فى الآيات السابقه حول إنكار و تكذيب المشركين، و إصرارهم على ذلك، فقد علمت الآيه الأولى النبى صلى الله عليه و آله و سلم طريقه جديده فى مواجهه، فقالت: وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ .

إنّ لإعلان الترفع و عدم الاهتمام هذا، و المقترن بالاعتماد و الإيمان القاطع بالمذهب، أثرا نفسيا خاصا، و بالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أى إجبار و إصرار على قبولهم الدعوه الإسلاميه. بل إنّهم بعدم تسليمهم

أمام الحق سيحرمون أنفسهم، ولا يضررون إلا أنفسهم.

وقد ورد نظير هذا التعبير فى آيات أخرى من القرآن، كما نقرأ فى سورة الكافرون: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ .

و من هذا البيان يتضح أن محتوى مثل هذه الآيات لا ينافى مطلقا الأمر بالتبليغ أو الجهاد فى مقابل المشركين كما تعتبر مثل هذه الآيات منسوخة. بل إن هذا نوع من المواجهه المنطقيه عن طريق عدم الاكتراث لهؤلاء الأشخاص المعاندين.

و تشير الآيتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء و عدم إذعانهم للحق، و تبين أن التعليمات الصحيحه، و الآيات المعجزه التى تهزّ الوجدان و الدلالات الأخرى الواضحه لا تكفى بمفردها لهدايه الإنسان، بل إن استعداد التقبل و لياقه قبول الحق لازمه أيضا، كما أن البذر لوحده ليس كافيا لإنبات النبات و الأوراد، بل إن الأرض بدورها يجب أن تكون مستعده. و لهذا قالت الآيه: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ (١) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ .

و هناك فئه ثانيه يشخصون بأبصارهم إليك، و ينظرون إلى أعمالك المتضمنه أحقيتك و صدق قولك، إلا أنهم عمى لا يبصرون: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ (٢) أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ .

و لكن اعلم و ليعلم هؤلاء أن قصور الفكر هذا، و عدم البصيره و العمى عن رؤيه وجه الحق، و الصمم عن سماع كلام الله ليس شيئا ذاتيا لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، و إن الله تعالى قد ظلمهم، بل إنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئه و عدائهم و عصيانهم للحق، و عطلوا بذلك عين بصيرتهم و أذن أفئدتهم عن

ص: ٣٦٥

١- ١) فى الحقيقه هناك جمله مقدره فى هذه الآيه تقديرها: «كأنهم صم لا يستمعون».

٢- ٢) هنا أيضا جمله مقدره هى: كأنهم عمى لا يبصرون.

سَمَاعِ الْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

ملاحظات

إشارة

وهنا ينبغي الالتفات لملاحظتين:

١- ما نقرأه في الآية الثانية من أنهم يستمعون إليك، وفي الآية الثالثة من أنهم ينظرون إليك، إشارة إلى أن جماعه من هؤلاء يسمعون هذا الكلام المعجز، وجماعه أخرى ينظرون إلى معجزاتك التي تدل كلها بوضوح على صدق كلامك وأحقية دعوتك، إلا أن أحدا من هاتين الفئتين لم ينتفع من استماعه أو نظره، لأن نظره لم يكن نظر فهم وإدراك، بل نظر انتقاد واتباع عثرات ومخالفه.

وكذلك لا يستفيدون من استماعهم، لأنهم لا يستمعون لإدراك محتوى الكلام، بل للعثور على ثغرات فيه لتكذيبه وإنكاره، ومن المعلوم أن تيه الإنسان ترسم شكل العمل وتغير من آثاره.

٢- جاءت في آخر الآية الثانية جملة: **وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ** وفي آخر الآية الثالثة جملة: **وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ** وهي إشارة إلى أن الاستماع-أي إدراك الألفاظ-ليس كافيا بمفرده، بل إن التفكير والتدبر فيها لازم أيضا لينتفع الإنسان من محتواها. وكذلك لا أثر للنظر بمفرده، بل إن البصيرة-وهي إدراك مفهوم ما يبصره الإنسان-لازمه أيضا ليصل إلى عمقها ويهتدى.

إشاره

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَلَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلِيمٌ ۖ يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)

التفسير

بعد بيان بعض صفات المشركين في الآيات السابقه، أشير هنا إلى وضعهم المؤلم في القيامة. تقول الآية: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ .

الإحساس بقله مقدار الإقامه في دار الدنيا وقصره، إنما لأنه بالنسبه للحياه الاخرى لا يبلغ سوى ساعه واحده. أو لأن هذه الدنيا الفانيه انقضت بسرعه بحيث كأنها لم تكن أكثر من ساعه، أو لأنهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفاده الصحيحه، فيتصورون أنها لا تساوى أكثر من قيمه ساعه!.

بناء على ما قلناه في التفسير أعلاه، فإن جملة يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ إشاره إلى

مقدار بقائهم في الدنيا، أي إنهم يحسون أن أعمارهم كانت قصيرة إلى الحد الذي يكفي لالتقاء شخصين و تعارفهما ثم تفرقهما!.

وقد احتمل أيضا- في تفسير هذه الآية- أن المقصود هو الإحساس بقصر الزمان بالنسبة لحياء البرزخ، أي إن هؤلاء يعيشون في فترة البرزخ حاله شبيهه بالنوم بحيث لا يشعرون بمرور السنين و القرون و الأعصار، و يظنون في القيامه أن مرحله برزخهم التي استغرقت آلاف أو عشرات الآلاف من السنين، لم تكن إلا- ساعة. و الشاهد على هذا التفسير الآيتان (٥٥)- (٥٦) من سورة الروم، اللتان تقولان: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنَّا لَا تَعْلَمُونَ .

يستفاد من هاتين الآيتين أن مجموعه من المجرمين يقسمون في القيامه أن فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلا أن المؤمنين يقولون لهم: إن المدّة كانت طويلة، و الآن قد قامت القيامه و أنتم لا تعلمون. و نحن نعلم أن البرزخ ليس متساويا بالنسبة للجميع، و سنذكر تفصيل ذلك في ذيل الآيات المناسبة.

و بناء على هذا التفسير، فإن معنى جملة يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ سيكون: إن هؤلاء يحسون بأن زمان البرزخ كان قصيرا بحيث أنهم لم ينسوا أي أمر من أمور الدنيا، و يعرف بعضهم البعض الآخر جيدا. أو أن كلا- منهم يرى أعمال الآخرين القبيحة هناك، و يطلع كل منهم على باطن الآخر، و هذا بحد ذاته فضيحة كبرى بالنسبة لهؤلاء.

ثم تضيف الآية أنه سيثبت لكل هؤلاء في ذلك اليوم: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ أَنْفَقُوا كُلَّ مَلَكَاتِهِمْ وَ طَاقَاتِهِمُ الْحَيَوِيَّةَ دُونَ جَدْوَى وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ بسبب هذا التكذيب و الإنكار و الإصرار على الذنب، و لأن قلوبهم و أرواحهم كانت مظلمه.

و تقول الآيه التاليه تهديدا للكفار، و تسليه لخاطر النبى صلى الله عليه و آله و سلم: **وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ .**

و تبين الآيه الأخيره من الآيات مورد البحث قانونا كليا فى شأن كل الأنبياء، و من جملتهم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و كل الأمم و من جملتها الأمه التى كانت تحيا فى عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فتقول: **وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهَا وَ بَلَغَ رَسُولُهَا، وَ آمَنَ قَسَمَ مِنْهُمْ وَ كَفَرَ آخَرُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَقْضَىٰ بَيْنَهُمْ بِعَدْلِهِ، وَ لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، فَيَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ وَ الصَّالِحُونَ يَتَمَتَّعُونَ بِالْحَيَاةِ، أَمْيَا الْكَافِرُونَ فَإِنَّهُمْ فَمَصِيرُهُمُ الْفَنَاءُ أَوْ الْهَزِيمَةُ: فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ .**

و هذا ما حصل لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم و أمته المعاصره له، فإن أعداءه هلكوا فى الحروب، أو انهزموا فى النهايه و طردوا من ساحه المجتمع و أخذ المؤمنون زمام الأمور بأيديهم. و بناء على هذا فإن القضاء و الحكم الذى ورد فى هذه الآيه هو القضاء التكوينى فى هذه الدنيا، و أمّا ما احتمله بعض المفسرين من أنه إشاره إلى حكم الله يوم القيامة. فهو خلاف الظاهر.

اشاره

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)

التفسير

اشاره

العذاب الإلهي و اختيارات الرسول:

بعد التهديدات التي ذكرت في الآيات السابقة المتعلقة بعذاب و عقاب منكري الحق، فإن هذه الآيات تنقل أولاً استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهي و سخريتهم و انكارهم. فتقول: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

هذا الكلام كان كلام مشركي عصر النبي صلى الله عليه و آله و سلم حتما، لأن الآيات التاليه التي

تتضمن جواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاهده على هذا المطلب.

على كل حال، فإن هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهروا عدم اهتمامهم بتهديدات النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جهه، و تقويه قلوب الذين خافوا من هذه التهديدات و تهدئه خواطرهم ليرجعوا إلى صفوفهم.

و في مقابل هذا السؤال، فإن الله سبحانه أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيهم بعدة طرق:

فيقول أولاً: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ فَإِنِّي لست إِلَّا رَسُوله و نبيّه، و إنَّ تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط، و إذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً و لا ضراً، فمن باب الأولى أن لا أملكهما لكم.

إنَّ هذه الجملة في الحقيقه إشاره إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شيء في هذا العالم بالله سبحانه، و كل الحركات و الأفعال معلوله لإرادته و مشيئته، فهو الذي ينصر المؤمنين بحكمته، و هو الذي يجازى المنحرفين بعدالته.

من البديهي أن ذلك لا ينافي أن الله قد أعطانا قوى و طاقات نملك بواسطتها جلب النفع و دفع الضرر، و نستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا، و بتعبير آخر فإن هذه الآيه تنفي الملكيه بالذات لا بالغير، و جملة إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ قرينه واضح على هذا الموضوع.

و من هنا يعلم أن استدلال بعض المتعصبين - ككاتب تفسير المنار - بهذه الآيه على نفى جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم و سلم ضعيف جداً، لأنه إذا كان المقصود من التوسل أن نعتبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذا قدره ذاتيه و مالكا للنفع و الضرر، فإن هذا شرك قطعاً، و لا يمكن أن يؤمن بهذا أى مسلم، أما إذا كانت هذه الملكيه من الله سبحانه و هى داخله تحت عنوان: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، فما المانع من ذلك؟ و هذا هو عين الإيمان و التوحيد. إلا أنه نتيجة الغفله عن هذه النكته أتلّف و قته و وقت قرآء تفسيره بالبحوث الطويله، و هو مع الأسف (رغم كل الامتيازات الموجوده فى تفسيره) قد ارتكب كثيرا من هذه الأخطاء، و التى يمكن اعتبار التعصب منبعها جميعاً!

ثم يتطرق القرآن إلى جواب آخر ويقول: لِكَلِّ أُمَّه أَحِلُّ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ وبتعبير آخر فإن أى أمه إذا انحرفت عن مسير الحق، فسوف لا تكون مصونه من العذاب الإلهي الذي هو نتيجة أعمالها، فعند ما ينحرف الناس عن قوانين الخلقه والطبيعته فسيبددون طاقاتهم وملكاتهم في فراغ و يسقطوا في النهايه فى هاويه الانحطاط و يحتفظ تاريخ العالم فى ذاكرته بنماذج كثيره من ذلك.

فى الواقع إنَّ القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهي بأن لا يعجلوا، فعند ما يحل موعدهم فإنَّ هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظه.

و يجب الالتفات إلى أنَّ الساعه قد تعنى أحيانا لحظه، و أحيانا المقدار القليل من الزمن، بالرغم من أنَّ معناها المعروف اليوم هو الأربع و العشرون ساعه التى تشكل الليل و النهار.

و تطرح الآيه الأخرى الجواب الثالث، فتقول: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا فَهَلْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ هَذَا الْعَذَابَ الْمَفَاجِئِ غَيْرِ الْمُرْتَقِبِ؟ و إذا كان الحال كذلك ف ما ذا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ؟ و بتعبير آخر، فإنَّ هؤلاء المجرمين الجريئين إن لم يتيقنوا نزول العذاب فليحتملوا على الأقل أن يأتيهم فجأه، فما الذى يضمن لهؤلاء أنَّ تهديدات النبي صلى الله عليه و آله و سلم سوف لن تقع أبدا؟ إنَّ الإنسان العاقل يجب أن يراعى الاحتياط على الأقل فى مقابل مثل هذا الضرر المحتمل و يكون منه على حذر.

و ورد نظير هذا المعنى فى آيات أخرى من القرآن، و بتعبيرات أخرى، مثل:

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً سورة الإسراء، الآية (٦٨). و هذا هو الذى يعبر عنه فى علم الكلام و الأصول

بقاعده «لزوم دفع الضرر المحتمل» (١).

و فى الآيه التالىه ورد جواب رابع لهؤلاء، فهى تقول: إذا كنتم تفكرون أن تؤمنوا حين نزول العذاب، وأن إيمانكم سيقبل منكم، فإنّ ظنكم هذا باطل لا صحه له: أ ثمّ إذا ما وقع آمنتم به، لأنّ أبواب التوبه ستغلق بوجهكم بعد نزول العذاب، و ليس للإيمان حينئذ أدنى أثر، بل يقال لكم: الآن وقد كنتم به تستعجلون .

هذا بالنسبه لعقاب هؤلاء الدينوى، و فى الآخره: ثمّ قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكفون، فإنّ أعمالكم فى الواقع هى التى أخذت بأطرافكم، و هى التى تتجسد أمامكم و تؤذيكم على الدوام.

ملاحظات

١- كما قلنا فى ذيل الآيه (٣٤) من سوره الأعراف، فإنّ بعض أهل البدع و الأديان المختلفه فى عصرنا استدلوا بآيات. مثل: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ التى وردت مرّتين فى القرآن، على نفى خاتميه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، و توصلوا إلى أن كل دين و مذهب ينتهى فى النهايه و يخلى مكانه لمذهب آخر. فى حين أن الأمه تعنى القوم و الجماعه. لا المذهب.

إنّ هدف هذه الآيات هو أنّ قانون الحياه و الموت لا يختص بالأفراد، بل إنّه يشمل الأقوم و الأمم أيضا، فإذا سلكوا طريق الظلم و الفساد فإنّهم سينقضون لا

ص: ٣٧٣

١ - ١) يتضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الآيه المذكوره تشتمل على قضيه شرطيه، ذكر شرطها، إلا أنّ جزاءها مقدر، و جمله: ما ذا يَسْتَعْجَلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ جمله مستقله. و تقدير الآيه هكذا: أ رأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهرا كنتم تقدرّون على دفعه أو تعدونه أمرا محالا فإذا كان الأمر كذلك (ماذا يستعجل منه المجرمون). و ما احتمله البعض من أن جمله: ماذا يستعجل..هى جزاء الشرط بعيدا جدا. دققوا ذلك.

محاله، خاصه إذا لا حظنا فى هذا البحث الآيه التى قبلها و التى بعدها، فستثبت هذه الحقيقه بوضوح، و هى أن الكلام ليس عن نسخ المذهب، بل عن نزول العذاب و فناء قوم أو أمه، لأن الآيه السابقه و اللاحقه تتحدثان عن نزول العذاب و العقاب الدنيوى.

٢- إذا لا- حظنا الآيات أعلاه سيأتى هذا السؤال، و هو: هل ستبتلى المجتمعات الإسلاميه أيضا بهذا العقاب و العذاب فى هذا العالم؟ و الجواب عن هذا السؤال بالإيجاب، إذ لا دليل لدينا على أن هذه الأمه مستثناه، بل إن هذا القانون فى حق كل الأمم و الملل، و ما قرأناه فى بعض آيات القرآن- الأنفال ٣٣- من أن الله سبحانه سوف لا- يعذب هذه الأمه، فهو مشروط بواحد من شرطين: إما وجود النبى صلى الله عليه و آله و سلم بين أولئك، أو الاستغفار و التوبه من الذنوب، لا أنه بدون قيد أو شرط.

٣- تؤكد الآيات أعلاه مره أخرى على هذه الحقيقه، و هى أن أبواب التوبه تغلق حين نزول العذاب فلا ينفع الندم حينئذ، و سبب ذلك واضح، لأن التوبه فى مثل هذه الأحوال تكون عن إكراه و إجبار، و مثل هذه التوبه لا قيمه لها.

اشاره

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ
أَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

التفسير

اشاره

لا معنى للشك في العذاب الإلهي:

كان البحث في الآيات السابقة عن جزاء و عقاب المجرمين في هذه الدنيا و العالم الآخر، و تكمل هذه الآيات هذا البحث أيضا.

فألايه الأولى تقول: إن هؤلاء يسألونك بتعجب و استفهام عن حقيقه هذا الوعيد بالعذاب الإلهي في هذا العالم و العالم الآخر: وَ
يَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ وَ من المعلوم أن «الحق» هنا ليس في مقابل الباطل، بل المراد منه هو: هل إن لهذه العقوبه حقيقه و واقعا و أنها
ستتحقق؟ لأن الحق و التحقق مشتقان من ماده واحده، و من البديهي

أن الحق في مقابل الباطل بهذا المعنى الواسع سيضم كل واقع موجود، وستكون النقطة المقابلة له كل معدوم و باطل.

و يأمر الله سبحانه نبيه أن يجيهم على هذا السؤال بما أوتى من التأكيد: قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ إِذَا ظَنَنْتُمْ أَنَّنَّكُمْ تَسْتَطِيعُونَ أَن تَفَلْتُوا مِن قَبْضِهِ الْعِقَابِ الْإِلَهِيِّ فَأَنْتُمْ عَلَى خَطَأٍ كَبِيرٍ: وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

الواقع إن هذه الجملة مع الجملة السابقة من قبيل بيان المقتضى و المانع، ففي الجملة الأولى يقول: إن عذاب المجرمين امر واقعي، و يضيف في الجملة الثانية أن أي قدره لا تستطيع أن تقف أمامه، تماما كآيات (٨) - (٩) من سورة الطور: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ .

إن التأكيدات التي تلاحظ في الآيه تستحق الانتباه، فمن جهة القسم، و من جهة أخرى إن و لام التأكيد، و من جهة ثالثة جملة و مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ و كل هذه تؤكد على أن العقاب الإلهي حتمي عند ارتكاب الكبائر.

و تؤكد الآيه الأخرى على عظمه هذه العقوبة، و خاصه في القيامة، فتقول: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ (١) في الواقع، إن هؤلاء مستعدون لأن يدفعوا أكبر رشوه يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضه العذاب الإلهي، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئا، و لا ينقص من عذابهم مقدار رأس ابره، خاصه و أن لبعض هذه العقوبات صبغه معنويه، و هي أنهم: يرون العذاب و الفضيحة في مقابل أتباعهم مما يوجب لهم اظهار الندم مزيدا من الخزي و العذاب النفسي فلذلك يحاولون عدم إبراز الندم: وَ أَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ .

ثم تؤكد الآيه على أنه بالرغم من كل ذلك، فإن الحكم بين هؤلاء يجرى بالعدل، و لا يظلم أحد منهم: وَ قَضَىٰ يَبْتَهُم بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ . إن هذه الجملة تأكيد على طريقه القرآن دائما في مسأله العقوبة و العدالة، لأن تأكيدات

ص: ٣٧٤

(١ - ١) في الواقع، إن في الجملة أعلاه جملة مقدره، و هي: (من هول القيامة و العذاب).

الآيه السابقه فى عقاب المذنبين يمكن أن توجد لدى الأفراد الغافلين توهم أن المسأله مسأله انتقام، و لذا فإنّ القرآن يقول أوّلا إنّ الحكم بين هؤلاء يجرى بالقسط، ثمّ يؤكّد على أنّ أى أحد من هؤلاء سوف لا يظلم.

ثم، و من أجل أن لا- يأخذ الناس هذه الوعود و التهديدات الإلهيه مأخذ الهزل، و لكى لا يظنوا أنّ الله عاجز عن تنفيذ هذه الوعود، تضيف الآيه: **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** لأنّ جهلهم قد حجب بصيرتهم و جعل عليها غشاوه فلم يعوا الحقيقه.

و تؤكّد آخر آيه على هذه المسأله الحياتيه مرّه أخرى، حيث تقول: **هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ بِنَاءِ عَلَى ذَلِكَ فَإِنْ لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى إِمَاتِهِ الْعِبَادِ، كَمَا أَنَّ لَهُ الْقُدْرَةَ عَلَى إِحْيَائِهِمْ لِمَحْكَمَةِ الْآخِرَةِ، وَ فِي النّهَايَةِ: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَ سَتَلْقَوْنَ جَزَاءَ كُلِّ أَعْمَالِكُمْ هُنَاكَ.**

ملاحظات

١- من جمله الأسئلة التى تطرح فى مورد الآيات أعلاه: هل أنّ لسؤال المشركين عن واقعيه العقاب الإلهي صفة الاستهزاء، أم أنّه كان سؤالاً حقيقياً؟ ذهب البعض الى أنّ السؤال الحقيقى علامه الشك، و هو لا يناسب وضع المشركين، إلاّ أنّه بملاحظه أنّ كثيرا من المشركين كانوا فى حاله تردد، و جماعه منهم أيضا كانوا على علم بأحقية النبى صلى الله عليه و آله و سلّم، و قد وقفوا ضده نتيجة التعصب و العناد و أمثال ذلك، فسيبدو واضحا أنّ كون سؤال هؤلاء حقيقيا ليس بعيدا أبدا.

٢- إنّ حقيقه الندامه هى الندم على ارتكاب عمل اتّضح آثاره السلبيه سواء استطاع الإنسان أن يجبر ذلك أم لا، و ندم المجرمين فى القيامه من النوع الثّانى، و إنّما كتموه لأنّ إظهاره سيزيد من فضيحتهم.

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُلُكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بَرَحْمَتِهِ
فَبَدَّلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

التفسير

اشاره

القرآن رحمه إلهيه كبرى:

لقد جاءت في بعض الآيات السابقة بحوث في شأن القرآن عكست جوانب من مخالقات المشركين. و في هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبه أيضا، ففي البدايه تخاطب جميع البشريه خطابا عالميا و شموليا و تقول:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُلُكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

لقد بينت هذه الآيه أربع صفات للقرآن، و لإدراك مدلولاتها و محتواها لا بد أن نعتمد أولا على لغاتها و معناها.

«الوعظ» و«الموعظه»، كما جاء في المفردات: هو النهى الممتزج بالتهديد، أنّ معنى الموعظه أوسع من هذا ظاهراً، كما نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي في نفس كتاب المفردات، أنّ الموعظه عبارته عن التذكير بالنعم والطيبات المقترن بقره القلب. وفي الحقيقة فإنّ كل نصيح وإرشاد يترك أثراً في المخاطب، ويخوفه من السيئات ويرغبه في الصالحات يسمى وعظاً وموعظه. وطبعاً ليس معنى هذا أن كل موعظه يجب أن يكون لها تأثير، بل المراد أنّها تؤثر في القلوب المستعدة.

والمقصود من شفاء أمراض القلوب، وبتعبير القرآن شفاء ما في الصدور، هي تلك التلوّثات المعنوية والروحية، كالبخل والحقد والحسد والجبن والشرك والنفاق وأمثال ذلك، وكلها من الأمراض الروحية والمعنوية.

والمقصود من «الهدايه» هو الهدايه نحو المقصود، أى تكامل ورقى الإنسان في كافة الجوانب الإيجابية.

والمراد من «الرحمه» هي النعم الماديه والمعنويه الإلهيه التي تشمل حال الأفراد اللائقين، كما نقرا في كتاب المفردات أنّ الرحمه متى ما نسبت إلى الله فإنّها تعنى بذله وهبته للنعم، وإذا ما نسبت إلى البشر فإنّها تعنى العطف ورقه القلب.

في الواقع، إنّ الآيه أعلاه تشرح وتبيّن أربع مراحل من مراحل تربيته وتكامل الإنسان في ظل القرآن.

المرحلة الأولى: مرحله الموعظه والنصيحه.

المرحلة الثانيه: مرحله تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقيه.

المرحلة الثالثه: مرحله الهدايه التي تجرى بعد مرحله التطهير.

المرحلة الرابعه: هي المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لائقاً لأن تشمله رحمه الله ونعمته.

و كل مرحله من هذه المراحل تأتي بعد المرحلة السابقه لها،و الجميل فى الأمر أنها تتم جميعا فى ظل نور القرآن و توجيهاته.

القرآن هو الذى يعظ البشر،و القرآن هو الذى يغسل قلوبهم من تبعات الذنوب و الصفات القبيحه،و القرآن هو الذى يوقد نور الهدايه فى القلوب ليضيئها،و القرآن أيضا هو الذى ينزل النعم الإلهيه على الفرد و المجتمع.

و يوضح أمير المؤمنين على عليه السلام

فى كلامه الجامع فى نهج البلاغه هذه الحقيقه بأبلغ تعبير،حيث يقول: «فاستشفوه من أدوائكم،و استعينوا به على ولائكم،فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء،و هو الكفر و النفاق،و الغى و الضلال» (١).

و هذا بنفسه يبين أنّ القرآن و صفه لتحسين حال الفرد و المجتمع،و صيانتهم من أنواع الأمراض الأخلاقيه و الاجتماعيه،و هذه الحقيقه أودعها المسلمون فى كف النسيان،و بدل أن يستفيدوا من هذا الدواء الشافى،فإنّهم يبحثون عن دوائهم و علاجهم فى المذاهب الأخرى،و جعلوا هذا الكتاب السماوى الكبير كتاب قراءه فقط،لا كتاب تفكر و عمل! و تقول الآيه الأخرى من أجل تكميل هذا البحث و التأكيد على هذه النعمه الإلهيه الكبرى-أى القرآن المجيد-: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا وَ لَا يَفْرَحُوا بِمَقْدَارِ الثَّرَاثِ،و عظم المراكز،و عزه القوم و القبيله،لأنّ رأس المال الحقيقى و الأساس للسعاده الحقيقيه هو هذا القرآن،فهو أفضل من كل ما جمعه، و لا يمكن قياسه بذلك المجموع،إذا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

ص : ٣٨٠

١- هل أن القلب هو مركز الإحساسات؟

ظاهر الآيه الأولى من هذه الآيات، كما هو ظاهر بعض آيات أخرى من القرآن، أن مركز الأمراض الأخلاقية هو القلب.

إن هذا الكلام يمكن أن يعارضه في البدايه هذا الإشكال، وهو أننا نعلم أن كل الأوصاف الأخلاقية و المسائل الفكرية و العاطفيه ترجع إلى روح الإنسان، وليس القلب إلا مضخه أتوماتيكية لنقل الدم و تغذيه خلايا البدن.

هذا حقّ طبعاً، فإن القلب له وظيفه إداره جسم الإنسان، و المسائل النفسيه مرتبطه بروح الإنسان، لكن توجد هنا نكته دقيقه إذا ما لوحظت سيّضح رمز هذا التعبير القرآني، و هي أن في جسم الإنسان مركزين كل منهما مظهر لبعض الأعمال النفسيه للإنسان، أي أن كلا من هذين المركزين إذا تأثر بالانفعالات النفسيه فإنه سيظهر رد الفعل مباشره: أحدهما المخ، و الآخر القلب.

عند ما نبحت المسائل الفكرية في محيط الروح، فإن انعكاس ذلك التفكير سيّضح فوراً في المخ، و بتعبير آخر فإن المخ آله تساعد الروح في مسأله التفكير، و لذلك فإن الدم يدور بصورة أسرع في المخ في حاله التفكير، و تتفاعل خلايا المخ بصورة أكبر، و بالتالي سوف تمتص كميه أكبر من الغذاء و ترسل أمواجا أكثر.

أمّا عند ما يكون الكلام و البحث حول المسائل العاطفيه كالعشق و المحبه، و التصميم و الإراده و الغضب و الحقد و الحسد، و العفو و الصفح، فإن نشاطاً عجيباً يبدأ في قلب الإنسان، فأحياناً تشتد ضرباته، و أحياناً تقل إلى الحد الذي يظن معه أنه سيتوقف عن العمل، و نشعر أحياناً أن قلبنا يريد أن ينفجر. كل ذلك نتيجة للارتباط الوثيق للقلب مع هذه المسائل.

لهذه الجبهه ينسب القرآن المجيد الإيمان إلى القلب، فيقول: **وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ**

(١)

و يعبر عن الجهل و العناد و عدم الإذعان للحق بأنه عمى القلب:

و لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

(٢)

و من نافله القول، فإن مثل هذه التعبيرات ليست مختصة بالقرآن، بل تلاحظ في أدب اللغات المختلفه في الأزمنه الغابره، و تلاحظ اليوم أيضا مظاهر هذه المسأله بأشكال مختلفه. فغالبا ما نقول للشخص الذى نحترمه و نحبه: إن لك مكانا فى قلوبنا، أو أن قلوبنا منشده إليك، و الأدباء يجسدون هذا المعنى و يجعلون سنبله العشق نابعه من القلب دائما.

كل ذلك لأن الإنسان يحس دائما بتأثير خاص فى قلبه فى حاله العشق و الغرام، أو الحقد و الحسد، أى أن أول قدحه فى هذه المسائل النفسيه عند انتقالها إلى الجسم تتجلى فى القلب.

إضافه إلى كل هذا، فقد أشرنا سابقا إلى أن أحد معانى القلب فى اللغه هو عقل و روح الإنسان، و معنى ذلك أن القلب لا ينحصر بهذا العضو الخاص الموجود داخل الصدر، و هذا بنفسه يمكن أن يكون تفسيرا آخر لآيات القلب، لكن لا جميعها، لأن بعضها صرحت بأنها القلوب التى فى الصدور-دققوا ذلك-.

٢- ما هو الفرق بين الفضل و الرحمه؟

هناك بحث مفصل بين المفسرين فى الفرق بين الفضل و الرحمه اللذين أشير إليهما فى الآيه الثانيه.

أ- فالبعض اعتبر الفضل الإلهى إلى النعم الظاهريه. و الرحمه إشاره إلى النعم الباطنيه، و بتعبير آخر إن إحداها النعم الماديه، و الأخرى النعم المعنويه. و قد جاءت مرارا فى آيات القرآن جمله: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَوْ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ

ص: ٣٨٢

١- (١) الحجرات، ١٤.

٢- (٢) الحج، ٤٤.

بمعنى تحصيل الرزق و الموارد الماديه.

ب- و قال البعض الآخر: إنَّ الفضل الإلهى بدايه النعمه، و رحمته دوام النعمه.

و إذا ما لا- حظنا أنَّ الفضل هو بذل النعمه و هبتها، و أن ذكر الرحمه بعد ذلك يجب أن يكون شيئاً مضافاً على ذلك يتضح المراد من هذا التفسير. و ما نقرؤه فى روايات متعدده من أنَّ المراد من الفضل الإلهى هو وجود النبى صلى الله عليه و آله و سلم و نعمه النبوه، و أنَّ المراد من رحمته الله وجود على عليه السلام و نعمه الولايه ربّما كان إشاره إلى هذا التفسير، لأنَّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان بدايه الإسلام، و الإمام على عليه السلام سبب بقائه و استمراره فأحدهما علّه محدثه و موجدّه، و الآخر علّه مبقيه (١).

و احتمال البعض الآخر أن يكون الفضل إشاره إلى نعم الجنّه، و الرحمه إشاره إلى العفو عن الذنب و غفرانه.

ج- و يحتمل أيضاً أن الفضل إشاره إلى نعمه الله العامّه التى تعم العدو و الصديق، و الرحمه-بملا-حظه كلمه (للمؤمنين) التى ذكرت كقيد للرحمه فى الآيه السابقه-إشاره إلى رحمته الخاصّه بالمؤمنين.

التفسير الآخر الذى ذكر لهاتين الكلمتين، هو أن فضل الله إشاره إلى مسأله الإيمان، و الرحمه إشاره إلى القرآن المجيد الذى سبق الكلام عنه فى الآيه السابقه.

طبعاً، إنَّ أغلب هذه المعانى لا تضاد بينها، و يمكن أن تجمع جميعها فى المفهوم الجامع للفضل و الرحمه.

ص: ٣٨٣

١- (١) للاطلاع على هذه الروايات، راجع تفسير نور الثقلين الجزء ٢ ص ٣٠٧-٣٠٨.

اشاره

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَنْ ظَنَّ أَلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)

التفسير

اشاره

هو الشاهد في كل مكان!

كان الحديث في الآيات السابقة عن القرآن، و الموعظه الإلهيه و الهدايه و الرحمه في هذا الكتاب السماوى، و تتحدث هذه الآيات عن قوانين المشركين المبتدعه و الخرافيه و أحكامهم الكاذبه، لأن الذى يؤمن بالله و يعلم أن كل

المواهب و الأرزاق منه، يجب أن يقبل هذه الحقيقة أيضا، وهي أن بيان حكم هذه المواهب من حيث الحليه و الحرمة بيده، وإن التدخل فى هذا العمل بدون إذنه عمل غير صحيح.

الآية الأولى و جهت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قالت: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَ حَلَالًا إِذَا أَنْهَمُ طَبَقًا لِسِنِّهِمْ خِرَافِيهِ حَرَمُوا قِسْمًا مِنَ الدَّوَابِّ بِاسْمِ «السَّائِبِ» وَ «الْبَحِيرِ» وَ «الْوَصِيلِ» (١)، و كذلك حرموا جزءا من محاصيلهم الزراعيه، و حرموا أنفسهم من هذه النعم الطاهره المحلله، إضافة إلى ذلك فإن كون الشىء حراما أو حلالا ليس مرتبطا بكم، بل هو مختص بأمر الله خالق تلك الموجودات.

ثم تقول: قُلْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ، أى إن لهذا العمل صورتين لا ثالث لهما: فأمّا أن يكون بإذن الله، أو أنه تهمة و افتراء، و لما كان الاحتمال الأول منتفيا، فلم يبق إلا الثانى.

الآن و قد أصبح من المسلم أن هؤلاء بهذه الأحكام الخرافيه المبتدعه، إضافة إلى أنهم حرموا من النعم الإلهيه، فإنهم قد افتروا على الساحة الإلهيه المقدسه، و لذلك تضيف الآية: وَ مَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَسَعَهُ رَحْمَتُهُ لَا يَعَاقِبُ هَؤُلَاءِ فُورًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ الْقَبِيحَةِ.

إلا- أن هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصه الإلهيه و يشكروا الله على ذلك و ينيبوا إليه، فإن أكثرهم غافلون: وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ .

و يحتمل فى تفسير هذه الآية أيضا، أن كون كل هذه المواهب و الأرزاق- عدا

ص: ٣٨٥

١- (١) (البحيره) هى الحيوان الذى يلد عدّه مرّات، و(السائبه) هو البعير الذى أنتج عشره أو اثنى عشر ولدا، و(الوصيله) كانت تطلق على الغنم إذا ولدت سبعة بطون. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (١٠٣) من سورة المائده.

الأشياء المضرة و الخبيثة المستثناه-محلله هو بنفسه نعمه إلهيه كبرى،و إن كثيرا من الناس بدل أن يؤدوا شكر هذه النعمة،فإنهم يكفرون بها،و يحرمون أنفسهم من هذه النعمة بأحكامهم الخرافية و ممنوعاتها.

و حتى لا- يتصور أحد أنّ هذه المهله الإلهيه دليل على عدم إحاطه علم الله سبحانه بكل أعمال هؤلاء،فإنّ آخر آيه من آيات البحث تبين هذه الحقيقه بأبلغ عباره و توضح أن الله مطلع على كل ذرات الموجودات في خفايا السماء و الأرض،و مطلع على دقائق أعمال العباد،فتقول: **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** (١).

«الشهود» جمع شاهد،و هو في الأصل بمعنى الحضور المقترن بالمشاهده بالعين أو القلب أو الفكر،و التعبير بالجمع إشاره إلى أنّ الله سبحانه ليس وحده المراقب لأعمال البشر،بل إنّ الملائكه المطيعين لأمره مطلعون أيضا على كل هذه الأعمال و ناظرون إليها.

و كما أشرنا سابقا،فإنّ التعبير بصيغه الجمع في حق الله سبحانه مع أنّ ذاته المقدسه أوحديه من جميع الجهات،إشاره إلى عظمه مقامه،و أن له دائما مأمورين مطيعين مستعدين لتنفيذ أمره و الواقع فإن الكلام ليس عن الله وحده،بل عنه و عن كل هؤلاء المأمورين المطيعين.

ثم تعقب الآيه على مسأله اطلاع الله على كل شيء بتأكيد أكبر،فتقول: **وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**.

«يعزب» مأخوذه من العزوب،و هو في الأصل بمعنى الابتعاد عن البيت و الأهل في سبيل إيجاد و تهيئه المراتع للأغنام و الحيوانات،ثم استعملت بمعنى الغيبه

ص: ٣٨٦

١ - ١) لقد أرجع البعض ضمير(منه)إلى الله،أى إن الآيات التي تتلوها من الله،إلا- أن الضمير يرجع إلى الشأن أو القرآن ظاهرا،كما قاله كثير من المفسرين،أى الآيات التي تتلوها في كل عمل مهم،أو الآيات التي تتلوها من القرآن.

و الاختفاء بصورة مطلقه.

«و الذّره» بمعنى الجسم الصغير جدّا، و لذلك يقال للنمل الصغير: ذره. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآيه (٤٠) من سوره النساء.

«الكتاب المبين» إشاره إلى علم الله الواسع، و الذى يعبر عنه أحيانا باللوح المحفوظ، و قد تحدثنا عن هذا الموضوع فى تفسير الآيه (٥٩) من سوره الأنعام.

ملاحظات

١- إنّ الآيات أعلاه قد أثبتت ضمن عبارات قصيره هذه الحقيقه، و هى أنّ حق التشريع مختص بالله، و كل من يقدم على مثل هذا العمل بدون إذنه و أمره، فإنّه يكون قد افترى على الله، لأنّ كل الهبات و الأرزاق تنزل من عنده، و إنّ الله سبحانه هو المالك الأصلي لها فى الحقيقه، و بناء على هذا فإنّ له الحق فى أن يجعل بعضها مباحا و البعض الآخر غير مباح.

و مع أنّ أوامره فى هذا المجال تهدف الى نفع العباد و تكاملهم و ليس له أدنى حاجه لهذا العمل، إلاّ أنّه على كل حال هو صاحب الإختيار و التشريع، و قد يرى أنّ من المصلحه إعطاء أحد العباد كالتبى صلى الله عليه و آله و سلّم حق هذا العمل فى حدود معينه. كما يستفاد من روايات متعدده- أيضا- أنّ التبى صلى الله عليه و آله و سلّم قد حرم بعض الأمور أو أوجبها، و الذى عبرت عنه الروايات ب(فرض التبى). و من الطبيعى أنّ كل أوامره و نواهيها فى حدود ما خوله الله سبحانه من الصلاحيات، و حسب أمر الله.

□
إنّ جملة آله أذن لكم دليل أيضا على أن من الممكن أن يجيز الله أحدا بمثل هذه الإجازة.

إنّ هذا البحث مرتبط بمسأله «الولاية التشريعيه»، و التى سنبيّن بها بصورة أكثر تفصيلا فى محل آخر إن شاء الله تعالى.

٢- إنَّ تعبير الآيات أعلاه عن الرزق بالنزول-مع أننا نعلم أنَّ المطر هو الوحيد الذى ينزل من السماء-إمّا لأنَّ هذه القطرات المباركة تشكل الأساس لكل الأرزاق، أو لأنَّ المراد هو «النزول المقامى» الذى أشرنا إليه سابقاً، و مثل هذا التعبير يلاحظ فى المكالمات اليومية، فمثلاً إذا صدر أمر من شخص كبير، أو هبه ما إلى شخص صغير، فيقولون: إنَّ هذا الأمر صدر من الأعلى، أو أنَّه وصلنا من فوق.

٣- لقد أثبت علماء الأصول بجمله آلهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ قاعده عدم حجيه الظن، وقالوا: إنَّ هذا التعبير يوضح أنَّه لا يمكن إثبات أى حكم من الأحكام الإلهيه بدون القطع و اليقين، و إلاَّ فإنَّه افتراء على الله و حرام. (لنا بحوث فى هذا الاستدلال ذكرناها فى مباحث علم الأصول).

٤- إنَّ الآيات أعلاه تعطينا درساً آخر، و هو أنَّ التشريع مقابل شريعة الله دين الجاهليه، حيث كانوا يعطون لأنفسهم الحق فى وضع الأحكام مع ضيق أفكارهم و ضحالتها، و لكن لا يمكن أن يكون المؤمن الحقيقى كذلك مطلقاً. و ما نراه فى عصرنا الحاضر من أن جماعه يتحدثون عن الله و الإسلام، و فى الوقت نفسه يمدون يد الاستجداء نحو قوانين الآخرين غير الإسلاميه، أو يسمحون لأنفسهم بأن يطرحوا جانباً قوانين الإسلام باعتبارها غير قابله للتطبيق و يشرِّعون بأنفسهم القوانين، فإنَّ هؤلاء من أتباع سنن الجاهليه أيضاً.

إنَّ الإسلام الواقعى لا- يقبل التجزئه، فعند ما قلنا: إننا مسلمون، فيجب أن نعترف بكل قوانينه فما يقال من أن قوانين الإسلام غير قابله بأجمعها للتنفيذ و هم باطل لا أساس له، و هو ناشئ من التغريب و انهيار الشخصيه.

طبعاً، إنَّ الإسلام- نظراً لشموليته- قد أطلق لنا فى بعض المسائل اتخاذ مقررات و قوانين مناسبه مع ذكر الأصول العامه حتى نستطيع أن ننظم احتياجات كل عصر و زمان حسب تلك الأصول بالاستشاره و التشاور، ثم نضعها فى حيز

٥- أكدت الآيه الأخيره حين الإشاره إلى سعه علم الله على ثلاث مسائل و قالت:إِنَّكَ لا تكون فى حاله نفسيه معينه،و لا تتلو آيه آيه،و لا تقوم بأى عمل إلا و نحن شاهدون عليك و ناظرون إليك.

إن هذه التعبيرات الثلاثه إشاره إلى أفكار و أقوال و أعمال البشر،أى إن الله تعالى كما ينظر إلى أعمالنا،فإنه يسمع كلامنا،و هو مطلع على أفكارنا و نياتنا،و لا يخرج عن إحاطه علم الله شىء منها.

و لا شك أن النيه و الحالات الروحيه تقع فى المرحله الأولى،و القول يأتى بعدها،ثم يتبعهما العمل و التنفيذ،و لهذا قد ورد نفس الترتيب فى الآيه.

ثم إننا نرى أن القسم الأول و الثانى قد ذكرا بصيغه المفرد،و الخطاب موجه إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم،أما القسم الثالث فإنّه ورد بصيغه الجمع و الخطاب موجه لعامة المسلمين،و يمكن أن يكون ذلك باعتبار أن اتّخاذ القرار فى البرامج الإسلاميه مرتبط بقائد الأمة و هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم،كما أن تلقى آيات القرآن من الله و تلاوتها يتم عن طريقه،إلا أن العمل بهذه البرامج و الأوامر متعلق بكل الأمة،و لا يستثنى من ذلك أحد.

٦-لقد بينت آخر هذه الآيات درسا كبيرا لكل المسلمين...درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق و يصرفهم عن الانحرافات و الطرق الملتويه..درس فيه صلاح المجتمع مع التوجه اليه،و هو:إننا يجب أن نعى هذه الحقيقه،و هى أن كل خطوه نخطوها،و كل كلام نقوله،و كل فكره نخطر فى أذهاننا،و لأى جهه ننظر، و على أى حال نكون،فليس الله سبحانه وحده يراقبنا و نحن على هذه الأحوال و الأفعال،بل إن ملائكته تراقبنا أيضا،و ينظرون إلينا بكل دقه و انتباه.

إن أدنى حركه فى خفايا السماء و الأرض لا تخفى على علمه و نظره،بل إنها تثبت كلّها فى ذلك اللوح المحفوظ الذى لا طريق للغلط و الاشتباه و الاختلاف

إليه.. فى صفحه علم الله اللامتناهى..فى فكر الملائكه المقربين و كتاب أعمال الآدميين..فى ملفنا و صحيفه أعمالنا كلنا.

و لم يكن ذلك بدون مبرر و عله حيث

يقول الإمام الصادق: «كان رسول الله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديدا» (١) ... فإذا كان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مع كل ذلك الإخلاص و العبوديه،و مع كل تلك الخدمه للخلق و العباده للخالق خائفا من عمله فى مقابل علم الله،فإنّ حالنا و حال الآخرين معلوم.

ص: ٣٩٠

١-١) مجمع البيان الجزء الخامس ص ١١٦ ذيل الآية.

اشاره

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَ لَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)

التفسير

اشاره

طمأنينه الروح في ظل الإيمان:

لما شرحت الآيات السابقه بعضا من حالات المشركين و الأفراد غير المؤمنين، بينت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون في الطرف المقابل لأولئك تماما، حتى يعرف النور من الظلمه، و السعاده من الشقاء من خلال المقارنه بينهم كما هو شأن القرآن و طريقته دائما.

تقول الآيه أولا: أَلَا - إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا - خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَ من أجل فهم دقيق لمحتوى هذا الكلام لا بد أن نعرف معنى الأولياء جيدا.

«الأولياء» جمع ولي، و قد أخذت في الأصل من ماده: ولي، يلى، بمعنى عدم وجود واسطه بين شيئين، و تقاربهما و تتابعهما، و لهذا يطلق على كل شىء له نسبه

القربان و القرب من شىء آخر سواء كان من جهه المكان أو الزمان أو النسب أو المقام، بأنّه ولى، و من هنا استعملت هذه الكلمه بمعنى الرئيس و الصديق و أمثال ذلك.

بناء على هذا، فإنّ أولياء الله هم الذين لا يوجد حاجب و حائل بينهم و بين الله، فقد زالت الحجب عن قلوبهم و يتقبلون فى نور المعرفه و الإيمان و العمل الخالص، و يرون الله بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشك أى طريق إلى تلك القلوب الوالهه، و بالنظر لهذه المعرفه بالله الأزلى و القدره اللامحدوده و الكمال المطلق، فإنّ كل شىء سوى الله حقير فى نظرهم و لا قيمه له، و فان لا أهميه له.

إنّ من يرى المحيط يزهد فى القطره، و من ينظر الى نور الشمس لا يهتم بنور الشمعه.

و من هنا يتّضح أنّ هؤلاء لماذا لا يخافون، لأنّ الخوف ينشأ عاده من احتمال فقدان النعم التى يمتلكها الإنسان، أو من الأخطار التى يمكن أن تهدده فى المستقبل، كما إنّ الغم و الهم يرتبط عاده بما يتعلق بالماضى، و يستولى على الإنسان نتيجة فقدانه لإمكانيات و ثروات كانت تحت يده.

إنّ أولياء و أحياء الله الحقيقيين متحررون من كل أشكال الارتباط و التعلق بعالم الماده، و يحكم «الزهد» بمعناه الحقيقى وجودهم، فهم لا- يجزعون من فقدان الممتلكات الماديه و لا يخافون من المستقبل، و لا يشغلون أفكارهم بمثل هذه المسائل. و بناء على ذلك فإنّ الغموم و الأحاوييف التى ترتبط بالماضى و المستقبل، و التى تجعل الآخرين فى حال اضطراب و قلق دائم، لا سبيل لها إلى وجود هؤلاء.

إنّ الماء فى الإناء الصغير قد يهتز من نفخه إنسان، لكن المحيط الكبير لا يتأثر حتى بالعاصفه، و لذلك سمّوه المحيط الهادى:
لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَتَكُمُ وَلَا

فلم يكن لهم تعلق بما كان في أيديهم سابقا، ولا يصيبهم الغم و الحزن في اليوم الذى سيفارقونه، فإن روحهم أكبر، وفكرهم أسمى من أن تؤثر فيهم مثل هذه الحوادث في الماضى و المستقبل.

على هذا الأساس فإن الأمن و الطمأنينه الواقعيه هى الحاكمه على وجودهم، و على حدّ قول القرآن: **أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ (٢)**، و بتعبير آخر: **أَلَا بَدِكرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٣)**.

و الخلاصه هى أنّ الحزن و الخوف عند البشر يتولدان عادة من حبّ الدنيا، فمن الطبيعي أن لا يصيب هؤلاء الذين نفضوا أيديهم و قلوبهم من حبها خوف، أو حزن.

كان هذا هو البيان الاستدلالي للمسأله، و قد يعرض هذا الموضوع أحيانا ببيان آخر يتخذ شكلا عرفانيا بهذه الصوره:

إنّ أولياء الله غارقون فى صفات جماله و جلاله، و ذائبون فى مشاهده ذاته المقدسه إلى الحد نسوا كل شىء غيره، و معلوم أنّ الغم و الحزن و الخوف و الوحشه تحتاج حتما إلى تصور فقدان و خساره شىء ما، أو مواجهه عدو أو موجود خطر، فمن لم يجعل لغير الله مكانا فى قلبه و لا طريقا الى فكره، و لا يقبل فى روحه إله غيره، كيف يمكن أن يغتم و يخاف و يستوحش؟ لقد اتّضحت ممّا قلناه هذه الحقيقه أيضا، و هى أنّ المقصود من الغموم هى الغموم الماديه و الأخايف الدنيويه، و إلا فإنّ وجود أولياء الله مملوء بالخوف و الخشيه.. الخوف من عدم أداء الواجبات و المسؤوليه. و الأسف و الحسره على أن يكون قد فاتهم شىء من الموفقيه، و لهذا الخوف و الحسره صفه معنويه، فهما أساس تكامل وجود الإنسان و رقيه، بعكس الخوف و الحزن الدنيويين فهما

١- (١) الحديد، ٢٣.

٢- (٢) الأنعام، ٨٢.

٣- (٣) الرعد، ٢٨.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفه مع همام، حيث يجسد فيها حالات أولياء الله في أرقى وصف:

«قلوبهم محزوننه، و شرورهم مأمونه»، ثم يقول:

«و لولا الأجل الذى كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفه عين، شوقا إلى الثواب، و خوفا من العقاب» (١).

و يقول القرآن المجيد- أيضا- فى شأن المؤمنين: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٢). و بناء على ذلك فإن لهؤلاء خوفا آخر.

هناك بحث بين المفسرين فيمن هم المقصودون من أولياء الله، إلا أن الآيه الثانيه وضحت المطلب و أنهت النقاش، فهى تقول: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ .

الملفت للنظر أنها ذكرت الإيمان بصيغه الفعل الماضى المطلق، و التقوى بصيغه الماضى الاستمرارى، و هذا إشاره إلى أن إيمان هؤلاء قد بلغ حد الكمال، إلا أن التقوى التى تنعكس فى العمل اليومى، و تتطلب كل يوم و كل ساعه عملا جديدا، و لها صفه تدريجيه، فإنها قد ظهرت على هؤلاء بصورة برنامج دائمى و مسئوليته متواصله.

نعم.. إن الذين يرتكزون على هذين الركنين الأساسيين: الدين و الشخصيه، يحسون بدرجه من الطمأنينه داخل أرواحهم بحيث لا تهزهم أية عاصفه من عواصف الحياه. بل يقفون أمامها كالجبل، كما وصفهم

الحديث: «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف».

و تؤكد الآيه الثالثه على مسأله عدم وجود الخوف و الغم و الوحشه فى شخصيه و قلوب أولياء الحق بهذه العبارة: لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ عَلَىٰ هَذَا فَهَم لَيْسُوا خَالِينَ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْغَمِّ وَ حَسْبُ، بل إن البشاره و الفرحة و السرور

ص: ٣٩٤

١-١) نهج البلاغه، خطبه ١٩٣. صبحى الصالح.

٢-٢) الأنبياء، ٤٩.

بالنعم الكثيره و المواهب الإلهيه الا محدوده فى هذه الدنيا و الآخره من نصيبهم.

(ينبغى الانتباه إلى أن البشرى قد ذكرت مع ألف و لام الجنس بصوره مطلقه،فهى تشمل أنواع البشارات).

ثم تضيف من أجل التأكيد أيضا: لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ بَلْ هِيَ ثَابِتَةٌ حَقَّةٌ، و أن الله سبحانه سيقى بما وعد به أولياءه، و ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

و حولت الآيه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم يمثل رأس سلسله أولياء الله و أحبائه مخاطبه له بلحن المواساه و تسليه خاطر: وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا و لا يمكن أن يقوم العدو بعمل مقابل إرادته الحق، فإنه تعالى عالم بكل خططهم و دسائسهم. ف هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

ملاحظتان

إشارة

و هنا ملاحظتان ينبغى التوقف عندهما:

١- ما هو المراد من البشارة فى الآيه؟

هناك بحث و جدال بين المفسرين فى المراد من البشارة التى أعطاها الله فى الآيات أعلاه لأوليائه فى الدنيا و الآخره، فالبعض اعتبرها مختصه بالبشارة التى تقدمها الملائكه للمؤمنين عند الاحتضار و الموت، و أبشروا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١).

و البعض الآخر يعتبرها إشاره إلى وعود الله بالنصر و التغلب على الأعداء، و الحكم فى الأرض ما داموا مؤمنين و صالحين.

و قد فسرت هذه البشارة فى بعض الروايات بأنها المنامات الجيده التى يراها المؤمنون.

ص: ٣٩٥

إلا أنه، و كما قلنا، فإن إطلاق هذه الكلمه، و ألف لام الجنس فى البشرى قد أخفيا فيها مفهوما واسعا بحيث أنها تشمل كل نوع من البشاره و فرحه الإنتصار و الموفقيه، و يندرج فيها كل ما ذكر أعلاه، و فى الواقع فإن كلاله منها إشاره إلى زاويه من هذه البشاره الإلهيه الواسعه.

و ربّما كان ما فسّرت به البشرى فى بعض الرّوايات بأنّها المنامات الحسنه و الرؤيا الصالحه إشاره إلى أن كل البشارات حتى الصغيره منها، تدخل أيضا فى مفهوم البشرى، لا أنّها منحصره بها.

الواقع. و كما قيل سابقا أيضا، فإنّ هذا هو الأثر التكويني و الطبيعى للإيمان و التقوى حيث تتعد عن روح الإنسان أشكال الاضطراب و القلق المتولده من الشك و التردد، و كذلك المتولده من الذنب و التلوّث و الفجور، فكيف يمكن أن يشعر بالراحه و الاطمئنان من لا إيمان له، و من ليس له متكأ معنوى يعتمد عليه فى أعماق روحه؟! إنّه يبقى فى سفينه وسط بحر هائج متلاطم الأمواج تقذف به الأمواج العظيمة فى كل جانب و صوب و قد فتحت دوامات البحر أفواهاها لابتلاعه!! كيف يمكن أن يهدأ بال و يطمئن خاطر من تلطخت يده بالظلم و الجور و إراقه دماء الناس و غضب أموال و حقوق الآخرين؟! إنّه- و بخلاف المؤمنين- لا يتمتع حتى بالنوم الهادىء، و غالبا ما يرى المنامات المرعبه التى يرى نفسه فيها مشتبكا مع العدو، و هذا بنفسه دليل على اضطراب روح هؤلاء.

من الطبيعى أنّ الشخص الجانى-خاصّه إذا كان مطاردا-يرى فى عالم الرؤيا أشباحا مرعبه قد أحكمت الطوق لإلقاء القبض عليه، أو أنّ روح ذلك المقتول المظلوم تصرخ فى أعماق ضميره و تعذبه، و لهذا فإنّه عند ما يستيقظ يقول كيزيد:

مالى و للحسين؟ أو يقول ما قاله الحجاج: مالى و لسعيد بن جبير؟!

٢- الرويات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام

لقد وردت في تفسير الآيات أعلاه روايات رائعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، نشير إلى بعض منها:

تلا أمير المؤمنين على عليه السلام الآية: **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ...** ثم سأل أصحابه:

أ تعلمون من هم أولياء الله؟ فقالوا: أخبرنا بهم يا أمير المؤمنين، فقال: «هم نحن و أتباعنا، فمن تبعنا من بعدنا طوبى لنا، و طوبى لهم أفضل من طوبى لنا»، قالوا: يا أمير المؤمنين، ما شأن طوبى لهم أفضل من طوبى لنا؟ ألسنا نحن و هم على أمر؟ قال: «لا، إنهم حملوا ما لم تحملوا عليه، و أطاقوا ما لم تطيقوا» (١).

و

في كتاب كمال الدين: روى عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام أنه قال: «طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره في غيبته، و المطيعين له في ظهوره، أولئك أولياء الله الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» (٢).

و

يروى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: إن أتباع هذا المذهب يرون في أواخر لحظات عمرهم ما تقر به أعينهم، قال الراوى: فقلت له بضع عشره مره:

أى شىء؟ فقال فى كلها: «يرى» لا- يزيد عليها، ثم جلس فى آخرها فقال: «أبيت إلا- أن تعلم»؟ فقلت: نعم يا ابن رسول الله... ثم بكيت، فرق لى، فقال: «يراهما و الله» فقلت: بأبى و أمى من هما؟ فقال: «ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و على عليه السلام لن تموت نفس مؤمنه أبدا حتى تراهما». ثم قال: «إن هذا فى كتاب الله» فقلت: أين، جعلنى الله فداك؟ قال: «فى يونس، قول الله ها هنا: **الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ**» (٣).

و لدينا روايات أخرى بمضمون هذه الرواية.

ص: ٣٩٧

١- ١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٠٩.

٢- ٢) المصدر السابق.

٣- ٣) نور الثقلين، الجزء ٢، ص ٣١٠ (باختصار).

و من الواضح أنّ هذه الرّوايه إشاره إلى قسم من بشارات المؤمنين المتقين، لا جميعها، و واضح-أيضا-أن هذه المشاهده ليست مشاهده جسم مادي. بل مشاهده الجسم البرزخي بالنظر البرزخي، لأننا نعلم أنّ روح الإنسان تبقى على جسمها البرزخي في عالم البرزخ الذي يمثل الفاصل بين هذه الدنيا و عالم الآخرة.

ص: ٣٩٨

اشاره

أَلَا- إِنَّ لِلَّهِ مَينَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنَ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ هُمْ إِلَّا يَحْزُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

التفسير

اشاره

جانب من آيات عظمتة:

تعود الآيات أعلاه مره أخرى إلى مسأله التوحيد و الشرك و التي تعتبر واحده من أهم مباحث الإسلام، و بحوث هذه السوره، و تجرّ المشركين إلى المحاكمه و تثبت عجزهم.

فتقول أولاً: أَلَا- إِنَّ لِلَّهِ مَينَ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنَ فِي الْأَرْضِ وَ إذا كان الأشخاص ملكه و منه، فمن الأولى أن تكون الأشياء الموجوده في هذا العالم ملكه و منه، و بناء على هذه فإنه مالك كل عالم الوجود، و مع هذا الحال كيف يمكن أن يكون مماليكه شركاءه؟ ثم تضيف الآية: وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ

إذ لا دليل ولا برهان لهم على كلامهم وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

كلمه «الخرص» وردت فى اللغة بمعنى الكذب، و كذلك وردت بمعنى الحدس و التخمين، و فى الأصل - كما قاله الراغب فى مفرداته - بمعنى حزر الفواكه، ثم تخمينها على الأشجار، و لما كان الحدس و التخمين قد يخطئ أحيانا، فإن هذه المادة قد جاءت بمعنى الكذب أيضا.

و أساسا، فإن إتباع الظن و الحدس الذى لا يستند إلى أساس ثابت يجرّ الإنسان فى النهايه إلى وادى الكذب عاده. و الأشخاص الذين جعلوا الأصنام شريكه لله سبحانه لم يكن لهم مستند فى ذلك إلا- الأوهام.. الأوهام التى يصعب علينا اليوم حتى تصورها، إذ كيف يمكن أن يصنع الإنسان تماثيل و مجسمات لا- روح لها، ثم يعتبر ما صنعه و خلقه ربّا له و أنه هو صاحب إرادته، و أن أمره بيده؟! يضع مقدراته فى يده و تحت تصرفه و يطلب منه حل مشاكله؟! أليست هذه الدعوى من أوضح مصاديق الزيف و الكذب؟ بل يمكن استفاده هذا من الآيه كقانون كلى عام- بدقه قليله- و هو أن كل من يتبع الظن و الأوهام الباطله فإنه سينجرّ فى النهايه إلى الكذب.. إن الحق و الصدق قائم على أساس القطع و اليقين، أما الكذب فإنه يقوم على أساس التخمينات و الظنون و الشائعات! ثم و من أجل إكمال هذا البحث، و تبين طرق معرفه الله، و الابتعاد عن الشرك و عباده الأوثان، أشارت الآيه الثانيه إلى جانب من المواهب الإلهيه التى أودعت فى نظام الخلقه و الداله على عظمه و قدره و حكمه الله عزّ و جلّ، فقالت: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا .

إنّ نظام النور و الظلمه الذى أكدّت عليه آيات القرآن مرارا، نظام عجيب و غزير الفائده، فهو من جهه يضىء عرصه حياه البشر بإفاضه النور فى مدّه معينه و يحركها و يبعثها على السعى و الجد، و من جهه أخرى فإنه يارخاء سدول الليل

المظلم وهدوئه يهيه الروح والجسد المتعبين للعمل والحركة من جديد.

نعم إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أولئك الذين يسمعون ويدركون، وبعده إدراك الحقيقة يتبعونها ويسرون على نهجها.

ملاحظات

١- إن الهدوء والسكون النفسى الذى هو الهدف من خلق الليل بات من المسلمات العلميه بعد أن أثبتته العلم اليوم، فإن حجب الظلام ليست وسيله إجباريه لإيقاف النشاطات اليوميه وحسب، بل لها أثر مباشر على السلسله العصبية وعضلات الإنسان و سائر الحيوانات فتجعلهم فى حاله استراحه و نوم و سكون، و ما أجهل بعض الناس الذين يحيون الليل بالملذات و الرغبات، و يقضون النهار- و خاصه الفجر المنشط- فى النوم، و لهذا السبب فإن أعصابهم متوتره و غير متزنه دائما.

٢- إذا علمنا أن الإبصار بمعنى النظر، فإن معنى جمله: وَ النَّهَارَ مُبْصِرًا سيصبح: إن الله قد جعل النهار ناظرا، فى حين أن النهار مبصر لا مبصر! إن هذا تشبيه و مجاز من قبيل توصيف السبب بأوصاف المسبب، كما يقولون فى شأن الليل: ليل نائم، فى حين أن الليل لا ينام، بل هو سبب لأن ينام الناس.

٣- إن الآيات أعلاه تدين الظن و الوهم مره أخرى و تردّه، لكن لما كان الكلام عن أوهام عبده الأوثان الخرافيه التى لا أساس لها، فإن الظن هنا لا- يعنى الظن العقلائى المدروس الذى يعتبر حجه فى بعض الموارد، مثل شهاده الشهود و ظاهر الألفاظ و الإقرارات و المكاتبات، و بناء على هذه فإن الآيات أعلاه لا يمكن أن تكون دليلا على عدم حجه الظن.

إشاره

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سَيِّطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

التفسير

تستمر هذه الآيات-أيضا- في بحثها مع المشركين، و تذكر واحده من أكاذيب و اتهامات هؤلاء لساحه الله المقدسه، فتقول أولًا: قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .

إنّ هذا الكلام قاله المسيحيون في حق المسيح عليه السلام، ثم عبده الأوثان في عصر الجاهليه في حق الملائكه، حيث كانوا يظنون أنّها بنات الله، و قاله اليهود في شأن عزيز. و يجيبهم القرآن بطريقتين:

الأول: إنّ الله سبحانه منزّه عن كل عيب و نقص، و هو مستغن عن كل شيء:

سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ

و هذا إشاره إلى أنّ الحاجه إلى الولد، إمّا للحاجه الجسميه إلى قوته و مساعدته، أو للحاجه الروحيه و العاطفيه، و لما كان الله سبحانه منزّه عن كل

عيب و نقص و حاجه، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولدا.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

و مع هذا الحال فأى معنى لأن يتخذ لنفسه ولدا ليطمئنه و يهدئه، أو يعينه و يساعده.

مِمَّا يَلْفُتُ النَّظْرَ أَنَّ الْآيَةَ عَبَّرَتْ هُنَا بِ(اتخذ) وهذا يوحى أَنَّ هؤُلاءِ كانوا يعتقدون أَنَّ الله تعالى لم يلد ذلك الولد، بل يقولون: إِنَّ الله قد اختار بعض الموجودات كولد له، تماما مثل أولئك الذين لا يولد لهم ولد، و يتبنون طفلا من دور الحضانه و أمثالها.

على كل حال، فَإِنَّ هؤُلاءِ الجاهلين و قصيرى النظر وقعوا فى اشتباه المقارنه بين الخالق و المخلوق، و كانوا يقيسون ذات الله الصمديه على وجودهم المحدود المحتاج.

و الجواب الثانى الذى يذكره القرآن لهؤُلاءِ هو: إِنَّ من يدعى شيئا يجب عليه أن يقيم دليلا على مدعاه: إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سَيِّطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أى إِنَّكم على فرض عدم قبولكم للدليل الأول الواضح، فَإِنَّكم لا تستطيعون أن تنكروا هذه الحقيقه، و هى أن ادعاءكم و قولكم تهمة و قول بغير علم.

و تعيد الآيه التالىه عاقبه الافتراء على الله المشؤومه. فتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تقول: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

و على فرض أن هؤُلاءِ يستطيعون بافتراءتهم و أكاذيبهم أن ينالوا المال و المقام لعدّه أيام، فَإِنَّ ذلك مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

الواقع أَنَّ هذه الآيه و التى قبلها ذكرتا نوعين من العقاب لهؤُلاءِ الكذابين الذين نسبوا إلى الله تهمة اتّخاذ الولد:

الأول: إِنَّ هذا الكذب و الافتراء لا يمكن أن يكون أساسا لفلاح و نجاح هؤُلاءِ أبدا، و لا يوصلهم إلى هدفهم مطلقا، بل إِنَّهم يصبحون حيارى تائهين تحيط

التعاسه و الشقاء و الهزيمه بأطرافهم.

الثانى:على فرض أنهم استطاعوا أن يستغفوا الناس و يخدعواهم بهذه الكلمات لعدده أيام،و يصلوا عن طريق الديانه الوثنيه إلى رفاه و عيش رغيد،إلا أنّ هذا التمتع لا دوام و لا بقاء له،و العذاب الإلهى الخالد فى انتظارهم.

ملاحظات

١-إنّ كلمه «سلطان»تعنى هنا الدليل،و هذه الكلمه أعمق و أبلغ من كلمه الدليل،لأنّ الدليل بمعنى الدلاله و الإرشاد أمّا السلطان فهو الشىء الذى يسلط الإنسان على الطرف المقابل،و يناسب موارد البحث و الجدل و النقاش،و هو إشاره إلى الدليل القاطع القوى.

٢-«المتاع»يعنى الشىء الذى يستفيد منه الإنسان و يتمتع به،و مفهومه واسع جدا يشمل كل لوازم و وسائل الحياه و المواهب الماديه.يقول الراغب فى المفردات:كلما ينتفع به على وجه ما،فهو متاع و متعه.

٣-إنّ التعبير ب(نذيقهم)الذى ورد فى شأن العذاب الإلهى يشير إلى أنّ هذا العذاب الذى سينال هؤلاء بدرجه من الشدّه بحيث كأنهم يذوقونه بألسنتهم و أفواههم،و هذا التعبير أبلغ جدا من المشاهده،بل و حتى من لمس العذاب.

ص: ٤٠٤

إشاره

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِهِ فَذُوقُوا عَذَابِي إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧١﴾ فَاتَّبَعُوا أَمْرَهُ كَمَا نَأْيُوا عَنْ آيَاتِهِ فَذُوقُوا عَذَابَ يَوْمِهِمْ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٧٣﴾

التفسير

إشاره

جانب من جهاد نوح:

الآيات أعلاه بدايه لبيان قسم من تاريخ الأنبياء و قصص و حوادث الأعمم الماضيه لتوعيه و إيقاظ المشركين و الفئات المخالفه، فيأمر الله نبيه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تاريخ الماضين ليكون عبره لهم.

في البدايه تطرقت إلى قصه نوح، فقالت: وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا

قَوْمٍ إِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ

ولهذا فإنني لا أخاف غيره. ثم تضيف: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ أَي ادعوا أصنامكم أيضا لتعينكم في المشوره، حتى لا يبقى شيء خافيا على أحد ولا- يتعرض منكم الى الهم والغم أحد ثم لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّهُ بل اتخذوا قراركم في شأني بكل وضوح.

«غُمَّهُ» من ماده غم، و هي تعنى خفاء الشيء و تغطيته، و إنما يقولون للحزن: غَمَّ أيضا لأنه يغطي قلب الإنسان.

ثم يقول: ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (١).

إن نوحا رسول الله الكبير صمد مقابل أعدائه الأقوياء المعاندين و واجههم بقاطعيه و حزم و فى منتهى الشجاعه و الشهامه مع أصحابه القليلين الذين كانوا معه، و كان يستهزئ بقواهم و يريهم عدم اهتمامه بخططهم و أفكارهم و أصنامهم، و بهذه الطريقه كان يوجه ضربه نفسه عيفه إلى أفكارهم.

و إذا علمنا أن هذه الآيات نزلت فى مكه فى الوقت الذى كان يعيش فيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ظروفًا تشبه ظروف نوح، و كان المؤمنون قلبه، سيّضح أن القرآن يريد أن يعطى للنبى-أيضا- نفس هذا الدرس بأن لا يهتم بقدره العدو، بل يسير و يتقدم بكل حزم و جرأه و شجاعه، لأن الله يسنده و ينصره، و لا تستطيع أيه قوه أن تقف فى مقابل قدرته.

ص: ٤٠٦

١- ١) هناك بحث بين المفسرين فى أنه ما هو جزاء شرط جمله إِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكُمْ؟ و من بين الاحتمالات التى طرحوها يبدو للنظر أن اثنين منها هما الأقرب: الأول: إِنْ جمله فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ هى جزاء الشرط، و إن جمله: فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ جمله معترضه فصلت بين الشرط و الجزاء. الثانى: إِنْ الجزء محذوف و الجمل التالىه تدل على ذلك، و التقدير هكذا: فافعلوا ما تريدون فإنني متوكل على الله. فى الواقع، إِنْ جمله: فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ من قبيل العله حلت محل المعلول، و (شركاءكم) فى الجمله التالىه إشاره إلى الأصنام، و الواو قبلها بمعنى مع. (فتدبر جيدا).

و مع أنّ بعض المفسّرين اعتبر تعبير نوح هذا أو أمثاله فى تاريخ سائر الأنبياء نوعا من الإعجاز، لأنّهم مع عدم امتلاكهم الإمكانات الظاهرية فإنّهم كانوا يهدّدون العدو بالهزيمة، و أعلنوا خبر انتصارهم النهائى، و هذا لا يمكن قبوله إلاّ عن طريق الإعجاز، إلاّ أنّ هذا على كل حال درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا و لا ينهاروا أمام عظمه الأعداء و كثرتهم، بل إنّهم باتكالهم على الله كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان بكل حزم و اقتدار و يستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملا مهمّا فى تقوية معنويات الأتباع و المؤيدين، و تدمير معنويات العدو و انهيارها.

و ذكرت الآيه التّاليه بيانا آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيته، هناك حيث تقول: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ (١) إِنْ أُجِرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَعْمَلُ لَهُ، و لا أريد الأجر إلاّ منه و أمرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

إنّ مقوله نوح هذه درس آخر للقاده الإلهيين بأن لا يتوقعوا أى جزاء مادى و معنوى من الناس لقاء دعوتهم و تبليغهم، لأنّ هذا التوقع يوجد نوعا من التعلق النفسى الذى يؤدى الى عرقله أساليب الدعوه الصريحه و النشاطات الحره، و من الطبيعى عن ذلك أن يقلّ تأثير دعوتهم و إبلاغهم، و لهذا السبب فإنّ الطريق الصحيح فى الدعوه إلى الإسلام أن يعتمد المبلّغون و الداعون فى إداره أمورهم المعاشيه على بيت المال فقط، لا- بالاحتجاج إلى الناس! و تبيّن الآيه الأخيره عاقبه و مصير أعداء نوح، و صدق توقعه و قوله السابق بهذه الصوره: فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ (٢) و لم ننقدهم و حسب، بل

ص: ٤٠٧

-
- ١- ١) جواب هذا الشرط محذوف أيضا، و تقديره: فإن توليتم فلا تضروني، أو: فإن توليتم فأنتم و شأنكم.
- ٢- ٢) «الفلك» بمعنى السفينه، و الفرق بينها و بين السفينه أن سفينه مفرد و جمعها سفائن أم الفلك فإنّها تطلق على المفرد و الجمع.

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

و فى النهايه توجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تقول: فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ .

ص: ٤٠٨

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

التفسير

اشاره

الزّسل بعد نوح:

بعد انتهاء البحث الإجمالي حول قصه نوح، أشارت هذه الآيه إلى الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح و قبل موسى عليهما السلام لهدايه الناس كإبراهيم و هود و صالح و لوط و يوسف عليهم السلام، فقالت: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَدْ كَانُوا مَسْلُحِينَ كَنُوحٍ بِسِلَاحِ الْمَنْطِقِ وَالْإِعْجَازِ وَالْبِرَامِجِ الْبِنَاءِ، إِلَّا أَنَّ الَّذِينَ سَلَكَوا طَرِيقَ الْعِنَادِ وَ كَذَّبُوا الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ، كَذَّبُوا هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءَ أَيْضًا وَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ ذَلِكَ نَتِيجَةً لِلْعَصِيَانِ وَ التَّمَرْدِ وَ عَدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي أَوْصَدَ تِلْكَ الْقُلُوبَ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ .

١-جملة: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ تَشِيرُ إِلَى أَنَّ فَتْنَهُ مِنْ بَيْنِ الْأُمَمِ كَانُوا لَا يَسْلَمُونَ أَمَامَ دَعْوَةِ أَي نَبِيٍّ وَ مَصْلِحٍ، وَ اسْتَمَرُوا فِي الثَّبَاتِ عَلَى مَوْقِفِهِمْ، وَ لَمْ تَكُنْ تَوْثُرُ فِيهِمْ دَعْوَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَكَرِّرَةِ أَدْنَى أَثَرٍ، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَإِنَّ الْجُمْلَةَ الْمَذْكُورَةَ تَشِيرُ إِلَى طَائِفَةٍ وَقَفَتْ فِي وَجْهِ دَعْوَةِ أَنْبِيَاءٍ مُتَعَدِّدِينَ فِي زَمَانِينَ (وَ هَذَا هُوَ ظَاهِرُ الْجُمْلَةِ حَيْثُ أَنَّ مَرَجِعَ كُلِّ الضَّمَائِرِ وَاحِدٌ).

وَ قَدْ احْتَمَلَ أَيْضًا فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا تَشِيرُ إِلَى جَمَاعَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا كَانَتْ فِي زَمَنِ نُوْحٍ وَ كَذَّبَتْ دَعْوَتَهُ، وَ الْآخَرَى هُمُ الَّذِينَ جَاءُوا بَعْدَ أَوْلَئِكَ وَ سَلَكُوا طَرِيقَهُمْ فِي إِنْكَارٍ وَ تَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا، فَإِنَّ مَعْنَى الْجُمْلَةِ يَصْبِحُ: إِنَّ الْمُعْتَدِينَ أَقْوَامَ آخَرِينَ امْتَنَعُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِالشَّيْءِ الَّذِي امْتَنَعَ الْمَاضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ.

طبعاً، بملاحظته أنّ مخالفى دعوه نوح قد هلكوا أثناء الطوفان، سيقوى هذا الاحتمال فى تفسير هذه الآيه، إلا أنّ ذلك يستلزم على كل حال أن نفرق بين مرجع الضمائر فى الجملة، وهى واو الجمع فى كانوا، و ليؤمنوا، و كذبوا.

٢-من الواضح أنّ جملة: ﴿كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلِيٍّ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْجَبْرِ، وَ قَدْ أَخْفَى تَفْسِيرَ ذَلِكَ فِيهَا، لِأَنَّهَا تَقُولُ: إِنَّا نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ حَتَّى لَا يَدْرِكُوا شَيْئًا، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَإِنَّ الْاِعْتِدَاءَاتِ الْمُتَكَرِّرَةَ الْمُتَلَاخِقَةَ عَلَى حُدُودِ الْأَحْكَامِ الْإِلَهِيَّةِ وَ الْحَقِّ وَ الْحَقِيقَةِ كَانَتْ تَصْدُرُ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَ كَانَتْ تَتْرَكَ أَثَرَهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ تَدْرِيجِيًّا حَتَّى سَلَبَتْ مِنْهُمْ قُدْرَةَ تَشْخِصٍ وَ تَعْيِينَ الْحَقِّ، وَ وَصَلَ الْأَمْرَ بِهِمْ إِلَى أَنْ يَصْبِحَ التَّمَرُّدُ وَ الْعَصِيَانُ وَ الْمَعْصِيَةُ طَبِيعَةً ثَانِيَةً لَدَيْهِمْ، بِحَيْثُ لَا يَدْعُونَ وَ لَا يَسْلَمُونَ أَمَامَ أَيِّ حَقِيقَةٍ (١).

ص: ٤١٠

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُم الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

التفسير

اشاره

جانب من جهاد موسى و هارون:

لقد جرى ذكر قصص الأنبياء و الأمم السابقه كنماذج حيّه، و بدأ الحديث أولاً عن نوح عليه السّلام، ثمّ عن الأنبياء بعد نوح، و وصل الدور في هذه الآيات إلى موسى و هارون عليهما السّلام و مواجهاتهم المستمره مع فرعون و أتباعه، فتقول الآيه الأولى: ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا (١).

ص: ٤١١

١- (١) المراد من الآيات هي تلك الآيات المتعدده المشهوره التي كانت لموسى في بدايه أمره.

«الملاء» كما أشرنا إلى ذلك سابقا تطلق على الأشراف الأثرياء اللامعين الذين يملأ ظاهرهم العيون و يلاحظ حضورهم في كل مكان من المجتمع. و تأتي عادة في مثل هذه الآيات محل البحث بمعنى المناصرين و المشاورين و الملتفين حول شخص ما.

و نرى الكلام في هذه الآيات يدور حول بعثه موسى إلى فرعون و ملئه فقط، في حين أنّ موسى مبعوث لكل الفراعنه و بنى إسرائيل، و علّه ذلك أنّ مقدرات المجتمع في يد الهيئه الحاكمه، و بناء على هذا فإنّ أى برنامج إصلاحى و ثورى يجب أن يستهدف هؤلاء أولا، كما تقول ذلك الآيه (١٢) من سوره التوبه:

﴿فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ .﴾

إلا أنّ فرعون و أتباعه امتنعوا عن قبول دعوه موسى، و عن التسليم في مقابل الحق: فَاسْتَكْبَرُوا و نظرا للتكبر و الاستعلاء و عدم امتلاكهم لروح التواضع فإنهم لم يلتفتوا إلى الحقائق الواضحه في دعوه موسى، و أصروا و استمروا في إجرامهم:

﴿وَ كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

و تتحدث الآيه التاليه عن مراحل مواجهه الفراعنه لموسى و أخيه هارون، و أول تلك المراحل هى مرحله الإنكار و التكذيب و الافتراء و اتهامهما بسوء النيه، و ابطال سنن الأجداد، و الإخلال بالنظام الاجتماعى، كما يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾
﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ .﴾

إنّ جاذبيه دعوه موسى الخارقه من جهه، و معجزاته الباهره من جهه أخرى، و تزايد نفوذه بصوره محيره من جهه ثالثه، دفعت الفراعنه إلى التفكير في حل لهذه المسأله، فلم يجدوا وسيله أفضل من رميه بالسحر، فأعلنوا أنّه ساحر و أنّ عمله سحر ليس إلا، و هذه التهمه سائده في جميع مراحل الأنبياء و على طول تاريخهم، خاصّه نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم.

إلا أنّ موسى عليه السلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار و أوضح كذب هؤلاء

و أبطل تهمتهم، ففي البدايه: قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا (١).

صحيح أنّ لكلّ من السحر و المعجزه نفوذاً و تأثيراً، و أنّ من الممكن أن يؤثر الحق و الباطل على إدراكات الناس و نفسياتهم، إلاّ أنّ السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماماً عن المعجزه التى هى حق، إذا لا- يمكن المقارنه بين نفوذ الأنبياء و نفوذ السحره، فإنّ أعمال السحره تفتقد الى الهدفيه و محدوده و لا قيمه لها، و معجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحيه و تغييريه و تربويه واضحه، و تعرض بشكل واسع و غير محدود.

إضافه إلى أنه: وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ و هذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر. ففي الدليل السابق أثبت اختلاف السحر و المعجزه و وجه و هدف الإثنين و افتراق أحدهما عن الآخر، أمّا هنا فإنّ الدليل يستعين لإثبات المطلب باختلاف حالات السحره و أصحاب المعجز.

إنّ السحره، و بحكم عملهم و فنههم الذى له صفه الانحراف و الإغفال، أفراد انتهازيون يفكرون فى الربح، يستغفلون الناس و يخادعونهم، و يمكن معرفتهم من خلال أعمالهم. أمّا الأنبياء فهم رجال يطلبون الحق، حريصون على هدايه الناس، مطهرون، لهم هدف و غايه، و لا يهتمون بالأموال الماديه.

إن السحره لا يرون وجه الفلاح مطلقاً، و لا يعملون إلاّ من أجل المال و الثروه و المنصب و المنافع الشخصيه، فى حين أنّ هدف الأنبياء هدايه خلق الله و إصلاح المجتمع الإنسانى من جميع جوانبه الماديه و المعنويه.

ثمّ يستمر فرعون و ملؤه فى رمى موسى عليه السلام بسيل الاتهامات الصريحه، حيث قالوا: أَجِئْنَا لِنَتَلَفِتْنَا عَمَّا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا الواقع، أنهم قدموا صنم «سنه الآباء» و عظمتهم الخياليه و الأسطوريه حتى يوجهوا الرأى العام ضد موسى و هارون،

ص: ٤١٣

١ - ١) الواقع، أنّ للجمله أعلاه محذوف مقدر يفهم من مجموع الكلام، و كانت فى الأصل هكذا: أأتقولون للحق لما جاءكم سحر، أسحر هذا.

بأنهما يريدان أن يعثبا بمقدسات مجتمعكم و بلادكم.

ثم استمروا فى هذا التشويه، وقالوا بأن دعوتكم إلى دين الله ما هى إلا كذب محض، و كل هذه مصائد و خطط خيانيه بهدف التسلط على الناس: وَ تَكُونُ لَكُمْ أَلْكُبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ .

فى الحقيقه، إن هؤلاء لما كانوا يسعون دائما من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أن الآخرين مثلهم، و هكذا كانوا يفسرون مساعى المصلحين و الأنبياء.

وَ مَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ

لأننا على علم بنواياكم و خططكم الهدامه.

و كانت هذه هى المرحله الأولى من المواجهه السلبيه مع موسى.

ص: ٤١٤

اشاره

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ اِنْتَوْنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى اَلْقُوا مَا اَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا اَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ اِنَّ اِلٰهَ سَيِّطُلَهُ اِنَّ اِلٰهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحَقُّ اِلٰهَ الْحَقِّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

التفسير

اشاره

المرحلة الثانيه:

تفصل هذه الآيات مرحله أخرى من المجابهه، و تتحدث عن إجراءات فرعون العمليه ضد موسى و أخيه هارون.

فعند ما لا حظ فرعون قسما من معجزات موسى، كاليد البيضاء و الحيه العظيمة، و رأى أنّ ادعاء موسى ليس واهيا بدون دليل و برهان، و أنّ هذا الدليل سيؤثر في جميع أنصاره أو الآخرين قليلا أو كثيرا، ففكر بجواب عملي كما يقول القرآن:

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ اِنْتَوْنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ

فقد كان يعلم أنّ كل عمل يجب أن يؤتى من طريقه و يجب أن يستعين بالخبراء بذلك الفن.

هل إنّ فرعون كان حقيقه في شك من أحقيّه دعوه موسى، و كان يريد أن

يحاربه و يواجهه عن هذا الطريق؟ أم أنه كان يعلم أنه مرسل من الله، إلا- أنه كان يظن أنه يستطيع بواسطة ضججه السحره و غوغائهم أن يهدئ الناس، و يمنع مؤقتا خطر نفوذ موسى في الأفكار العامه، و يقول للناس بأنه إن جاء بعمل خارق للعادة فإننا غير عاجزين عن القيام بمثله، و إذا شاءت إرادتنا الملوكيه ذلك، فإن مثل هذا الشيء سهل يسير بالنسبه لنا! و يبدو أن الاحتمال الثاني أقرب، و يؤيد ذلك سائر الآيات المرتبطه بقصه موسى التي وردت في سوره طه و أمثالها، و أنه هب لمجابهه موسى عن وعى و درايه.

على كل حال: فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَهُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ .

جمله أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ تعنى في الأصل: ألقوا كل ما تستطيعون إلقاءه، و هذا إشاره إلى الجبال و العصى الخاصه التي كان جوفها خاليا، و صبت فيه مواد كيمياويه خاصه بحيث أنها تتحرك و تتقلب إذا ما قابلت نور الشمس. و الشاهد على هذا الكلام الآيات التي وردت في سوره الأعراف و الشعراء، ففي الآيه (٤٣) - (٤٤) من سوره الشعراء نقراً: قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ . و لكن من الطبيعي أنها تتضمن هذا المعنى أيضا بأن أظهروا كل ما تملكون من القدره في الميدان.

على كل حال، فإن هؤلاء قد عبثوا كل ما يملكون من قدره، و ألقوا كل ما أتوا به- معهم في وسط الحلبه: فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ فَأَنْتُمْ أَفْرَادٌ فَاسْدُونَ و مفسدون لأنكم تخدمون حكومه جباره و ظالمه و تعملون على تقويه دعائم هذه الحكومه الغاشمه الدكتاتوريه و هذا بنفسه أقوى دليل على كونكم مفسدين، و إنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

في الواقع، إن كل إنسان ذى عقل و علم يستطيع أن يدرك هذه الحقيقه حتى قبل انتصار موسى على السحره، و هى أن عمل السحره لا يقوم على أساس من

الحق. لأنه يصب في طريق تقوية دعائم الظلم و الجور، فأى شخص لم يكن يعلم أن فرعون غاصب و ظالم و مفسد؟ و معه ألا تعتبر خدمه مثل هذا الجهاز الحاكم مشاركته في ظلمه و فساده؟ و هل يمكن أن يكون عمل هؤلاء صحيحا و إلهيا؟ كلاً مطلقاً، و بناء على هذا كان من الواضح أن الله سيبتل هذه المساعي المفسده.

هل أن التعبير ب«سيبته» دليل على أن السحر حقيقه واقعيه، إلا أن الله يبطله؟ أم أن المقصود من الجملة هو أن الله يكشف كون السحر باطلا؟ إن الآيه (١١٦) من سوره الأعراف تقول: إِنَّ سِحْرَ السَّحَرَةِ قَدْ أَثَرَ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ فَخَوْفُهُمْ بِهِ: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ هَذَا التَّعْبِيرُ لَا يَنَافِي أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ قَدْ أَوْجَدُوا نَوْعًا مِنَ الْحَرَكَاتِ الْوَاقِعِيَةِ فِي تَلْكَ الْجِبَالِ وَ الْعَصَى بِوَسْطِهِ سِلْسَلَةٌ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمَرْمُوزَةِ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي الْمَفْهُومِ وَ الْمَعْنَى اللَّغْوِي لِلْسِحْرِ، وَ خَاصَّةً بِالِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْخَوَاصِّ الْفِيزِيَائِيَةِ وَ الْكِيمِيَائِيَةِ لِلْأَجْسَامِ الْمَخْتَلِفَةِ، إِلَّا أَنَّ مِنَ الْمَسْلَمِ بِهِ أَنَّ هَذِهِ الْجِبَالِ وَ الْعَصَى لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَاتٍ حَيْثُ كَمَا ظَهَرَتْ أَمَامَ أَعْيُنِ النَّاسِ، كَمَا قَالَ الْقُرْآنُ فِي سُورَةِ طه الْآيَةِ (٦٤): فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَ عَصَاهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. بناء على هذا، فإن بعض تأثير السحر واقعي، و البعض الآخر و هم و خيال.

و في الآيه الأخيره، إن موسى قال لهؤلاء: إن النصر و الغلب لنا في هذه المبارزه حتما. لأن الله سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطه المنطق القاطع، و معجزات أنبيائه القاهره، و يفضح و يخزي المفسدين و أهل الباطل و إن كره المجرمون ذلك:

وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

و المراد من «كلماته» إماما وعد الله بنصره الرسل و إحقاق الحق، أو معجزاته القاهره القويه (١).

ص: ٤١٧

١-١) لقد بحثنا مفصلا جزئيات مواجهه موسى لفرعون و الفراعنه، و مسائلها الرائعه في ذيل الآيات (١١٣) و ما بعدها من سوره الأعراف من المجلد الخامس، و بحثنا السحر و حقيقته في المجلد الأول ذيل الآيه (١٠٢) سوره البقره، فراجع.

اشاره

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)

التفسير

اشاره

المرحلة الثالثة:

عكست هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهه الثوريه بين موسى و فرعون، ففي البدايه تبين وضع المؤمنين فتقول: فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ قَوْمِهِ .

إن هذه المجموعه الصغيره القليله،و التي كان الشباب و الأشبال يشكلون أكثريتها بمقتضى ظاهر كلمه ذريه، كانت تواجه ضغوطا شديده من فرعون و أتباعه الى درجه أنهم خافوا أن يصل بهم الأمر الى ترك دين موسى نتيجة هذه الضغوط الشديده: عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي

و هناك بحث بين المفسرين فى أنه من كانت هذه الدرّيه التى آمنت بموسى؟ و إلى من يعود ضمير من قومه إلى موسى أم فرعون؟ فذهب البعض الى أنّ هؤلاء كانوا نفرا قليلا من قوم فرعون و الأقباط كمؤمن آل فرعون، و زوجه فرعون و ماشطتها و وصيفتها، و الظاهر أنّ الدليل على اختيار هذا الرأى أن أغلب بنى إسرائيل قد آمنوا. و هذا لا يناسب التعبير ب ذرّيه من قومه لأنّه يدل على صغر هذه المجموعه.

إلا أنّ البعض الآخر يرى أنّهم جماعه من بنى إسرائيل، و الضمير يعود إلى موسى، لأنّ اسم موسى قد ذكر قبله، و حسب قواعد اللغه و النحو فإنّ الضمير يجب أن يرجع إليه.

و لا شك أنّ المعنى الثانى أوفق لظاهر الآيه، و الدليل الآخر الذى يؤيد ذلك هو الآيه التالیه التى تقول: **وَ قَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ... أَى إِنَّه خاطب المؤمنین ب «قومی».**

الإشكال الوحيد الذى يبقى على هذا التفسير، هو أنّ جميع بنى إسرائيل قد آمنوا بموسى، لا جماعه منهم.

إلا أنّ هذا الإيراد يمكن دفعه بملاحظه هذه النقطه، و هى أنّنا نعلم أنّ الشباب فى كل ثوره هم أول مجموعه تنجذب إليها، فإضافه إلى قلوبهم الطاهره و أفكارهم السليمه، فإنّ الحماس و الهيجان الثورى لديهم أكبر و أقوى، علاوه على أنّهم غير متعلقين بالأمر الماديه التى تدعو الكبار إلى المحافظه عليها و غيرها الملاحظات المختلفه الأخرى، فليس لهم مال و ثروه يخافون ضياعها، و لا منصب و لا مقام يخشون فقداه.

بناء على هذا، فمن الطبيعى أن تنجذب هذه الفئه إلى موسى، و تعبير «الذرّيه» يناسب هذا المعنى جدّا.

هذا إضافة إلى أن كبار السن الذين التحقوا فيما بعد بهذه الفئة لم يكن لهم دور مهم في المجتمع آنذاك، وكانوا ضعفاء و عاجزين، وهذا التعبير - كما نقل عن ابن عباس - فى حقهم ليس ببعيد كما أننا حينما ندعو بعض أصدقائنا نقول: اذهب وادع الأولاد، بالرغم من أنهم قد يكونون كبارا، وإذا لم نتفق و هذا المعنى للآيه، فإن الاحتمال الأول يبقى على قوته.

إضافة إلى أن الذرية و إن كانت تطلق عادة على الأولاد، إلا - أنها من ناحيه الأصل اللغوى - كما يقول الراغب فى المفردات - تشمل الصغير و الكبير.

و الملاحظه الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هنا، هى أن المراد من الفتنة التى تستفاد من جملة أن يفتنهم هو صرف هؤلاء عن دين موسى بالتهديد و الإرعاب و التعذيب، أو بمعنى آخر إيجاد مختلف المصاعب و العراقيل امامهم سواء كانت دينيه أو غير دينيه.

على كل حال، فقد حدث موسى هؤلاء بلسان المحبه و الموده من أجل تهدئه خواطرهم و تسكين قلوبهم: وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ .

إن حقيقه التوكل هى إلقاء العمل و التصرف فى الأمور على كاهل الوكيل، و ليس معنى التوكل أن يترك الإنسان الجهد و السعى و ينزوى فى زاويه و يقول: إن الله معتمدى و كفى، بل معناه أن يبذل قصارى جهده، فإذا لم يستطع أن يحل المشكله و يرفع الموانع من طريقه، فلا - يدع للخوف طريقا إلى نفسه، بل يصمد أمامها بالتوكل و الاعتماد على لطف الله و الاستعانه بذاته المقدسه و قدرته اللامتناهيه، و يستمر فى جهاده المتواصل، و حتى فى حالات القدره و الاستطاعه فإنه لا يرى نفسه مستغنيا عن الله، لأن كل قدره يتمتع بها هى من الله فى النهايه.

هذا هو مفهوم التوكل الذى لا - ينفك عن الإيمان و الإسلام، لأن الفرد المؤمن و المذعن لأوامر الله يعتقد أنه قادر على كل شىء، و كل عسير مقابل إرادته سهل

يسير. و يعتقد بوعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ أَجَابُوا دَعْوَةَ مُوسَىٰ بِالتَّوَكُّلِ: فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا. ثُمَّ رَجَوْا مِنَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَنْ يَنْجِيَهُمْ مِنْ شَرِّ الْأَعْدَاءِ وَ وَسَاوِسِهِمْ وَ ضُغُوطِهِمْ وَ يُؤْمِنَهُمْ: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

و الجميل فى الأمر أن فرعون قد وصف فى الآيه الأولى بأنه من الْمُسْرِفِينَ و فى الآيه الثالثة سَمَّى هو و أعوانه باسم الظَّالِمِينَ ، و فى آخر آيه بأنهم من الْكَافِرِينَ .

إنَّ هذا التفاوت فى التعبيرات ربّما لأنَّ الإنسان يشرع فى مسير الذنب و الخطأ من الإسراف أولاً، أى التعدى على الحدود، ثم الظلم، و ينتهى عمله أخيرا إلى الكفر و الإلحاد!

ص: ٤٢١

اشاره

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَ قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّنَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَ اشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَزُورُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَ لَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)

التفسير

اشاره

المرحلة الزابعه:مرحلة البناء من أجل الثوره:

شرح هذه الآيات مرحلة أخرى من نهضه و ثوره بنى إسرائيل ضد الفراعنه.

فتقول أولا: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً فالأمر الالهى يقرر اختيار البيوت لبنى إسرائيل بمصر و ان تكون هذه البيوت متقاربه و متقابله.

ثم تطرقت إلى مسأله تربيته النفس معنويا و روحيا، فقالت: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ و من أجل أن تطرد آثار الخوف و الرعب من قلوب هؤلاء و تعيد و تزيد من قدرتهم المعنويه و الثوريه قالت: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

يستفاد من مجموع هذه الآيه أن بنى إسرائيل كانوا فى تلك الفتره بصوره جماعه متشسته مهزومه و متطفله و ملوثه و خائفه، فلا مأوى لهم و لا اجتماع مركزى، و لا برنامجا معنويا بناء، و لا يمتلكون الشجاعه و الجرأه اللازمه للقيام بثوره حقيقه.

لذلك فإن موسى و أخاه هارون قد تلقوا مهمه وضع برنامج فى عدّه نقاط من أجل تطهير مجتمع بنى إسرائيل، و خاصّه فى الجانب الروحى:

١-الاهتمام أولاً بمسأله بناء المساكن، و عزل مساكنهم عن الفراعنه، و كان لهذا العمل عدّه فوائد:

إحداها: أنهم بتملكهم المساكن فى بلاد مصر سيشعرون برابطه أقوى تدفعهم للدفاع عن أنفسهم و عن ذلك الماء و التراب.

و الأخرى: أنهم سينتقلون من الحياه الطفيليه فى بيوت الأقباط إلى حياه مستقله.

و الثالثه: أن أسرار أعمالهم و خططهم سوف لا تقع فى أيدي الأعداء.

٢- أن يبنوا بيوتهم متقاربه و يقابل بعضها الآخر. لأن القبله فى الأصل بمعنى حاله التقابل، و إطلاق كلمه القبله على ما هو معروف اليوم إنما هو معنى ثانوى لهذه الكلمه (١).

و أدى هذا العمل الى تجمع و تمركز بنى إسرائيل بشكل فاعل، و استطاعوا بذلك

ص: ٤٢٣

١-١) بعض المفسرين لم يأخذوا القبله فى الآيه أعلاه بمعنى المقابل، بل فسروها بنفس معناها، أى قبله الصلاه، و يعتبرون جمله: (و أقيموا الصلاه) شاهدا على ذلك، إلا أن المعنى الأول أنسب لمفهوم الكلمه اللغوى الأصلى، إضافة إلى أن إرادته كلا المعنيين من هذه الكلمه لا إشكال فيه أيضا، كما مر علينا نظير هذا مرارا.

وضع المسائل الاجتماعيه بعائمه قيد البحث و التحقيق،و أن يجتمعوا مع بعضهم لأداء المراسم الدينيه و الشعائر المذهبيه،و أن يرسموا الخطط اللازمه من أجل حريتهم.

٣-التوجه إلى العباده،و خاصّه الصلاه التي تحرر الإنسان من عبوديه العباد، و تربطه بخالق كل القوى و القدرات،و تغسل قلبه و روحه من لوث الذنوب، و تحيي فيه الشعور بالاعتماد على النفس و على قدره الله حيث ستدب و تنبعث روح جديده في الإنسان.

٤-إنّ هذه المهمّه و جهت الأمر لموسى-باعتباره قائدا-بأن يطهر روح بنى إسرائيل من اشكال الخوف و الرعب التي كانت من افرازات سنين العبوديه و الذله الطويله.و أن يربى و ينمى فيهم الإبراده و الشهامه و الشجاعه و ذلك عن طريق بشاره المؤمنين بالفتح و النصر النهائى،و لطف الله و رحمته.

الملفت للنظر أنّ بنى إسرائيل من أولاد يعقوب،و جماعه منهم من أولاد يوسف طبعاً،و قد حكم هو و اخوته مصر سنين طويله،و سعوا في عمران هذا الوطن،إلاّ- أنّه نتيجة لتركهم طاعه الله و الغفله و الخلافات الداخليه و صلوا إلى مثل هذا الوضع المأساوى.إنّ هذا المجتمع المسحوق المصاب يجب أن يبنى من جديد،و يمحو نقاط ضعفه و يستبدلها بالخصال الروحيه البناء ليعيد عظمه الماضى.

ثمّ أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون و أزلامه،فتقول على لسان موسى:

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَآءَ زِينَةً وَ أَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ

إنّ اللام فى «ليضلوا»لام العاقبه،أى إنّ جماعه الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شأؤوا أم أبوا،و سوف لا تكون عاقبه أمرهم شيئاً غير هذا،لأنّ دعوه الأنبياء و الأطروحات الإلهيه توقظ الناس و توحدهم و بذلك

لا يبقى مجال لتسلط الظالمين و كيد المعتدين و ستضيق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بداً من معارضه الأنبياء.

ثم يطلب موسى عليه السلام من الله طلباً فيقول: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ .

«الطمس» في اللغة بمعنى المحو و سلب خواص الشيء، و اللطيف في الأمر أن ما ورد في بعض الروايات من أن أموال الفراعنه قد أصبحت خزفاً و حجراً بعد هذه اللعنه، ربّما كان كناية عن أن التدهور الاقتصادي قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمه ثروتهم تماماً و أصبحت كالخزف لا قيمة لها! ثم أضافت وَ أَشَدُّ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ أَي: اسلبهم قدره التفكير و التدبّر أيضاً لأنهم بفقدانهم هاتين الدعامين (المال و الفكر) سيكونون على حافه الزوال و الفناء، و سينفتح أمامنا طريق الثوره، و توجيه الضربه النهائي لهؤلاء.

اللهم إن كنت قد طلبت ذلك منك في حق الفراعنه فليس ذلك نابعا من روح الانتقام و الحقد، بل لأن هؤلاء قد فقدوا أرضيه الإيمان أبداً: فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ و من الطبيعي أن الإيمان بعد مشاهدته العذاب - كما سيأتي قريباً - لا ينفع هؤلاء أيضاً.

ثم خاطب الله سبحانه و تعالى موسى و أخاه بآئه: الآن و قد أصبحتما مستعدين لتربيته و بناء قوم بني إسرائيل قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ و لا تخافا سيل المشاكل، و كونا حازمين في أعمالكما و لا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرا في برنامجكما الثوري و لا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

اشاره

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَيْدًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ
بُنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) أَلْمَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَيْدِنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا
حَتَّىٰ لَجَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

التفسير

اشاره

الفصل الأخير من المجابهه مع الظالمين:

هذه الآيات جسدت آخر مرحلة من المواجهه بين بنى إسرائيل و الفراعنه و بينت مصير هؤلاء فى عبارات قصيره، لكنّها دقيقه و واضحه- كما هو دأب القرآن- و تركت المطالب الأخرى تفهم من الجمل السابقه و اللاحقه.

فتقول أولًا: إننا جاوزنا بنى إسرائيل البحر - وهو نهر النيل العظيم أطلق عليه اسم البحر لعظمته - أثناء مواجهتهم للفرعون، وعند ما كانوا تحت ضغط وطارده هؤلاء: **وَاجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ إِلَّا أَنْ فَرَعُونَ وَجُنُودَهُ طَارَدُوا هَؤُلَاءِ مِنْ أَجْلِ الْقَضَاءِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا .**

«البغي» يعنى الظلم، «و العدو» بمعنى التعدى، أى إن هؤلاء إنما طاردوهم و تعقبوهم لغرض الظلم و التعدى عليهم، أى على بنى إسرائيل.

جملة «فأتبعهم» توحى بأن فرعون و جنوده قد تتبعوا بنى إسرائيل طوعا، و تؤيد بعض الروايات هذا المعنى، و البعض الآخر تخالف هذا المعنى، إلا أن ما يفهم و يستفاد من ظاهر الآية هو الحجة على كل حال.

أمّا كيفية عبور بنى إسرائيل للبحر، و أى إعجاز وقع فى ذلك الحين، فإن شرح ذلك سيأتى فى ذيل الآية (٦٣) من سوره الشعراء، إن شاء الله تعالى.

على كل حال، فإن هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الغرق، و أصبح كالفقير تنقذفه الأمواج و تلهو به، فعنداك زالت حجب الغرور و الجهل من أمام عينه، و سطع نور التوحيد الفطرى و صدع بالإيمان: **حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَسْتُ مُؤْمِنًا بِقَلْبِي فَقَطْ، بَلْ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَمَلِيًّا: وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .**

و لما تحققت نبؤات موسى عليه السلام الواحده تلو الأخرى و أدرك فرعون صدق هذا النبى الكبير أكثر فأكثر و شاهد قدرته و قوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه رب بنى إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمه و لذلك يقول: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل! إلا أن من البديهي أن مثل هذا الإيمان الذى يتجلى عند نزول البلاء و نشوب أظفار الموت، إيمان اضطرارى يتشبه به كل جان و مجرم و مذنب و ليست له أية قيمه، أو يكون دليلا على حسن نيته أو صدق قوله، و لهذا فإن الله سبحانه خاطبه

فقال: **الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .**

و قد قرأنا سابقا فى الآيه (١٨) من سوره النساء: **وَأَلَيْسَتِ التُّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ** **الآنَ** و لهذا فإنَّ كثير من الناس ما أن تستقر بهم الحال و ينجون من الموت يعودون إلى أوضاعهم و أعمالهم السابقه. و نظير هذا التعبير الذى ورد أعلاه جاء أيضا فى اشعار و كلمات الأدباء العرب و العجم، مثل:

أتت و حياض الموت بينى و بينها

و جادت بوصل حين لا ينفع الوصل

لكن **فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِيَدِنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً** لله للحكام المستكبرين و لكل الظالمين و المفسدين، و آيه للفئات المستضعفه.

هناك بحث بين المفسرين المراد من البدن هنا، فأكثرهم يرى بأن المراد هو جسد فرعون الذى فارقتة الروح، لأنَّ عظمه فرعون فى أفكار الناس فى ذلك المحيط بلغت حدًا بحيث أن الكثير لو لا ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، و كان من الممكن أن تنسج الأساطير و الخرافات الكاذبه حول نجاه و حياه فرعون بعد هذه الحادثه، لذلك ألقى الله سبحانه جسده خارج الماء.

اللطيف هنا، أنَّ البدن فى اللغه- كما قال الراغب فى مفرداته- يعنى الجسد العظيم- و هذا يدلنا على أن فرعون كان عظيم الهيكل ممتلىء الجسم كما هو الحال فى الكثير من أهل الترف و الرفاه الدنيوى! **إلا- أنَّ البعض الآخر قالوا:** إنَّ أحد معانى البدن هو الدرع، و هذا إشاره إلى أن الله سبحانه قد أخرج فرعون من الماء بدرعه الذهبى الذى كان على بدنه ليعرف عن طريقه، و لا يبقى أى مجال للشك فى أنه فرعون.

هذه النقطه أيضا تستحق الانتباه، و هى أنهم استفادوا من جملة «ننجيك» أنَّ الله سبحانه قد أمر الأمواج أن تلقى بدنه على مكان مرتفع عن الساحل لأنَّ ماده «النجوه» تعنى المكان المرتفع و الأرض العالیه.

ص: ٤٢٨

و النقطة الأخرى التى تلاحظ فى الآيه أنّ جملة: فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ قد بدأت بفاء التفرّيع، و من الممكن أن يكون ذلك إشاره إلى أن إيمان فرعون الباهت فى هذه اللحظه اليائسه و فى ساعه الاحتضار كان كالجسد بدون روح و لذلك أثر بالمقدار الذى أنجى الله جسد فرعون من الماء بعد أن فارقته الروح، حتى لا يكون طعمه للأسماك و ليكون عبره للأجيال القادمه! و يوجد الآن فى متاحف مصر و بريطانيا جثه أو جثتين من جثث الفراعنه التى بقيت محنّطه بالمومياء، فهل أنّ بدن فرعون المعاصر لموسى من بينها حيث حفظوه فيما بعد بالمومياء، أم لا؟ لا- يمكننا اثبات ذلك، إلا أنّ تعبير لِمَنْ خَلَفَكَ يقوى هذا الاحتمال فى أن بدن ذلك الفرعون من بين هذه الأبدان، ليكون عبره لكل الأجيال القادمه، لأنّ تعبير الآيه مطلق و يشمل كل الأجيال فى المستقبل (فتدبر جيدا).

و يقول فى نهايه الآيه: إِنَّه و بالرغم من كل هذه الآيات و الدلالات على قدره الله، و مع كل الدروس و العبر التى ملأت تاريخ البشر فإنّ الكثير معرضون عنها و إنّ كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون .

و تبيّن آخر آيه من هذه الآيات النصر النهائى لبنى إسرائيل، و الرجوع إلى الأرض المقدسه بعد الخلاص من قبضه الفراعنه، فتقول: وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ .

إنّ التعبير ب مَبُوءًا صِدْقٍ يمكن أن يكون إشاره إلى أنّ الله سبحانه قد وفى بما وعد به بنى إسرائيل و أرجعهم إلى الوطن الموعود، أو أنّ مَبُوءًا صِدْقٍ إشاره إلى طهاره و قدسيه هذه الأرض، و بذلك تناسب أرض الشام و فلسطين التى كانت محط الأنبياء و الرسل.

و قد احتمل جماعه أن يكون المراد أرض مصر، كما يقول القرآن فى سوره الدخان/الآيه (٢٥)-(٢٨): كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَدَاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ .

و قد جاء هذا المضمون فى الآيه (٥٧) - (٥٩) من سورة الشعراء، و نقرأ فى آخرها: وَ أَوْزَنَّاها بَيْنِي إِسْرَائِيلَ .

من هذه الآيات نخرج بأن بنى إسرائيل قد بقوا فتره فى مصر قبل الهجرة إلى الشام، و تنعموا ببركات تلك الأرض المعطاء.

ثم يضيف القرآن الكريم: وَ رَزَقْنَاها مِنْ الطَّيِّبَاتِ و لا مانع بالطبع من أن تكون أرض مصر هى المقصوده، و كذلك أراضي الشام و فلسطين. إلا أن هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمه فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ و بعد مشاهده كل تلك المعجزات التى جاء بها موسى، و أدله صدق دعوته، إلا إنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و إذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غدا.

و قد احتمل -أيضا- فى تفسير هذه الآيه، أن يكن المراد من الاختلاف هو الاختلاف بين بنى إسرائيل و اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم فى قبول دعوته، أى إنَّ هؤلاء رغم معرفتهم صدق دعوته حسب بشارات و علامات كتبهم السماويه، فإنهم اختلفوا، فأمن بعضهم، و امتنع القسم الأكبر عن قبول دعوته، و إنَّ الله سبحانه سيقضى بين هؤلاء يوم القيامه.

إلا أن الاحتمال الأول أنسب لظاهر الآيه.

كان هذا الحديث عن قسم من ماضى بنى إسرائيل الملىء بالعبر، و الذى بين ضمن آيات فى هذه السوره، و ما أشبه حال أولئك بمسلمى اليوم، فإنَّ الله قد نصر المسلمين بفضله مرّات كثيره. و قهر أعداءهم الأقوياء بصوره إعجازيه، و نصر بفضله و رحمته هذه الأممه المستضعفه على أولئك المتجبرين، إلا أنَّهم و للأسف الشديد، بدل أن يجعلوا هذا النصر و سيله لنشر دين الإسلام فى جميع أرجاء العالم، فإنَّهم قد اتَّخذوه ذريعه للتفرقه و إيجاد النفاق و الاختلاف بحيث عرَّضوا كل انتصاراتهم للخطر! اللهم نجنا من كفران النعمه هذا.

اشاره

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسِئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَا جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

التفسير

اشاره

لا تدع للشك طريقا إلى نفسك!

لما كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضى الأنبياء و الأمم السابقة، و كان من الممكن أن يشكك بعض المشركين و منكرى دعوه النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى صحه ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد و العلم بصحه هذه الأقوال، و ليسألوهم عن ذلك، لأن كثيرا من هذه المسائل قد ورد فى كتب هؤلاء.

إلا أنه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النبى صلى الله عليه و آله و سلم فقال: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسِئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لِيُثَبِّتَ عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ بَأَنَّهُ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

و يحتمل أيضا أن الآيه أعلاه تطرح بحثا جديدا و مستقلا في صدق دعوه النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و تعلم المخالفين أنهم إن كانوا في شك من أحقيته فليسألوا أهل الكتاب عن علاماته التي نزلت في الكتب السابقه كالتوراه و الإنجيل.

و نقل سبب آخر للنزول في بعض التفاسير (1) يؤيد هذا المعنى، و هو أن جمعا من كفار قريش كانوا يقولون: إن هذا القرآن لم ينزل من الله، بل إن الشيطان يلقيه على محمد!! و قد سبب هذا الكلام أن يقع عدّه أشخاص في وادى الشك و التردد، فأجابهم بهذه الآيه.

هل كان النبي شاكاً؟!!

يمكن أن يتراءى للنظر في البدايه أن هذه الآيات تحكى عن أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان شاكاً في صدق الآيات التي كانت تنزل عليه، و أن الله سبحانه قد أزال شكّه عن الطريق أعلاه.

و لكن واقع الأمر أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان يتلقى مسأله الوحي مع الشهود و المشاهده - كما تحكى آيات القرآن هذا المعنى - و معه لا يبقى أى معنى للشك في هذا المورد. إضافة إلى أن هذا الأسلوب من خطاب القريب من أجل تنبيه البعيد رائج في العرف، و هذا هو المراد من المثل المعروف: إِيَّاكَ أَعْنَى و اسمعى يا جاره، و تأثير مثل هذا الكلام أكبر من الخطاب الصريح في كثير من الموارد.

إضافه إلى أن ذكر الجملة الشرطيه لا يدل دائما على احتمال وجود الشرط، بل هو للتأكيد على مسأله ما أحيانا، أو لبيان قانون كلى عام، فنقرأ مثلا في الآيه (٢٣) من سوره الإسراء: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَ يَنْبَغِي الْإِتْبَاهُ إِلَىٰ أَنَّ الْمَخَاطَبَ فِي الْآيَةِ هُوَ النَّبِيُّ ظَاهِرًا، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فَقَدْ أَبَاهُ قَبْلَ وِلَادَتِهِ وَ أُمَّهُ فِي

ص: ٤٣٢

(١- ١) تفسير أبى الفتوح الرازى، الجزء ٦، ص ٢٢٧ ذيل الآيه.

طفولته، فإن من الواضح أن احترام الوالدين طرح هنا كقانون عام بالرغم من أن المخاطب ظاهراً هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

و كذلك نقرأ في سورة الطلاق: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ وَ هَذَا التعبير لا يدل على أن النبي قد طلق امرأه في حياته، بل هو بيان قانون عام، و البديع في هذا التعبير أن المخاطب في بدايه الجملة هو النبي، و في نهايتها كل الناس.

و من جمله القرائن التي تؤيد أن المقصود الأساس في الآيه هم المشركون و الكافرون، الآيات التي تتلو هذه الآيه و التي تتحدث عن كفر و جحود هؤلاء.

و يلاحظ نظير هذا الموضوع في الآيات المرتبطه بالمسيح، عند ما يسأله الله يوم القيامة: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ فإنه ينكر هذه المسأله بصراحه، و يضيف: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ سورة المائده من الآيه (١١٦).

ثم تضيف الآيه التاليه: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ من بعد ما اتضحت لك آيات الله و صدق هذه الدعوه.

إن الآيه السابقه تقول بأنك إن كنت في شك فاسأل أولئك المطلعين العالمين، و تقول هذه الآيه بأنك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، و إلا فإن مخالفه الحق لا عاقبه لها إلا الخسران.

إن هذه الآيه قرينه واضحه على أن المقصود من الآيه السابقه هم عموم الناس بالرغم من أن الخطاب موجه إلى شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأن من البديهي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يكذب الآيات الإلهيه مطلقاً، بل كان المدافع المستميت الصلب عن دينه.

ثم أنها تخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن من بين مخالفيك جماعه متعصين عنودين لا فائده من انتظار إيمانهم، فإنهم قد مسحوا من الناحيه الفكرية، و توغلوا في طريق الباطل إلى الحد الذي فقدوا معه الضمير الإنساني الحي تماماً، و تحولوا إلى

موجودات لا- يمكن اختراقها، غايه ما فى الأمر أنّ القرآن الكريم بيّن هذا الموضوع بهذا التعبير: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ .

و حتى إذا جاءتهم كل الآيات و الدلالات فإنهم لا يؤمنون: وَ لَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ وَ لا أثر لإيمانهم فى ذلك الوقت.

إنّ الآيات الأولى من الآيات مورد البحث تدعو عامه الناس إلى المطالعه و التحقيق و السؤال من أهل العلم، ثم طلبت منهم أن ينصروا الحق و يدافعوا عنه بعد أن اتضح لهم. إلا أنّ الآيات الأخيره تقول: لا تتوقع أن يؤمن كل هؤلاء، لأنّ البعض قد فسد قلبه بحيث لا- يمكن إصلاحه، فلا- يثبطك عدم ايمانهم عن مواصلة الطريق. و لا- تتعب نفسك فى سبيل هدايتهم، بل توجه إلى الأكثرية من الناس ممن لهم أهليه الهدايه.

و كما كررنا مرارا، فإنّ التعبيرات التى تشابه هذه الآيه السابقه ليست دليلا- على الجبر أبدا، بل هى من قبيل ذكر آثار عمل الإنسان، لكن لما كان أثر كل شىء بأمر الله، فإنّ هذه الأمور تنسب إلى الله أحيانا.

و يبدو أنّ ذكر هذه النقطه مهم أيضا، و هى أننا قرأنا فى بعض الآيات السابقه فى شأن فرعون أنّه قد أظهر الإيمان بعد نزول العذاب و الوقوع فى قبضه الطوفان، إلا أن مثل هذا الإيمان لما كان يتصف بالاضطرار لم ينفعه. إلا أنّ هذه الآيات تقول إنّ هذا لم يكن أسلوب و طريق فرعون وحده، بل هو طريق كل العنودين الأنانيين المستكبرين المسودّه قلوبهم الذين وصلوا إلى قمه الطغيان و لديهم نفس هذه الحاله، فإنّ هؤلاء أيضا لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ذلك الإيمان العديم الأثر بالنسبه لهؤلاء.

اشاره

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)

التفسير

اشاره

الامه التي آمنت في الوقت المناسب!

تحدثت الآيات السابقة عن فرعون خاصه، و الأقوام السابقة بصوره عامه، و هي أنّ هؤلاء امتنعوا من الإيمان بالله في وقت الإختيار و السلامه، إلا أنهم لما أشرفوا على الموت و العذاب الإلهي أظهروا الإيمان الذي لم يكن نافعا لهم آنذاك.

و تطرح الآيه التي نبحثها هذه المسأله كقانون عام، فتقول: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا. ثم استثنت قوم يونس فقالت: إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ أَي إِلَىٰ آخِرِ عَمْرِهِمْ.

إن كلمه «لولا» تعنى هنا النفي على رأى بعض المفسرين، و لذلك تم الاستثناء منها بواسطه «إلا» و على هذا الأساس يصبح معنى الجملة: لم يؤمن أى من الأقوام و الأمم التي عاشت في الماضى في المدن و الأماكن المعموره أمام أنبياء الله

بصوره جماعيه إلا قوم يونس.

إلا أنّ البعض الآخر معتقد بأنّ كلمه «لولا» لم تأت بمعنى النفي، بل أتت دائما بمعنى التحضيض- و يقال للسؤال المقترن بالتوبيخ و التحريك تحضيض- إلا أن لازم مفهومها فى مثل هذه الموارد يكون نفيًا، و لهذا يمكن أن يستثنى منها ب«إلا».

و على كل حال، فلا شك فى أنّ جماعات كثيره من الأقسام السالفه آمنوا أيضا، إلا أنّ الذى يميز قوم يونس هو أنّهم آمنوا بأجمعهم دفعه واحده، و كان ذلك قبل حلول العقاب الإلهى الحتمى، فى حين أنّ جماعه كبيره من بين الأقسام الأخرى بقوا على مخالفتهم و عنادهم حتى صدر القرار الإلهى بالعذاب الحتمى، فلتما رأى هؤلاء العذاب الأليم أظهر أغلبهم الإيمان، إلا أنّ إيمانهم- و للسبب الذى قلناه سابقا- لم يكن له أثر و لا نفع.

قصة إيمان قوم يونس:

كانت قصة هؤلاء على ما جاء فى التواريخ، أنّه عند ما يئس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى فى العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، فى حين أنّ عالما كان معهم أيضا اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، و أن يستمر فى إرشاده أكثر من قبل و لا ييأس.

يونس اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاجتمع قومه الذين كانوا قد جربوا صدق أقواله حول ذلك الرجل العالم، و لم يكن أمر العذاب القطعى قد صدر بعد، إلا أنّ علاماته قد شرعت فى الظهور، فاغتنم هؤلاء الفرصه و عملوا بنصيحه العالم و خرجوا معه خارج المدينه. للتضرع و الدعاء، و أظهروا الإيمان و التوبه، و من أجل أن يزداد توجههم الروحى فرقوا بين الأمهات و الأولاد، و لبسوا اللباس الخشن البالى و هبوا للبحث عن نبيهم فلم يعثروا له على أثر.

إلا أنّ هذه التوبه و الإيمان و الرجوع إلى الله، الذى تمّ فى الوقت المناسب و عن

و عى مقترن بالإخلاص قد أثر أثره، و ارتفعت علامات العذاب و عادت المياه الى مجاريها. و لَمَّا رجع يونس إلى قومه بعد احداث و وقائع كثيرة وقعت له قبله بأرواحهم و قلوبهم.

و سنين تفصيل حياه يونس نفسه فى ذيل الآيات (١٣٤-١٤٨) من سوره الصافات، إن شاء الله تعالى.

و الجدير بالذكر، إن قوم يونس لم يستحقوا العذاب الإلهى، الحتمى، و إلاّ. لم تقبل توبتهم، بل كانت تأتيمهم الإنذارات و التحذيرات التى تظهر عادة قبل العذاب النهائى، و قد كان مقدارها كافيا للتوعيه، فى حين أن الفراعنه مثلا كانوا قد رأوا هذه الإنذارات مرارا- كحادثه الطوفان و الجراد و اختلاف ماء النيل الشديد و أمثالها- إلاّ أنّهم لم يعبثوا بها مطلقا و لم يأخذوها بمنظار جدى. و اكتفوا بالطلب من موسى أن يدعوا الله ليرفع عنهم هذه الابتلاءات ليؤمنوا، لكنهم لم يؤمنوا مطلقا.

ثمّ إنّ القصه أعلاه تبين بصوره ضمنيه مدى تأثير القائد الواعى الرشيد الحريص فى القوم أو الأئمه، فى حين أن العابد الذى لا يمتلك الوعى الكافى يعتمد على الخشونه أكثر، و هكذا يفهم من هذه الروايه منطق الإسلام فى المقارنه بين العباده الجاهله. و العلم الممتزج بالإحساس بالمسؤوليه.

اشاره

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

التفسير

اشاره

لا خير في الإيمان الإجباري:

لقد طالعنا في الآيات السابقة أنّ الإيمان الاضطراري لا يجدي نفعا أبداً، ولهذا فإنّ الآيه الأولى من هذه الآيات تقول: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً و بناء على هذا فلا يعتصر قلبك ألما لعدم إيمان جماعه من هؤلاء، فإنّ من مستلزمات أصل حريه الإراده و الاختيار أن يؤمن جماعه و يكفر آخرون، و إذا كان الأمر كذلك أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ إنّ هذه الآيه تنفى بصراحه مرّه أخرى التهمه الباطله التي قالها و يقولها أعداء الإسلام بصوره مكرره، حيث يقولون: إنّ الإسلام دين السيف، و قد فرض بالقوّه و الإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآيه -ككثير من آيات القرآن الأخرى- بأنّ الإيمان الإجباري لا قيمه له، و الدين و الإيمان شيء ينبع عادة من أعماق

الروح، لا- من الخارج و بواسطة السيف، خاصه و أنها حذرت النبي صلى الله عليه و آله و سلم من إكراه و إجبار الناس على الإيمان و الإسلام.

الآيه التاليه قد ذكرت هذه الحقيقه أيضا، و هي أنّ البشر و إن كانوا أحرارا في اختيارهم، إلا أنّه و ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ و لهذا فإنّ هؤلاء قد ساروا في طريق الجهل و عدم التعقل، و لم يكونوا مستعدين للاستفاده من رأس مال فكرهم و عقلهم، و سوف لا يوفقون للإيمان و هم على هذا الحال، إذ وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

ملاحظتان

١- من الممكن أن يتصور في البدايه أنّ هناك تنافيا و تضادا بين الآيه الأولى و الثانيه، إذ أنّ الآيه الأولى تقول: إنّ الله لا يجبر أحدا على الإيمان، في حين أنّ الآيه الثانيه تقول: إنّ أحدا لا يمكن أن يؤمن حتى يأذن الله! إلا أنّ التنبيه إلى نكته واحده يرفع هذا التضاد الظاهري، و هي أننا نعتقد بأنّ الجبر غير صحيح، كما أنّ التفويض غير صحيح أيضا، أي أنّ الناس ليسوا مجبورين تماما على أعمالهم، و لا هم متروكون و أنفسهم يعملون ما يشاءون، بل إنّهم في الوقت الذي يكونون فيه أحرارا في الإراده، فإنّهم في حاجه للمعونه الالهيه، لأنّ الله سبحانه هو الذي يعطيهم حريه الإراده، فالعقل و الوجدان الطاهر هما من مواهبه و عطاياه، و إرشاد الأنبياء و هدايه الكتب السماويه من جانبه أيضا، و بناء على هذا ففي عين حريه الإراده و الاختيار، فإنّ منبع هذه الهبه و ما ينتج عنها من جانب الله سبحانه. دققوا ذلك.

٢- إنّ آخر جمله من الآيه الأخيره، أي وَ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ لا ينبغي أن تفسر بمعنى الجبر مطلقا، لأنّ جمله لا يَعْقِلُونَ دليل على

اختيار هؤلاء، أى أنّ هؤلاء الأفراد قد امتنعوا من التفكير و التدبر أولاً. فاتلوا فى النهايه بهذا العقاب، الذى هو الرجس و قذاره الشك و التردد و ظلمه القلب و الخطأ فى التفكير الذى سلبت منكم القدره على الإيمان، إلاّ أنّه ينبغي الانتباه إلى أنّ مقدمات العذاب قد هيأها هؤلاء بأنفسهم، و فى مثل هذه الأحوال فإنّ الله تعالى لا يأذن فى إيمان هؤلاء.

و بتعبير آخر، فإنّ هذه الجملة تشير إلى أنّ إذن الله و أمره ليس أمراً اعتبارياً غير مدروس و محسوب، بل إنّه يشمل أولئك الذين لهم أهليه الإيمان، أمّا غير اللائقين فإنّهم سيحرمون منه.

اشاره

قُلْ اَنْظُرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

التفسير

اشاره

الموعظه و النصيحة:

كان الكلام فى الآيات السابقه عن أنّ الإيمان يجب أن يكون اختياريا لا بالجبر و الإكراه، و لهذا فإن الآيه الأولى هنا ترشد الناس إلى الإيمان الاختيارى، و تخاطب النبى فتقول: قُلْ اَنْظُرُوا مَا ذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ؟ إن كل هذه النجوم اللامعه و الكواكب السماويه المختلفه التى يدور كل منها فى مداره، و هذه المنظومات الكبيره و المجرات العملاقه، و هذا النظام الدقيق الحاكم على كل تلك الكواكب، و كذلك هذه الكره الأرضيه بكل عجائبها و اسرارها، و كل هذه الكائنات الحيه المتنوعه المختلفه.. تدل بالتمعن فى دقائق صنعها و التدبّر فى

نظامها على المبدأ الأزلى للعالم. و ستعرفون أكثر على خالق هذه الكائنات.

إنّ هذه الجملة تنفى بوضوح مسأله الجبر و سلب حريه الإراده، فهى تقول: إنّ الإيمان هو نتيجة التدبر فى عالم الخلقه، أى إنّ هذا الأمر فى اختياركم.

ثمّ تضيف أنّه رغم كل هذه الآيات و العلامات الدالّه على الحق، فلا داعى للعجب من عدم إيمان البعض، لأنّ الآيات و الدلالات و الإنذارات تنفع الذين لهم الاستعداد لتقبل الحق، أمّا هؤلاء فإنّه و ما تُغْنِي الآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١).

إنّ هذه الجملة إشاره إلى الحقيقه التى قرأناها مرارا فى القرآن، و هى أن الدلائل و كلمات الحق و المواعظ لا تكفى لوحدها، بل إنّ الأرضيه المستعده شرط أيضا فى حصول النتيجة.

ثمّ تقول- بنبره التهديد المتلبسه بلباس السؤال و الاستفهام:- هل ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون إلا أن يروا مصيرا كمصير الأقبام الطغاه و المتمردين السابقين الذين عمهم العقاب الإلهى. مصير كمصير الفراعنه و النمارده و شدّاد و أعوانهم و أنصارهم؟! فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ .

و تحذرهم الآيه أخيرا فتقول: يا أيها النّبى قُلْ فَاصْتَبِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَظِرِينَ فأنتم بانتظار هزيمه دعوه الحق، و نحن بانتظار المصير المشؤوم الذى ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الاستفهام فى جملة فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ استفهام إنكارى، أى إنّ هؤلاء بطبيعته سلوكهم هذا لا يمكن أن ينتظروا إلا حلول مصير مشؤوم

ص: ٤٤٢

١- ١) نذر جمع نذير، أى المنذر، و هو كناية عن الأنبياء و القاده الإلهيين، أو هى جمع إنذار، بمعنى تحذير و تهديد الغافلين و المجرمين الذى هو من برامج هؤلاء القاده الإلهيين. و قد اعتبر البعض (ما) جملة ما تُغْنِي الآياتُ نافية، و البعض جعلها بمعنى الاستفهام الإنكارى، و هى واحده من حيث النتيجة، إلا أنّ الظاهر أن (ما) نافية.

كلمه (أيام) و إن كانت فى اللغه جمع يوم، إلا أنها هنا تعنى الحوادث المهلكه التى وقعت للأقوام و الأمم السالفه.

و من أجل أن لا يتوهم متوهم أن الله سبحانه يصيب بعذابه الصالح و الطالح، تضيف الآية: إننا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب على الأمم السابقيه، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحين: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا.

ثم تقول فى النهايه: إن هذا ليس مختصا بالأمم السالفه و الرسل و المؤمنين الماضين، بل كذلك حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ (١).

ص: ٤٤٣

١ - ١) إن جملة كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ كانت بهذا المعنى: كذلك ننج المؤمنين و كان ذلك حَقًّا عَلَيْنَا، أى إن جملة (حقا علينا) جملة معترضه بين (كذلك) و (ننج المؤمنين). و يحتمل أيضا أن تكون (كذلك) متعلقه بالجملة السابقيه، أى جملة نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا.

اشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمَسَّ شَكَّ اللَّهِ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

التفسير

اشاره

الحزم في التعامل مع المشركين:

هذه الآيات و الآيات التي تليها، هي آخر آيات هذه السوره، و تتحدث جميعا حول مسأله التوحيد و محاربه الشرك و الدعوه إلى الحق، و هي في الحقيقه فهرست أو خلاصه لبحوث التوحيد و تأكيد على محاربه و مجابهه عباده الأصنام التي بينت

إنّ سياق الآيه يوحى بأنّ المشركين كانوا يتوهمون أحيانا أن من الممكن أن يلين النبي و يتسامح في عقيدته في شأن الأصنام و يعترف و يقزّ لهم عباده الأصنام و لو جزئيا إلى جانب الاعتقاد بالله بنحو من الأنحاء.

إلاّ أنّ القرآن ينسف هذا التوهم الواهي بصوره قاطعه و حاسمه و يقطع عليهم أحلامهم هذه إلى الأبد، فلا معنى لأى نوع من المساومه و اللين في مقابل الأصنام، و لا معبود إلاّ الله، لا تزيد كلمه و لا تنقص أخرى.

ففي البدايه يأمر النبي صلى الله عليه و آله و سلّم أن يخاطب جميع الناس: **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و لا تكفى الآيه بنفى آلهه أولئك، بل تثبت كل العباده لله سبحانه زياده في التأكيد فتقول: و لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ . و من أجل تأكيد أكبر تضيف: أنّ هذه ليست إرادتى فقط، بل و أمرت أن أكون من المؤمنين .**

إنّ التأكيد هنا على مسأله قبض الروح فقط من بين صفات الله، أمّا لأنّ الإنسان إذا كان يشك في كل شىء فإنه لا يستطيع أن يشك في الموت، أو لأنّ هذه الآيه أرادت أن تنبه هؤلاء إلى مسأله العذاب و العقوبات المهلكه التى أشير إليها في الآيات السابقه، و لوحت بالتهديد بالغضب الإلهي.

و بعد أن بيّنت الآيه العقيدته الحقه في نفي الشرك و عباده الأوثان بكل صراحه و قوه، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطره. و دليل من العقل:

وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا

و هنا أيضا لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفي الطرف المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآيه: **وَلَا تُكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .**

«الحنيف»- كما قلنا سابقا- تعنى: الشخص الذى يميل و يتحول عن طريق الانحراف إلى جاده الصواب و الاستقامه، و بتعبير آخر: يفض الطرف عن المذاهب و الأفكار المنحرفه، و يتوجه إلى دين الله المستقيم، ذلك الدين الموافق

للفطره موافقه كامله و مستقيمه. و بناء على هذا فإن هذا التعبير يستبطن الإشاره إلى كون التوحيد فطريا في الأعماق، لأن الانحراف شيء خلاف الفطره، (فتدبر).

و بعد الإشاره إلى بطلان الشريك بالدليل الفطرى، تشير إلى دليل عقلى واضح، فتقول: **وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ إِذْ تَكُونُ قَدْ ظَلَمْتَ نَفْسَكَ وَ مَجْتَمَعَكَ الَّذِى تَعِيشُ فِيهِ.**

أى عقل يسمح أن يتوجه الإنسان لعباده أشياء و موجودات لا تضر و لا تنفع أبدا، و لا يمكن أن يكون لها أدنى أثر فى مصير الإنسان؟ و هنا أيضا لم تكتف الآيه بجانب النفس، بل إنها تؤكد إضافه إلى النفس على جانب الإثبات فتقول: **وَ إِنْ يَمَسَّ سَكَّ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَ كَذَلِكَ وَ إِنْ يُرْذَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصَيَّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَأَنَّ عَفْوَهُ وَ رَحْمَتَهُ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ.**

اشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ
(١٠٨) وَإِتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

التفسير

اشاره

الكلمه الأخيره:

هاتين الآيتين تضمنت إحداهما موعظه و نصيحه لعامه الناس، و اختصت الثانيه بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و قد كملتا الأوامر و التعليمات التي بينها الله سبحانه على مدى هذه السوره و مواضعها المختلفه. و بذلك تنتهي سوره يونس.

فتقول أولاً، و كقانون عام: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ هذه التعليمات، و هذا الكتاب السماوى، و هذا الدين، و هذا النبي كلها حق، و الأدله على كونها حقاً واضحه، و بملاحظه هذه الحقيقه: فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ .

أى إتنى لست مأمورا بإجباركم على قبول الحق، لأن الإجبار على قبول

الإيمان لا- معنى له، ولا- أستطيع إذا لم تقبلوا الحق و لم تؤمنوا أن أذفع عنكم العذاب الإلهي، بل إن واجبي و مسؤوليتي هي الدعوه و الإبلاغ و الإرشاد و الهدايه و القياده، أما الباقي فيتعلق بكم، و عليكم انتخاب طريقكم.

إن هذه الآيه إضافه إلى أنها تؤكد مره أخرى مسأله الإختيار و حريه الإراده، فإنها دليل على أن قبول الحق سيعود بالنفع على الإنسان نفسه بالدرجه الأولى، كما أن مخالفته ستكون فى ضرره.

إن توجيهات القاده الإلهيين و الكتب السماويه ما هي فى الواقع إلا دروس لتربيته و تكامل البشر، فلا يزيد الالتزام بها شيئاً على عظمه الله، و لا تنقص مخالفتها من جلاله شيئاً.

ثم تبين وظيفه و واجب النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى جملتين: الأولى وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَدَّدَ مَسِيرَكَ مِنْ خَلَالِ الْوَحْيِ، و لا يجوز لك أن تنحرف عنه قيد أنمله.

و الثانيه: إِنَّهُ سَتَعْرَضُكَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ مَشَاكِلَ مُضْنِيهِ وَ مُصَاعِبَ جَمِهِ، فلا تدع للخوف من سيل المشاكل إلى نفسك طريقاً، بل وَ اصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ فَإِنَّ أَمْرَهُ حَقٌّ، و حكمه عدل، و وعده متحقق لا محاله.

إلهنا و مولانا: إنك وعدت عبادك الذين يجاهدون فى سبيلك بإخلاص، و الذين يصبرون و يستقيمون فى سبيلك بالنصر.

اللهم و قد أحاطت بالمسلمين مشاكل لا- تحصي، و نحن عبيدك الذين لا- نتوقف عن الجهاد و الاستقامه بمنك و توفيقك، فاكشف عنا سحب المشاكل المظلمه بلطفك، و أنر أبصارنا بنور الحق و العداله... آمين يا رب العالمين.

نهايه سوره يونس

سوره هود

اشاره

مکيه و عدد آياتها مائه و ثلاث و عشرون آيات

ص: ۴۴۹

محتوى هذه السوره و فضيلتها!

المشهور بين المفسرين أنّ هذه السوره بأكملها نزلت بمكّه..و طبقا لما ورد فى «تاريخ القرآن» أنّها السوره التاسعه و الأربعون فى ترتيب السور النازله على المرسل صلى الله عليه و آله و سلم.

و طبقا لما صرح به بعض المفسرين-أيضا-فإنّ هذه السوره نزلت فى السنوات الأخيره التى قضاها النبى صلى الله عليه و آله و سلم بمكّه، أى بعد وفاه عمّه «أبى طالب عليه السّلام» و زوجته «خديجه عليها السّلام»...و بطبيعته الحال فإنّ هذه السوره جاءت فى فتره من أشد الفترات صعوبه فى حياه النبى صلى الله عليه و آله و سلم حيث كان يعانى فيها من ضغوط الأعداء و أراجيفهم الإعلاميه الحاقده المسمومه أكثر ممّا عاناه فى السنوات السابقه.

و لذلك يلاحظ فى بدايه السوره تعابير فيها جانب من التسليه للنبى صلى الله عليه و آله و سلم و للمؤمنين.

و يشكل القسم المهم و العمده من آيات هذه السوره قصص الأنبياء الماضين و خاصّه قصّه نوح النبى عليه السّلام الذى انتصر بالفئه القليله التى معه على الأعداء الكثيرين.

إنّ سرد هذه القصص فيه تسليه لخاطر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين معه و هم أمام الكم الهائل من الأعداء، كما أنّ فيه درسا لمخالفهم من الأعداء.

و على كل حال. فإن آيات هذه السوره-كسائر السور المكيه-تناول أصول «المعارف الإسلاميه» ولا سيّما المواجهه مع الشرك و عباده الأصنام، و مسأله المعاد و العالم بعد الموت، و صدق دعوه النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، كما يبدو فيها تهديدا ضمنا للأعداء، و أمرا بالاستقامه للمؤمنين.

في هذه السوره-إضافه إلى قصّه نوح النّبي و جهاده العنيف التي ذكرت بتفصيل - إشاره إلى قصص الأنبياء هود و صالح و إبراهيم و لوط و موسى و موافقهم الشجاعه بوجه الشرك و الكفر و الانحراف و الظلم..

شبيتنى سوره هود!

إنّ آيات هذه السوره تقرر أن على المسلمين أن لا يتركوا السوح و الميادين- فى الحرب و السلم- لكثرة الأعداء و مواجهاتهم الحاده.. بل عليهم أن يواصلوا مسيرتهم و يستقيموا أكثر فأكثر و يوما بعد يوم..

و على هذا فإننا نقرا

فى حديث معروف عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم أنه قال: «شبيتنى سوره هود» (١) و

فى حديث آخر أنه حين لاحظ أصحاب النّبي آثار الشيب قبل أو انه على محيّاه صلى الله عليه و آله و سلّم قالوا: يا رسول الله، تعجل الشيب عليك. فقال صلى الله عليه و آله و سلّم «شبيتنى سوره هود و الواقعه» (٢).

و فى روايات أخرى أضيف أيضا سوره المرسلات و سوره النبأ عمّ يَسَاءُ لُون و سوره التكوير و غيرها إلى هاتين السورتين.

و نقل عن ابن عباس فى تفسير الحديث الشريف-أنف الذكر- أنه ما نزل على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم آيه كان أشدّ عليه و لا أشق من آيه فَاشْتَقِمَ كَمَا أُمِرَتْ وَ مَنْ تَابَ مَعَكَ

ص: ٤٥٢

١- (١) نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٣٤.

٢- (٢) مجمع البيان، ذيل الآيه (١١٨) من تفسير سوره هود.

كما نقل عن بعض المفسرين أنّ أحد العلماء رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام فسأله عن سبب ما نقل عنه من

قوله: «شيبتنى سورة هود» أهو ما سلف من الأمم السابقة و هلاكها؟ فبين له صلى الله عليه وآله وسلم أن سببه آيه فاستقم كما أمرت (١) و على كل حال فإن هذه السوره-بالإضافه إلى هذه الآيه-فيها آيات مؤثره أخرى تتعلق بيوم القيامة و المحاسبه فى محكمه العدل الإلهى، و آيات تتعلق بما ناله الأقسام السابقون من جزاء، و ما جاء مع بعضها من أوامر فى الوقوف بوجه الفساد بحيث يحمل جميعها طابع المسئوليه... فلا عجب إذا أن يشيب الإنسان عند ما يفكر فى مثل هذه المسئوليات...

مسأله دقيقه أخرى ينبغى الالتفات إليها فى هذا المجال، و هى أنّ كثيرا من هذه الآيات تؤكد ما ورد فى السوره السابقه-أى سوره يونس- و أوائلها بوجه خاص يشبه أوائل تلك السوره و مضامينها تؤكد تلك المضامين.

التأثير المعنوى لهذه السوره:

أما بالنسبه لفضيله هذه السوره،

فقد ورد فى حديث شريف عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من قرأ هذه السوره أعطى من الأجر و الثواب بعدد من صدق هودا و الأنبياء عليهم السلام و من كذب بهم و كان يوم القيامة فى درجه الشهداء و حوسب حسابا يسيرا» (٢).

و من الواضح بمكان أنّ مجرد التلاوه لا يعطى هذا الأثر، و إنما يكون هذا الأثر إذا كانت تلاوه هذه السوره مقرونه بالتفكر و العمل بعدها. و هذا هو الذى يقرب الإنسان إلى المؤمنين السالفين و يبعده عن الذين أنكروا على الأنبياء و جحدوا دعواتهم، و على هذا الأساس يثاب بعددهم و يعطى أجر كل واحد منهم،

ص: ٤٥٣

١- (١) روح المعانى، ج ٢، ص ٢٠٦.

٢- (٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٠٦.

و يكون هدفه كهدف شهداء تلك الأمم السالفه..فلا مجال للتعجب من أن ينال درجاتهم و يحاسب حسابا يسيرا...

و ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:«من كتب هذه السوره على رق ظبى و يأخذها معه أعطاه الله قوه،و من يحارب معه لنصر عليهم و غلبهم و كلّ من رآه يخاف منه» (1).

و لعل بعضا ممن يطلب الراحة و ينظر الى الأمور بسطحية يتصوّر فى قراءته لمثل هذه الأحاديث أنّ الإنسان يمكن أن يصل إلى مثل هذه الأهداف بمجرد وجود الكتابه أو الرسم القرآنى معه،و لكنّه جلى و واضح أنّ المقصود بذلك العمل على طبق ما فى السوره،و أن يتخذها منهجا لحياته و أن يقرأها دائما و يمضى على العمل بها بحذافيرها..و لا شك أنّ مثل هذا العمل تتحقق فيه مثل هذه الآثار أيضا،لأنّ هذه السوره تأمر بالاستقامه و الوقوف بوجه الفساد و الانسجام مع الأهداف،و تحتوى على التجارب السابقه من تأريخ الأمم السالفه التى يوجد فى كلّ واحد منها درس من الانتصار على العدو.

ص: ٤٥٤

(١-١) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢٠٦.

مع ما فيه من عظمه و إعجاز بالغين، ثم يبين بعد هذه الحروف المقطعه واحده من خصائص القرآن الكريم فى جملتين.

أولاً: إِنَّ جَمِيعَ آيَاتِهِ مَتَقَنَةٌ وَ مُحْكَمَةٌ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ .

و ثانياً: إِنَّ تَفْصِيلَ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ الْفَرْدِيَّةِ وَ الْاجْتِمَاعِيَّةِ-مَادِيَّةٍ كَانَتْ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ-مَبِينٌ فِيهَا أَيْضاً ثُمَّ فُصِّلَتْ .

هذا الكتاب العظيم مع هذه الخصيصه، من أين أنزل، و كيف؟! أنزل من عند ربِّ حكيم و خبير مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

فبمقتضى حكمته أحكمت آيات القرآن، و بمقتضى أنه خبير مطلع بِّين آيات القرآن فى مجالات مختلفه طبقاً لحاجات الإنسان، لأن من لم يطلع على تمام جزئيات الحاجات الروحيه و الجسميه للإنسان لا يستطيع أن يصدر احكاماً جديره بالتكامل.

الواقع، إن كل واحده من صفات القرآن التى جاءت فى هذه الآيه تسترشد من واحده من صفات الله.. فاستحكام القرآن من حكمته، و شرحه و تفصيله من خبرته.

و فى بيان ما هو الفرق بين أُحْكِمَتْ وَ فُصِّلَتْ بحث المفسِّرون كثيراً و أبدوا احتمالات عديده.. و أقرب هذه الاحتمالات-بحسب مفهوم الآيه آنفه الذكر- هو أن الجملة الأولى تعنى أن القرآن مجموعته واحده مترابطه كالبنيان المرصوص الثابت، كما تدل على أنه نازل من إله فرد، و لهذا فلا يوجد أى تضاد فى آياته، و لا يرى بينها أى اختلاف.

و الجملة الثانية إشاره إلى أن هذا الكتاب فى عين وحدته فيه شعب و فروع متعدده تستوفى جميع حاجات الإنسان الرُّوحِيَّةِ وَ المَادِيَّةِ، فهو فى عين وحدته

ص: ٤٥٦

١ - ١) شرحنا هذا المعنى و سائر التفاسير التى ذكرت للحروف المقطعه فى القرآن فى بدايه سوره البقره و آل عمران و الأعراف.

كثير، و في عين كثرته واحدا!..

و في الآيه التاليه يبين أهم ما يحتويه القرآن و ما هو أساسه و هو التوحيد و الوقوف بوجه الشرك [□] [□] أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (١) و هذا أول تفصيل لمحتوى هذا الكتاب العظيم.

و الثاني من محتويات الدعوه السماويه: إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ.. نذير لكم من الظلم و الفساد و الشرك و الكفر، و أحذر كم من عنادكم و عقاب الله لكم! و ثالث ما في منهج دعوتى إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم و تطهروا أنفسكم من الأدران: وَ أَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .

و رابعها هو أن تعودوا إلى الله بالتوبه، و أن تتصفوا-بعد غسل الذنوب و التطهر في ظل الاستغفار-بصفات الله، فإن العوده إليه تعالى لا تعنى إلا الاقتباس من صفاته ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ .

في الواقع إن أربع مراحل من مراحل الدعوه المهمه نحو الحق سبحانه بينت في أربع جمل و في أربعة أقسام، فقسمان يتضمنان الجانب «العقيدى» و الأساسى.

و قسمان يتضمنان الجانب «العملى» و الفوقانى.

فقبول أصل التوحيد و محاربه الشرك، و قبول رساله النبى محمد صلى الله عليه و آله و سلم أصلان اعتقاديان، و التطهر من الذنوب و التخلص بالصفات الإلهيه-اللذان يحملان معنى البناء بتمام معناه-أمران عمليان حض عليهما القرآن، و إذا تأملنا بدقه في الآيات الكريمه وجدنا أن جميع محتوى القرآن يتلخص في هذه الأصول الأربعة..

هذا هو الفهرس لجميع محتوى القرآن، و لجميع محتوى هذه السوره أيضا.

ثم تبين الآيات النتائج العمليه لموافقه هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو

ص: ٤٥٧

١ - ١) في جملة أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ احتمالان: الأول: إنه على لسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم- كما أشرنا إليه- و التقدير: دعوتى و أمرى إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ. و الثانى: أنه كلام الله، و التقدير: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، و لكن جملة إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ تنسجم مع المعنى الأول.

التالى يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسِينًا فَإِذَا عَمَلْنَا بِهِذِهِ الْأَصُولَ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَهْبِنَا حِيَاهُ سَعِيدَهُ إِلَى نَهَائِهِ الْعَمْرُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ فَإِنَّ كَلَامَهُ يُعْطَى بِمَقْدَارِ عَمَلِهِ وَ لَا يَهْمِلُ التَّفَاوُتَ وَ التَّفَاضُلَ بَيْنَ النَّاسِ فِي كَيْفِيَةِ الْعَمَلِ بِهِذِهِ الْأَصُولِ... وَ يُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ أَمَّا فِي صُورِهِ الْمَخَالَفَهُ وَ الْعِنَادَ فَتَقُولُ الْآيَةُ: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ حِينَ تَمَثَّلُونَ لِلْوُقُوفِ فِي مُحْكَمِهِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ.

وَ اعْلَمُوا أَنَّ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ كَائِنًا مِنْ كُنْتُمْ، وَ فِي أَيِّ مَحَلٍّ وَ مَقَامٍ أَنْتُمْ، وَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تُشِيرُ إِلَى الْأَصْلِ الْخَامِسِ مِنَ الْأَصُولِ التَّفْصِيلِيَّةِ لِلْقُرْآنِ وَ هِيَ مَسْأَلَةُ «الْمَعَادِ وَ الْبَعْثِ» وَ لَكِنْ لَا تَتَصَوَّرُوا-أَبْدًا-أَنْ قَدَرْتُمْ تَعَدُّ شَيْئًا تَجَاهَ قَدْرِهِ اللَّهُ، أَوْ أَنْكُمْ تَسْتَطِيعُونَ الْفِرَارَ مِنْ أَمْرِهِ وَ مُحْكَمِهِ عَدْلِهِ.. وَ لَا تَتَصَوَّرُوا-أَيْضًا-أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَكُمْ النُّخْرَةَ بَعْدَ الْمَوْتِ وَ يَكْسُوهَا ثَوْبًا جَدِيدًا مِنَ الْحَيَاةِ.. وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

علاقة الدين بالدنيا:

مَا يَزَالُ الْكَثِيرُ يَظُنُّونَ أَنَّ التَّدِينُ هُوَ الْعَمَلُ لِعِمَارَةِ الْآخِرَةِ وَ السَّعَادَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ هِيَ الزَّادُ وَ الْمَتَاعُ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ.. وَ لَا يَكْتَرِثُونَ أَبْدًا بِأَثَرِ الدِّينِ الْأَصِيلِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى حِينٍ أَنَّ الدِّينَ الصَّحِيحَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَعْمُرُ الدَّارَ الْآخِرَةَ يَعْمُرُ «الدُّنْيَا» أَيْضًا.. وَ طَبِيعِي إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلدِّينِ أَيُّ تَأْثِيرٍ عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَلَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ أَيْضًا.

وَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَتَعَرَّضُ لِهَذَا الْمَوْضُوعِ بِصِرَاحِهِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَ رَبَّمَا يَتَنَاوَلُ أَحْيَانًا الْجَزْئِيَّاتِ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى لِسَانِ هَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ مَخَاطَبًا قَوْمَهُ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ يُجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يُجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١).

ص: ٤٥٨

و يفهم البعض أنّ صلّه هذه المواهب الماديه فى الدنيا مع الاستغفار و التطهر من الذنوب معنويه و غير معروفه،فى حين أنّه لا دليل على ذلك،بل الصله بينهما ظاهره معروفه.

فأى أحد لا يعلم أن الكذب و السرقة و الفساد تهدم العلاقات الاجتماعيه؟ و أى أحد لا يعلم أن الظلم و التبعيض و الإجحاف تجعل من حياه الناس جحيما و تكدر صفوهم؟! و أى أحد يشك فى حقيقه أن قبول أصل التوحيد و تكوين مجتمع توحيدى على أساس قياده الأنبياء،و تطهير المجتمع من الذنوب و الآثام، و التحلّى بالقيم الإنسانيه-و هى الأصول الأربعة ذاتها التى أشير إليها فى الآيات المتقدمه-يسير بالمجتمع البشرى نحو هدف تكاملى أفضل،و يخلق محيطا آمنا عامرا بالصفاء و الحريره و الصلاح؟ و على هذا الأساس نقرأ بعد هذه الأصول الأربعة فى الآيات المتقدمه قوله تعالى: **يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**

اشاره

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

التفسير

اختلف بعض المفسرين في شأن نزول الآيه، ف قيل أنها نزلت في أحد المنافقين و اسمه «الأخنس بن شريق» الذي كان ذا لسان ذلق و مظهر جميل، و كان يبدى للنبي صلى الله عليه و آله و سلم الحب ظاهرا لكنه كان يخفي العداوه و البغضاء في الباطن.

كما

نقل عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام أنها نزلت في جماعه من المشركين، حيث كانوا حين يَمرون بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم كانوا يطأطئون برؤوسهم و يستغشون ثيابهم لئلا يراهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و لكن الآيه تشير-على العموم- إلى أحد الأساليب الحمقاء التي كان يتبعها أعداء الإسلام و النبي صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك بالاستفاده من طريقه النفاق و الابتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم و ماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعوا قول الحق.

لذلك فإن الآيه تقول: أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .

و من أجل أن نفهم الآيه فهما دقيقا ينبغي أن تتضح لنا كلمه «يثنون» بجلاء فهى من ماده «ثنى» وهى فى الأصل تعنى ضم أقسام الشىء بعضها إلى بعض، فمثلا فى طى قطعه القماش و الثوب يقال «ثنى ثوبه» و إنما يقال للشخصين على سبيل المثال: اثنان، فلاجل أن انضمّ واحد إلى جانب الآخر، و يقال للمادحين «مثنون» كذلك، لأنهم يعدون الصفات البارزه واحده بعد الأخرى.

و تعنى الانحناء أيضا، لأنّ الإنسان بعمله هذا و هو الانحناء يقرب أجزاء من جسمه بعضها إلى بعض.

و تأتى هذه الماده بمعنى أن تجد العداوه و البغضاء و الحقد طريقها إلى القلب أيضا.. لأنّ الإنسان بهذا العمل يقرب عدااء الشخص -أو أى شىء آخر- إلى القلب، و مثل هذا التعبير موجود فى الأدب العربى إذ يقال: «اثنوني صدره على البغضاء» (1).

و مع الأخذ بنظر الإعتبار بما ورد آنفا من معان لماده «ثنى» فلا يبعد أن تكون كلمه «يثنون» مشيره إلى كل عمل خفى ظاهرى و باطنى -قام به أعداء النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فمن جهه يضمرون العداوه و البغضاء فى القلوب و بيدون المحبه فى لسان ذلق جميل! و من جهه أخرى يقربون رؤوسهم بعضها إلى بعض عند التحدث، و يثنون الصدور و يستغشون الثياب، لئلا تنكشف مؤامراتهم و أقوالهم السيئه و يطّلع أحد على نياتهم.

لذلك فإنّ القرآن يعقّب مباشرة: أن أحذروهم، فإنّهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإنّ الله يعلم ما يخفون و ما يعلنون.. ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون و ما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور.

ص: ٤٦١

١-١) يراجع «تاج العروس» و «مجمع البيان» و «المنار» و «مفردات الراغب» فى هذا الشأن.

اشاره

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)

التفسير

اشاره

جميع الاحياء ضيوف مآدبته:

الآيه السابقه أشارت إلى سعه علم الله و إحاطته بالسر و ما يخفون و ما يعلنون، و الآيه محل البحث تعدّ دليلا على تلك الآيه المتقدمه، فإنها تتحدث عن الرزق لجميع الموجودات و لا يمكن يتمّ ذلك إلا بالإحاطه الكامله بجميع العالم و ما فيه..

تقول الآيه وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا وَيَعْلَمُ تَقَلُّبَهَا وَ تَنَقُّلَهَا مِنْ مَكَانٍ لآخر، و حيثما كانت فإنّ الرزق يصل إليها منه.

و هذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة في كتاب مبين و لوح محفوظ في علم الله كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

١- بالرغم من أنّ كلمة «دأبه» مشتقة من مادة «ديب» التي تعنى السير ببطء و بخطى قصيره، و لكنّها من الناحيه اللغويه تشمل كل حيوان يتحرك فى سيره ببطء أو بسرعه، فنرى كلمه الدابه تطلق على الفرس و على كل حيوان يركب عليه، و واضح أنّ الكلمه فى هذه الآيه-محل البحث- تشمل جميع الحيوانات الموجوده على سطح الأرض بما فيها الحيوانات التى تدبّ فى سيرها..

٢- «الرزق»: هو العطاء المستمر، و من هنا كان عطاء الله المستمر للموجودات رزقا. و ينبغى الالتفات إلى أن مفهوم الرزق غير منحصر فى الحاجات الماديه، بل يشمل كل عطاء مادى أو معنوى. و لذلك نقول مثلا: «اللهم ارزقنى علما كاملا» أو نقول: «اللهم ارزقنى الشهاده فى سبيلك».

و الظاهر أنّ المراد من الرزق فى هذه الآيه الرزق المادى، و لكن إرادته المفهوم العام الذى يندرج تحته الرزق المعنوى غير بعيد..

٣- «المستقر»- فى الأصل- تعنى المقر، لأن جذر هذه الكلمه فى اللغه مأخوذ من «قرّ» على وزن «حرّ» و تعنى كلمه القرّ البرد الشديد الذى يجعل الإنسان و الموجودات الأخرى يركنون إلى بيوتهم، و من هنا جاءت بمعنى التوقف و السكون أيضا.

و «المستودع» و «الوديعة» من ماده واحده، و هاتان الكلمتان فى الأصل تعنيان «اطلاق الشىء و تركه» و لذلك تطلق عليه الأمور غير الثابته التى ترجع إلى حالتها الطبيعیه، فيطلق على كل أمر غير ثابت «مستودع» و بسبب رجوع الشىء إلى صاحبه الأصلى و تركه محله الذى هو فيه يسمى ذلك الشىء «وديعة» أيضا.

فالآيه أنه الذكر تقول: لا ينبغى التصور أن الله سبحانه يرزق الدواب التى تستقر فى أماكنها فحسب، بل هى حيث ما كانت و فى أى ظرف من الظروف تكون فإنّه تعالى يوصل إليها أرزاقها، لأنّه يعلم أماكن استقرارها، و كذلك يعلم جميع

المناطق التي تنتقل إليها و ترحل عنها من حيوانات بحريه مهوله الحجم،الى أصغر الكائنات المجهرية،فإنه تعالى يرزق كلا منها بحسب حاجته و حاله.

و هذا الرزق ملحوظ بحيث يناسب حال الموجودات من حيث الكميّه و الكيفيه،و هو مطابق تماما لمقدار الحاجه و الرغبه،حتى غذاء الجنين الذى فى رحم أمّه يتفاوت كل شهر عن الشهر السابق فى النوعيه و الكميّه،بل كل يوم عن اليوم السابق بالرغم ممّا يبدو من أن الدم نوع واحد لا أكثر.و كذلك الطفل فى مرحله الرضاعه حيث يبدو أن غذاءه من نوع واحد،لكن تركيب هذا الغذاء أو اللبن يختلف من يوم لآخر.

٤-«الكتاب المبين»معناه المكتوب الواضح البين،و يشير إلى علم الله الواسع، و قد يعبر عنه أحيانا باللوح المحفوظ أيضا.

و يحتمل أن يكون هذا التعبير اشاره إلى أنه لا- ينبغى لأحد أن يهتم لرزقه أقلّ اهتمام،أو يحتمل سقطوا اسمه و سهمه من القلم،لأنّ أسماء الجميع مثبتة فى كِتَابٍ مُّبِينٍ كتاب أحصى الجميع بجلاء و وضوح!

تقسيم الأرزاق و السعى من أجل الحياه!

هناك أبحاث مهمّه فى مسأله«الرزق»،و نأخذ بنظر الإعتبار-هنا-قسما منها:

١-«الرزق»-كما قلنا آنفا-يعنى فى اللغه العطاء المستمر و الدائم،و هو أعم من أن يكون رزقا ماديا أو معنويا..فعلى هذا كل ما يكون فيه نصيب للعباد من قبل الله و ينتفعون منه-من مواد غذائيه و مسكن و ملبس أو علم و عقل و فهم و إيمان و إخلاص- يسمى رزقا،و من ظنّ أن مفهوم الرزق خاص بالجوانب الماديه لم يلتفت إلى موارد استعماله فى القرآن الكريم بدقه..فالقرآن يتحدث عن الشهداء فى سبيل الله بأنهم.. أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١).

ص: ٤٦٤

١-١) سورة آل عمران،١٦٩.

و واضح أن رزق الشهداء-فى عالم البرزخ-ليس نعيمًا ماديه، بل هو عبارته عن المواهب المعنويه التى يصعب علينا تصوورها فى هذه الحياه الماديه.

٢-مسأله تأمين الحاجات بالنسبه للموجودات الحيه-و بتعبير آخر تأمين رزقها-من المسائل المثيره التى تنكشف أسرارها بمرور الزمان و تقدّم العلم..

و تظهر كل يوم ميادين جديده تدعو للتعجب و الدهشه.

كان العلماء فى الماضى يتساءلون فيما لو كان فى أعماق البحار موجودات حيه، فمن أين يتم تأمين غذائها؟! إذ أن أصل الغذاء يعود إلى النباتات و الحشائش، و هى تحتاج إلى نور الشمس، و لكن على عمق ٧٠٠ متر فصاعدا لا وجود لنور الشمس أبدا، بل ليل أبدى مظلم يلقى ظلاله و يبسط أسداله هناك.

و لكن اتضح بتقدم العلم أن نور الشمس يغذى النباتات المجهرية فى سطح الماء و بين الأمواج، و حين تبلغ مرحله النضج تهبط إلى أعماق البحر كالفلكه الناضجه، و تنظم إلى الأرزاق الإلهيه للأحياء فى تلك الاعماق، مائده نعمه الله للموجودات الحيه تحت الماء! و من جهه أخرى فهناك طيور كثيره تتغذى من أسماك البحر، منها طيور تطير فى الليل و تهبط الى البحر كالغواص الماهر و عن طريق أمواج راداريه خاصه تخرج من آناها تعرف صيدها و تصطاده بمنقارها.

و رزق بعض أنواع الطيور يكون مدخرا بين ثنايا أسنان حيوانات بحريه كبيره هذا النوع من الحيوانات بعد أن يتغذى من حيوانات البحر، تحتاج أسنانه إلى «منظف طبيعى» فيأتى إلى ساحل البحر و يفتح فمه الواسع فتدخل هذه الطيور التى أدخر رزقها فى فم هذا الحيوان الضخم-دون وحشه و لا اضطراب-و تبحث عن رزقها بين ثنايا أسنان هذا الحيوان الكبير، فتملأ بطونها من جهه، و تريح الحيوان الذى تزدهم بين أسنانه «هذه الفضلات» من جهه أخرى.. و حين تخرج الطيور و تطير فى الفضاء يطبق هذا الحيوان البحرى فمه بكل هدوء و يعود إلى

طريقه إيصال الرزق من الله تعالى إلى الموجودات المختلفه مذهله و محيره حقاً. من الجنين الذى يعيش فى بطن أمه و لا يعلم أحد أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفه التى تعيش فى طيات الأرض، و فى الأشجار و على قمم الجبال أو فى أعماق البحر، و فى الأصداف.. جميع هذه الموجودات يتكفل الله برزقها و لا تخفى على علمه، و كما يقول القرآن... عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَ يُعَلِّمُ مَسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا .

الطريف فى الآيات آنفه الذكر أنها تعبر عن الموجودات التى تطلب الرزق ب«الدَّابَّة» و فيها إشاره لطيفه إلى علاقه بين موضوع «الطاقه» و «الحركه». و نعلم أنه حيثما تكن حركه فلا بد لها من طاقه، أى ما يكون منشأ للحركه، و القرآن الكريم يبين فى الآيات محل البحث - أن الله يرزق جميع الموجودات المتحركه، و إذا ما توسعنا فى معنى الحركه فإن النباتات تندرج فى هذا الأمر أيضاً، لأنّ للنباتات حركه دقيقه و ظريفه فى نموها، و لهذا عدّوا فى الفلسفه الاسلاميه موضوع «النمو» واحداً من أقسام الحركه...

٣- هل أن رزق كل أحد مقدر و معين من أول عمره إلى آخره، و هل أنه يصل إليه شاء أم أبى؟! أم أن عليه يسعى فى طلبه؟ يظنّ بعض الأفراد السدّج استناداً إلى الآيه آنفه الذكر، و إلى بعض الروايات التى تذكر أن الرزق مقدر و معين، أنه لا داعى للسعى من أجل الرزق و المعاش، فإنه لا بد من وصول الرزق، و يقول بكل بساطه: إن من خلق الأشداق قدّر لها الأرزاق.

إن سلوك مثل هؤلاء الأفراد الذين لا حظّ لهم من المعرفه الدينيه يعطى ذريعه الى الأعداء حيث يدعون أن الدين أحد عوامل الركود الاقتصادى و تقبل الحرمان و إماته النشاطات الإيجابيه فى الحياه، فيقول مثلاً: إذا لم تكن الموهبه

الفلانيه من نصيبى فإنها لم تكن من رزقى قطعا..فلو كانت من نصيبى لوصلتني حتما من دون تكلف عناء الكسب. و بهذا يستغل المستعمرون هذه الفرصه ليحرموا الكثير من الخلق التمتع بأسباب الحياه...فى حين أن أقل معرفه بالقرآن و الأحاديث الإسلاميه تكفى فى بيان أنّ الإسلام يعدّ أساس أى استفاده ماديه و معنويه للإنسان هو السعى و الجد و المثابره،حتى أنّنا نجد فى القرآن جملة بمثابة الشعار لهذا الموضوع،و هى الآيه الكريمة لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى .

و كان أئمه المسلمين-و من أجل أن يستوا للآخرين نهجا يسيرون عليه- يعملون فى كثير من المواقع أعمالا صعبه و مجهده.

و الأنبياء السابقون-أيضا-لم يستثنوا من هذا القانون،فكانوا يعملون على الاكتساب،من رعى الأغنام إلى الخياطه إلى نسج الدروع إلى الزراعه.فإذا كان مفهوم الرزق من الله أن نجلس فى البيت و ننتظر الرزق،فما كان ينبغى للأنبياء و الأئمه-الذين هم أعرف بالمفاهيم الدينيه-أن يسعوا هذا السعى إلى الرزق! و على هذا نقول:إنّ رزق كل أحد مقدرّ و ثابت،إلاّ أنّه مشروط بالسعى و الجد، و إذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط.و هذا كما نقول:إن لكلّ فرد أجلا و مده من العمر.و لكن من المسلم و الطبيعى أن مفهوم هذا الكلام لا يعنى أنّ الإنسان حتى لو أقدم على الانتحار أو أضرب عن الطعام فإنّه سيبقى حيا إلى أجل معين!! إنّما مفهوم هذا الكلام أن للبدن استعدادا للبقاء إلى مده معينه و لكن بشرط أن يراعى الظروف الصحيه و أن يتعد عن الأخطار،و أن يجنب نفسه عمّا يكون سببا فى تعجيل الموت.

المسأله المهمه فى هذا المجال أنّ الآيات و الروايات المتعلقه بتقدير الرزق- فى الواقع-بمثابه الكابح للاشخاص الحريصين و عبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب،و يرتكبون أنواع الظلم و الجنايات،و يتصورون أنّهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمنوا حياتهم!

إن آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألا يمدّوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، وألا يطلبوا الرزق من طرق غير مشروعة ولا معقولة، بل يكفي أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، والله سبحانه يضمن لهم الرزق فالله الذى لم ينسهم فى ظلمه الرحم.

الله الذى تكفّل رزقهم أيام الطفوله حيث هيا لهم أثناء الأمهات الله الذى جعل الأب يسعى من الصباح إلى الليل ليهيئ لهم الغذاء بكل عطف وشفقه-بعد أن أنهوا مرحله الرضاعه-و هو مسرور بالتعب من أجلهم...

أجل، هذا الرّب الرحيم كيف يمكن أن ينسى الإنسان إذا ما كبر و وجد قدره على العمل و الكسب.

ترى هل يجيز الإيمان و العقل أن يلجأ الإنسان إلى الظلم و الإثم و التجاوز على حقوق الآخرين و يحرص على غضب حقوق المستضعفين بمجرد أنه يظن عدم توفر رزقه؟ و بالطبع لا- يمكن أن ننكر أن بعض الأرزاق تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع. فهل يمكن أن ننكر أن نور الشمس يضىء فى بيتنا من دون سعيننا، و أن المطر و الهواء يصلان إلينا دون سعى منا؟ و هل يمكن أن ننكر أن العقل و الفكر و الاستعداد المذخور فينا من أوّل يوم وجودنا لم يكن بسعيننا؟! و لكن هذه المواهب التى تنقلها إلينا الريح- كما يقال- أو بتعبير أصحّ هذه المواهب التى وصلتنا بلطف الله و من دون سعيننا، إذا لم نحافظ عليها بالجد و السعى بطريقه صحيحه فستضيع من أيدينا، أو أنها ستبقى بلا أثر! هناك كلام معروف منقول

عن الإمام على عليه السّلام فى شأن الرزق فيقول «و اعلم يا بنى أن الرزق رزقان، رزق تطلبه و رزق يطلبك» (1) و فى هذا الكلام إشارة إلى هذه

ص: ٤٦٨

١- (١) نهج البلاغه، من وصيه الإمام على عليه السّلام لولده الحسن عليه السّلام.

كما لا ينكر أن بعض موارد الرزق لا يأتي تبعا لشيء ظاهر و ملموس، بل يصلنا على أثر سلسله من الاتفاقات و المصادفات، هذه الحوادث و إن كانت فى نظرنا مصادفات، إلا أنها فى الواقع و فى نظام الخلق قائمه على حساب دقيق.

و لا شك أن حساب هذا النوع من الرزق منفصل عن الأرزاق التى تأتي تبعا للجهد و السعى، و الكلام آنف الذكر يمكن أن يشير إلى هذا المطلب أيضا.

و لكن على كل حال- فإن النقطه الأساسيه هنا أنّ جميع التعاليم الإسلاميه تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحي الحياه الماديه و المعنويه، و أن الفرار من العمل- بزعم أن الرزق مقسوم و أنه آت لا محاله- غير صحيح!..

٤- فى الآيات المتقدمه- التى هى محل البحث- إشاره إلى «الرزق» فحسب، و بعدها ببضعه آيات يأتى التعبير عن التائبين و المؤمنين و يشار فيها إلى «المتاع الحسن».

و بالموازنه و المقارنه بين هذين الأمرين يدلنا هذا الموضوع على أن الرزق معدّ لكل دابه من إنس و حشرات و حيوانات مفترسه... إلخ. و للمحسنين و المسيئين جميعا!... إلا أن «المتاع الحسن» و المواهب الجديره و الثمينه خاصّه بالمؤمنين الذين يطهرون أنفسهم من كل ذنب و تلوّث بماء التوبه، و يتمتعون بنعم الله فى مسير طاعته، لا فى طريق الهوى و الهوس!

اشاره

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ
مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

التفسير

اشاره

الهدف من الخلق:

في هذه الآيه بحثت ثلاث نقاط أساسيه:

المطلب الأول: يبحث عن خلق عالم الوجود-و خصوصا بدايه الخلق-الذي يدل على قدره الله و عظمته سبحانه وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...

ولا- حاجه لبيان أنّ المقصود من كلمه «اليوم» في هذه الآيه ليس هو اليوم العادى الذى هو مجموع أربع و عشرين ساعه، لأنّ
الأرض و السماء لم تكونا موجودتين حينئذ..فلا الكره الأرضيه كانت موجوده، و لا حركتها حول نفسها التى تنتج أربعاً و عشرين
ساعه..بل المقصود منه-كما بينا سابقاً-هو الزمان،

سواء كان قصيرا أو مديدا جدا بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلا، وقد نهينا على هذا المعنى في ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف- بشرح واف في هذا المجال، فلا حاجة للتكرار والإعاده.

و ذكرنا هناك أن خلق العالم كان في ستة أزمنة متواليه و متتابعه، مع أنّ الله قادر على أن يخلق العالم كلّ في لحظه واحده، و ذلك لأنّ الخلق التدريجي يعطى صورته جديده و لونا جديدا و شكلا بديعا و تتبين قدره الله و عظمته أكثر و أحسن.

فهو يريد أن يبين قدرته في آلاف الصور لا بصوره واحده، و حكمته في آلاف الشيا ب لا بثوب واحد، لتيسر معرفته و كذلك معرفه حكمته و قدرته للناس، و لنجد الدلائل- من خلال عدد الأيام و السنوات و القرون و الأعصار التي مرّت على العالم- على معرفه الله!.. ثمّ يضيف سبحانه أن عرشه كان على الماء و كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .

و من أجل أن نفهم تفسير هذه الجملة ينبغي أن نفهم المراد من كلمتي «العرش» و «الماء».

«فالعرش» في الأصل يعنى السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرّه العاليه كأسرّه الملوك و السلاطين الماضين، و يطلق أيضا على خشب بعض الأشجار، و غير ذلك.

و لكن هذه الكلمه استعملت بمعنى القدره أيضا و يقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدره كما يقال «ثلّ عرش فلان» كناية عن ذهاب قدرته (١).

كما ينبغي الالتفات إلى هذه الدقيقه، و هى أن العرش يطلق أحيانا على عالم الوجود، لأنّ عرش قدره الله يستوعب جميع هذا العالم.

و أمّا «الماء» فمعناه معروف، و هو السائل المستعمل للشرب و التطهير، إلا أنّه قد يطلق على كل سائل مائع كالفلزّات المائعه و ما أشبه ذلك، و بضميمه ما قلناه في

ص: ٤٧١

١- ١) قد يطلق «العرش» و يراد به «الكرسى» و له مفهوم آخر و قد بيّناه في ذيل الآية (٢٢٥) من سورة البقره.

تفسير هاتين الكلمتين يستفاد أنه في بدايه الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبه «مع غازات مضغوطة للغايه، بحيث كانت على صورته مواد ذائبه أو مائه».

و بعدئذ حدثت اهتزازات شديده و انفجارات عظيمه فى هذه المواد المتراكمه الذائبه، و أخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، و أخذ هذا الوجود المترابط بالانفصال. ثم تشكلت بعد ذلك الكواكب السياره و المنظومات الشمسيه و الأجرام السماويه.

فعلى هذا نقول: إن عالم الوجود و مرتكزات قدره الله كانت مستقره بادئ الأمر على المواد المتراكمه الذائبه، و هذا الأمر هو نفسه الذى أشير إليه فى الآيه (٣٠) من سوره الأنبياء.

أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ...

و فى الخطبه الأولى من نهج البلاغه إشارات واضحه إلى هذا المعنى..

و المطلب الثانى: الذى تشير إليه الآيه-آنفه الذكر- هو الهدف من خلق الكون، و القسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الذى يمثل ذروه الخلاق..

هذا الإنسان الذى كتب عليه أن يسير فى طريق التعليم و التربه و يشق طريق التكامل نحو الله تعالى يقول الله سبحانه: لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أَى لِيخْتبركم و يمتحنكم أَيُّكُمْ الأفضل و الأحسن عملا بهذه الدار الدنيا.

«ليلوكم» كلمه مشتقه من ماده «البلاء» و «الابتلاء» و معناها- كما أشرنا إليه آنفا- الاختبار و الامتحان..

و الامتحانات الإلهيه ليست من قبيل معرفه النفس و كشف الحاله التى عليها الإنسان فى محتواه الداخلى و فى فكره و روحه، بل بمعنى التربه (تقدم شرح هذا الموضوع فى ذيل الآيه ١٥٥ من سوره البقره) و الطريف فى هذه الآيه أنها تجعل

قيمه كل إنسان بحسن عمله لا بكثره عمله، و هذا يعنى أن الإسلام يستند دائماً إلى الكيفيه فى العمل لا إلى الكثره و الكميه فيه.

و فى هذا المجال

ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «ليس يعنى أكثركم عملاً- و لكن أصوبكم عملاً، و إنما الإصابه خشيه الله و التيه الصادقه. ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، و العمل الخالص الذى لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عزّ و جلّ» (١).

و المطلب الثالث: الذى تشير إليه الآيه آنفه الذكر- هو مسأله المعاد الذى لا ينفصل و لا يتجزأ عن مسأله خلق العالم، و فيها بيان الهدف من الخلق و هو تكامل الإنسان و تكامل الإنسان يعنى التهيؤ إلى الحياه فى عالم أوسع و أكمل، و لذلك يقول سبحانه: وَ لَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

و كلمه «هذا» التى وردت فى الآيه آنفه الذكر- على لسان الكفار، إشاره إلى كلام النبى صلى الله عليه و آله و سلّم فى شأن المعاد.. أى إن ما تدّعيه أيها النبى فى شأن المعاد سحر مكشوف و واضح، فعلى هذا تكون كلمه السحر هنا بمعنى الكلام العارى عن الحقيقه، و القول الذى لا أساس له، و بتعبير بسيط: الخدعه و السخرية!! لأنّ السحره يظهرن للناظرين بأعمالهم أموراً لا واقع لها، و لهذا قد تطلق كلمه السحر على كل أمر عار عن الحقيقه..

أمّا من يرى بأنّ «هذا» إشاره إلى القرآن المجيد، لأنّ القرآن أخاذ و فيه جاذبيه السحر فإنّه يجانب الصواب، لأنّ الآيه تتكلم عن المعاد و لا تتكلم عن القرآن، و إن كنّا لا ننكر أنّ القرآن فيه جاذبيه و أنّه أخاذ للغايه.

ص: ٤٧٣

اشاره

وَ لَئِنْ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّهٖ مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
(٨) وَ لَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِثْلَ حَمِئَةٍ ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنِّهٖ لَيُؤَسُّ كَفُورًا (٩) وَ لَئِنْ أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعِيدًا ضَرَاءٌ مَسْتَهٗ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ
عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورًا (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

التفسير

اشاره

استيعاب المؤمنين و عدم استيعاب غيرهم:

في هذه الآيات-و بمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين-بيان لزوايا الحالات النفسية و نقاط الضعف في أخلاق هؤلاء الأفراد و التي تجبر الإنسان إلى هاويه الظلام و الفساد.

و أول صفة تذكر لهؤلاء هي السخريه من الحقائق و عدم الاكتراث بها

و بالمسائل المصيرية،فهؤلاء بسبب جهلهم و عدم معرفتهم و غرورهم-حين يسمعون تهديد الأنبياء فى مؤاخذه المسيئين و معاقبتهم،ثم تمرّ عليهم عدّه أيام يؤخر الله تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم،نراهم يقولون باستهزاء مبطن:ما السبب فى تأخرّ العذاب الالهى،و أين عقاب الله: وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّه مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ .

و«الأُمَّه»مشتقّه من ماده «أمّ»و هى بمعنى الوالده،و معناها فى الأصل انضمام الأشياء بعضها إلى بعض،و لذلك يقال لكل مجموعه على هدف معين،أو زمان أو مكان واحد«أمه».

و قد جاءت هذه الكلمه بمعنى الوقت و الزمان أيضا،لأنّ أجزاء الزمان مرتبطه ببعضها ببعض،أو لأنّ المجموعه أو الجماعه تعيش فى عصر و زمان معين،فنحن نقرأ فى سوره يوسف عليه السّلام الآيه(٤٥)مثلا وَ اذْكَرَ بَعْدَ أُمَّه ..

ففى الآيه-محل البحث-كلمه«الأُمَّه»جاءت بهذا المعنى،و لذلك و صفت بكلمه«معدوده»فمعنى الآيه هو:إذا أخرنا عن هؤلاء العذاب و المجازاه لمدّه قصيره قالوا:أى شىء يمنعهم؟!..

و على كل حال،فهذه عاده الجاهلين و المغترين،فكلّما و جدوا شيئا لا ينسجم مع ميولهم و طباعهم عدّوه سخرية،لذلك يتخذون التهديدات و النذر التى توقظ أصحاب الحق و تهزمهم..يتخذونها هزوا و يسخرون منها شأنهم شأن من يلعب بالنار.

لكن القرآن يحذرهم و ينذرهم بصراحه فى ردّه على كلامهم،و يبين لهم أن لا دافع لعذاب الله إذا جاءهم إلاّ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ و أن الذين يسخرون منه واقع بهم و مدمرهم وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ .

أجل،ستصعد صرخاتهم إلى السماء فى ذلك الحين،و يندمون على كلماتهم المخجله،لكن لا صرخاتهم تغنيهم و تنقدهم،و لا هذا الندم ينفعهم،ولات حين

و من نقاط الضعف عند هؤلاء قلة الصبر بوجه المشاكل و الصعاب و انحسار البركات الإلهيه. حيث نجد في الآيه التاليه قوله تعالى عنهم: **وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنَّا مَنَّاهُ إِنَّهُ لَيُؤْسِكُفُورٌ .**

و بالرغم من أن هذا التعبير يتناول الإنسان بشكل عام، لكن - كما أشرنا إليه سابقا- المراد من الإنسان في مثل هذه الآيات هو الافراد الذين لم يتلقوا تربيته سليمه و المنحرفون عن جاده الحق، لذلك يتطابق هذا البحث مع البحث السابق عن الأفراد غير المؤمنين.

و نقطه الضعف الثالثه عند هؤلاء أنهم حين يتنعمون بنعمه و يشعرون بالترف و الرفاه يبلغ بهم الفرح و التكبر و الغرور درجه ينسون معها كل شىء، و لذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهره بقوله تعالى: **وَ لَئِنْ أَذَقْنَا نَعْمَاءَ بَعِيدًا ضَرَاءً مَسَّتُهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ .**

و هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الجملة لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي و هو أن مثل هؤلاء الأشخاص حين يصابون بالشدائد ثم يبدل الله بلطفه هذه الشدائد نعيمًا من عنده يقول هؤلاء: إنَّ الشدائد السابقه كانت كفاره عن ذنوبنا و قد غسلت جميع معاصينا، لذلك أصبحنا من المقربين إلى الله، فلا حاجه للتوبه و العوده إلى ساحه الله و حضرته.

ثم يستثنى الله سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد و المصاعب بصبر، و لا يتركون الأعمال الصالحه على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور و التكبر و ضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .**

هؤلاء لا- يغترون عند وفور النعمه فينسون الله، و لا- ييأسون عند الشدائد و المصائب فيكفرون بالله، بل إن أرواحهم الكبيره و افكارهم السليمه جعلتهم يهضمون النعم و البلايا فى أنفسهم دون الغفله عن ذكر الله و أداء مسئولياتهم

و لذلك فإنَّ لهؤلاء ثوابا و مغفرة من الله أولئك لهم مغفرة و أجرٌ كبيرٌ .

بحوث

إشاره

١- الأئمة المعدوده و أصحاب المهدي عليه السلام:

في روايات عديده وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأئمة المعدوده تعنى النفر القليل، و فيها إشاره إلى أصحاب المهدي عليه السّلام و أنصاره، و على هذا يكون معنى الآية: إذا ما أخرنا العذاب عن الظالمين و المسيئين إلى ظهور المهدي و أصحابه، فإنَّ أولئك الظالمين يقولون: أى شىء يقف أمام عذاب الله فيحبسه عنّا! و لكن كما قلنا أن ظاهر الآية من الأئمة المعدوده هو الزمان المعدود و المعين، و قد وردت روايه عن الإمام على عليه السّلام فى تفسير الأئمة المعدوده تشير إلى ما بيناه، و هو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الروايات الآنفه تشير إلى المعنى الثّانى من الآية، و هو ما اصطلح عليه ب«بطن الآية» و طبيعى أنّه بمثابة البيان عن القانون الكلى فى شأن الظالمين، لا أنّه موضوع خاص بالمشركين الذين عاصروا النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم، و نحن نعلم أنّ آيات القرآن تحمل معانى كثيره مختلفه، فالمعنى الأوّل و الظاهر يمكن أن يكون فى مسأله خاصّه أو جماعه معينه، و المعنى الآخر يكون عاما مجردا عن الزمان و غير مخصوص بفتنه معينه.

٢- أربع ظواهر لضيق الأفق الفكرى

رسمت الآيات المتقدمه ثلاث حالات مختلفه من حالات المشركين و المسيئين، و قد ورد فى ضمنها أربعه أوصاف لهم:

الأوّل: إنّ المشرك يؤوس عند قطع النعمه عنه، أى لا يبقى له أمل أبدا.

و الآخر: إنّ كفور، أى غير شاكر أبدا.

ص: ٤٧٧

و الثالث: إنّه إذا غرق بالنعمة أو نال أقلّ نعمه، فهو-على العكس من حاله السابقه-ينسى نفسه و ينسى كل شيء و يغفل بما ناله من اللذّه و النشاط، فيغدو ثملا مغرورا و ينجر إلى الفساد و التجاوز على حدود الله.

و الوصف الرابع: إنّ حاله عند وفور النعمة حاله الفخر، أى يبلغ درجه كبيره من التكبر.

و على كل حال، هذه الأوصاف الأربعة هي ظواهر من ضيق الأفق و قلّه الإستيعاب و الرؤيه.. و هي لا تختص بجماعه معينه من غير المؤمنين و ملوئي الفكر، بل هي سلسله من الأوصاف العامّه لجميع هؤلاء..

أمّا المؤمنون الذين يمتعون بروح كبيره و فكر عال و صدر رحب و رؤيه بعيده المدى، فلا- يهزّهم تبدل الدنيا و الزمان، و لا ييأسوا لسلب النعمة عنهم، و لا- يعزّهم إقبال النعمة فيكونوا من الغافلين، لذا ينبغى الدقه و الملاحظه فى آخر الآيه التى تستثنى المؤمنين، إذ ورد التعبير فيها عن الإيمان بالصبر و الاستقامه إلاّ الذين صبروا .

٣- معيار الضعف النفسى

و المسأله الدقيقه الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها، هي أنّه فى الموردين (مورد سلب النعمة بعد إسباغها و مورد إسباغ النعمة بعد سلبها) أشير بكلمه «أذقنا» المشتقّه من «الإذاقه» و يراد بها أن نفوس هؤلاء المشركين ضعيفه إلى درجه أنّهم لو أعطوا نعمه قليله ثمّ سلبت منهم يضجرون و ييأسون، كما أنّهم إذا ذاقوا نعمه بعد شده يفرحون و يغتزون بها.

٤- النعم جميعها مواهب:

الطريف أنّه فى الآيه الأولى عبّر عن النعمة بالرحمه و لئن أذقنا الإنسان منّا

و فى الآيه الثّانیه ورد كلمه «النعمه» نفسها، و يمكن أن تكون إشاره إلى أنّ نعم الله جميعها تصل إلى الإنسان عن طريق التفضل و الرحمه لا- عن طريق الاستحقاق، و إذا كان الأصل أن تكون النعمه على حسب الاستحقاق، فإنّ جماعه قليله ستنالها، أو أن أيه جماعه لن تنالها أبدا.

٥- أثران للأعمال الحسنه

فى آخر آيه- من الآيات محل البحث- وعد بالمغفره- للأفراد المؤمنين الذين يتمتعون بالاستقامه- و وعد بالأجر الكبير أيضا جزاء لأعمالهم الصالحه، فهى إشاره إلى أنّ الأعمال الصالحه لها أثران:

الأول: غسل الذنوب.

و الثّانى: كسب الثواب العظيم و الأجر الكبير.

إشاره

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مِّمَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صِدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءٌ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَهِم يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

سبب النزول

وردت في شأن نزول الآيات المتقدمه روايتان، ويحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعا.

الأولى: إن جماعه من رؤوساء مكه جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقالوا: إذا كنت صادقا في دعواك بأنك نبي فصير جبال مكه ذهبا أو اثنتا بملائكه من السماء تصدق نبوتك، فنزلت هذه الآيات.

و الثانية: إنه

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلى عليه السلام: «يا على إنى سألت ربى يوالى بينى وبينك ففعل، وسألت ربى أن يواخى بينى وبينك ففعل،

و سألت ربّي أن يجعلك وصيبي ففعل» فقال رجلان من قريش-من المخالفين-:و الله لصاع تمر في شن بال أحب إلينا ممّا سئل محمّد ربّه، فهلا سئل ربّه ملكا يعضده على عدوه، أو كنتا يستغنى به عن فاقتة؟... فنزلت الآيات السابقة لتكون جوابا لأولئك.. (١)

التفسير

إشارة

القرآن المعجزه الخالده:

يبدو من هذه الآيات أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يوكل إبلاغ الآيات- نظرا للجهالة الأعداء و مخالفتهم- لآخر فرصه، لذا فإنّ الله سبحانه ينهي نبيّه في أول آيه نبحثها عن ذلك بقوله: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ لِثَلَا- يطلبوا منك معاجز مقترحه كتزول كتز من السماء، أو مجيء الملائكة لتصديقه أنّ يقولوا لو لا أنزل عليه كتز أو جاء معه ملك .

و كما يستفاد من آيات القرآن الأخرى كما في سورة الإسراء (الآيات ٩٠-٩٣)- إنّ هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النبي و يتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة و العناد و التحجج الواهي، فلذلك تأتي الآيه معقبه إنّما أنت نذيرٌ سواء قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، و سخروا منك أم لم يسخروا، فالله هو الحافظ و الناظر على كل شيء و الله على كل شيء وكيلٌ أى لا تكثر بكفرهم و إيمانهم فإنّ ذلك لا- يعنيك، و إنّما وظيفتك أن تبلغهم، و الله سبحانه هو الذى يعرف كيف يحاسبهم، و كيف يعاملهم.

و بما أنّ الذين يتذرعون بالحجج و يشكلون على النبي كانوا أساسا منكرين لوحى الله، و يقولون: إنّ هذه الآيه ليست نازله من قبل الله، و إنّ هذا الكلام افتراه محمّد- و حاشاه من ذلك- على الله كذبا، لذلك تأتي الآيه التاليه لتبين بصراحه

ص: ٤٨١

تامه: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .

فقل لهم يا رسول الله-إن كانوا صادقين في دعواهم أنّ ما تقوله ليس من الله و أنّه من صنع الإنسان-فياأتوا بعشر سورٍ مثل هذا الكلام مفتریات، وليدعوا- سوى الله-ما شاءوا قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أما إذا لم يستجيبوا لدعوتك و لا للمسلمين، و لم يلبوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتریات كسور القرآن، فاعلموا أن ذلك الضعف و عدم القدره دليل على أن هذه الآيات نزلت من خزانه علم الله، و لو كانت من صنع بشر، فهم بشر أيضا..

فلما ذا لا- يقدرّون على ذلك فإلّم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل يعلم الله و اعلموا أيضا أنّه لا معبود سوى الله، و نزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقه و أنّ لا إله إلا هو فهل يسلم المخالفون مع هذه الحاله فهل أنتم مسليمون؟ أى بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، و ظهر عجزكم و عدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك فى أن هذه الآيات منزله من قبل الله، و مع هذه المعجزه البيئه أما زلتم منكرين، أم أنكم تسلمون و تقرّون حقا؟!

بحوث

إشارة

١- من المعلوم أنّ كلمه «لعلّ» تأتي لإظهار الرجاء لعمل شىء ما و تحقيقه، و لكن «لعلّ» هنا جاءت بمعنى النهى، و هى تماما مثل ما يريد الأب مثلا أن ينهى ولده فيقول له: لعلك ترافق فلانا فأنت حينئذ غير مهتم للعاقبه، فمعنى الكلام هنا:

لا ترافق فلانا لأن صحبته تضرّك.

إذا فعلى الرغم من أن «لعلّ» تفيد الرجاء، إلا أن المفهوم الالتزامى منها النهى عن عمل أيضا.

ص: ٤٨٢

فى الآيات-محل البحث- يؤكد الله سبحانه على النبى ألاً يؤخر إبلاغه الوحى خوفاً من تكذيب المخالفين أو طلبهم معجزات مقترحة من قبلهم.

٢- يرد هنا سؤال هو: كيف يمكن للنبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤخر إبلاغه الوحى، أولاً يبلغه أساساً؟ مع أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم معصوم ولا يصدر منه الخطأ والذنب! الجواب: إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم متى ما امر بتبليغ حكم فورى فمن المسلم أنه يبلغه فوراً ودون إبطاء، ولكن يتفق- أحياناً أن يكون وقت التبليغ موسعاً.. والنبى يؤخر البلاغ تبعاً لأمر... هذه الأمور ليس لها جانب شخصى بحيث تعود للنبى صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، بل لها جانب عام ودفاع عن الدين، وهذا التأخير ليس ذنباً قطعاً، مثل ما ورد- فى سورة المائدة فى الآية ٦٧- من أمر الله للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ، وأن لا يخاف من تهديدات الناس لأن الله سيحفظه حيث يقول عز وجل: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

و على هذا فلم يكن تأخير البلاغ هنا ممنوعاً على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولكن «الإسراع» فيه دليل على قاطعيته.. فالإسراع بالتبليغ يعدّ أولى من التأخير.. فالله سبحانه يريد أن يشدّ من معنويه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ويثبت فؤاده ويجعله صلداً أمام المخالفين بحيث يبلغ «بضرس قاطع» ولا يلتفت إلى طلبات المخالفين و حجج المستهزئين، ولا يستوحش من صخبهم و ضجيجهم! ٣- احتمال المفسرون فى معنى «أم» التى فى أول الآية الأخرى أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ احتمالين:

الأول: إنه بمعنى «أو».

و الثانى: بأنه بمعنى «بل».

ففى الصورة الأولى يكون المعنى على النحو التالى:

لعلك لم تتل آياتنا خوفاً من حجج المخالفين، أو أنك تلوتها ولكنهم كذبوك

و قالوا افتريتها على الله سبحانه.

و فى الصورة الثانية يكون المعنى على النحو التالى:

لا تؤخر إبلاغ آياتنا لحجج المخالفين [ثم يضيف سبحانه]

بل هم أساسا منكرون للوحى و للتبوه، و يزعمون أن الرسول يكذب على الله.

و فى الحقيقة. إنَّ الله يخبر نبيه مع هذا البيان أن ما يطلبه هؤلاء من المعاجز المقترحة فليس لطلب «الحق»، بل لأنهم أساسا منكرون للتبوه. و إنما هى حجج و تعاليل يتذرعون بها! و على كل حال، فعند التأمل فى الآيات آنفه الذكر- و خاصه إذا دققنا النظر فى كلماتها من الناحية الأدبية- نجد أن المعنى الثانى أقرب إلى مضاد الآيات، فتأملوا! ٤- لا شكَّ أنَّ على النَّبى صلى الله عليه و آله و سلَّم أن يرى معاجزه للذين يطلبون الحق لتكون سندا لحقانيه نبوته، و لا- يستطيع أى نبي من الأنبياء أن يستند إلى ادعائه فحسب.

و لكن لا ريب و لا شك أن المخالفين الذين تحدث عنهم الآيات لم يكونوا يطلبون الحقيقة و يبحثون عنها «و ما كانوا يطلبونه من معاجز كانت معاجز اقتراحيه على حسب ميولهم و أهوائهم و لا يقتنعون بأيه معجزه أخرى».

و من المسلم أنَّ هؤلاء محتالون و ليسوا بطلاب حقيقه. فهل كان يجب على النَّبى صلى الله عليه و آله و سلَّم أن تكون لديه كنوز عظيمه كما كان يريد منه مشركو مكه؟! أو أن يكون معه ملك يصدق دعوته و بلاغه؟! و بعد هذا كله ألم يكن القرآن نفسه أعظم و أكبر من كل معجزه.. و إذا لم يكن أولئك فى صدد التحجج و التحيل، فلما ذا لم يدعوا لآيات القرآن الذى كان يتحداهم و يقول لهم: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

٥- إنَّ الآيات- المذكوره- تؤكد إعجاز القرآن مره أخرى و تقول: ليس هذا

كلاما عاديا يترشح من الفكر البشري، بل هو وحى السماء الذى ينزل بعلم الله اللامحدود و قدرته الواسعه، و على هذا فإنه يتحدّى جميع البشر أن يواجهوه بمثله-مع ملاحظه أنّ المخالفين من معاصري النبي صلى الله عليه و آله و سلم و من بعدهم إلى يومنا هذا عجزوا عن ذلك، و فضلوا مواجهه الكثير من المشاكل على معارضة القرآن، و هكذا يتّضح أن مثل هذا العمل لم يكن من صنع البشر و لا يكون، فهل المعجزه شىء غير هذا؟! هذا نداء القرآن ما زال فى أسماعنا، و هذه المعجزه الخالده تدعو العالمين إليها و تتحدى جميع المحافل البشريه، لا من حيث الفصاحه و البلاغه و جمال العبارات و جاذبيتها و وضوح المفاهيم فحسب. بل من حيث المحتوى و العلوم التى فيه و التى لم تكن موجوده فى ذلك الزمان، و القوانين التى تتكفل بسعاده البشريه و نجاتها، و البيان الخالى من التناقض، و القصص التاريخيه الخاليه من الخرافات، و أمثالها. و قد بيّنا ذلك و شرحناه فى تفسير الآيتين (٢٣ و ٢٤) من سوره البقره فى إعجاز القرآن.

جميع القرآن أو عشر سور منه أو سوره واحده!

٦- نحن نعلم أنّ القرآن دعا فى بعض آياته المنكرين لنبوه محمّد و المخالفين له إلى الإتيان بمثل القرآن، كما فى سوره الإسراء الآيه (٨٨). و فى مكان آخر إلى الإتيان بعشر سور، كما هو فى الآيات التى بين أيدينا-محل البحث- و فى مكان آخر دعا المخالفين إلى سوره مثل سور القرآن، كما فى سوره البقره الآيه (٢٣).

و لهذا السبب بحث جماعه من المفسّرين هذا «السرّ» فى التفاوت فى التحدى و الدعوه إلى مواجهه، فما هو؟! و لم فى مكان من القرآن يطلب الإتيان بمثله.

و فى مكان بعشر سور، و فى مكان يطلب الإتيان بسوره واحده؟! و قد اتبعوا طرقا مختلفه فى الإجابة على هذا السؤال.

ألف-يعتقد البعض أنّ هذا التفاوت من قبيل التنازل من مرحلة عليا إلى مرحلة أقل على سبيل المثال، أن يقول قائل لآخر: إذا كنت ماهرا مثلي في فن الكتابه و الشعر فاكتب كتابا ككتابي و هات ديوان شعر كديواني، ثم يتنازل و يقول فهات فصلا مثل فصول كتابي، إلى أن يتحدّاه بأن يأتي بصفحه مثل صفحاته.

و لكن هذا الجواب يكون صحيحا في صورته ما لو كانت سور الإسراء و هود و يونس و البقره قد نزلت بهذا الترتيب، كما هو منقول في كتاب «تأريخ القرآن» عن الفهرست لابن النديم، لأنه يقول إنّ سورة الإسراء رقمها في السور (٤٨)، و سورة هود (٤٩)، و سورة يونس (٥١)، و البقره هي السوره التسعون النازله على محمّد صلى الله عليه و آله و سلم.

و لكن هذا الكلام لا ينسجم مع ترتيب السور في التفاسير الإسلاميه.

ب-يرى البعض أن ترتيب السور الآنفه رغم عدم توافقيها مع ترتيب التحدى من الأعلى الى الأدنى، و لكن نعلم أنّ جميع آيات السوره الواحده لم تنزل مجموعته في آن واحد، فبعض الآيات كانت تتأخر في النزول مده ثم يلحقها النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالسوره الفلانيه بحسب تناسبها معها، و في محل كلامنا هذا يمكن أن يكون الأمر كذلك، و على هذا فإنّ تاريخ السور لا يتنافى مع التّنزّل، أو التنازل من مرحله عليا إلى مرحله دنيا.

ج-هناك احتمال آخر لحل هذا الإشكال هو أنّ أجزاء «القرآن» أجزاء تطلق على الكل و على البعض منه، فنحن نقرأ في الآيه الأولى من سوره الجن ^{□□} إِنْ أَسْمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا و واضح أنّهم سمعوا بعض القرآن لا أنّهم سمعوا القرآن كله، و لفظ القرآن في الأساس مشتق من القراءه، و من المعلوم أنّ القراءه و التلاوه تصدق على جميع القرآن و على جزء منه أيضا، فعلى هذا يكون التحدى ب«مثل القرآن» غير مقصود به التحدى بالإتيان بمثل جميع القرآن، و هو ينسجم بهذا المعنى مع التحدى بعشر سور منه أو حتى بسوره واحد.

و من جهة أخرى فإنَّ السورة فى الأصل تعنى «المجموعة المحدودة»، فىكون إطلاقها على مجموعة آيات صحيحا و إن لم يكن ذلك غير جار فى الاصطلاح العرفى.

و بتعبير آخر فإنَّ السورة تطلق على معينين:

الأول: يراد به مجموعة الآيات التى تبحث عن هدف معين.

و الثانى: يراد به ما بدى ببسم الله الرحمن الرحيم و ينتهى قبل بسم الله الرحمن الرحيم.

و الشاهد على هذا قوله تعالى فى سورة التوبة الآيه (٨٦): وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ أَنْزَلْنَا بِهَا آيَاتٍ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ فَالواضح من هذه الآيه أن المراد بالسورة من قوله: وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ لىس إلا- الآيات التى تحمل الهدف الآنف، و هو الإيمان بالله و الجهاد مع الرسول، و إن كانت الآيات بعضا من سورة!..

أمّا «الراغب الأصبهانى» فىقول فى مفرداته فى تفسير أول سورة النور سُورَةَ أَنْزَلْنَا بِهَا أى جملة من الأحكام و الحكم. فكما نلاحظ هنا أن الراغب فسّر السورة بمجموعة من الأحكام و الحكم، فلا يبقى فارق مهم بين ألفاظ «القرآن» و «عشر سور» و «سورة» من حيث المفهوم اللغوى.

و النتيجة أن تحدى القرآن لىس من قبيل التحدى بكلمه واحده أو بجملة واحده، حتى يدعى مدع أنه قادر على الإتيان بآيه مثل آيه وَ الضُّحَى أو آيه مُدِّهَا مَتَانٍ - أو أنه يستطيع أن يأتى بجملة بسيطه كما فى القرآن، بل التحدى فى كل مكان بمجموعه من الآيات التى تحمل هدفا معينا «فتأمل».

٧- من هو المخاطب بقوله تعالى: فَالِمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ؟ هناك أقوال بين المفسرين، فبعض يرى أن المخاطب بالآيه هم «المسلمون»، أى إذا لم يستجب المنكرون لكم أيها المسلمون فيأتوا بعشر سور مفتريات فاعلموا أن القرآن منزل من الله سبحانه، و هذا كاف فى الدلالة على إعجاز القرآن.

وقال بعض المفسرين: المخاطب بالآية هو «المنكرون» أي: أيها المنكرون إذا لم يستجب الناس لكم و كل ما دعوتهم من دون الله، و لم يقدرُوا على الإتيان بعشر سور فاعلموا أن القرآن نازل من قبل الله.

و لكن من حيث النتيجة لا يوجد تفاوت مهم بين التفسيرين، و إنَّ الاحتمال الأول أقرب حسب الظاهر.

ص: ٤٨٨

اشاره

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

التفسير

الآيات أعلاه أكملت الحجه مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين و المنكرين، و لكن جماعه منهم امتنعوا عن القبول-لحفظ منافعهم الشخصيه- بالرغم من وضوح الحق، فالآيات هذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا مِنْ رِزْقِ مَادِي وَ شَهْرِهِ وَ تَلَذَّذَ بِالنَّعْمِ نُوفِّ إِلَيْهِمْ نَتِيجَةَ أَعْمَالِهِمْ فِيهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أَي لَا يَنْقُصُ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْءٌ فِي الدُّنْيَا! «البخس» في اللغة نقصان الحق، و جملة وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ إشاره إلى أَنَّهُمْ سَيُنَالُونَ نَتِيجَةَ أَعْمَالِهِمْ بِدُونِ أَقْلِ نَقْصَانٍ مِنْ حَقُوقِهِمْ.

هذه الآيه سنه إليه دائمه، و هي أَنَّ الأعمال «الإيجابيه» و المؤثره لا تضيع

نتائجها، مع فارق و هو أنه إذا كان الهدف الأصلي منها هو الوصول إلى الحياه الماديه فى هذه الدنيا فإن ثمراتها فى الدنيا فحسب، و أمّا إذا كان الهدف هو «الله» و كسب رضاه فإن تأثيرها و نتائجها ستكون فى الدنيا و فى الآخره أيضا حيث تكون النتائج كثيره الثمار.

الواقع إن القسم الأول من هذه الأعمال كالبنايه المؤقته و القصيره العمر، فلا يستفاد منها إلا قليلا، ثم مصيرها الى الزوال و الفناء.

أما القسم الثانى منها فإنها تشبه البناء المرصوص المحكم الذى يدوم قرونا و ينتفع به مدّه مديده.

و هذا من قبيل ما نراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربى فتح أسرارا كثيره من العلم بسعيه المتواصل و المنسق، و أصبح متسلطا على قوى الطبيعه و حصل على مواهب كثيره لتصديه الدائب لمشاكل الحياه الدنيويه بصبر و استقامه وجد. فلا كلام فى نيل العالم الغربى جزاء أعماله و تحقيقه انتصارات مشرقه، و لكن لأن هدفه الحياه الماديه فحسب، فإن أعماله لا تثمر غير توفر الإمكانيات الماديه، حتى الأعمال الإنسانيه كبناء المستشفيات و المراكز الصحيه و المراكز الثقافيه و إعانه بعض الأمم الفقيره و أمثال ذلك، «مصيده» لاستعمارهم و استثمارهم للآخرين.. فلأنها تحمل هدفا ماديا فقط و من أجل حفظ المنافع الماديه فإن أثرها يكون ماديا فحسب. كذلك الحال بالنسبه لمن يعمل رياء.

فلذلك يقول سبحانه عنهم فى الآيه التاليه: **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ لِيُزِيلَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْهُمْ وَيَعْمَلُوا جَهَنَّمَ كَعْمَلٍ بَاطِلٍ** .

«الجبط» فى الأصل يطلق على حاله خاصه من أكل الحيوانات للعلف بشكل غير طبيعى، فتنتفخ بطونها و يتعطل الجهاز الهضمى عندها فتبدو و كأنها قد سمت

و لكنّها فى الباطن و فى الحقيقه مريضه.

هذا التعبير الطريف يقال للأعمال التى تبدو فى الظاهر مفيده و إنسانيه، إلا أنّها فى الباطن مقرونه بنيه ذميمه و خبيثه!

ملاحظات

١- من الممكن أن يتصور فى البدايه أنّ الآيتين محل البحث متعارضتان، فالآيه الأولى تقول: إن من كان هدفه الحياه الدنيا فإنّه سينال جزاء فيها كاملا غير منقوص مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أَمَا الْآيَةُ الثَّانِيهِ فَتَقُولُ إِنَّ أَعْمَالَهُ تَكُونُ بِلَا أَثَرٍ وَ بَاطِلَةٍ: وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

و لكن مع الالتفات إلى أن إحدى الآيتين تشير إلى ما يجرى فى الدنيا و الثّانيه تشير إلى الدار الآخره، يتّضح الجواب على هذا الإشكال، و هو أنّهم ينالون جزاء أعمالهم فى هذه الدنيا، و لكن لا قيمه لهذا العمل حتى و لو كان من أهم الأعمال- إذا لم يكن لها فى الآخره أى أثر. لأنّ هدفهم لم يكن نقياً و نيتهم غير خالصه، حيث كانوا يسعون لتحصيل سلسله من المنافع الماديه، و قد تحققت لهم فى الدنيا.

٢- ذكر كلمه «الزينه» بعد «الحياه الدنيا» تدلّ ذم عباده الدنيا و زخرفها و زبرجها، و ليس المقصود من ذلك الاستفاده باعتدال من مواهب هذا العالم! فكلمه «الزينه» التى جاءت هنا ببيان مغلق، إلا- أنّها فى آيات أخرى فسرت بالنساء الجميلات و الكنوز و المراكب و الزخارف.. إلخ.

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ

(١)

(٢)

ص: ٤٩١

١- ١) آل عمران، ١٤.

٢- ٢) لمزيد من الإيضاح يراجع التفسير الأمثل ذيل الآيه ١٤ من سوره آل عمران.

٣- ذكر كلمه «الباطل» بعد كلمه «الحبط» يمكن أن تكون إشاره إلى أن أعمالهم لها ظاهر بدون محتوى، و لذلك تذهب نتيجهها أدراج الرياح.

ثم يضيف أن أعمالهم أساسا باطله من البدايه و لا خاصيه لها، غايه ما فى الأمر إن كثيرا من حقائق الأمور لما كانت فى الدنيا غير معروفه فإنها تنكشف فى الدار الآخره التى هى محل كشف الأسرار، فيتضح أن هذه الأعمال لم يكن لها قيمه منذ البدايه!.

٤- فى كتاب «الدر المنثور»

حديث منقول عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى تفسير هذه الآيات يبين مفاد هذه الآيات بجلاء «قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتى على ثلاث فرق: فرقه يعبدون الله خالصا، و فرقه يعبدون الله رياء. فرقه يعبدون الله يصيرون به دنيا».

فيقول للذى كان يعبد الله للدنيا: بعزّتى و جلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا، فيقول: لا جرم لا ينفعك ما جمعت و لا ترجع إليه. انطلقوا به إلى النار.

و يقول للذى يعبد الله رياء: بعزّتى و جلالى، ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء، فيقول: إنما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لا يصعد إلى منها شيء و لا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النار.

و يقول للذى كان يعبد الله خالصا: بعزّتى و جلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: بعزّتك و جلالك لأنت أعلم منى، كنت أعبدك لوجهك و لدارك، قال: صدق عبدى، انطلقوا به إلى الجّنه» (١).

ص: ٤٩٢

اشاره

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)

التفسير

هناك أقوال كثيرة-في تفسير الآيه أعلاه-بين المفسرين، ولهم نظرات مختلفه في جزئيات الآيه و كلماتها و ضمائرها و الأسماء
الموصوله فيها و أسماء الإشاره، و ما نقل عنهم يخالف طريقتنا في هذا التفسير، ولكن تفسيرين منها أشد وضوحا من غيرهما
نقلهما هنا على حسب الأهميه:

١-في بدايه الآيه يقول الحق سبحانه:

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ

أى من الله تعالى و مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَ رَحْمَةً... أى التوراه التى تؤيد صدقه و عظمته، مثل هذا الشخص هل يستوى و
من لا يتمتع بهذه الخصال و الدلائل البينه.

هذا الشخص هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم، «البينه» و دليله الواضح هو القرآن المجيد،

و الشاهد المصدق بنبوتة كل مؤمن حق أمثال على عليه السلام، و من قبل وردت صفاته و علائمه فى التوراه، فعلى هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثه حقه واضحه.

الأول: القرآن الكريم الذى هو بينه و دليل واضح فى يده.

الثانى: الكتب السماويه التى سبقت نبوته و أشارت إلى صفاته بدقه، و أتباع هذه الكتب السماويه فى عصر النبى كانوا يعرفونه حقاً، و لهذا السبب كانوا ينتظرونه.

و الثالث: أتباعه و أنصاره المؤمنون المضحون الذين كانوا يبينون دعوته و يتحدثون عنه، لأن واحداً من علائم حقايقه مذهب ما هو إخلاص أتباعه و تضحيتهم و درايتهم و إيمانهم و عقلهم، إذ أن كل مذهب يعرف بأتباعه و أنصاره.

و مع وجود هذه الدلائل الحيه، هل يمكن أن يقاس مع غيره من المدعين، أم هل ينبغى التردد فى صدق دعوته؟! (١).

ثم يشير بعد هذا الكلام إلى طلاب الحق و الباحثين عن الحقيقه، يدعوهم إلى الإيمان دعوه ضمنيه فيقول: [□]أولئك يؤمنون به أى النبى الذى لديه هذه الدلائل الواضحه.

و بالرغم من أن مثل هؤلاء الذين أشير إليهم بكلمه «أولئك» فى الآيه لم يذكروا فى الآيه نفسها، و لكن مع ملاحظه الآيات السابقه يمكن استحضارهم فى جو هذه الآيه و الإشاره إليهم.

ثم يعقب بعد ذلك ببيان عاقبه المنكرين و مصيرهم بقوله تعالى: [□]وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَخْزَابِ [□]فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .

ص: ٤٩٤

١- ١) طبقاً لهذا التفسير يكون المقصود ب«من» هو النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و البيئه هى القرآن، و الشاهد و يراد به معنى «الجنس» من كل مؤمن صادق و فى مقدمتهم الإمام على أمير المؤمنين عليه السلام و يعود الضمير فى كلمه «منه» إلى الله سبحانه، و يعود الضمير فى كلمه «من قبله» إلى القرآن أو النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و مجموع الجمله مبتدأ و خبره محذوف تقديره: كمن ليس كذلك، أو كمن يريد الحياه الدنيا.

و فى ختام الآيه- كما هى الحال فى كثير من آيات القرآن- يوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم و يبين درسا عاما لجميع الناس، و يقول: بعد هذا كله من وجود الشاهد و البينه و المصدق بدعوتك، فلا تتردد فى الطريق ذاته فلا تك فى مزيه منه لأنه من قبل الله سبحانه إنه الحق من ربك و لكن كثيرا من الناس و نتيجة لجهلهم و أنانيتهم لا يؤمنون و لكن أكثر الناس لا يؤمنون .

٢- التفسير الثانى لهذه الآيه هو أن هدفها الأصل بيان حال المؤمنين الصادقين الذين يؤمنون بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم مع وجود الدلائل الواضحه و الشواهد على صدق دعوه النبى صلى الله عليه وآله وسلم و ما جاء فى الكتب السماويه السابقه فى شأنه، فأولئك هم المؤمنون، و استنادا إلى هذه الدلائل جميعا يؤمنون به صلى الله عليه وآله وسلم، فعلى هذا يكون المقصود من قوله: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ جميع الذين لديهم دلائل مقنعه، حيث سارعوا إلى الإيمان بالقرآن و من جاء به، و ليس المقصود بكلمه «من» فى الآيه هو النبى .

و الذى يرجع هذا التفسير على التفسير السابق هو وجود الخبر فى الآيه صريحا و ليس محذوفا، و المشار إليه «أولئك» مذكور فى الآيه نفسها، و القسم الأول من الآيه يبدأ بقوله: أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ إلى قوله: أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ و يشكل جمله كامله من دون أى حذف و تقدير.. و لكن من دون شك فإن التعبيرات الأخرى فى هذه الآيه لا تنسجم مع هذا التفسير كثيرا، و لهذا جعلنا هذا التفسير فى المرحله الثانیه «فتأمل»! و على كل حال، فالآيه تشير إلى امتيازات الإسلام و المسلمين الصادقين و استنادهم إلى الدلائل المحكمه فى اختيار مذهبهم هذا.. و فى قبال ذلك تذكر ما بصير إليه المنكرون و المستكبرون من مآل مشؤوم أيضا..

١- ما المقصود «بالشاهد» في الآية؟!

قال بعض المفسرين: إن المقصود بالشاهد هو جبرئيل عليه السّلام أمين وحى الله، ومنهم من فسره بالنّبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومنهم من قال: إنّ معناه لسان النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في حاله فهم معنى «يتلو» من التلاوة أى القراءة، لا بمعنى التلو الذى معناه مجيء شخص بعد آخر.

ولكن كثيرا من كبار المفسرين فسروا «شاهد» بالإمام على عليه السّلام، ففي روايات كثيرة وصلتنا عن الأئمة المعصومين، وفي بعض كتب تفسير أهل السنه- أيضا- هناك تأكيد على أنّ المقصود من «الشاهد» فى الآية هو الإمام على عليه السّلام أوّل من آمن بالنّبي و القرآن الكريم، وكان معه فى جميع المراحل ولم يقصر لحظه فى التضحيه دونه و حمايته إلى آخر نفس (١).

و

فى حديث منقول عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «ما من رجل من قريش إلا وقد أنزل فيه آيه أو آيتان من كتاب الله، فقال له رجل من القوم: وماذا أنزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرا الآية التى فى هود أ فمن كان على بينه من ربه و يتلوه شاهد منه محمد صلى الله عليه وآله وسلم على بينه من ربه و كنت أنا الشاهد» (٢).

وفى آخر سورة الرعد عبارة تؤيد هذا المعنى، حيث يقول سبحانه: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ .

هناك روايات كثيرة عن طرق الشيعة و أهل السنه تبين أنّ المراد بقوله: وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هو الإمام على عليه السّلام.

و مما يجدر ذكره- كما أشرنا سابقا- أن واحدا من أفضل طرق حقانيه أى مذهب هو مطالعه شخصيه أتباعه و المدافعين عنه و حماته. فحين نلاحظ جماعه

ص: ٤٩٦

١- ١) راجع تفسير البرهان، و نور الثقلين، و القرطبي، و مجمع البيان، و سائر التفاسير.

٢- ٢) تفسير البرهان، ج ٢، ص ٢١٣، و نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٤٦.

أتقياء، أذكياء، مؤمنين مخلصين اجتمعوا حول أحد القادة، أو مذهب معين فسيُتضح جيدا أنّ هذا القائد و هذا المذهب على درجه عاليه من الحق و الصدق.

و لكن حين نرى جماعه انتهازيين محتالين غير مؤمنين و لا متقين تجمعوا حول مذهب ما أو قائد ما، فقلّ أن نصدّق أن ذلك المذهب أو القائد على حق.

و ينبغي الإشاره إلى هذا الأمر، و هو أنّه لا منافاه بين تفسير كلمه الشاهد بالإمام على، و بين شمولها لجميع المؤمنين من أمثال أبى ذرّ و سلمان و عمّار و اضرابهم، لأنّ هذه التفاسير تشير إلى الشخص البارز و الشاخص فى هؤلاء المؤمنين، أى إنّ المقصود هو جماعه المؤمنين الذين فى طليعتهم الإمام على عليه السّلام.

و الدليل على هذا الكلام

روايه منقوله عن الإمام الباقر عليه السّلام: قال: «الذى على بيته من ربّه رسول الله الذى تلاه من بعده الشاهد منه أمير المؤمنين ثم أوصياؤه واحد بعد واحد» (١).

و على الرغم من أنّ هذه الروايه تذكر المعصومين فحسب، و لكنّها تدل على أن الروايات التى تفسر الشاهد بالإمام على لا تعنى شخصه فحسب، بل كونه مصداقا و شاخصا للمؤمنين!...

٢- لماذا أشير إلى التوراه فحسب؟!

إن واحدا من دلائل حقانيه النّبى كما ذكر فى الآيه الآنفه-الكتب السابقه على نبوه النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم، و لكن لم تذكر الآيه من بينها سوى التوراه، و نحن نعرف أن الإنجيل بشرّ بظهور نبى الإسلام أيضا.

و يمكن أن يكون السبب هو أنّ المحيط الذى نزل فيه القرآن و ظهر الإسلام فيه (أى مكّه و المدينه) متشعبا بأفكار اليهود أكثر من غيرهم من أهل الكتاب، و كان المسيحيون يعيشون فى أماكن أبعد من اليهود كاليمين و الشامات و نجران و الجبال

ص: ٤٩٧

الشماليه فى اليمن التى تقع على فاصله عشره منازل من صنعاء! أو لأن أوصاف النبى وردت فى التوراه بشكل أوسع و أجمع.

و على كل حال،فالتعبير عن التوراه ب«إماما»قد يكون لأجل أحكام شريعته موسى عليه السّلام كانت موجوده فيه بشكل أكمل،حتى أنّ المسيحيين يرجعون إلى تعليمات التوراه!

٣- من هو المخاطب فى قوله: فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ ؟

هناك احتمالان فى من هو المخاطب بهذه الآيه:

الاحتمال الأوّل:النبى صلى الله عليه و آله و سلّم نفسه،أى:يا رسول الله لا تتردد فى حقائيه القرآن و شريعته الإسلام أقلّ تردد! و بالطبع فإنّ النبى بحكم كونه يدرك الوحى شهودا،و يدرك بالحواس أنّ القرآن نازل من قبل الله،بل كان فى درجه أعلى من الإحساس،فلم يكن لديه تردد فى حقانيه هذه الدعوه،و لكن ليس هذه أوّل خطاب يوجه إلى النبى و يكون المقصود به عموم الناس،و كما يقول المثل العربى«إياك أعنى و اسمعى يا جاره».

و هذا التعبير أساسا هو ضرب من البلاغه،حيث يوضع المخاطب غير الحقيقى مكان المخاطب الحقيقى لأهميته و لأغراض أخرى.

و الاحتمال الثانى:إنّه المخاطب بهذه الآيه كل مكلف عاقل،أى«فلا تك أيتها المكلف العاقل فى مريه و تردد».و هذا وارد إذا لم يكن المقصود بالآيه أ فَمَنْ كَانَ عَلَيَّ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّيَ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ،بل جميع المؤمنين الصادقين(فتدبر).

و لكن التفسير الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآيه

إشارة

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)

التفسير

إشارة

أخسر الناس أعمالاً:

بعد الآيه المتقدمه التي كانت تتحدث عن القرآن و رساله النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم تأتي آيات أخر تشرح عاقبه المنكرين و علاماتهم و مآل أعمالهم.

ففي أول آيه من هذه الآيات يقول سبحانه: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ

و يعنى أن تكذيب دعوه النَّبى الصادق صلى الله عليه وآله و سلم فى الواقع هو تكذيب لكلام الله و افتراء عليه بالكذب و تكذيب من لا يتحدث عن أحد سوى الله يعدّ تكذيباً لله (١).

و كما تقدم فى عدّه مواضع، فالقرآن المجيد يعبر فى عديد من الآيات عن جماعه من الناس بقوله: «أظلم» فى حين أنّ أعمالهم- كما يبدو-مختلفه، و لا- يمكن أن نعدّ جماعات كثيره مع وجود أعمال مختلفه بأنهم أظلم الناس! بل ينبغى أن يعدّ البعض ظالمين، و البعض الآخر أظلم منهم، و سواهما أشدّ ظلماً منهما جميعاً..

و لكن- كما أجبنا عن هذا السؤال عدّه مرات- جذر جميع هذه الأعمال يعود لشيء واحد، و هو الشرك و تكذيب الآيات الإلهيه، و هو أعظم البهتان «و لمزيد من الإيضاح يراجع ذيل الآيه (٣١) من سوره الأنعام».

ثمّ يبين ما ينتظرهم من مستقبل مشؤوم يوم القيامة حين يعرضون على محكمه العدل الإلهي أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ حينئذ يشهد «الأشهاد» على أعمالهم و أنّ هؤلاء هم الذين كذبوا على الله العظيم الرحيم و ولى النعمه..

و يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ

ثمّ ينادون بصوت عالٍ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

و لكن من هم الأشهاد؟ أهم الملائكه، أم الحفظة على الأعمال، أم الأنبياء؟ للمفسرين احتمالات و آراء، و لكن مع ملاحظه أن آيات أخرى من القرآن تشير إلى أنّ الأنبياء هم الأشهاد، فالظاهر أنّ المراد بالأشهاد هنا هم الأنبياء أيضاً.. أو المفهوم الأوسع و هو أنّ الأنبياء و سائر الأشهاد يشهدون على «الأعمال» يوم القيامة!

ص: ٥٠٠

١- ١) ما يقوله المفسرون من أنّ المراد من هذه الجملة هو الردّ على من كان يقول: إنّ النَّبى يكذب على الله، بعيد جدّاً، لأنّ الآيات السابقه و اللاحقه لا تناسب هذا التفسير، بل المناسب أنّها تشير إلى الكفار.

و فى الآيه (٤١) من سوره النساء نقرأ قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا .

و فى شأن السيد المسيح عليه السلام نقرأ فى الآيه (١١٧) من سوره المائده: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ .

بعد هذا من القائل: أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ؟ أهو الله سبحانه، أم الأشهاد على الأعمال؟! هناك أقوال بين المفسرين، لكن الظاهر أن هذا الكلام تتمه لقول الأشهاد..

و الآيه التى بعدها تبين صفات الظالمين فى ثلاث جمل:

الأولى تقول: إِنَّهُمْ يَمْنَعُونَ النَّاسَ بِمُخْتَلَفِ الْأَسَالِبِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَمَرْهَ عَنْ طَرِيقِ إِقَاءِ الشَّبَهَةِ، وَ مَرْهَ بِالْتَهْدِيدِ، وَ أحياناً عن طريق الإغراء و الطمع، و جميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، و هو الصدّ عن سبيل الله.

الثانية تقول: إِنَّهُمْ يَسْعُونَ فِي أَنْ يَظْهَرُوا سَبِيلَ اللَّهِ وَ طَرِيقَهُ الْمُسْتَقِيمِ عَوْجًا وَ يَبْغُونَهَا عَوْجًا (١).

أى بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التفسير بالرأى و إخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصوره الحقيقيه للصراف المستقيم. و لا يستطيع الناس و طلاب الحق السير فى هذا الطريق.

و الثالثه تقول: إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ النُّشُورِ وَ الْقِيَامَةِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

و عدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات، لأن الإيمان بتلك المحكمه

ص: ٥٠١

١ - ١) المقصود ب«العوج» أى الملتوى، و قد بينا شرح ذلك فى ذيل الآيه (٤٥) من سوره الأعراف و ينبغى الالتفات إلى أن الضمير فى «يبغونها» يعود على سبيل الله فهى مؤنث مجازى، أو بمعنى الجاده و الطريقه، فهى مؤنث لفظى، و نقرأ فى سوره يوسف عليه السلام الآيه (١٠٨) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ .

الكبرى و العالم الواسع بعد الموت يفعل الطاقات الايجابيه الكامنه فى النفس و الروح.

و من الطريف أنّ جميع هذه المسائل تجتمع فى مفهوم «الظلم» لأنّ المفهوم الواسع لهذه الكلمه يشمل كل انحراف و تغيير للموضع الواقعى للأشياء و الأعمال و الصفات و العقائد.

فى الآيه التاليه يبيّن أنّ هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب الله فى الأرض و لا- أن يخرجوا من سلطانه أولئك لم يكونوا مُعْجِزِينَ فى الأرض كما أنّهم لا يجدون ولنا و حاميا لهم غير الله و ما كان لهم من دون الله من أولياء .
و أخيرا يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديده حيث تكون مضاعفه يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ .

لماذا؟! لأنّهم كانوا ضالين و مخطئين و منحرفين، و فى الوقت ذاته كانوا يجزّون الآخريين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم و أوزار الآخريين، دون التخفيف عن الآخريين من أوزارهم و ليحملنّ أُنْقَالَهُمْ وَ أَنْقَالاً مَعَ أَنْقَالِهِمْ (١).

و هناك أخبار كثيره فى أن «من سنّ سنه سيئه فعليه وزرها و وزر من عمل بها، و من سنّ سنه حسنه فله أجرها و أجر من عمل بها».

و فى ختام الآيه يبيّن الله سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: ما كانوا يستطيعون السمع و ما كانوا يُبْصِرُونَ .

فهم فى الحقيقه ياهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين [وسيلتى السمع و البصر]

لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل و أضلّوا سواهم أيضا.. لأنّ الحق و الحقيقه لا يدركان إلا بالسمع و البصر النافذ.

و من الطريف هنا أنّنا نقرأ فى الآيه أنّهم ما كانوا يستطيعون السمع، أى استماع الحق، فهذا التعبير يشير إلى الحاله الواقعيه التى هم فيها، و هى أنّ استماع الحق

ص: ٥٠٢

كان عليهم صعبا و ثقيلًا إلى درجه يتصور فيها أنهم فقدوا حاسه السمع، فلا قدره لهم على السمع، و هذا التعبير ينسجم تماما مع قولنا مثلا: إنَّ الشخص العاشق لا يستطيع أن يسمع كلاما عن عيوب معشوقه!..

و بديهي أنّ عدم استطاعه دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديده و عدائهم للحق و الحقيقه، و هذا لا يسلب عنهم المسؤوليه، لأنهم هم السبب في ذلك، و هم الذى مهّدوا له، و كان بإمكانهم أن يبعدوا عنهم هذه الحاله، لأنّ القدره على السبب قدره على المسبّب.

و الآيه التى بعدها تبين في جملة واحده حصيله سعيهم و جدّهم في طريق الباطل، فتقول: [□]أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ و هذه أعظم خساره يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنسانى.. ثمّ تضيف الآيه: أنهم اتخذوا آلهه و معبودين مصطنعين «مزيفين» و لكن تلاشت هذه الآلهه المصنوعه و المزيفه أخيرا.. [□]وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

و في نهايه الآيه بيان الحكم النهائى لمآلهم و عاقبتهم بهذا التعبير [□]لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِضَرُونَ .

و السبب واضح؛ لأنهم حرموا من نعمه السمع الحاد و البصر النافذ، و خسروا كلّ إنسانيتهم و وجودهم، و مع هذه الحال فقد حملوا أثقال مسئوليتهم و أثقال الآخرين مع أثقالهم.

و المعنى الأصلى لكلمه «لا- جرم» مأخوذ من «جرم» على وزن «حرم» و هو قطف الثمار من الأشجار، كما نقل ذلك الراغب في مفرداته، ثمّ توسع هذا المعنى فشمّل كلّ نوع من الكسب و التحصيل، و لكثره استعمال الكلمه في الكسب غير المرغوب فيه شاعت في هذا المعنى، و لذلك يطلق على الذنب أنّه جرم.

و لكن حين تبدأ هذه الكلمه جمله و هى مسبوقة ب«لا» فيكون معناها حينئذ:

أنّه لا شيء يمكنه أن يمنع أو يقطع هذا الموضوع، فهى قريبه من معنى «لا بدّ» أو «من المسلمّ به» و الله العالم «فتدبر».

إشاره

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ اخْتَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَشْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

التفسير

تعقيا على الآيات المتقدمه التى أوضحت حال منكرى الوحي، تأتى الآيتان هنا لتوضحا من فى قباهم، وهم المؤمنون حقًا.

فالأية الأولى تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ اخْتَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَى: استسلموا و انقادوا خاضعين لأمر الله و وعده الحق، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

ملاحظتان

١- بيان هذه الأوصاف الثلاثة و هى «الإيمان» و «العمل الصالح» و «التسليم

و الخضوع و الإخبات إلى دعوه الحق» إنما هو بيان أمور واقعيه ترتبط بعضها ببعض، لأنّ العمل الصالح ثمره من شجره الإيمان، فالإيمان الذى ليس فيه مثل هذه الثمره إيمان ضعيف و لا قيمه له و لا يحسب له حساب، و كذلك التسليم و الانقياد و الخضوع و الاطمئنان لما وعد الله سبحانه، كل ذلك من آثار الإيمان و العمل الصالح.. لأنّ الإعتقاد الصحيح و العمل النقى أساس وجود هذه الصفات و الملكات العاليه فى المحتوى الداخلى للإنسان.

٢- كلمه «أخبتوا» مشتقه من «الإخبات» و جذرها اللغوى «خبت» على وزن «ثبت» و معناها الأصلى الأرض المنبسطة الواسعه التى يمكن للإنسان أن يخطو عليها باطمئنان و ارتياح، فلذلك استعملت هذه الماده «الخبت و الإخبات» فى الاطمئنان أيضا.. كما استعملت فى الخضوع و التسليم، لأنّ الأرض التى تبعث على الاطمئنان فى السير هى خاضعه و مستسلمه للسائرين، فعلى هذا يمكن أن يكون معنى الإخبات واحدا من المعانى الثلاثة الآتية، كما و يحتمل شموله لجميع هذه المعانى، إذ لا منافاه بينها:

١- إنّ المؤمنين حقا خاضعون لله.

٢- إنهم مسلمون لأمر الله.

٣- إنهم مطمئنون بوعود الله.

و فى كل صوره إشاره إلى واحده من أعلى الصفات الإنسانيه فى المؤمنين التى ينعكس أثرها على كامل حياتهم!..

الطريف هنا أنّنا نقرأ

فى حديث عن أبى أسامه قال: قلت لأبى عبد الله عليه السّلام: إنّ عندنا رجلا- يسمّى «كليباً» لا يجىء عنكم شىء إلا قال: أنا أسلم، فسمّيناها: كليب تسليم، قال: فترحم عليه ثم قال «أ تدرّون ما التسليم»؟ فسكتنا فقال: هو و الله الإخبات، قول الله: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ اخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ (١).

ص: ٥٠٥

١- (١) تفسير البرهان، ج ٢، الصفحه ٢١٦.

و فى الآيه الأخرى بيان لحاله هذين الفريقين فى مثال حى و واضح.. حال الأعمى و الأصم، و حال السميع و البصير، فتقول الآيه: **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْمَأْمُومِ وَالْمَصْمُومِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا**.. ثم تعقب الآيه **أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟**! و كما هو معلوم فى علم (المعانى و البيان)، فإنه من أجل تجسيم الحقائق العقلية و توضيحها و تبينها لعامه الناس تشبه المعقولات بالمحسوسات دائما.

و القرآن الكريم اتبع هذه الطريقة بكثرة، و بين كثيرا من المسائل الدقيقة و ذات الأهمية البالغة بأمثله جليته و أخذها، و بين حقائقها فى أحسن صورته! البيان السابق من هذا القبيل، لأن أحسن الوسائل التى لها أثرها فى معرفه الحقائق الحسية فى عالم الطبيعه هى «العين و الأذن» و لذلك لا يمكن أن يتصور أن أفرادا يولدون صمًا و عميانا يستطيعون أدراك مواضع هذا العالم بصوره صحيحه، فهم يعيشون فى عالم غامض و مجهول.

كذلك حال منكروى الوحي، فبسبب لجاجتهم و عدائهم للحق و وقوعهم أسرى بمخالب التعصب و الأنانيه و عباده الذات، فقدوا بصرهم و سمعهم للحقيقه البينه، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطه بعالم الغيب، و تأثير الإيمان، و التلذذ بعباده الله، و عظمه التسليم لأمره.

هؤلاء الأفراد يعيشون أبدا عميانا صمًا فى ظلام مطبق و سكوت مميت.. فى حين أن المؤمنين الصادقين يرون كل حركه بأعين بصيره، و يسمعون كل صوت بأذان سميعة، و بالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعاده».

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَمَّا تَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكَ إِلَّا تَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّتْ عَلَيْكُمْ أَنْ نُنزِلُكُمْ مَوَاطِنَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨)

التفسير

اشاره

قصه نوح المشيره مع قومه:

تقدم أن هذه السوره تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين و تأريخهم، و ذلك لإيقاظ أفكار المنحرفين و الالتفات إلى الحقائق و بيان العواقب الوخيمه للمفسدين الفجار. و أخيرا بيان طريق النصر و الموفقيه.

في البدايه تذكر قصه نوح عليه السلام، و هو أحد الأنبياء أولى العزم، و ضمن (٢٦) آيه

ترسم النقاط الأساسيه لتأريخه المثير..

و لا شك أنّ قصّه جهاد نوح عليه السلام المتواصل للمستكبرين فى عصره، و عاقبتهم الوحيمه، واحده من العبر العظيمه فى تاريخ البشرى، و التى تتضمن دروسا هامه فى كل واقعه منها..

و الآيات المتقدمه تبين بدايه هذه الدعوه العظيمه فتقول: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .**

التأكيد على مسأله الإنذار، مع أنّ الأنبياء كانوا منذرين و مبشرين فى الوقت ذاته لأنّ الشوره ينبغى أن تبدا ضرباتها بالإنذار و إعلام الخطر، لأنه أشدّ تأثيرا فى إيقاظ النائمين و الغافلين من البشاره.

و الإنسان عاده إذا لم يشعر بالخطر المحدق به فإنّه يفضل السكون على الحركه و تغيير المواقع. و لذلك فقد كان إنذار الأنبياء و تحذيرهم بمشابه السياط على أفكار الضالّين و نفوسهم، فتؤثر فيمن له القابليه و الاستعداد للهدايه على التحرك و الاتجاه الى الحق.

و لهذا السبب ورد الاعتماد على الإنذار فى آيات كثيره من القرآن، كما فى الآيه (٤٩) من سوره الحج، و الآيه (١١٥) من سوره الشعراء، و الآيه (٥٠) من سوره العنكبوت، و الآيه (٤٢) من سوره فاطر، و الآيه (٧٠) من سوره ص، و الآيه (٩) من سوره الأحقاف، و الآيه (٥٠) من سوره الذاريات، و آيات أخرى كلها تعتمد على كلمه «نذير» فى بيان دعوه الأنبياء لأممهم.

و فى الآيه الأخرى يلخص محتوى رسالته فى جمله واحده و يقول: رسالتي هى **أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ** ثم يعقب دون فاصله بالإنذار و التحذير مره أخرى **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (١)**.

ص: ٥٠٨

١ - ١) مع أنّ الأليم صفة للعذاب عاده، و لكن فى الآيه السابقه وقع صفة ل«يوم»، و هذا نوع من الإسناد المجازى اللطيف الذى نجده فى مختلف اللغات فى أدبياتها.

فى الحقيقه أن مسأله التوحيد و العبوديه لله الواحد الأحد هى أساس دعوه الأنبياء جميعا. فنحن نقرا فى الآيه الثانيه من هذه السوره، و الآيه (٤٠) من سوره يوسف عليه السّلام، الآيه (٢٣) من سوره الإسراء... نقرأ فى هذه الآيات و أمثالها فى الحديث عن الأنبياء أن دعوتهم جميعا تتلخص فى توحيد الله سبحانه.

فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدون و لا- يعبدون إلا- الله، و لا ينقادون للأوثان الوهميه الخارجيه منها و الداخليه من قبيل الأنانيه و الهوى و الشهوات و المقام و الجاه و النساء و البنين فلا يبقى أثر للسلبيات و الخبائث فى المجتمع البشرى.

فإذا لم يصنع الشخص الضعيف من ضعفه هذا صنما ليسجد له و يتبع أمره، فلا استكبار حينئذ و لا استعمار، و لا آثارهما الوخيمه من قبيل الذل و الأسر و التبعية و الميول المنحرفه و أنواع الشقاء بين أفراد المجتمع، لأن كل هذه الأمور وليده الانحراف عن عبادته الله و التوجه نحو الأصنام و الطواغيت.. فلننظر الآن أول رد فعل من قبل الطواغيت و اتباع الهوى و المترفين و أمثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان و ماذا كان؟! لا شك أنه لم يكن سوى حفته من الأعذار الواهيه و الحجج الباطله و الأدله الزائفه التى تعتبر ديدن جميع الجبابره فى كل عصر و زمان، فقد أجاب أولئك دعوه نوح بثلاثه إشكالات:

الأول: إن الإشراف و المترفين من قوم نوح عليه السّلام قالوا له أنت مثلنا و لا فرق بيننا و بينك: فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا زعما منهم أن رساله الإلهيه ينبغى أن تحملها الملائكه إلى البشر لا أن البشر يحملها إلى البشر! و ظننا منهم أن مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكه، أو أن الملائكه تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

نلاحظ هنا كلمه «الملاء» التى تشير إلى أصحاب الثروه و القوه الذين يملأ العين

ظاهرهم، فى حين أن الواقع أجوف. ويشكلون أصل الفساد و الانحراف فى كل مجتمع، ويرفعون رايه العناد و المواجهه أمام
دعوه الأنبياء عليهم السلام.

و الإشكال الثانى: إنهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك و من حولك إلا حفنه من الأراذل و غير الناصجين الذين لم يسبروا مسائل
الحياه و ما تراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بآدى الرأى .

و«الأراذل» جمع ل«أرذل» و تأتى أيضا جمع ل«رذل» التى تعنى الموجود الحقير، سواء كان إنسانا أم شيئا آخر غيره.

و بالطبع فإنّ الملتفين حول نوح عليه السلام و المؤمنين به لم يكونوا أراذل و لا حقراء، و لكن بما أنّ الأنبياء ينهضون للدفاع عن
المستضعفين قبل كل شىء، فأول جماعه يستجيبون لهم و يلبون دعوتهم هم الجماعه المحرومه و الفقيره، و لكن هؤلاء فى نظر
المستكبرين الذين يعدون معيار الشخصيه القوه و الثروه فحسب يحسبونهم أراذل و حقراء..

و إنما سمّوهم ب«آدى الرأى» أى الذين يعتمدون على الظواهر من دون مطالعه و يعشقون الشىء بنظره واحده، ففى الحقيقه كان
ذلك بسبب أنّ اللجاجه و التعصب لم يكن لها طريق الى قلوب هؤلاء الذين التفوا حول نوح عليه السلام لأنّ معظمهم من
الشباب المطهره قلوبهم الذين يحسون بضياء الحقيقه فى قلوبهم، و يدركون بعقولهم الباحثه عن الحق دلائل الصدق فى أقوال
الأنبياء عليهم السلام و أعمالهم.

الإشكال الثالث: الذى أوردوه على نوح عليه السلام أنهم قالوا: بالاضافه الى أنّك إنسان و لست ملكا، و أن الذين آمنوا بك و
التفوا حولك هم من الأراذل، فإننا لا نرى لكم علينا فضلا و ما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين .

و الآيات التى تعقبها تبين رد نوح عليه السلام و إجاباته المنطقيه على هؤلاء حيث تقول: قال يا قوم أ رأيتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ
رَبِّى وَ آتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيْتُ عَلَيْكُمْ .

وقد اختلف المفسِّرون في جواب نوح عليه السَّلام هذا لأى من الإشكالات الثلاثة هو؟ و لهم فى ذلك أقوال..و لكن مع التدبر فى الآيه يتَّضح أنّ هذا الجواب يمكن أن يكون جوابا للإشكالات الثلاثة بأسرها.

لأنَّ أوّل إشكال أوردوه على نوح هو: لم كنت إنسانا مثلنا و لم تكن ملكا؟ فكان جوابه لهم: صحيح أننى بشر مثلكم، و لكن الله آتانى رحمته و بينه و دليلا واضحا من عنده، فلا تمنع بشريتى هذه من أداء هذه الرسالة العظيمة، و لا ضروره لأن أكون ملكا.

و الإشكال الثانى هو: إنّ أتباع نوح مخدوعون بالظواهر. فيردّهم بالقول: إنكم أحق بهذا الاتهام، لأنكم أنكرتم هذه الحقيقه المشرقه، و عندى أدلّه كافيه و مقنعه لكلّ من يطلب الحقيقه، إلّا- أنّها خفيت عليكم لغروركم و تكبركم و أنانيتكم! و إشكال الثالث: أنّهم قالوا: وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَكَانَ جَوَابَ نوح عليه السَّلام: أى فضل أعظم من أن يشملنى الله برحمته، و أن يجعل الدلائل الواضحه بين يدى، فعلى هذا لا دليل لكم على اتهامى بالكذب، فدلائل الصدق عندى واضحه و جليّه!..

و فى ختام الآيه يقول النّبي نوح عليه السَّلام لهم: هل أستطيع أن ألزمكم الاستجابه لدعوتى و أنتم غير مستعدّين لها و كارهون لها أن نُنزِلُكُمْ مَوْهَا وَ أَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ .

اشاره

وَيَا قَوْمِ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا - إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

التفسير

اشاره

ما أنا بطارد الذين آمنوا:

في الآيات المتقدمه رأينا أن قوم نوح «الأنانيين» كانوا يحتالون بالحجج الواهيه و الإشكالات غير المنطقيه على نوح و أجابهم ببيان جلي واضح و الآيات محل البحث تتابع ما ردّ به نوح عليه السّلام على قومه المنكرين. فالآيه الأولى التي تحمل واحدا من دلائل نبوه نوح، و من أجل أن تنير القلوب المظلمه من قومه

تقول على لسان نوح: وَيَا قَوْمِ لَا أَسئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا - فَاَنَا لَا أَطَلِبُ لِقَاءَ دَعْوَتِي مَالًا أَوْ ثَرَوْه مِنْكُمْ، و إنما جزائي و ثوابي على الله سبحانه الذي بعثنى بالنبوه و أمرني بدعوه خلقه إليه إن أجرى إلا على الله .

و هذا يوضح بصورة جيده و بجلاء أنني لا أبتغى هدفا ماديا من منهجى هذا، و لا أفكر بغير الأجر المعنوى من الله سبحانه، و لا يستطيع مدع كاذب أن يتحمل الآلام و المخاطر دون أن يفكر بالربح و النفع.

و هذا معيار و ميزان لمعرفة الصادقين من غيرهم الذين يتحينون الفرص و يهدفون الى تأمين المنافع الماديه فى كل خطوه يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

و يعقب نوح عليه السلام بعد ذلك فى ردّه على مقوله طرد المؤمنين به من الفقراء و الشباب فيقول بصورة قاطعه: وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا لِأَنَّهُمْ سِيْلَقُونَ رَبِّهِمْ و يخاصموننى فى الدار الآخره إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ (١).

ثم تختتم الآيه ببيان نوح لقومه بأنكم جاهلون و لكننى أراكم قوماً تجهلون و أى جهل و عدم معرفه أعظم من أن تضيعوا مقياس الفضيله و تبحثون عنها فى الثروه و المال الكثير و الجاه و المقام الظاهرى، و تزعمون أنّ هؤلاء المؤمنين العفاه الحفاه بعيدون عن الله و ساحه قدسه! هذا خطأكم الكبير و عدم معرفتكم و دليل جهلكم.

ثم أنتم تتصورون -بجهلكم- أن يكون النبى من الملائكه، فى حين ينبغى أن يكون قائد الناس من جنسهم ليحس بحاجاتهم و يعرف مشاكلهم و آلامهم.

و فى الآيه التى بعدها يقول لهم موضحا: إننى لو طردت من حولى فمن ينصرنى من عدل الله يوم القيامة و حتى فى هذه الدنيا

ص: ٥١٣

١- ١) و هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الجملة، و هو أن مراد نوح عليه السلام: إن الذين آمنوا بى إذا كانوا كاذبين فى الباطن فإنهم سيلاقون ربهم يوم القيامة و هو يحاسبهم، و لكن الاحتمال المذكور أقرب للصحه.

وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهين، إذ سيكونون خصومي يوم القيامة بطردى لهم، ولا أحد هناك يستطيع أن يدافع عني و يخلصني من عدل الله، و لربما أصابتنى عقوبه الله في هذه الدنيا، أم أنكم لا تفكرون في أن ما أقوله هو الحقيقه عينها أ فلا تذكرون .

و الفرق بين «التفكر» و«التذكر» هو أن التفكير في حقيقته إنما يكون لمعرفة شيء لم تكن لنا فيه خبره من قبل، و أما التذكر فيقال في مورد يكون معروفا للإنسان قبل ذلك، كما في المعارف الفطريه.

و المسائل التي كانت بين نوح عليه السلام و قومه هي أيضا من هذا القبيل، مسائل يعرفها الإنسان و يدركها بفطرته و تدبره، و لكن تعصب قومه و غرورهم و غفلتهم و أنانيتهم ألقت عليها حجابا و غشاء فكأنهم عموا عنها.

و آخر ما يجيب به نوح قومه و يردّ على إشكالاتهم الواهيه.. إنكم إذا كنتم تتصورون أن لى امتيازا آخر غير الإعجاز الذى لدى عن طريق الوحي فذلك خطأ، و أقول لكم بصراحه: لا أقول لكم عندي خزائن الله و لا أستطيع أن أحقق كل شيء أريده و كل عمل أطلبه، حيث تحكى الآيه عن لسانه و لا أقول لكم عندي خزائن الله و لا أقول لكم إننى مطلع على الغيب و لا أعلم الغيب و لا- أدعى أنني غيركم كأن أكون من الملائكه مثلا و لا أقول إننى ملك فهداه الادعاءات الفارغه و الكاذبه يتذرع بها المدعون الكذبه، و هيهات أن يتذرع بها الأنبياء الصادقون، لأن خزائن الله و علم الغيب من خصوصيات ذات الله القدسيه وحدها، و لا ينسجم الملك مع هذه الأحاسيس البشريه أيضا..

فكل من يدعى واحدا من هذه الأمور الثلاثة المتقدمه- أو جميعها- فهو كاذب.

و مثل هذا التعبير ورد في نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم أيضا كما نلاحظ ذلك في الآيه

(٥٠) من سورة الأنعام حيث تقول الآية مخاطبه النبي أن يبلغ قومه بذلك قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي فإحصار امتياز نبي الإسلام في مسأله «الوحي» ونفى الأمور الثلاثة الأخرى يدل على أن الآيات التي تحدثت عن نوح كانت تستبطن هذا المعنى أيضا وإن لم تصرح بذلك بمثل هذا التصريح!

و في ذيل الآية يكرر التأكيد على المؤمنين المستضعفين بالقول: **وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا..** بل على العكس تماما، فخير هذه الدنيا و خير الآخرة لهم و إن كانوا عفاه لخلو أيديهم من المال و الثروه.. فأنتم الذين تحسبون الخير منحصرا في المال و المقام و السن و تجهلون الحقيقه و معناها تماما.

و على فرض صحه مدعاكم أراذل و «أوباش» ف **اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ.**

أنا الذى لا- أرى منهم شيئا سوى الصدق و الإيمان يجب على قبولهم، لأننى مأمور بالظاهر، و العارف بأسرار العباد هو الله سبحانه، فإن عملت غير عملى هذا كنت آثما إنى إذا لمن الظالمين .

و يرد هذا الاحتمال أيضا فى تفسير الجملة الأخيره لأنها مرتبطه بجميع محتوى الآية، أى إذا كنت ادعى علم الغيب أو أنى ملك أو أن عندي خزائن الله أو أن اطرد المؤمنين، فسأكون عند الله و عند الوجدان فى صفوف الظالمين.

ملاحظات

إشارة

١- أولياء الله و معرفه الغيب

الاطلاع على الغيب مطلقا- كما أشرنا إليه مرارا- و بدون أى قيد و شرط هو من خصوصيات الله سبحانه، و لكنّه يطلع أنبياءه و أولياءه على الغيب بقدر ما يراه

مصلحه كما نرى الإشاره إليه فى الآيتين (٢٦ و ٢٧) من سوره الجن **لِّلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا.**

فعلى هذا لا- منافاه و لا- تضادّ بين هذه الآيات-محل البحث-التي تنفى أن يعلم الأنبياء الغيب، و بين الآيات أو الروايات التي تنسب إلى الأنبياء أو الأئمّه العلم ببعض الغيب.

فمعرفة أسرار الغيب و الاطلاع عليها من خصوصيات الله بالذات، و ما عند الآخرين فبالعرض و«بالتعليم الإلهي»، و لذلك فإن علم الغيب عند غير الله محدود بالحدود التي يريدّها الله سبحانه (١).

٢- مقياس معرفه الفضيله:

مرّه أخرى نواجه الواقعيه فى هذه الآيات، و هى أن أصحاب الثروه و القوه و عبيد الدنيا الماديّين يرون جميع الأشياء من خلال نافذتهم الماديه.. فهم يتصورون أنّ الاحترام و الشخصيّة هما ثمره وجود الثروه و المقام و الحثيات فحسب، فلا ينبغى التعجب من أن يكون المؤمنون الصادقون الذين خلت أيديهم من المال و الثروه فى قاموسهم «أراذل» و ينظرون إليهم بعين الاحتقار و الازدراء.

و لم تكن هذه المسأله منحصره فى نوح و قومه، إذ كانوا يصفون المؤمنين المستضعفين حوله- و لا سيما الشباب الوعى منهم- بأنّ عقولهم خاليه و أفكارهم قاصره، و كأنّهم لا قيمه لهم. فالتاريخ يكشف أن هذا المنطق كان موجودا فى عصر الأنبياء الآخرين و على الأخصّ فى زمن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنين الأوائل.

كما نرى الآن مثل هذا المنطق فى عصرنا و زماننا، فالمستكبرون الذين يمثلون فراعنه العصر-اعتمادا على سلطانهم و قدراتهم و قواهم الشيطانيه-يتهمون

ص: ٥١٦

١- ١) لمزيد من الإيضاح يراجع ذيل الآيه (٥٠) من سوره الأنعام و ذيل الآيه (١٨٨) من سوره الأعراف.

«المؤمنين» بمثل هذا الاتهام.. فكأنما يعيد التاريخ نفسه و صورته على أيدي هؤلاء و مخالفهم..

و لكن حين يتطهر المحيط الفاسد بثوره إلهيه.. فهذه المعايير التي تقاس بها الشخصيّه و العناوين الموهومه الأخرى تلقى فى مزابل التاريخ، و تحل محلّها المعايير الإنسانيه الأصيلة.. المعايير المتولده من صميم حياه الإنسان و التي تكون لبنات تحتيه للبناء الفوقانى للمجتمع السليم الحرّ، حيث يستلهم منها قيمه، كالأيمان و العلم الإيثار و المعرفه و العفو و التسامح و التقوى و الشهامه و الشجاعه و التجربه و الذكاء و الإدارة و النظم و ما أشبهها..

٣- معنى علم الغيب فى القرآن

هناك بعض المفسّرين كصاحب «المنار» حين يصل إلى هذه الآيه يقول لمن يدعى أن علم الغيب لا يختصّ بالله، أو يطلب حلّ المشاكل من سواه، يقول فى جملة قصيره: إنّ هذين الأمرين -علم الغيب و خزائن الله- قد نفاهما القرآن عن الأنبياء، لكن أصحاب البدع من المسلمين و أهل الكتاب يثبتونهما للأولياء و القديسين (١).

إذا كان مقصوده نفى علم الغيب عنهم مطلقا و لو بتعليم الله، فهذا مخالف لنصوص القرآن المجيد الصريحه، و إذا كان مقصوده نفى التوسّل بأنبياء الله و أوليائه بالصوره التي نطلب من الله بشفاعتهم أن يحلّ مشاكلنا، فهذا الكلام مخالف للقرآن و الأحاديث القطعيّه المسلّم بها عن طرق الشيعة و أهل السنّه أيضا.

لمزيد من الإيضاح فى هذا المجال يراجع ذيل الآيه (٣٤) من سوره المائده.

ص: ٥١٧

اشاره

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللّٰهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصِيَحي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصِحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ (٣٥)

التفسير

اشاره

كفانا الكلام فأين ما تعدنا به!؟

الآيه الأولى من الآيات أعلاه تتحدث عن قوم نوح عليه السّلام أنّهم: قالوا يا نوح قد جادلنا فأكثر جِدالنا فأين ما تعدنا به من عذاب الله فأتنا بما تعدنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ وهذا الأمر يشبه تماما عند ما ندخل في جدال مع شخص أو أشخاص و نسمع منهم تهديدا ضمنيا حين المجادله فنقول: كفى هذا الكلام الكثير!! اذهبوا و افعلوا ما شئتم و لا تتأخروا، فمثل هذا الكلام يشير إلى أنّنا لا نكثر بكلامهم و لا نخاف من تهديدهم، و لسنا مستعدين أن نسمع منهم كلاما أكثر.

فاختيار هذه الطريقه إزاء كل ذلك اللطف و تلك المحييه من قبل أنبياء الله و نصائحهم التي تجرى كالماء الزلال على القلوب، إنما تحكى عن مدى اللجاجة و التعصب الأعمى لدى تلك الأقسام.

في الوقت ذاته يشعرا كلام نوح عليه السلام بأنه سعى مدّه طويله لهدايه قومه، و لم يترك فرصه للوصول إلى الهدف إلا انتهزها لإرشادهم، و لكن قومه الضالين أظهروا جزعهم من أقواله و إرشاداته. و هذه المعادله تتجلى جيدا في سائر الآيات التي تتحدث عن نوح عليه السلام و قومه في القرآن، ففي سوره نوح عليه السلام بيان لهذه الظاهره بشكل واف - أيضا - فلنلاحظ الآيات التي تبدأ من الآية (٥) و تنتهى بالآيه (١٣) من سوره نوح حيث نقرأ فيها: **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَ إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا لِيَابَهُمْ وَ اصْرُرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا .**

في الآية - محل البحث - وردت جمله «جادلتنا» من ماده «المجادله» و أصلها مشتق من «الجدل» التي تعنى فتل الحبل و إبرامه، و لذلك يطلق على البازي «أجدل» لأنه أشد فتلا من جميع الطيور، ثم توسعوا في اللغة فصارت تطلق على الالتواء في الكلام و ما أشبه.

مع أنّ «الجدال» و «المراء» و «الحجاج» على وزن «اللجاج» متقاربه المعانى و متشابهه فيما بينها، لكن بعض المحققين يرى أنّ «المراء» فيه نوع من المذمّه، لأنه يستعمل أحيانا في الاستدلال في المسائل الباطله، و لكن ذلك المفهوم لا يدخل في كلمتي «الجدال» و «المجادله»، و الفرق بين الجدال و الحجاج، أنّ الجدال يستعمل ليلفت الطرف المقابل و يبعده عن عقيدته، أمّا الحجاج فعلى العكس من ذلك بأن يدعى الشخص إلى العقيدته الفلانيه بالاستدلال و البرهان.

لقد أجب نوح عليه السلام بجمله قصيره على هذه اللجاجة و حماقه و عدم الاعتناء

بقوله: إِنَّكُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَنْ يَأْتِيَكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ فذلِكَ خَارِجٌ مِنْ يَدِي عَلَى كُلِّ حَالٍ وَ لَيْسَ بِاخْتِيَارِي، إِنَّمَا أَنَا رَسُولُهُ وَ مَطِيعٌ لِأَمْرِهِ، فَلَا تَطْلُبُوا مِنِّي الْعَذَابَ وَ الْعِقَابَ!.. وَ لَكِنْ حِينَ يَحِلُّ عَذَابُهُ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْرُوا مِنْ يَدِ قُدْرَتِهِ أَوْ تَلْجَأُوا إِلَى مَا مِنْ آخِرٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

و«المعجز» مشتق من ماده «الإعجاز» و هى بمعنى سلب القدره من الغير، و تستعمل هذه الكلمه أحيانا فى موارد يكون الإنسان مانعا لعمل الآخر أو لصدّه عن سبيله فيعجزه عن القيام بأى عمل، و أحيانا تستعمل فى فرار الإنسان من يد الآخر و خروجه من هيمنته فلا يقدر عليه، و أحيانا تستعمل فى تكبير الآخر بالوثاق، أو بجعله مصونا.. إلخ.

فكل هذه المعانى من أوجه الإعجاز و سلب القدره من الطرف الآخر.

الآيه الآنفه الذكر تحتل جميع هذه المعانى، لأنه لا منافاه بين جميع هذه المعانى، فكلها تعنى أن لا حيله تخلصكم و تجعلكم فى أمان من عذابه.

ثم يضيف: و إذا كان الله يريد أن يضلكم و يغويكم-لما أنتم عليه من الذنوب و التلوث الفكرى و الجسدى-فلا-فائده من نصحي لكم إذا و لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم فهو وليكم و أنتم فى قبضته هو ربكم و إليه ترجعون .

سؤال: مع مطالعه هذه الآيه يثور هذا السؤال فورا-كما أن كثيرا من المفسرين أشاروا إليه أيضا-و هو: هل يمكن أن يريد الله الغوايه و الضلال لعباده؟ ثم أليس هذا دليلا-على الجبر؟ و هل يتوافق هذا المعنى مع أصل حريه الإراده و الإختيار للإنسان؟ و الجواب: كما اتضح من ثنايا البحث المتقدم-و ما أشرنا إليه مرات عديده-أنه قد تصدر من الإنسان-أحيانا-سلسله من الأعمال التى تكون نتيجتها الغوايه و الانحراف الدائمى و عدم العوده إلى الحق، اللجاجة المستمره و الإصرار على

الذنوب و العداء الدائم لطلاب الحق و القاده الصادقين.. كل هذه الأمور تلقى على فكر الإنسان حجاباً يفقده قدره على رؤيه أقل شعاع لشمس الحقيقه و الحق، و لأنّ هذه الحاله من نتائج الأعمال التي يقوم بها الإنسان، فلا تكون دليلاً على الجبر، بل هي عين الاختيار، و الذي يتعلق بالله تعالى أنّه جعل في مثل هذه الأعمال أثراً.

هناك آيات عديده في القرآن تشير إلى هذه الحقيقه، و قد أشرنا الى ذلك في ذيل الآيه (٧) من سوره البقره و آيات أخرى يمكن مراجعتها..

و في آخر الآيه-محل البحث ورد كلام بمشابه الجملة المعترضه ليؤكد المواضيع التي بحثت قصه نوح في الآيات السابقه و اللاحقه، فتبين الآيه أن الأعداء يقولون:

إِنَّ هَذَا الْمَوْضُوعَ صَاغَهُ «مُحَمَّدٌ» مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ وَ نَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .

ففي جواب ذلك قل يا رسول الله: إن كان ذلك من عندي و نسبته إلى الله فذنبه على قلّ إن افتريته فعلى إجرامى و لكنى برىء من ذنوبكم و أنا برىء مما تجرمون .

ملاحظات

١- «الإجرام» مأخوذ من ماده «جرم» على وزن «جهل» و كما أشرنا إلى ذلك- سابقاً- فإنّ معناه قطف الثمره غير الناضجه، ثم أطلقت على كل ما يحدث من عمل سىء، و تطلق على من يحدث الآخر على الذنب أنّه أجرم، و حيث أن الإنسان له ارتباط في ذاته و فطرته مع العفاف و النقاء، فإنّ الإقدام على الذنوب يفصل هذا الارتباط الإلهى منه.

٢- احتمال بعض المفسرين أنّ الآيه الأخيره ليست ناظره الى نبي الإسلام، بل ترتبط بنوح عليه السلام نفسه، لأنّ جميع هذه الآيات تتحدث عن نوح عليه السلام، و الآيات

المقبله تتحدث عنه أيضا، فمن الأنسب أن تكون هذه الآيه فى نوح عليه السّلام، و الجملة الاعتراضيه خلاف الظاهر، و لكن مع ملاحظه ما يلى:

أولاً: إنّ شبيه هذا التعبير وارد فى سوره الأحقاف الآيه (٨) فى نبى الإسلام.

ثانياً: جميع ما جاء فى نوح عليه السّلام فى هذه الآيات كان بصيغه الغائب، و لكن الآيه -محل البحث- جاءت بصيغه المخاطب، و مسأله الالتفات -أى الانتقال من ضمير الغيبه إلى المخاطب- خلاف الظاهر، و إذا أردنا أن تكون الآيه فى نوح عليه السّلام فإنّ جملة «يقولون» بصيغه المضارع، و جملة «قل» بصيغه الأمر، يحتاجان كليهما إلى التقدير! ثالثاً: هناك حديث فى تفسير البرهان فى ذيل هذه الآيه عن الإمامين الصادقين الباقر و الصادق عليهما السّلام يبين أنّ الآيه المتقدمه نزلت فى كفار مكّه.

من مجموع هذه الدلائل نرى أن الآيه تتعلق بنبى الإسلام، و التهم التى و جهت إليه كان من قبل كفار مكّه، و جوابه عليهم.

و ينبغى ذكر هذه المسأله الدقيقه، و هى أنّ الجملة الاعتراضيه ليست كلاماً لا -علاقه له بأصل القول، بل غالباً ما تأتى الجمل الاعتراضيه لتؤكد بمحتواها مفاد الكلام و تويده، و إنما ينقطع ارتباط الكلام أحياناً لتخف على المخاطب رتابه الإيقاع و ليعث الجده و اللطافه فى روح الكلام، و بالطبع فإنّ الجملة الاعتراضيه لا يمكن أن تكون أجنبيه عن الكلام بتمام المعنى، و إلا فتكون على خلاف البلاغه و الفصاحه، فى حين أنّنا نجد دائماً فى الكلمات البليغه و الفصيحه جملاً اعتراضيه.

٣- من الممكن أن يرد هذا الإشكال عند مطالعه الآيه الأخيره، و هو قول النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم أو نوح عليه السّلام للكفار: إن يكن هذا الكلام افتراء فإثمه على. ترى هل يعنى قبول مسئوليّه الإثم «الافتراء» أنّ كلام الكفار حقاً و مطابقاً للواقع، و على الناس أن يتابعوه و يطيعوه؟! و لكن مع تدقيق النظر فى الآيات السابقه نحصل على جواب هذا الإشكال،

و هو أنّ الأنبياء في الحقيقة أرادوا القول: إنّ كلامنا يقوم على الاستدلالات العقلية، فعلى فرض المحال أننا لم نكن مبعوثين من قبل الله فإنّ ذلك على أنفسنا، وهذا بغض النظر عن الاستدلالات العقلية، ولكنكم أيها الكفار ستبقون بمخالفتم صرعى الإثم دائماً، الإثم المستمر و الباقي «لا حظ كلمه تجرمون التي جاءت بصيغه المضارع و التي تدل على الاستمرار» فتأمل جيداً.

ص: ٥٢٣

اشاره

وَ أُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِّينَا وَ لَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَ يَصْنَعِ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)

التفسير

اشاره

بدايه النهايه:

إنَّ قَصَّه نوح عليه السَّلام الوارده فى آيات هذه السوره، بيَّنت بعدد عبارات و جمل، كل جمله مرتبطه بالأخرى، و كل منها يمثل سلسله من مواجهه نوح عليه السَّلام فى قبال المستكبرين، ففى الآيات السابقه بيان لمرحله دعوه نوح عليه السَّلام المستمره و التى كانت فى غايه الجديده، و بالاستعانه بجميع الوسائل المتاحة حيث استمرت سنوات طوالا-آمنت به جماعه قليله..قليله من حيث العدد و كثيره من حيث الكيفيه و الاستقامه.

و فى الآيات محل البحث إشاره إلى المرحله الثالثه من هذه المواجهه، وهى مرحله انتهاء دوره التبليغ و التهيؤ للتصفيه الإلهيه.

ففى الآيه الأولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنك لن تجد من يستجيب لدعوتك و يؤمن بالله غير هؤلاء: وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ .

و هى إشاره إلى أنّ الصفوف قد امتازت بشكل تام، و الدعوه للإيمان و الإصلاح غير مجديه، فلا بدّ إذا من الاستعداد لتصفيه و التحول النهائى.

و فى نهايه الآيه تسليه لقلب نوح عليه السّلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل هذه الأعمال فلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ و نستفيد من هذه الآيه - ضمنا - أنّ الله يطلع نبيه نوحا على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغى، كما نجد أنّ الله تعالى يخبره بأنّه لن يؤمن بدعوته فى المستقبل غير أولئك الذين آمنوا به من قبل، و على كل حال لا بدّ من إنزال العقاب بهؤلاء العصاه اللجوجين ليظهر العالم من التلوّث بوجودهم، و ليكون المؤمنون فى منأى عن مخالبتهم، و هكذا صدر الأمر بإغراقهم، و لكن لا بدّ لكل شىء من سبب، فعلى نوح أن يصنع السفينه المناسبه لنجاه المؤمنين الصادقين لينشط المؤمنون فى مسيرهم أكثر فأكثر، و لتتم الحجّه على غيرهم بالمقدار الكافى أيضا.

و جاء الأمر لنوح أن... اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا .

إنّ المقصود من كلمه «أعيننا» إشاره إلى أن جميع ما كنت تعمله و تسعى بجد من أجله فى هذا المجال هو فى مرءى و مسمع منّا، فواصل عملك مطمئن البال.

و طبيعى أنّ هذا الإحساس بأنّ الله حاضر و ناظر و مراقب و محافظ يعطى الإنسان قوه و طاقه، كما أنّه يحسّ بتحمل المسؤوليه أكثر.

كما يستفاد من كلمه «و حيننا» أيضا أن صنع السفينه كان بتعليم الله، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ نوحا عليه السّلام لم يكن بذاته ليعرف مدى الطوفان الذى سيحدث فى المستقبل ليصنع السفينه بما يتناسب معه، و إنّما هو وحى الله الذى يعينه فى

و في نهايه الآيه ينذر الله نوحا أن لا يشفع في قومه الظالمين، لأنهم محكوم عليهم بالعذاب و إن الغرق قد كتب عليهم حتما و لا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرّقون .

هذه الجملة تبين بوضوح أنّ الشفاعة لا تتيسر لكل شخص، بل للشفاعة شروطها، فإذا لم تتوفر في أحد الأشخاص فلا يحق للنبي أن يشفع له و يطلب من الله العفو لأجله (راجع المجلد الأول من هذا التفسير ذيل الآيه ٤٨ من سورة البقره).

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد-و لو لحظه واحده- في دعوه النبي نوح عليه السلام و يحتملوا على الأقل أن هذا الإصرار و هذه الدعوات المكرره كلها من «وحي الله» فتكون مسأله العذاب و الطوفان حتميه!! إلا- أنهم واصلوا استهزاءهم و سخريتهم مره أخرى و هي عاده الأفراد المستكبرين و المغرورين و يصنع الفلك و كلما مرّ عليه ملأ من قومه سخرؤا منه قال إن تسخرؤا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرؤن .

«الملا» و الأشراف الراضون عن أنفسهم يسخرون من المستضعفين في كل مكان، و يعدونهم أذلاء و حقراء لأنهم لا قوه لهم و لا ثروه!! و مضافا بل حتى أفكارهم و إن كانت ساميه، و مذهبهم و إن كان ثابتا و راسخا، و أعمالهم و إن كانت عظيمه و جليله.. كل ذلك في حساب «الملا» حقير تافه..! و لذلك لم ينفعهم الإنذار و النصيحة. فلا بد أن تنهال أسواط العذاب الأليم على ظهورهم يقال أن الملا- من قوم نوح و الأشراف كانوا جماعات، و كل جماعه تختار نوعا من السخرية و الاستهزاء بنوح ليضحكوا و يفرحوا بذلك الاستهزاء! فمنهم من يقول: يا نوح، يبدو أن دعوى النبوه لم تنفع و صرت نجارا آخر الأمر!

و منهم من يقول: حسننا تصنع السفينه، فينبغى أن تصنع لها بحرا، أ رأيت إنسانا عاقلا- يصنع السفينه على اليابسه. و منهم من يقول: واهها لهذه السفينه العظيمه، كان بإمكانك أن تصنع أصغر منها ليتمكنك سحبها إلى البحر.

كانوا يقولون مثل ذلك و يفقهون عاليا، و كان هذا الموضوع مثار حديثهم و بحثهم فى البيوت و أماكن عملهم، حيث يتحدثون عن نوح و أصحابه و قلبه عقلهم: تأملوا الرجل العجوز و تفرّجوا عليه كيف انتهى به الأمر، الآن ندرک أن الحق معنا حيث لم تؤمن بكلامه، فهو لا- يملك عقلا- صحيحا!! و لكن نوحا كان يواصل عمله بجديه فائقه و أناه و استقامه منقطعه النظير لأنها وليده الإيمان، و كان لا يكثر بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم و عميت قلوبهم، و إنما يواصل عمله ليكمله بسرعه. و يوما بعد يوم كان هيكل السفينه يتكامل و يتهيأ لذلك اليوم العظيم، و كان نوح عليه السلام أحيانا يرفع رأسه و يقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيره قالَ إِنَّ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَّرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَّرُونَ .

ذلك اليوم الذى يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ما تصنعون، و لا ملجأ لكم، و تصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاه.. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين و من غفلتكم و جهلكم و عدم معرفتكم و يضحكون عليكم.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ

إشاره إلى أنه بالرغم من أن مضايقاتكم لنا مؤلمه، و لكننا نتحمل هذه الشدائد و نفتخر بذلك أولا، كما أن ذلك مهما يكن فهو منقضى و زائل، أما عذابكم المخزى فهو باق و دائم ثانيا، و هذان الأمران معا لا يقبلان القياس.

١-التصفيه لا الانتقام

يستفاد من الآيات المتقدمة أن عذاب الله يفتقد جنبه الانتقام، لأنه عبارة عن تصفيه نوع من البشر و زوالهم لعدم جدارتهم بالحياه، و ليبقى الصالحون من بعدهم.. إن مثل هؤلاء المستكبرين الفاسدين و المفسدين لا أمل بإيمانهم، و لا حق لهم فى الحياه فى نظر نظام الخلق، و هكذا كان قوم نوح لأن الآيات السابقه تبين له أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا أمل بإيمانهم فتهياً لصنع «الفلك» و لا تخاطبني فى الذين ظلموا .

و هذا الموضوع يبدو جلياً فى دعاء هذا النبى على قومه، فنحن نقرأ فى سوره نوح عليه السلام و قال نُوحُ رَبِّ لا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَاْفِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِن تَدْرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ و لا يَلْدُوا إِلَّا فَاْجِراً كَفَّاراً .

و أساساً فإن لكل موجود هدفا فى نظام الخلقه، و حين ينحرف هذا الموجود عن هدفه و يغلق على نفسه جميع طرق الإصلاح، يكون وجوده و بقاؤه بلا معنى، و لا بد من أن يزول شاء أم أبى، و كما يقول الشاعر:

لا نضره عندى و لا ورق و لا

ورد و لا ثمر فقيم بقائى

٢-علامم المستكبرين:

إن المستكبرين الأنانيين يحولون المسائل الجديه التى لا- تنسجم مع رغبتهم و ميولهم و منافعهم إلى لعب و استهزاء. و لهذا السبب فإن الاستهزاء بالحقائق- و لا سيما فيما يتعلق بحياه المستضعفين- يشكل جزءاً من حياتهم.. فكثيراً ما نجدهم من أجل أن يعطوا لجلساتهم المليئه بآثامهم رونقا و جمالا يبحثون عن مؤمن خالى اليد ليسخروا منه و يستهزاءوا به.

و إذا اتفق أن أحد المؤمنين لم يكن فى مجلسهم فسوف يذكرون واحداً من

المؤمنين في غيابه و يسخرون منه و يضحكون!..إنهم يتصورون أنفسهم بالعقل المطلق، و يظنون أن الثروه العظيمه-و التي هي من الحرام-دليل على شخصيتهم و عظمتهم و قيمتهم!و أن الآخريين فاقدو الشخصيه و لا- قيمه لهم و غير لا-ثقين! و لكن القرآن المجيد يوجه أشد هجومه على مثل هؤلاء الأفراد المغرورين المتكبرين، و لا سيما استهزاؤهم المحكوم عليه بغضب الله و سخطه! نقرأ في التاريخ الإسلامي-على سبيل المثال-أن «أبا عقيل الأنصاري» هذا العامل الفقير و المؤمن كان يسهر الليل في حمل الماء من آبار «المدينه» إلى البيوت و يستوفي أجره بتميرات، ثم يأتي بهذه التميرات إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم في عزوه «تبوك» على أنها مساعده لجيش الإسلام، فيلتفت المنافقون المستكبرون و يسخرون منه، فتنزل آيات من القرآن لها وقع الصاعقه عليهم الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

٣- سفينه نوح:

لا شك أن سفينه نوح لم تكن سفينه عاديه و لم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان آلاته، إذ كانت سفينه كبيره تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، و تحمل متاعا و طعاما كثيرا يكفي للمدّه التي يعيشها المؤمنون و الحيوانات في السفينه حال الطوفان، و مثل هذه السفينه بهذا الحجم و قدره الاستيعاب لم يسبق لها مثل في ذلك الزمان. فهذه السفينه ستجرى في بحر بسعه العالم، و ينبغي أن تمرّ سالمه عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها.

لذلك تقول بعض روايات المفسرين: إنَّ طول السفينه كان ألفا و مائتى ذراع، و عرضها كان ستمائه ذراع «كل ذراع يعادل نصف متر تقريبا».

و نقرأ فى بعض الروايات أنَّ النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عامًا بالعقم و عدم الإنجاب، و كان ذلك مقدمه لعذابهم و عقابهم.

ص: ٥٣٠

اشاره

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)

التفسير

اشاره

شروع الطوفان:

رأينا في الآيات المتقدمه كيف صنع نوح عليه السلام وجماعته المؤمنون سفينه النجاه بصدق. وواجهوا جميع المشاكل و استهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، و هياوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذي طهر سطح الأرض من لوث المستكبرين

و الآيات-محل البحث-تعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهايه؟ و كيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبينه بهذا التعبير حتى إذا جاء أمرنا و فار التور .

التور:بتشديد النون،هو المكان الذى ينضج الخبز فيه بعد أن كان عجينا.

لكن ما مناسبة فوران الماء فى التور و اقتراب الطوفان؟ اختلف المفسرون فكانت لهم أقوال كثيره فى ذلك..

قال بعضهم:كان علامه بين نوح و ربه لحلول الطوفان أن يفور التور،ليلتفت نوح و أصحابه إلى ذلك فيركبوا فى السفينه مع وسائلهم و أسبابهم.

و قال جماعه آخرون:إن كلمه«التور»استعملت هنا مجازا و كناية عن غضب الله،و يعنى أن غضب الله اشتدت شعلته و فار،فهو إشاره الى اقتراب حلول العذاب المدمر،و هذا التعبير مطرد حيث يشبهون شدّه الغضب بالفوره و الاشتعال! و لكن يبدو أن احتمال أن يكون التور قد استعمل بمعناه الحقيقى المعروف أقوى،و المراد بالتور ليس تورا خاصيا،بل المقصود بيان هذه المسأله الدقيقه، و هى أن حين فار التور بالماء-و هو محل النار عاده-التفت نوح عليه السلام و أصحابه إلى أن الأوضاع بدأت تتبدل بسرعه و أنه حدثت المفاجأه،فأين«الماء من النار»؟! و بتعبير آخر:حين رأوا أن سطح الماء ارتفع من تحت الأرض و أخذ يفور من داخل التور الذى يصنع فى مكان يابس و محفوظ،من الرطوبه علموا أن أمرا مهما قد حدث و أنه قد ظهر فى التكوين أمر خطير،و كان ذلك علامه لنوح عليه السلام و أصحابه أن ينهضوا و يتهيؤوا.

و لعل قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآيه.و هى فوران التور بالماء فى بيوتهم و لكن غضوا أجفانهم و صموا آذانهم كعادتهم عند مثل العلائم الكبيره حتى أنهم لم

يسمحوا لأنفسهم بالتفكير فى هذا الأمر و أن إنذارات نوح حقيقه.

فى هذه الحاله بلغ الأمر الإلهى نوحاً قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ .

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ .

هذه الآيه تشير من جهه إلى امرأه نوح و ابنه كنعان-الذين ستأتى قصتهما فى الآيات المقبله-و قد قطعاً علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما و تأمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق فى ركوب السفينه ليكونا من الناجين، لأنَّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

و تشير الآيه من جهه أخرى إلى أنّ ثمره جهاد نوح عليه السّلام بعد هذه السنين الطوال و السعى الحثيث المتواصل فى التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل! بعض الروايات تقول أنّه استجاب لنوح خلال هذه الفتره الطويله ثمانون شخصاً فقط، و تشير بعض الروايات الأخرى إلى عدد أقل من ذلك، و هذا الأمر يدل على ما كان عليه هذا النّبي العظيم نوح عليه السّلام من الصبر و الاستقامه (فى درجه قصوى بحيث كان معدل ما يبذله من جهد لهدايه شخص واحد عشر سنوات تقريباً، هذا التعب الذى لا يبذله الناس حتى لأولادهم!).

جمع نوح عليه السّلام ذويه و أصحابه المؤمنين بسرعه، و حين أزف الوعد و اقترب الطوفان و أو شك أن يحل عذاب الله أمرهم أن يركبوا فى السفينه و قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا (١).

لماذا؟! الكى يعلمهم أنّه ينبغى أن تكونوا فى جميع الحالات فى ذكر الله تعالى و تستمدوا العون من اسمه و ذكره إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينه تحت تصرفكم و اختياركم لتنجيكم من

ص: ٥٣٣

١- (١) المجرى و المرسى: اسما زمان، و يعنى الأوّل وقت التحرك، و الثّانى وقت التوقف.

الغرق و بمقتضى عفوه و غفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

و أخيرا حانت اللحظة الحاسمه، إذ صدر الأمر الإلهي فتلبدت السماء بالغيوم كأنها قطع الليل المظلم، و تراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، و تتابعت أصوات الرعد و ومضات البرق فى السماء كلها تخبر عن حادثه «مهوله و مرعبه جدًا».

شرح المطر و توالى مسرعا منهمرا أكثر فأكثر، و كما يصفه القرآن فى سورة القمر فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ .

و من جهة أخرى ارتفعت المياه الجوفيه بصوره رهيبه بحيث تفجرت عيون الماء من كل مكان.

و هكذا اتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل و لا- واد و لا- تلعه و لا- نجد إلا- استوعبه الماء و صار بحرا محيطا خضما.. أما الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديده تتلاطم و تغدو كالجبال. و سفينه نوح و من معه تمضى فى هذا البحر وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ زَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِي مَعْرِزٍ يَا بُنَيَّ اذْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ فَإِنَّ مَصِيرَكَ إِلَى الْفَنَاءِ إِذَا لَمْ تَرْكَبْ مَعَنَا.

لم يكن نوح هذا النبى العظيم أبا فحسب، بل كان مريئا لا يعرف التعب و النصب، و متفائلا بالأمل الكبير بحيث لم ييأس من ابنه القاسى القلب، فناداه عسى أن يستجيب له، و لكن-للأسف- كان أثر المحيط السىء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرّق عليه.

لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، و ظلنا منه أن ينجو من غضب الله أجاب والده نوحا و قَالَ سَأْوِي إِلَهِ جَبَلٍ يَعْصِي مَنِي مِنَ الْمَاءِ وَ لَكِنَّ نوحا لم ييأس مرّه أخرى فنصحته أن يترك غروره و يركب معه و قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَ لَا يَنْجُو مِنْ هَذَا الْغُرُقِ إِلَّا مَنْ شَمَلَهُ لطف الله إِلَّا مَنْ رَحِمَ .

الجبل أمره سهل و هين، و كره الأرض أمرها هين كذلك.. الشمس و المجموعه الشمسيه بما فيها من عظمه مذهله لا تعدل ذره إزاء قدره الله الأزليته.

أليس أعلى الجبال بالنسبه لكره الأرض بمثابة نتوءات صغيره على سطح برتقاله؟! أليست هذه الأرض التي ينبغي أن يتضاعف حجمها إلى مليون و مائتي ألف مره حتى تبلغ حجم الشمس، و هذه الشمس التي تعدّ نجما متوسطا في السماء من بين ملايين الملايين من النجوم في متسع عالم الخلق، فأى خيال ساذج و فكر بليد يتوقع من الجبل أن يصنع شيئا؟ و في هذه الحاله التي كان ينادى نوح ابنه و لا- يستجيب الابن له ارتفعت موجه عظيمه و التهمت كنعان بن نوح و فصل الموج بين نوح و ولده وَحَالًا بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ .

بحوث

اشاره

١- هل كان طوفان نوح مستوعبا للعالم!؟

من خلال ظاهر الآيات يبدو لنا أنّ الطوفان لم يكن لمنطقه من الأرض دون أخرى، بل غطى كل سطح الأرض، لأنّ كلمه «الأرض» ذكرت بصوره مطلقه، كما في الآيه (٢٦) من سوره نوح رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا كما في الآيه (٤٤) المقبله من سوره هود وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَ هكذا ذكر كثير من المؤرخين-أيضا- أنّ طوفان نوح كان عالميا، و لذلك يرجع نسل جميع البشر اليوم إلى واحد من أبناء نوح الثلاثة «حام و سام و يافث» الذين بقوا بعده مده! و في التاريخ الطبيعي نعر على فتره تدعى فتره الأمطار ذات السيول، فلو لم تكن هذه الفتره الزمنيه قبل تولد الحيوانات، فهي تنطبق على طوفان نوح.

ص: ٥٣٥

و هذه النظرية موجوده أيضا التاريخ الطبيعي للأرض، و هي أن محور الكره الأرضيه يتغير تدريجا، بحيث يكون القطبان الشمالي و الجنوبي مكان خط الإستواء، و يحلّ خط الإستواء محلّهما، و واضح أنّ الحرارة التي تكون في أعلى درجاتها تذيب الثلوج القطبيه فترفع مياه البحار حتى تستوعب كثيرا من اليابسه، و مع النفوذ في ثنايا الأرض و طبقاتها تحدث العيون المتفجره، و كل ذلك يبعث على كثرة السحب و الأمطار.

كما أنّ مسأله اختيار نوح عليه السّلام من كل نوع من الحيوانات زوجين و حملها معه على السفينه يؤيد كون الطوفان عالميا أيضا، و إذا عرفنا أنّ نوحا كان يسكن الكوفه- كما تقول الروايات- و أن طرف الطوفان و حافته- طبقا للروايات الأخرى- كان في مكّه و بيت الله الحرام، فهذا نفسه أيضا مؤيد «لعالمية الطوفان».

و لكن مع هذه الحال، فلا يبعد أن يكون الطوفان في منطقه معينه من الأرض، لأنّ إطلاق الأرض على المنطقه الواسعه من العالم تكرر في عدد من آيات القرآن، كما نقرأ في قصه بنى إسرائيل و أورثنا القوم الذين كانوا يشتتوا معفون مشارق الأرض و مغاربها (١).

و حمل الحيوانات في السفينه ربّما كان لئلا ينقطع نسلها في ذلك القسم من الأرض، خصوصا أن نقل الحيوانات و انتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمرا هيّنا «فتدبر»! و هناك قرائن أخرى تقدم ذكرها يمكن أن يستفاد منها أنّ الطوفان لم يستوعب الكره الأرضيه كلّها.

و هناك مسأله تسترعى الانتباه- أيضا- و هي أنّ طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، و ليس لنا دليل على أن دعوه نوح شملت الأرض كلها، و عادة فإنّ وصول دعوه نوح في مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد.. و لكن على كل حال

ص: ٥٣٦

فالهدف القرآنى من بيان هذه القصة للعبه و بيان المسائل التى تبرى الآخرين، سواء كان الطوفان عالميا أو غير عالمى.

٢- هل تقبل التوبه بعد نزول العذاب!؟

يستفاد من الآيات المتقدمه أنّ نوحا عليه السلام استمر يدعو ولده حتى بعد شروع الطوفان، و هذا دليل على أنه لو آمن ابنه «كنعان» لقبل إيمانه.

و يرد هنا سؤال و هو أنه بالنظر إلى آيات القرآن الأخرى و التى مرّت «نماذج» منها، تنصّ على أنّ أبواب التوبه تغلق بعد نزول العذاب.. لأنّ المجرمين فى هذه الحاله إذ يرون العذاب محققا بهم فالغالبه منهم يتوبون عن إكراه و اضطرار لرؤيه العذاب بأعينهم، فعندئذ تكون توبتهم بلا محتوى و فاقد للاعتبار.

و لكن بالتدقيق فى الآيات السابقه يمكن الجواب على هذا السؤال، هو أنّ شروع الطوفان و ما جرى فى بدايه الأمر، لم يكن علامه واضحه للعذاب، بل كان يتصور أنه مطر شديد لا مثل له.. و على هذا فإنّ ابن نوح حين قال لأبيه سَأْوِ إِلَى جَبَلٍ يَعْصَىٰ مِنِ الْمَاءِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الطوفان و المطر كانا طبيعيين. ففى هذه الحاله لا يبعد أن تكون أبواب التوبه ما تزال مفتوحه، و يمكن أن يرد سؤال آخر فى شأن ابن نوح، و هو أنه لم نادى نوح ابنه دون سائر الناس فى هذه اللحظه الحرجه؟! و يمكن أن يكون الجواب أنّ نوحا أدّى وظيفته فى الدعوه العامه للآخرين و بضمنها دعوته لولده، إلاّ أنّه كان يتحمل وظيفه أصعب بالنسبه لولده، و هى وظيفه «الابوّ» إلى جانب وظيفه «النبوه» فلهذا السبب كان يؤكّد على أداء وظيفته بالنسبه لولده إلى آخر لحظه.

و الاحتمال الآخر و كما يقول المفسّرون أنّ ابن نوح لم يكن فى صفّ الكفار و لا- فى صفّ المؤمنين، بل كما يقول القرآن: □ كَانَ فِي مَعْرَلٍ فَلَا تَه لَمْ يَكُن مَع

المؤمنين فإنَّه كان يستحق العقاب، ولأنَّه لم يكن مع الكافرين فإنَّه كان يستحق أن يتوجه إليه التبليغ و اللطف و المحبَّه بصوره أكثر.. أضف إلى ذلك أن ابتعاده عن الكفار و كونه فى معزل، كان يقوى أمل نوح فى أن يندم ولده على الابتعاد عنه.

و هناك احتمال آخر، و هو أن ابن نوح لم يكن يخالف أباه بصراحه، بل كان منافقا و كان يوافق أباه فى الظاهر أحيانا، فلذلك طلب نوح من ربِّه له النجاه.

و على كل حال فإنَّ الآيه السابقه لا تنافى مضامين الآيات الأخرى التى تشير إلى انسداد أبواب التوبه حال نزول العذاب.

٣- دروس تربويه من طوفان نوح:

إشاره

إنَّ هدف القرآن الأصلي من ذكر قصص الماضين بيان دروس و عبر و مسائل تربويه، و فى هذا القسم من قصه نوح مسائل مهمه جدا نشير إلى قسم منها:

أ- تطهير وجه الأرض:

صحيح أن الله رحيم ودود، و لكن لا- ينبغى أن ننسى أنه حكيم أيضا، فبمقتضى حكمته أنه عند ما لا تؤثر دعوه الناصحين و المربيين الإلهيين فى قوم فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك فى الحياه و سينتهون نتيجة للثورات الاجتماعيه أو الطبيعيه و تحت وطأه التنظيم الحياتى.

و هذا الأمر غير منحصر فى قوم نوح و لا- بزمان معين، إنما هو سنه الله فى خلقه و عبادته فى جميع العصور و الأزمان حتى فى عصرنا الحاضر، و أى إشكال فى أن تكون كل من الحرب العالميه الأولى و الحرب العالميه الثانيه صورته من صور «تطهير الأرض».

ب- لم كان العقاب أو الطوفان!؟

صحيح أن قوماً أو أممهم كانوا فاسدين و ينبغي زوالهم و مهمما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجه واحده، و لكن بالتدقيق فى الآيات المتقدمه نستفيد أن هناك تناسباً بين الذنوب و عقاب الله دائماً و أبداً. «فتدبر جيداً».

كان فرعون يرى قدرته و عظمته تتجلى فى «نهر النيل» و مياهه كثير البركات، لكن الطريف أن هلاك فرعون و نهايته كان فى النيل.

و كان نمرود يعتمد على «جيشه» العظيم، لكننا نعلم أن جيشاً- لا يعتد به- من الحشرات هزمه و جنوده أجمعين.

و كان قوم نوح أهل زراعه «و أنعام» و كانوا يجدون كل خيراتهم فى «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً..

و من هنا يتضح جلياً أن حساب الله فى غايه الدقه، و لو لا- حفظنا الطغاه العتاه فى عصرنا و فى الحرب العالميه الأولى و الثانيه كيف أبيدوا بأسلحتهم الحديثه و المتطوره لا تضح المعنى اكثر.

فلا ينبغي أن نعجب أن هذه الصناعات المتقدمه التى اعتمدوا عليها فى استعمار الشعوب و استثمار خيراتهم و استضعافهم.. أدت إلى زوالهم.

ج- اسم الله على كل حال و فى كل مكان

قرأنا فى الآيات المتقدمه أن نوحاً عليه السلام يوصى أصحابه أن لا- ينسوا ذكر اسم الله فى بدايه حركه السفينه و عند توقفها، فكل شىء يتقوم باسمه و بذكره، و ينبغي أن نستمد العون من ذاته القدسيه، كل حركه و كل توقف، حال الهدوء و حال الإعصار و الطوفان، كل هذه الحالات ينبغي أن تبدأ باسمه، لأن كل عمل يبدأ دون ذكر اسمه فهو «أبتر و مقطوع»، و كما

ورد عن نبي الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم فى الحديث الشريف

«كل أمر ذى بال لم يذكر فيه بسم الله فهو أبترا» (١) و ليس ذكر الله من باب التشریف، بل هو هدف و غايه، فكل عمل ليس فيه هدف إلهى فهو أبترا، لأنّ الأهداف الماديّه تتلاشى و تنتهى إلاّ الأهداف الإلهيه فهى غير قابله للفناء، و حين تبلغ الأهداف الماديّه الذروه تنطفئ و تزول، إلاّ أنّ الأهداف الإلهيه خالده و باقيه كذاته المقدسه.

د-المرتکزات الجوفاء:

من الطبعى أنّ كل أحد يعتمد فى التغلب على الصعاب و مواجهه المشاكل فى حياته إلى أمر ما، فجماعه يعتمدون على الثروه و المال، و جماعه على المقام و المنصب، و جماعه يلجأون إلى القدره الجسميه، و آخرون إلى أفكارهم.. و لكن - كما تخبرنا الآيات المتقدمه و يرينا التاريخ- لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى مقاومه أمام أمر الله و قدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديده.

فابن نوح عليه السّلام لغروره و غفلته كان غارقا فى مثل هذا الوهم، و ظن أنّ الجبل سيعصمه من طوفان غضب الله و يحميه و لكن موجه واحده من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنه و أنهت حياته.

من هنا نقرأ فى بعض الأدعيه

«إنى هارب منك إليك» (٢) أى: لو كان هناك ملجأ أمام طوفان غضبك يا ربّ، فهذا الملجأ هو ذاتك المقدسه و العوده إليك لا إلى سواك.

ص: ٥٤٠

١-١) سفينه البحار ص ٦٦٣ الجزء الأول.

٢-٢) دعاء أبى حمزه الثمالى.

لا يمكن الخلاص من أى طوفان دون سفينه النجاه، و ليس شرطا أن تكون هذه السفينه من الخشب و الحديد، بل ما أحسن أن تكون هذه السفينه دينا يقوم السلوك و يهب الحياه الطيبه و يقاوم أمام أمواج طوفان الانحراف الفكرى، و يوصل أتباعه إلى ساحل النجاه.

و على هذا الأساس وردت روايات كثيره عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى مصادر الشيعه و السنه تعبر عن أهل بيته-و هم الأئمه الطاهرون و حملة الإسلام- بأنهم «سفينه النجاه».

يقول حنش بن المغيره و أبو ذرّ أخذ بحلقه باب الكعبه و هو يقول:أنا أبو ذر الغفارى،من لم يعرفنى فأنا جندب صاحب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم

سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول: «مثل أهل بيتى مثل سفينه نوح من ركبها نجا» (١).

و فى بعض الروايات أضيف إليها هذا النص

«و من تخلف عنها غرق» (٢) أو

«من تخلف عنها هلك» (٣).

هذا الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم يبين بصراحه أنه حين يطغى الطوفان الفكرى و العقائدى و الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإنّ طريق النجاه الوحيد هو الالتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام دون المذهب التى اصطنعتها السلطات السابقه و التى لا علاقه لها بأهل البيت عليهم السلام.

ص: ٥٤١

١-١) عيون الأخبار، ج ١، ص ٢١١.

٢-٢) المعجم الكبير بخط الحافظ الطبرانى، صفحه ٣٠ مخطوط.

٣-٣) المصدر نفسه عن جماعه من أهل السنه كابن المغازلى و الخوارزمى، الجزء التاسع من أحقاف الحق، ص ٢٨٠ لمزيد الإيضاح جديده.

اشاره

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

التفسير

اشاره

نهاية الحادث:

قرأنا في الآيات السابقة-إجمالاً- أنَّ الأمواج المتلاطمه الصاخبه من الماء أغرقت كل مكان حيث تصاعد منسوب الماء تدريجاً، أمّا المجرمون الجهله فظننا منهم أنه طوفان عادي فصعدوا إلى أعالي القمم و المرتفعات، لكن الماء تجاوز تلك المرتفعات أيضاً و خفى تحت الماء كل شيء، و أخذت تلوح للعيون أجساد الطغاه الموتى و ما بقى من البيوت و وسائل المعاش في ثنايا الأمواج على سطح الماء.

و كان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينه بيد الله سبحانه، و كانت الأمواج تتقاذف السفينه في كل صوب، و في روايات استمرت هذه الحال سته أشهر تماماً(من بدايه شهر رجب حتى نهايه شهر ذى الحجه) و على روايه(من عاشر شهر رجب

حتى عاشر محرم) و طافت السفينه نقاطا متعدده من الأرض، و طبقا لما جاء فى بعض الروايات أنها سارت على أرض مكه و حول الكعبه.

و أخيرا صدر الأمر الإلهى بانتهاء العقاب و أن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعیه، و الآيه-محل البحث- تبين هذا الأمر و جزئياته و نتيجته فى عبارات و جيزه جدا، و فى الوقت ذاته بليغه و أخذه، و قد جاءت الآيه فى جمل ست:

١- وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَ كِ صَدْرِ الْأَرْضِ أَنْ تَبْلَعِ الْمَاءَ.

٢- وَ يَا سَمَاءَ أَقْلِعِي وَ صَدْرِ الْأَمْرِ لِلسَّمَاءِ أَنْ لَا تَمْطُرِي.

٣- وَ غِيضَ الْمَاءِ وَ نَزَلَ الْمَاءُ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ.

٤- وَ قُضِيَ الْأَمْرُ أَنْتَهَى حُكْمَ اللَّهِ.

٥- وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ اسْتَقَرَّتِ السَّفِينَةُ عَلَى طَرَفِ جَبَلِ الْجُودَى.

٦- وَ قِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [□] عِنْدَئِذٍ لَعَنَ الْمَجْرُمُونَ بِالْدَعَاءِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبْعَدُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

كم هى رائعه هذه التعابير التى وردت فى الآيه المتقدمه، و هى فى الوقت ذاته و جيزه و تفور بالحياه و الجمال الاخاذ بحيث قال فيها طائفه من علماء العرب: إن هذه الآيه تعدّ أفصح آيات القرآن و أبلغها و إن كانت آياته جميعا فى غايه البلاغه و الفصاحه.

الشاهد على هذا الكلام هو أننا نقرا فى روايات التاريخ الإسلامى أنّ جماعه من كفار قريش نهضوا لمواجهة القرآن و ليأتوا بمثل آياته، فهياً يريدوهم الطعام و الشراب لهم لفته أربعين يوما، مثل لب الحنطه الخالص و الخمر المعتق و لحم الغنم-لينسجوا براحه البال على منوال آيات القرآن شبيها لها، و لكنهم حين بلغوا هذه الآيه-محل البحث- هزتهم بحيث نظر بعضهم إلى بعض و قال كل للآخر: هذا كلام لا يشبهه كلام آخر، و هو أساسا لا يشبه كلام المخلوقين، قالوا ذلك و انصرفوا

عَمَّا اجتمعوا له من محاكاة القرآن آيسين (١).

أين يقع الجودي؟

ذهب كثير من المفسرين أنّ الجودي الذي استقرت عليه السفينه- كما مرّ ذكره في الآية- جبل معروف قرب الموصل (٢) و قال آخرون: هو جبل في حدود الشام أو شمال العراق أو قرب «آمد» و في كتاب الراغب الأصفهاني (المفردات) أنّه جبل بين الموصل و الجزيرة، و هي (جزيره ابن عمر في شمال الموصل).

و لا يبعد أن تكون جميعها بمعنى واحد، «فالموصل» و «الجزيره» و «آمد» جميعها في الجزء الشمالي من العراق و قرب الشام.

و قال آخرون: يحتمل أن يكون المقصود من الجودي كل جبل صلب أو أرض صلبه و قويه، و معنى الآية حسب هذا التفسير أن السفينه استقرت على أرض صلبه غير رخوه لينزل ركابها على الأرض، و لكن المشهور و المعروف هو المعنى الأوّل.

و في كتاب «أعلام القرآن» تحقيق و تتبع حول جبل الجودي نوره بما يلي:

«الجودي» اسم جبل استقرت سفينه نوح و استوت على قمته، و قد ورد اسمه في الآية (٤٤) في سوره هود و هو قريب من المضمون الوارد في التوراه مع ما يتعلق به من أمور أخرى، و هناك ثلاثه أقوال بالنسبه إلى محل جبل الجودي:

١- بناء على قول «الاصفهاني» فإنّ جبل الجودي في الجزيرة العربيه، و هو واحد من جبلين واقعين في منطقه نفوذ قبيله (طىء).

٢- إنّ الجودي هو سلسله جبال «كاردين» الواقعه شمال شرقي جزيره (ابن عمر) في شرق دجله قرب الموصل؟ و يسميها الأكراد (كاردو) بلهجتهم، و يسميها

ص: ٥٤٤

١-١) راجع مجمع البيان، ح ٥، ص ١٦٥، و روح المعاني، ج ١٢، صفحه ٥٧.

٢-٢) راجع مجمع البيان، و روح المعاني، و القرطبي، ذيل الآية محل البحث.

اليونانيون (جوردى) و يسميها العرب «الجودى».

فى «الترگوم» و هى الترجمة الكلدانية لـ «التوراه» و كذلك الترجمة السريانية لـ «التوراه»: إنَّ المكان الذى استقرت عليه سفينه نوح هو قلعه جبل الأكراد، أى «كاردين».

و الجغرافيون العرب يطبقون الجودى المذكور فى القرآن على هذه المنطقه- المشار إليها آنفا-و يقولون إنَّ قطع السفينه كان موجوده على قمه هذا الجبل حتى زمان بنى العباس و كان المشركون يزورونها..

و فى القصص البابليه قصّه شبيهه بطوفان نوح عليه السلام (ملحمه گيلگامش) و يمكن- إضافة إلى ذلك-احتمال طغيان دجله فى تلك الفتره، و سكنه تلك المنطقه هم المبتلون بالطوفان.

و فى جبل الجودى كتيبه آشوريه موسومه بكتيبه «ميسر» و قد لو حظ فى هذه الكتيبه اسم «آاراتو».

٣-و فى الترجمة الحاليه لـ «التوراه»: إن محل استقرار سفينه نوح فى جبال «آارات» و هو جبل «ماسيس» الواقع فى «أرمنستان» و قد ضبط صاحب قاموس الكتاب المقدّس معناه الأولى، فكان المعنى «ملعون» و قال: بناء على ما جاء فى الرّوايات فإنَّ سفينه نوح استقرّت على قمه هذا الجبل، و يسميه العرب بـ «الجودى» و يسميه الإيرانيون بـ «جبل نوح» و يسميه الأتراك بـ «كرداغ» بمعنى الجبل المنحدر، و هو واقع قرب «أرس».

و حتى القرن الخامس لم يعرف الأرامنه جبلا فى أرمنستان باسم جبل «الجودى» و لكن منذ ذلك الوقت تسرب هذا المفهوم الى علماء الأرمن و قد يكون السبب هو اشتباه المترجمين للتوراه الذين ترجموا جبل «الأكراد» إلى «آارات»..

و لعل ممّا سوّغ هذا التصوّر أنّ الآشوريين أطلقوا على الجبال الواقعه شمال

بحيره «وان» و جنوبها اسم «آارات» أو «آاراتو».

يقال أنّ النبي نوحا بنى مسجدا على قمة جبل الجودي بعد ما غاض الطوفان، و يقول الأرامنه: إنّ في سفح جبل الجادي «الجودي» قريه تدعى ثمانين أو ثمان، و هي أوّل محل نزل فيه أصحاب نوح عليه السلام (1).

ص: ٥٤٦

١-١) أعلام القرآن للغزالي، ص ٢٨١.

اشاره

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)

التفسير

اشاره

حادثة ابن نوح المؤلمه:

قرأنا في الآيات المتقدمه أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحه والده و موعظته،و لم يترك لجاجته و حماقته حتى النفس الأخير،فكانت نهايته الغرق في أمواج الطوفان.

و هذه الآيات-محل البحث-تحدث عن قسم آخر من هذه القصّه،و هو أنّه حين رأى نوح ابنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفه الأبوه و تذكر وعد الله في نجاه أهله فالتفت إلى ساحه الله مناديا فقال رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ .

و هذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (٤٠) من هذه السوره حيث يقول سبحانه:

قُلْنَا اَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ اَهْلَكَ اِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ .

فكان أن تصوّر نوح أن قوله تعالى: اِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ خاص بزوجه المشركه التي لم تؤمن به دون ابنه كنعان، و لذلك خاطب نوح ربّ العزه بهذا الكلام.

و لكنّه سمع الجواب مباشره..جواب يهزّ هذا كما أنّه يكشف عن حقيقه كبيره..

حقيقه أنّ الرباط الدينى أسمى من رباط النسب و القرابه.. قال يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .

فهو فرد غير لائق، حيث لا- أثر لرباط القرابه بعد أن قطع رباط الدين. فَلَا تَسْتَأْذِنُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحه رحمه الله لم يكن صحيحا، و لا- ينبغى أن يتصور نجاه ولده ممّا وعد الله به فى نجاه أهله، لذلك توجه إلى الله معتذرا مستغفرا و قال رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

بحوث

اشاره

١- لم كان ابن نوح «عملا غير صالح»!؟

يعتقد بعض المفسرين أنّ فى الآية إيجاز حذف، و أصل الآية هكذا «إنّه ذو عمل غير صالح».

و لكن مع ملاحظه أنّ الإنسان قد يذوب فى عمله إلى درجه كأنه يصير بنفسه العمل ذاته، و فى اللغات المختلفه يأتى مثل هذا التعبير على نحو المبالغه كأن يقال:

إنّ فلانا هو كل العدل و السخاء، أو إنّ فلانا هو السرقة و الفساد فكأنّه غاص فى

العمل حتى صار هو العمل بذاته.

فابن نوح كان كذلك، فقد جالس رفقاء السوء و غاص في أعمالهم السيئه و أفكارهم المنحرفه، بحيث كأن وجوده تبدل إلى عمل غير صالح!..

فعلى هذا..و إن كان التعبير المقدم موجزا و مختصرا جدا، إلا أنه يعبر عن حقيقه مهمه في ابن نوح!.

أى لو كان هذا الظلم و الانحراف و الفساد فى وجود ابن نوح سطحيا لكانت الشفاعة فى حقه ممكنه، و لكنّه أصبح غارقا فى الفساد و الانحراف، فليس للشفاعة هنا محلّ، فذع الكلام فيه يا نوح!..

و ما يراه بعض المفسرين من أن كنعان لم يكن ابن نوح حقيقه، أو أنه كان ابنا غير شرعى، أو أنه ابن شرعى من زوجته عن رجل آخر، بعيد عن الصواب لأنّ قوله: إِنَّهُ عَمِلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فى الواقع عله لقوله: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أى إنّما نقول لك إنه ليس من أهلك فلاّنه انفصل عنك بعمله و إن كان الرباط النسبى لا يزال قائما..

٢- دائره الوعد الإلهى

مع ملاحظه ما ورد فى الآيات المتقدمه من خطاب نوح لربه و ما أجابه الله به، ينقدح هذا السؤال و هو: كيف لم يلتفت نوح إلى أنّ ابنه كنعان كان خارج دائره الوعد الإلهى؟ و يمكن الإجابة على هذا السؤال- كما أشرنا آنفا- أنّ هذا الابن لم تكن له طريقه واحده معروفه، فتاره تراه مع المؤمنين و أخرى مع الكفار، ممّا يوهم أنه مؤمن. بالإضافة إلى الإحساس بالمسؤوليه الكبرى التى كان نوح يجدها فى نفسه بالنسبه إلى ولده، كذلك المحبّه و العلاقه الطبيعیه التى يجدها كل أب بالنسبه لابنه، و الأنبياء غير مستثنى من هذا القانون، كل ذلك كان سببا فى أن يطلب نوح من

ص: ٥٤٩

رَبِّهِ هَذَا الطَّلَبِ..

و لكن بمجرد أن أطلع على واقع الأمر، أسف على طلبه فوراً و اعتذر إلى الله راجياً عفوهُ-و إن لم يكن صدر منه ذنب-لأنّ موقع النبي يقتضى منه أن يراقب كلامه و تصرفاته، فكان الأولى عليه الترك، و من هنا فقد سأل الله العفو و المغفره..

و من هنا يتضح الجواب على سؤال: هل يذنب الأنبياء حتى يطلبوا العفو و المغفره؟..

٣- هناك حيث تنقطع العلائق

تعكس الآيات الآنفه درسا من أنجع الدروس الإنسانيه و التربويه ضمن بيان قصه نوح.. درسا لا مفهوم له فى المذاهب الماديه لكنّه أصل أساس فى المذهب الإلهي و المعنوي.

فالعلائق الماديه «النسب، القرابه، الصداقه، المرافقه» تخضع دائما فى المذاهب السماويه إلى العلائق المعنويه.

و فى المذاهب السماوى لا مفهوم للعلاقه النسبيه و القرابه مقابل الرابطه المذهبيه.

هناك حيث تتحقق العلاقه الدينيه، كسلمان الفارسى الذى لا هو من أهل بيت النبي و لا من قریش و لا من أهل مكّه، بل لم يكن أساسا من العرب، و لكنّه طبقا لما

ورد فى الحديث الشريف المعروف «سلمان منّا أهل البيت» كان يعدّ من أسره النبي صلى الله عليه و آله و سلّم.

إلا أنّ الابن الواقعى و المباشر للنبي- كابن نوح- يطرد على أثر قطع علاقته الدينيه، و يقال فى شأنه لأبيه نوح: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ

قد تكون هذه المسأله المهمّه عسيره الفهم لمن يعيش فى دائره التفكير المادى لكنّها حقيقه من صميم الأديان السماويه جميعا.

و على هذا الأساس نجد أحاديث أهل البيت عليهم السّلام تتحدث عن بعض الشيعة الذين يحملون اسم التشيع إلا أنّه لا يوجد فيهم علائم من تعليمات أهل البيت عليهم السّلام بنفس الطريقة التي تقدمت في الآيات الآنفه في القرآن الكريم حيث نقل عن علي بن موسى عليه السّلام أنّه سأل بعض أصحابه يوماً: كيف يفسر الناس هذه الآيه إِنَّهُ عَمِلٌ غَيْرٌ صَالِحٍ.. فأجابه أحد الحاضرين: إنهم يعتقدون أن كنعان لم يكن الابن الحقيقي لنوح،

فقال الإمام: «كلاً لقد كان ابنه، ولكن لما عصى الله نفاه عن أبيه، كذا من كان منّا لم يطع الله فليس منّا» (١).

٤- المسلمون المطرودون

و من المناسب أن نستلهم من الآيه فنشير إلى قسم من الأحاديث الإسلاميه التي ترى طوائف كثيره من المسلمين، أو أتباع أهل البيت عليهم السّلام في الظاهر مطرودين و خارجين عن صف المؤمنين و الشيعة:

١-

فقد ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم قوله: «من غش مسلماً فليس منّا» (٢).

٢- كما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «ليس بولى لى من أكل مال مؤمن حرام» (٣).

٣- و

يقول النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم: «ألا و من أكرمه النّاس اتقاء شره فليس منّى».

٤- و

روى عن الإمام على أنّه قال: «ليس من شيعتنا من يظلم الناس».

٥- و

قال الإمام الكاظم عليه السّلام: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه كل يوم» (٤).

٦- و

يقول النّبى صلى الله عليه و آله و سلّم: «من سمع رجلاً ينادى يا للمسلمين فلم يجبه فليس

- ١-١) تفسير الصافي ذيل الآيه المتقدمه.
- ٢-٢) سفينه البحار، ج ٢، ص ٣١٨.
- ٣-٣) وسائل الشيعه، ج ١٢، ص ٥٣.
- ٤-٤) بحار الأنوار، الطبعه القديمه ج ١٥ قسم الأخلاق.

قال الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه و كان يدعى «جابرًا»: «و اعلم يا جابر بأنك لا تكون لنا وليًا حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك و قالوا: إنك رجل سوء، لم يحزنك ذلك، و لو قالوا: إنك رجل صالح، لم يسرك ذلك، و لكن أعرض نفسك على كتاب الله» (٢).

هذه الأحاديث تضع علامة «البطلان» على تصورات من يقنع بالاسم فحسب و لكنهم لا يعيرون أهميه للعمل بالتكليف، أو للروابط الايمانية، و تثبت بوضوح أنّ الأصل في مذهب القاده الزبانيين و الأساس هو الإيمان بالعقيده و العمل بمنهجهم، و ينبغي أن يقاس كل شخص بهذا المقياس.

ص: ٥٥٢

١-١) أصول الكافي، ج ٢، ص ١٦٤.

٢-٢) سفينه البحار، ج ٢، ص ٦٩١.

اشاره

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَيُنِغِبُهُمْ ثَمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ
أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ لِمَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

التفسير

اشاره

هبوط نوح بسلام:

هاتان الآيتان هما نهايه الآيات التي تتحدث عما جاء في نوح و قصته المليئه بالدروس و العبر في سوره هود، وفيهما اشاره إلى هبوط نوح عليه السلام من سفينته و عوده الحياه و العيش الطبيعي على الأرض.

يقول القرآن في الآيه الأولى من هاتين الآيتين: قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ .

لا شك أنّ الطوفان كان قد دمر كل آثار الحياه..فالأراضى العامره و المراتع الخضر و الغابات النضره كلها أبيدت،فالحاله كانت تنذر بأزمه خانقه لنوح و أصحابه بالنسبه للمعاش و الغذاء،لكن الله سبحانه طمأن هذه الجماعه المؤمنه

إزاء البركات الإلهيه و السلامه و أن كل ذلك سيكون مهياً و موفراً لهم فلا ينبغي الحزن على شىء..

مضافاً إلى ذلك فقد يأتي الحزن و الخوف من شىء آخر و هو الخوف على السلامه و الصحه بسبب المستنقعات و المياه الآسنه الباقيه من آثار الطوفان التى تهدد حياتهم بالخطر، فالله سبحانه يطمئن نوحاً و أصحابه أيضاً أنه لا خطر يهددهم، و أن الذى أرسل الطوفان لهلاك الطغاه قادر على أن يوفر محيطاً سالماً مليئاً بالخيرات و البركات للمؤمنين كذلك.

هذه الجملة القصيره تشعرنا و تفهمنا أن القرآن يهتم بالمسائل الدقيقه للغاية، و يعكسها فى عبارات مضبوطه شائقة و أخذاه!

كلمه «أمم» هى جمع «أمه» و هذا التعبير يدل على أن مع نوح طوائف من عباد الله و خلقه، كما يدل هذا التعبير على أن الأفراد الذين هم مع نوح كل منهم سيكون سبباً لوجود قبيله و أمه كبيره، أو أنه فعلاً كان مع نوح أفراد من قبائل و أمم متعدده فيشكل مجموعهم أمماً أيضاً..

و يرد هذا الاحتمال أيضاً، و هو أن الأمم التى كانت مع نوح تشمل مجموعه الحيوانات المتعدده، لأن القرآن أطلق لفظ الأمم عليها أيضاً فى مكان آخر من آياته، فنحن نقرأ فى سورة الأنعام الآية (٣٨) وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتُكُمْ .

فيتضح بهذا أن نوحاً و أصحابه هبطوا إلى الأرض بسلام ليجدوا بركات الله و ليطمئنوا بالحياه الهائنه، كذلك الحال بالنسبه إلى الحيوانات التى كانت معهم فى السفينه و هبطت إلى الأرض، فإن لطف الله شملها جميعاً كذلك.

ثم يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنه ستعقب الأمم التى معك أمم من نسلها، و لكن هذه الأمم ستغتر و تغفل عن نعم الله فتنال جزاءها من الله وَ أُمَّمٌ سُمَّتْهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنْ أَعْدَابِ أَلِيمٍ .

فعلى هذا ليس انتخاب الأصلاح من الناس أو إصلاح الناس عن طريق الطوفان هو آخر الانتخاب و آخر الإصلاح، بل ستبلغ مرحله جديده من بنى آدم أيضا يصلون بها الذروه من الرشد و التكامل، و لكن الناس قد يسيئون الاستفاده من حريه الإراده و يستخدمونها فى طريق الشرّ و الفساد، فينالون جزاءهم فى هذه الدنيا كما ينالون العذاب فى الأخرى.

الطريف فى الآيه أنها تقول سَيُنْمَتُّهُمْ ثُمَّ تتحدث عن العذاب مباشرة. و فى ذلك إشاره إلى أن الاستمتاع ينبغى أن يكون مدعاه للشكر و الثناء على نعم الله و طاعته، و لكن غالبا ما يزيد المتنعمين طغيانا و كفرا و يقطعون العلاقه بينهم و بين الله.

و ينقل العلامة الطبرسى فى مجمع البيان فى ذيل الآيه أن بعض المفسرين يقول فى قوله: «نمتعهم» إلخ: هلك المستمتعون فى الدنيا لأنّ الجهل يغلب عليهم و الغفله فلا يتفكرون إلاّ فى الدنيا و عمارتها و ملذاتها.

هذا الواقع يرى جيدا فى الدول المتنعمه و المتموّله فى هذا العالم، حيث يغوص أهلها بالفساد فلا يفكرون فى المستضعفين- فحسب-، بل نراهم يوما بعد آخر يحاولون الكيد بهم و إراقه دمائهم أكثر فأكثر، لذلك كثيرا ما يتفق أن ينزل الله عليهم الحروب و الحوادث الأليمه التى تسلب النعم مؤقتا لعلهم يفيقون من غفلتهم.

و فى آخر آيه تختتم بها قصه نوح- فى هذه السوره- إشاره كليه عامه إلى ما حدث فى عهد نوح فتقول: تِلْكَ مِنْ أَجْلِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا .

فالخطاب هنا للنبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم يؤكّد عليه أن يصبر و يستقيم كما صبر و استقام نوح عليه السلام عند ما واجه المشاكل، و هكذا تكون عاقبه الصبر النصر فاصبر إن العاقبه للمتقين .

١- إنّ بيان قصص الأنبياء عليهم السّلام- بالصوره الواقعيه و الخاليه من أى نوع من أنواع التحريف الخرافه- ممكن عن طريق الوحي السماوى فحسب، و إلاّ فإنّ كتب تاريخ الماضين مليئه بالأساطير و القصص الخياليه التى بلغت درجه لا يمكن معها معرفه الحق من الباطل، و كلما عدنا إلى الوراء أكثر وجدنا الخلط و التزييف أكثر.

فعلى هذا، يعتبر بيان حال الأنبياء الماضين و الأقوام السالفه بصوره سليمه و خاليه من الخرافات و الخزعبلات دليلاً على حقانيه القرآن و الإسلام و النّبي الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم.

٢- يستفاد من هذه الآيه- خلافاً لما يتصوره البعض- أنّ الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم الله و بالمقدار الذى كان يريد الله لهم، لا- أنّهم يعلمون الغيب من أنفسهم، و إذا وجدنا فى بعض الآيات ما ينفى العلم الغيبى عنهم، فهو إشاره إلى أنّ علمهم ليس ذاتياً، بل هو من الله.

٣- و هذه الآيه توضح حقيقه أخرى، و هى أنّ بيان قصص الأنبياء و الأقوام الماضين فى القرآن ليس درساً للمسلمين فحسب، بل هو إضافه إلى ذلك تسليه لخاطر النّبي و طمأننه لقلبه، لأنّه بشر أيضاً، و ينبغى أن يتلقى الدروس من الأديان الالهيه و يتهيأ لمواجهة الطاغوت فى عصره، و أن لا يكثرث بهموم المشاكل فى طريقه.

أى كما واجه نوح المشاكل بصبر و استقامه لسنين طوال ليهدى قومه إلى الإيمان، فعليك يا نبي الإسلام أن لا تدع الصبر و الاستقامه على كل حال! و الآن نودع قصّه نوح بكل ما تحمل من عبر و أعاجيب، و نتوجه إلى نبي عظيم آخر و هو هود الذى سمّيت هذه السوره باسمه.

اشاره

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

التفسير

اشاره

محطم الأصنام الشجاع:

كما أشرنا آنفاً، فإن قصص خمسة أنبياء عظام و ما واجهوه من شدائد و صعاب في دعواتهم و النتائج المترتبة عليها مبين في هذه السوره. و في الآيات السابقه كان الكلام حول نوح عليه السلام و أما الآن فالحديث عن هود عليه السلام.

جميع هؤلاء الأنبياء جمعهم هدف واحد و منطق واحد، و جميعهم نهضوا لإنقاذ البشرية من كل أنواع الأسر، و لدعوتهم إلى التوحيد بجميع أبعاده.

و كان شعارهم جميعاً الإيمان و الإخلاص و الجِد و المثابره و الاستقامه في سبيل الله، و كان رد الفعل من أقوامهم الخشونه و الإرهاب و الضغوط..

يقول سبحانه فى الآيه الأولى من هذه القصه.. وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا وَ نلاحظ فى الآيه أنها و صفت هودا بكونه «أخاهم».

و هذا التعبير جار فى لغه العرب. حيث يطلقون كلمه أخ على جميع أفراد القبيله لانتسابهم إلى أصل واحد..

فمثلا يقولون فى الأسدى «أخو أسد» و فى الرجل من قبيله مذحج «أخو مذحج».

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معامله هود لهم كانت أخويه بالرغم من كونه نبيا، و هذه الحاله هى صفة الأنبياء جميعا، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامه و القياده أو معامله أب لأبنائه، بل من منطق أنّهم إخوه لهم..

معامله خاليه من أيه شائبه و اى امتياز أو استعلاء.

كان أول دعوه هود- كما هو الحال فى دعوه الأنبياء جميعا- توحيد الله و نفى الشرك عنه قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ .

فهذه الأصنام ليست شركاءه، و لا منشأ الخير أو الشرّ، و لا يصدر منها أى عمل، و أى افتراء أعظم و أكبر من نسبتكم كل هذا المقام و التقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التى لا قيمه لها إطلاقا.

ثمّ يضيف هود قائلا- لقومه: لا- تتصوروا أن دعوتى لكم من أجل الماده، فأنا لا أريد منكم أى أجر يا قوم لا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا فَأَجْرِي وَحْدَهُ عَلَىٰ مِنْ فَطَرَنِي وَ وَهَبَنِي الرُّوحَ وَ أَنَا مَدِينٌ لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فهو الخالق و الرازق إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي .

و أساسا فإنّى فى كل خطوه أخطوها لسعادتكم، إنّما أفعل ذلك طاعه لأمره، و لذلك ينبغى طلب الأجر منه وحده لا منكم، و إضافه إلى ذلك فهل لديكم شىء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه أ فلا تَعْقُلُونَ .

ثمّ شرع هود ببيان الأجر المادى للإيمان لغرض التشويق و الاستفادة من

جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق في قومه الظالمين فَيَبِينُ أَنَّ هَذَا الْأَجْرَ الْمَادِي مَشْرُوطٌ بِالْإِيمَانِ فَيَقُولُ: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١) لثلا- تصاب مزارعكم بقله الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمره دائما، وزياده على ذلك فَإِنَّ اللَّهَ بِسَبَبِ تَقْوَاكُمْ وَابْتِعَادِكُمْ عَنِ الذُّنُوبِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ يَرْعَاكُمْ وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ .

فلا- تتصوروا أَنَّ الإِيمَانَ وَالتَّقْوَى يَضَعِفَانِ مِنْ قُوَّتِكُمْ أَبَدًا، بَلْ إِنَّ قُوَاكُمْ الْجَسْمِيَّةَ سَتَزِدُّكُمْ بِالْإِسْتِفَادَةِ مِنَ الْقُوَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.. وَبِهَذَا الدَّعْمِ الْمَهْمِ سَتَقْدِرُونَ عَلَى عِمَارَةِ الْمَجْتَمَعِ وَبِنَاءِ حَضَارَتِهِ كَبِيرَةٍ وَ أُمَّةٍ مَقْتَدِرَةٍ تَتَمَتَّعُ بِاِقْتِصَادٍ قَوِيٍّ وَ شَعْبٍ حُرٍّ مُسْتَقِلٍّ، فَعَلَى هَذَا إِيَّاكُمْ وَ الْإِبْتِعَادَ عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ .

بحوث

إشارة

١- التوحيد أساس دعوة الأنبياء:

يبين تاريخ الأنبياء أَنَّهُمْ بَدَأُوا دَعْوَتَهُمْ جَمِيعًا مِنَ التَّوْحِيدِ وَ نَفَى الشِّرْكَ وَ نَفَى عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ أَيَّا كَانَتْ، وَ الْوَاقِعَ فَإِنَّ أَى إِصْلَاحٍ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَا يَتَسَرَّرُ بِغَيْرِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، لِأَنَّ وَحْدَةَ الْمَجْتَمَعِ وَ التَّعَاوُنَ وَ الْإِثَارَ كُلَّهَا أُمُورٌ تَسْتَرْفِدُ مِنْ مَنَعٍ وَاحِدٍ وَ هُوَ تَوْحِيدُ الْمَعْبُودِ.

و أما الشرك فهو أساس كل فرقه و تعارض و تضاد و أنانيه..و ما إلى ذلك..

و ارتباط هذه المفاهيم بالشرك و عبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على

ص: ٥٥٩

١- ١) «المدرار» كما وضحنا سابقا مشتق من «در» و هو انصباب حليب الأثداء، ثم استعمل في انصباب المطر، و الطريق في الآيه أَنَّهُ لَا- تعبر ب«ينزل المطر من السماء» بل قالت: يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا بِمَعْنَى أَنَّ الْمَطَرَ يَهْطَلُ إِلَى دَرَجِهِ غَزِيرَةً حَتَّى كَأَنَّ السَّمَاءَ تَهْطَلُ، وَ مَلَا حِظَّهُ أَنَّ مِدْرَارًا صَيْغُهُ مَبَالِغُهُ أَيْضًا فَيَسْتَفَادُ غَايَةَ التَّوَكُّيدِ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ.

أحد! الشخص الذى يدور حول نفسه-أو يجزّ النَّار إلى قرصه-يرى نفسه فحسب، و لهذا فهو مشرك، لأنّ التوحيد يذيب «الانا» و الذات الفرديه فى محيط اجتماعى واسع عريض، و الموحّد لا يرى شيئاً سوى واحد كبير، أى أن جميع المجتمع الإنسانى عباد الله! و الأشخاص الذين يطلبون الاستعلاء مشركون من نوع آخر، فهم فى صراع مع أبناء جلدتهم و يرون منافعهم منفصله عن منافع الآخرين، فهذا التجزؤ أو «هذه الازدواجيه» ليس إلا شركا فى أوجه مختلفه.

من هنا بدأ الأنبياء فى سبيل إصلاح المجتمع بالدعوه الى توحيد المعبود «الله»، ثمّ توحيد الكلمه، و توحيد العمل، و توحيد المجتمع.

٢-قاده الحق لا يطلبون أجرا من أتباعهم.

إنّ الزعيم الواقعى يمكنه أن يكون فى مأمن من أى اتهام و يواصل طريقه فى غايه الحريه فى صورته ما لو لم تكن له حاجه مادّيه، فبذلك يستطيع أن يصحح كل انحراف فى أتباعه، و إلا فإنّ الحاجه المادّيه بالنسبه لهذا المصلح ستكون غلّا تصفّد به يداه و رجلاه و قفلا على لسانه و فكره.

و من هذا الطريق.. طريق الحاجه المادّيه يدخل المنحرفون لممارسه ضغوطهم عليه عن طريق قطع المساعدات الماديه أو عن طريق الإغراء بزياده المساعدات، و مهما يكن الزعيم و القائد نقياً صافياً و مخلصاً فهو انسان-أيضاً- و من الممكن أن تزل قدماه و لهذا السبب نقرأ فى الآيات الآنفه-و آيات أخرى من القرآن-أنّ الأنبياء يعلنون بصراحه فى بدايه دعوتهم أنّه ليست لهم حاجه ماديه و لا ينتظرون من أتباعهم الأجر.

و هذا دستور لجميع القاده و لا سيما القاده الروحانيين و رجال الدين، غايه ما

فى الأمر لما كان هؤلاء المصلحون و رجال الدين يقضون أوقاتهم فى خدمه الإسلام و المسلمين، فىنبغى أن تؤمن حاجاتهم الماديه بطريق صحيح، و أن يقوم صندوق الإعانه و بيت مال المسلمين بتكفل هذه الجماعه، فإن واحدا من أغراض إنشاء بيت المال فى الإسلام هو هذا الغرض، أى ليصرف على رجال الدين المنشغلين بالإصلاح و التبليغ.

٣- الذنب و هلاك المجتمعات

كما نرى أيضا فى الآيات المتقدمه- أن القرآن يقيم رابطه بين المسائل المعنويه و الماديه، فيعد الاستغفار من الذنب و التوبه إلى الله أساس العمران و الخصب و الخضره و النضره و زياده فى القوه و الاقتدار.

هذه الحقيقه نلمسها فى كثير من آيات القرآن الكريم، من هذه الآيات ما ورد فى سوره نوح على لسان هذا النبى العظيم لقومه، حيث تقول الآيات فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١).

الطريف هنا أننا نقرأ فى الروايات الإسلاميه

أن الربيع بن صبيح قال: كنت عند الحسن بن على عليهما السلام فجاءه رجل و شكاه من الجذب و القحط، فقال له الحسن عليه السلام:

استغفر الله، فجاءه آخر فشكا له من الفقر، فقال: استغفر الله، فجاءه ثالث و قال له:

ادع لى أن يرزقنى الله ولدا، فقال الحسن عليه السلام: استغفر الله، يقول الربيع بن صبيح:

فتعجبت و قلت له: ما من أحد يأتيك و يشكو إليك أمره و يطلب النعمه إلا أمرته بالاستغفار و التوبه إلى الله..

فأجابه: «إن ما قلته لم يكن من نفسى، و إنما استفدت ذلك من كلام الله الذى يحكيه

ص: ٥٦١

عن لسان نبيّه نوح»، ثمّ تلا الآيات المتقدمه. (١)

بعض الأشخاص اعتادوا على المرور بهذه المسائل مرور الكرام بأن يقيمون ارتباطا معنويا و علاقته «غير معروفه» بين هذه الأمور و يريحون أنفسهم من كل تحليل. و لكن إذا دققنا النظر أكثر نجد بين هذه الأمور علائق متقاربه تشد المسائل الماديه بالمعنويه فى المجتمع كالخيط الذى يربط بين قطع القماش مثلا.

فأىّ مجتمع يكون ملوئا بالذنب و الخيانه و النفاق و السرقة و الظلم و الكسل و أمثال ذلك، ثمّ يكون هذا المجتمع عامرا كثيرا البركات؟! و أىّ مجتمع ينزع عنه روح التعاون و يلجأ إلى الحرب و النزاع و سفك الدماء، ثمّ تكون أرضه خصبه خضراء، و يكون مرفها فى وضعه الاقتصادى أيضا؟! و أىّ مجتمع يغرق أفراده فى دوامه الهوى و الميول النفسيه، ثمّ فى الوقت ذاته يكون قويا راسخ القدم و يثبت أمام عدوّه؟! ينبغى القول بصراحه أنّه ما من مسأله أخلاقيه إلّا و لها أثر مفيد و نافع فى حياه الناس الماديه، و لا يوجد اعتقاد و إيمان صحيح إلّا و كان لهما نصيب فى بناء مجتمع عامر حرّ مستقلّ و قوى..

الافراد الذين يفصلون المسائل الأخلاقيه و الإيمان بالدين و التوحيد عن المسائل الماديه لا يعرفون المسائل المعنويه حقّا و لا المسائل الماديه.

و إذا كان الدين عبارته عن سلسله من التشريعات و الآداب الظاهريه و الخاليه من المحتوى بين الناس، فمن البديهي أن لا يكون له تأثير فى النظام المادى.

و لكن حين تكون الإعتقادات المعنويه و الروحانيه نافذه فى روح الإنسان إلى درجه تظهر آثارها على يده و رجله و لسانه و أذنه و عينه و جميع ذرات وجوده، فإنّ الآثار البنّاءه لهذه الإعتقادات فى المجتمع لا تخفى على أحد.

و قد لا نستطيع إدراك علاقته الاستغفار بنزول البركات الماديه جيدا، و لكن

ص: ٥٦٢

دون شك فإنّ قسما كبيرا منها يمكن أن ندرکه! لقد شاهدنا في مواجهات المسلمين الثائرين مع الكفار في هذا العصر و الزمن- جيدا- أنّ الإعتقادات الإسلاميه و القوى الأخلاقيه و المعنويه استطاعت أن تنتصر على أحدث الأسلحه المعاصره و أقوى الجيوش و القدرات الاستعماريه، و إن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدل على أثر العقائد الدينيه الإيجابيه و المعنويه إلى أقصى حدّ في المسائل الاجتماعيه و السياسيه.

٤- ما المراد من قوله تعالى: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ .

إنّ الظاهر من هذه الآيه أنّ الله سبحانه يزيدكم من خلال الاستغفار قوه بالإضافه إلى قوتكم، يشير بعض المفسرين إليه أنّ المراد من هذه القوه هي القوه الإنسانيه كما مرّ ذلك في سوره نوح: وَ يُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنّها القوى الماديه تضاف إلى القوه المعنويه. و لكنّ تعبير الآيه مطلق و هو يشمل أى زياده في القوى الماديه و المعنويه، و لا يعارض أيّا من التفاسير، بل يحتضنها جميعا..

إشارة

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنَّ نَقُولُ إِلَّا إغْرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ
قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ
رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصَةِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ
يَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)

التفسير

إشارة

قوة المنطق:

و الآن لننظر ماذا كان رد فعل القوم المعاندين و المغرورين-قوم عاد-مقابل نصائح أخيهم هود و توجيهاته إليهم: قالوا يا هود ما
جئنا ببينة أي لم تأتنا بدليل مقنع لنا و ما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك الذي تدعونا به إلى عبادة الله

و ترك الأوثان و ما نحن لك بمؤمنين .

و أضافوا إلى هذه الجمل الثلاث غير المنطقيه، أنك يا هود مجنون و إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء و لا شك أن هودا- كأي نبي من الأنبياء-أدى دوره و وظيفته و أظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته،و لكنهم لغرورهم-مثل سائر الأقسام-أنكروا معارجه و عدوها سحرا و عباره عن سلسله من المصادفات و الحوادث الاتفاقيه التي لا يمكن أن تكون دليلا على المطلوب.

و أساسا،فإن نفى عباده الأوثان لا- يحتاج إلى دليل،و من يكن له أقل شعور و عقل-و يترك المخاصمه-يدرك هذا الأمر جيدا،و لو فرضنا أن ذلك يحتاج إلى دليل،فهل يحتاج إلى معجزه بعد الدلائل العقلية و المنطقيه..؟! و بتعبير آخر فإن ما جاء في دعوه هود-في الآيات المتقدمه-هو الدعوه إلى الله الواحد الأحد،و التوبه إليه و الاستغفار من الذنوب،و نفى أى نوع من أنواع الشرك و عباده الأوثان،كل هذه المسائل يمكن إثباتها بالدليل العقلي.

فعلى هذا،إن كان المقصود من قولهم: ما جئنا ببينه هو نفى الدليل العقلي، فكلامهم هذا غير صحيح قطعاً.و إذا كان المقصود هو نفى المعجزه،فإن هذا الادعاء لا يحتاج إلى معجزه.و على كل حال فإن قولهم: و ما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك دليل على لجاجتهم،لأن الإنسان العاقل و الباحث عن الحقيقه يتقبل الكلام الحق من أى كان.

و خصوصا هذه الجمله إن نقول إلا- اعتراك بعض آلهتنا بسوء فإنهم يتهمونه بالجنون على أثر غضب آلهتهم!فإن هذا الكلام منهم دليل على خرافه منطقهم، و خرافه عباده الأصنام! فالحجاره و الأخشاب التي ليس فيها روح و لا شعور و التي تحتاج إلى حمايه من الإنسان نفسه،كيف تستطيع أن تسلب العقل و الشعور من الإنسان العاقل؟! أضف إلى ذلك،ما دليلهم على جنون هود إلا أنه كسر طوق«السنه المتبعه

عندهم» و كان معارضا للسنن و الآداب الخرافيه فى محيطه، فإذا كان هذا هو الجنون فينبغى أن نعدّ جميع المصلحين و الثائرين على الأساليب الخاطئه مجانين.

و ليس هذا جديدا، فالتاريخ السالف و المعاصر ملئ بنسبه الجنون إلى الأشخاص الثائرين على الخرافات و العادات السيئه و المواجهين للاستعمار، و النافذين أثواب الأسر.

على كل حال، فإنّ على هود أن يردّ على هؤلاء الضالّين اللجوجين ردا مقرونا بالمنطق، من منطلق القوه أيضا.. يقول القرآن فى جواب هود لهم قال إني أشهد الله و أشهدوا أنني برىء مما تُشركون .

يشير بذلك إلى أن الأصنام إذا كانت لها القدره فاطلبوا منها هلاكى و موتى لمحاربتى لها علنا فعلام تسكت هذه الأصنام؟ ماذا تنتظر بي؟ ثم يضيف أنه ليست الأصنام وحدها لا تقدر على شىء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرّون على شىء، فإذا كنتم قادرين فكيدونى جميعاً ثم لا تُنظرون .

فأنا لا- ترد عنى كشرتكم و لا- أعدّها شيئا، و لا- أكثرث بقوتكم و قِدرتكم أبدا، و أنتم المتعطشون لدمى و لديكم مختلف القدرات، إلا أننى واثق بقدره فوق كل القدرات، و إني توكلت على الله ربى و ربكم .

و هذا دليل على أننى لا- أقول إلا الحق و الصدق، و أن قلبى مرتبط بعالم آخر، فلو فكرتم جيدا لكان هذا وحده معجزا حيث ينهض إنسان مفرد و حيد بوجه الخرافات و العقائد الفاسده فى مجتمع قوى و متعصب، لكنّه فى الوقت ذاته لا يشعر فى نفسه بالخوف منهم، و لا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثم يضيف:

لستم وحدكم فى قبضه الله، فإنه ما من دابّه إلا هو أخذ بناصيتها، فما لم يأذن به الله، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئا.

و لكن اعلّموا أيضا أنّ ربى القدير ليس كالأشخاص المتقدرين الذين يستخدمون قدرتهم للهوى و اللعب و الأنانيه و فى غير طريق الحق، بل هو الله

الذى لا يفعل إلا الحكمه و العدل إِنَّ رَبِّي عَلِيٌّ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

ملاحظات

الأولى: إنَّ «الناصيه» فى اللغه معناها الشعر المسترسل على الجبهه، و هى مشتقه من «نصا» و معناها الاتصال و الارتباط، و أخذ بناصيه فلان «كنايه عن القهر و التسلط عليه» فما ورد فى الجملة السابقه من الآيه من قول الحق سبحانه:

مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا

إشاره إلى قدرته القاهره على جميع الأشياء بحيث لا شىء فى الوجود له طاقه المقاومه قبال هذه القدره، لأنَّ من أحكم الإمساك على شعر مقدم الرأس من الإنسان أو أى حيوان آخر، فإنه يسلب منه القدره على المقاومه عاده.

و الغرض من هذه العبارة أنَّ المستكبرين المغترين و عبده الأوثان و الظالمين الباحثين عن السلطه لا يتصوروا أنه إذا أخلى لهم الميدان لعدّه أزيام فذلك دليل على قدرتهم على المقاومه أمام قدره الله، فعليهم أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقه و أن ينزلوا من مركب غرورهم.

الثانيه: إنَّ جملة رَبِّي عَلِيٌّ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ من أروع التعابير فى الحكايه عن قدره الله المقترنه بعدله، لأنَّ المقتدرين فى الغالب ظالمون و متجاوزون للحدود، و لكن الله سبحانه مع قدرته التى لا نهايه لهم فهو دائما على صراط مستقيم، و جاده صافيه و نظم و حساب و دقه!.

كما ينبغى الانتباه الى هذه المسأله الدقيقه، و هى أنَّ كلام هود عليه السلام للمشركين كان يبين هذه الحقيقه، و هى أنَّ الأعداء مهما لجوا فى عنادهم و زادوا من لجاجتهم فإنَّ القائد الحق ينبغى أن يزيد من استقامته! فكما أن قوم هود خوَّفوه بشدّه من آلهتهم و «أوثانهم»، فإنَّ هودا فى المقابل أنذرهم بنحو أشدّ من قدره الله

القاهره! ثم أن هود قال لقومه في آخر كلامه معهم كما تحكيه الآيه فإن تولّوا فقد أبلغناكم ما أرسلت به إليكم .

إشاره إلى أن لا يتصوروا أن هودا سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنه أدى واجبه و وظيفته، و أداء الواجب انتصار بحد ذاته حتى لو لم تقبل دعوته، و هذا درس لجميع القاده الحقيقيين و أئمه طريق الحق ألا يحسّوا أبدا بالتعب و القلق من أعمالهم، و إن لم يقبل الناس دعوتهم.

و كما هدد القوم هودا، فإنه هددهم بأشد من تهديدهم، و قال: إن لم تستجيبوا لدعوتي فإن الله سيبيدكم في القريب العاجل و يستخلف ربّي قوماً غيركم .

هذه سنه الله في خلقه و قانونه العام، إنه متى كان قوم غير لائقين لاستجابته الدّعوه و الهدايه و النعم الأخرى التي أنعمها عليهم فإنه سيبيدهم و يستخلف قوما لائقين بمكانهم إن ربّي على كل شيء حفيظ .

فلا- تفوته الفرصه، و لا- يهمل أنبياءه و محبيه، و لا يعزب عنه مثقال ذره من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شيء و قادر على كل شيء .

ص: ٥٦٨

اشاره

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمِهِ مِذًا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتَلَمَّكَ عَادٌ جَحِيدُوا بِالآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ
عَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَهُ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ
هُودٍ (٦٠)

التفسير

اشاره

اللعن الأبدى على القوم الظالمين:

في آخر الآيات التي تتحدث عن قصه قوم عاد و نبيهم هود اشاره إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ توكّد أيضا نجاه المؤمنين وَ نَجَّيْنَاهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

الطريف هنا أنّ الآيات قبل أن تذكر عقاب الظلمه و الكافرين و مجازاتهم، بينت نجاه المؤمنين و خلاصهم، لئلا يتصور أنّ
العذاب الإلهي إذا نزل يحرق الأخضر و اليابس معا لأنّ الله عادل و حكيم و حاشاه أن يعذب و لو رجلا مؤمنا بين جماعه كفره
يستحقون العذاب و العقاب.

لكن رحمه الله تنقل هؤلاء الأشخاص قبل نزول العذاب إلى محل آمن كما

رأينا من قبل في قصه نوح أنه قبل شروع الطوفان كانت سفينه النجاه قد أعدت للمؤمنين، و قبل أن ينزل العذاب على قوم لوط و يدمر مدنهم خرج لوط و عدد معدود من أصحابه من المدينه ليلا بأمر الله.

و في قوله تعالى: نَجِّينًا و تكرار هذه الكلمه في الآيه مرتين أقوال مختلفه للمفسرين، ف«نجينا» الأولى تعنى خلاصهم من عذاب الدنيا و«نجينا» الثانيه تعنى نجاتهم في المرحله المقبله من عذاب الآخره، و ينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظه أيضا.

و يشير بعض المفسرين إلى مسأله لطيفه هنا، و هى أن الكلام لما كان على رحمه الله فمن غير المناسب أن تتكرر كلمه العذاب مباشره، فأين الرحمه من العذاب؟ لذلك تكررت كلمه «نجينا» لتفصل بين الرحمه و العذاب دون أن ينقص شىء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغى الالتفات إلى هذه المسأله الدقيقه أيضا، و هى أن آيات القرآن و صفت العذاب بالغليظ فى أربعة موارد (1).

و بملاحظه تلك الآيه بدقه نستنتج أن العذاب الغليظ مرتبط بالدار الأخرى، و خصوصا الآيات التى جاءت فى سوره ابراهيم و ذكر فيها العذاب الغليظ، فإنها تصف بصراحه حال أهل جهنم و أهوالها، و هكذا أن يكون، و ذلك لأن عذاب الدنيا مهما كان شديدا فإنه أخف من عذاب الآخره! و هناك تناسب ينبغى ملاحظته أيضا، و هو أن قوم عاد- كما سيأتى بيان حالهم إن شاء الله- ورد ذكرهم فى سوره القمر. و الحاقه، و كانوا قوما ذوى أبدان طوال خشنين، فشبهت أجسامهم بالنخل، و لهذا السبب كانت لديهم عمارات عاليه عظيمه، بحيث نقرا فى تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا ينسبون البناءات الضخمه و العاليه إلى عاد و يقولون مثلا: «هذا البناء عادى» لذلك كان عذابهم

ص : ٥٧٠

(١- ١) و هى فى السور التاليه: ١- ابراهيم، الآيه ٧؛ ٢- لقمان، الآيه ٣٤؛ ٣- فصلت، الآيه ٥٠؛ ٤- هود، الآيه ٥٦.

مناسبا لهم لا فى العالم الآخر بل فى هذه الدنيا كان عذابهم خشنا و عقابهم صارما، كما مرّ فى تفسير السور الآنفه الذكر.

ثم تلخص الآيات ذنوب قوم عاد فى ثلاثه مواضع:

الأول: بإنكارهم لآيات الله و عنادهم أيضا لم يتركوا دليلا واضحا و سندا بينا على صدق نبوه نبيهم إلا جحدوه و تَلَكَّ عَادُ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .

و الثانى: إنهم من الناحيه العمليه لم يتبعوا أنبياء الله و عَصَوْا رُسُلَهُ و إنما جاءت الرسل بصيغه الجمع، إما لأن جميع دعوات الأنبياء هى نحو حقيقه واحده و هى «التوحيد: و فروعه» فإنكار دعوه نبى واحد يعدّ إنكارا لجميع الأنبياء، أو أن هودا دعاهم للإيمان بنبوه الأنبياء السابقين أيضا،؟ و كانوا ينكرون ذلك.

و الثالث من الذنوب: إنهم تركوا طاعه الله و مالوا لكل جبار عنيد و اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

فأى ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، و مخالفه الأنبياء، و الخضوع لطاعه كل جبار عنيد.

و«الجبار» يطلق على من يضرب و يقتل و يدمر من منطلق الغضب و لا يتبع أمر العقل، و بتعبير آخر هو من يجبر سواه على أتباعه و يريد أن يغطى نقصه بادعاء العظمه و التكبر الظاهرى.

و«العنيد» هو من يخالف الحق و الحقيقه أكثر ممّا ينبغى، و لا يرضخ للحق أبدا.

هاتان الصفتان تتجلّيان فى الطواغيت و المستكبرين فى كل عصر و زمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبدا و يعمدون الى من يخالفهم بانزال أشد انواع العقاب به بلا رحمه.

هنا يرد سؤال: إذا كان الجبار يعطى هذا المعنى فلما ذا ذكرت هذه الصفه لله، كما فى سوره الحشر الآيه (٢٣) و سائر المصادر الإسلاميه.

و الجواب هو أنّ «الجبار» - كما أشرنا آنفا- مشتقّ إمّا من «الجبر» بمعنى القوّه

و القهر و الغلبه، أو من ماده «الجبران» و معناه: إزاله النقص من شىء.

و لكن «الجبار» سواء كان بالمعنى الأول أو الثانى فهو يستعمل بشكليه، و قد يراد به الذم إذا حاول الإنسان تجاوز النقص الذى فيه باستعلائه على الغير و تكبره و بالادعاءات الخاطئه، أو أنه يحاول أن يجبر غيره على أن يكون تحت طاعته و رغبته، فيكون الأخير ذليلاً لأمره.

هذا المعنى ورد فى كثير من آيات القرآن الكريم، و أحيانا تقترن معه صفات ذميمة أخرى، كالأية المتقدمه التى اقترنت مع كلمه «عنيد» و فى الآية (٣٢) من سوره مريم نقرأ على لسان عيسى بن مريم رسول الله وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا كما نقرأ على لسان بنى إسرائيل فى خطابهم لموسى عليه السلام فى من سكن بيت المقدس من الظالمين حيث ورد فى الآية (٢٢) من سوره المائده قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ .

و لكن قد تأتى كلمه «الجبار» من هذين الجذرين «الجبر» و «الجبران» و هى بمعنى المدح، و تطلق على من يسد حاجات الناس و يرفع نقصانهم و يربط العظام المتكسره، أو أن تكون له قدره وافر بهيئ يكون الغير خاضعا لقدرته، دون أن يظلم أحداً أو يستغل قدرته ليسىء الاستفاده منها، و لذلك حين تكون كلمه الجبار بهذا المعنى فقد تقترن بصفات مدح أخرى، كما نقرأ فى سوره الحشر الآية (٢٣) أَلَمْ لِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ و واضح أن صفات كالقدوس و السلام و المؤمن لا- تنسجم مع «الجبار» بمعنى الظالم أو «المتكبر» بمعنى من يرى نفسه أكبر من غيره، و هذا التعبير يدل على أن المراد هنا من «الجبار» هو المعنى الثانى.

و لكن حيث أن البعض فسروا «الجبار» ببعض معانيه دون الالتفات إلى معانيه المتعدده فى اللغه، تصوّروا أن استعمال هذا اللفظ غير صحيح فى شأن الله، و كذلك فى ما يخص لفظ «المتكبر» و لكن بالرجوع إلى جذورهما اللغويه الأصيله يرتفع

و فى الآيه الأخيره التى تنتهى بها قصه «هود» و قومه «عاد» بيان لتتيجه أعمالهم السيئه و الباطله حيث تقول الآيه: وَ اتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ بعد الموت لا يبقى إلا خزيهم و الصيت السيء وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ

و كان يكفى تعريف هذه الجماعه بلفظ «عاد» و لكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضا لتؤكد عليهم أولا، و لتشير الى أنهم القوم الذين آذوا نبينهم الناصح لهم ثانيا، و لذلك فقد أبعدهم الله عن رحمته.

بحثان

اشاره

١- قوم عاد من منظر التاريخ

بالرغم من أنّ بعض المؤرّخين الغربيين كـ «أسبرينكل» أرادوا أن ينكروا قصه «عاد» من الناحيه التاريخيه، و ربّما كان ذلك بسبب عدم توفر ذكر لهم فى غير الآثار الإسلاميه، و لم يجدوها فى كتب العهد القديم «التوراه» و لكن هناك وثائق - تشير إلى قصه عاد- مشهوره إجمالا- بين العرب فى زمن الجاهليه، و قد ذكرهم شعراء العرب قبل الإسلام، و حتى فى العصر الجاهلى كانوا يطلقون لفظ «العادى» على البناء العالى و القوى نسبه إلى عاد.

و يعتقد بعض المؤرّخين أنّ لفظ «عاد» يطلق على قبيلتين:

إحداهما: قبيله كانت تقطن الحجاز قبل التاريخ ثم زالت و زالت آثارها أيضا،

ص: ٥٧٣

١- ١) يراجع فى هذا الصدد تاج العروس للزبيدى و المفردات للراغب ماده (جبر) و (كبر) و مجمع البيان و تفسير البيان ذيل الآيه محل البحث و آيات سوره الحشر الأخيره.

و لم ينقل التاريخ البشرى عنها إلا أساطير لا يطمأن إلى صحتها.و التعبير الوارد فى القرآن «عادا الأولى» إشاره إلى هذه القبيله.

و لكن فى زمن التاريخ-و من المحتمل أن يكون فى حدود ٧٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح-وجد قوم آخرون باسم «عاد» قطنوا الأحقاف أو اليمن أيضا.و كان أولئك طوالا جساما أقوياء مقتدرين،و لذلك كانوا يعدون من مشيرى الحروب.

كما أنهم كانوا من الناحيه الحضاريه متمدينين، إذ كانت لهم مدن عامره و أراضي خصبه خضراء و غابات نصره، كما وصفوا فى القرآن...الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ .

و لذلك يقول بعض المؤرخين «المستشرقين»: إن «عادا» كانت تقطن فى حدود «برهوت» إحدى نواحي حضر موت اليمن،و على أثر البراكين و جبال النار التى حولها دمرت الكثير من قراهم و مدنهم و تفرقت بقاياهم.

على كل حال فإن هؤلاء القوم كانوا يعيشون فى نعم و ترف،و لكن كما هى طريقه أغلب المتنعمين الغافلين و السكارى من أثر النعمه استغلوا قدرتهم لظلم الآخرين و استثمارهم و استعمارهم.. و اتبعوا أمر كل جبار عنيد،و أقروا عباده الأوثان.

و حين دعاهم نبيهم هود عليه السلام بكل ما أوتى من جهد وجد ليضىء أفكارهم بنصحه و مواعظه،و يتم الحجه عليهم،لم يكتفوا بإهمال هذه الدعوه فحسب،بل نهضوا لإسكات هذا الصوت التير لهذا النبى العظيم فمره نسبه إلى السفاهه و الجنون،و مره هددوه بغضب آلهم،و لكنّه وقف صامدا أمامهم كالجبل لا يخشى غضب هؤلاء القوم المغرورين الأقوياء،حتى استطاع أن يكتسب منهم جماعه تقدّر بأربعه آلاف و طهر قلوبهم و دعاهم إلى منهاجه و عقيدته،لكن بقى الآخرون مصرّين على عنادهم و لجاجتهم.

و أخيراً- كما سيأتي في سورة الذاريات و الحاقه و القمر- غمرهم إعصار شديد لمدّه سبعة ليال و سته أيام جسوما فأتى على قصورهم فدمرها و على أجسادهم فجعلها كأوراق الخريف و فرقها تفريقا، و لكن هود كان قد أبعده المؤمنين عن هؤلاء و نجاهم من العذاب، و أصبحت حياه أولئك القوم و مصيرهم درسا كبيرا و عبره لكل الجبابره و الأنانيين (١).

٢- اللعن الدائم الأبدى على «عاد»:

هذا التعبير و ما شابهه ورد في آيات متعددة من القرآن الكريم في شأن أمم مختلفه، حيث يقول الله سبحانه بعد ذكر أحوالهم، كما في سورة هود الآية ٦٨:

أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ و في آيه أخرى (٨٩) هود أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ و في سورة المؤمنون، الآية (٤١) فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و في آيه أخرى (٤٤) المؤمنون فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ و كما قرأنا في قصه نوح من قبل في هود الآية (٤٤) وَ قِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

ففي جميع هذه الآيات جاء اللعن شعارا لمن أذنبوا ذنبا عظيما، و يدور هذا اللعن مدار بعدهم عن رحمه الله.

و غالبا ما يطلق اليوم مثل هذا الشعار على المستعمرين و المستكبرين و الظالمين، غايه ما في الأمر أن هذا الشعار القرآني أخذ و طريف إلى درجه أنه غير ناظر إلى بعد واحد فحسب. لأننا حين نقول مثلا: بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فإنّ هذا التعبير يشمل الابتعاد عن رحمه الله، و الابتعاد عن السعاده، و عن كل خير و بركه و نعمه، و عن كونهم عبادا لله، طبعاً ابتعادهم عن الخير و السعاده هو انعكاس

ص: ٥٧٥

لابتعادهم فى نفوسهم و أرواحهم و محيط عملهم عن الله و خلق الله، لأن كل فكره و عمل له أثر فى الدار الآخرة يشابه ذلك العمل تماما و لذلك فإنّ ابتعادهم هذا فى هذه الدنيا أساس ابتعادهم فى الآخرة عن رحمة الله و عفوه و مواهبه السنيه (1).

ص: ٥٧٤

١ - ١) إنّ كلمه «بعدا» من الناحيه النحويه مفعول مطلق للجمله المقدره (المحذوفه) «أبعدهم الله» و على القاعده ينبغى أن يكون هذا المفعول المطلق للجمله المقدره (إبعادا، لا بعدا) لأنه مصدر «أبعد» لكن قد يأتى المصدر الثلاثى مكان الرباعى كما فى قوله تعالى: وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِبَاتٍ .

اشاره

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ثُمَّ تَوْبُوا
إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١)

التفسير

اشاره

قصه ثمود:

انتهت قصه «عاد قوم هود» بجميع دروسها بشكل مضغوط، و جاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا في وادي القرى بين المدينة و الشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

و نرى هنا أيضا أنّ القرآن حين يتحدث عن نبيهم «صالح» يذكره على أنه أخوهم، و أى تعبير أروع و أجمل منه حيث بينا قسما من محتواه فى الآيات المتقدمه، أخ محترق القلب و دود مشفق ليس له هدف إلا الخير لجماعته و إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .

و نجد أيضا أنّ منهج الأنبياء جميعا يبدأ بمنهج التوحيد و نفى أى نوع من أنواع الشرك و عباده الأوثان التى هى أساس جميع المتاعب قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا

و لكي يحرك إحساسهم بمعرفه الحق أشار إلى عدد من نعم الله المهمه التي استوعبت جميع وجودهم فقال: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ .

فأين هذه الأرض و التراب الذى لا قيمه له، و أين هذا الوجود العالى و الخلقه البديعه؟ ترى هل يجيز العقل أن يترك الإنسان خالقه العظيم الذى لديه هذه القدره العظيمه و هو واهب هذه النعم، ثم يمضى إلى عباده الأوثان التي تثير السخرية.

ثم يذكر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمه الخلقه بنعم أخرى موجوده فى الأرض حيث قال: وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .

و أصل «الاستعمار» و «الإعمار» فى اللغه يعنى تفويض عماره الأرض لأى كان، و طبيعى أن لازم ذلك يجعل الوسائل و الأسباب فى اختيار من يفوض إليه ذلك تحت تصرفه! هذا ما قاله أرباب اللغه، كالراغب فى المفردات، و كثير من المفسرين فى تفسير الآيه المتقدمه.

و يرد احتمال آخر، و هو أن الله منحكم عمرا طويلا- فى هذه الأرض، و بديهي أن المعنى الأول و بملاحظه مصادر اللغه هو الأقرب و الأصح كما يبدو.

و على كل حال فهذا الموضوع يصدق بمعنييه فى ثمود، حيث كانت لديهم أراض خصبه و خضراء و مزارع كثيره الخيرات و البركات، و كانوا يبذلون فى الزراعه ابتكارات و قدرات واسعه، و إلى ذلك كله كانت أعمارهم مديده و أجسامهم قويه و كانوا متطورين فى بناء المساكن و البيوت، كما يقول القرآن الكريم: وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (١) .

الطريف هنا أن القرآن لم يقل: إِنَّ اللَّهَ عَمَّرَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَهَا تَحْتَ تَصْرَفِكُمْ،

ص: ٥٧٨

و إنما قال: و فوّض إليكم إعمار الأرض و استعمركم فيها و هي إشارة إلى أنّ الوسائل معدّه فيها لكل شىء و عليكم إعمارها بالعمل و السعى المتواصل و السيطرة على مصادر الخيرات فيها. و بدون ذلك لا حظ لكم فى الحياه الكريمه.

كما استفاد ضمنا أنّه ينبغي من أجل الإعمار أن يعطى المجال لأّمه معينه فى العمل، و تجعل الأسباب و الوسائل اللازمه تحت تصرفها و فى اختيارها.

فإذا كان الأمر كذلك فاستغفروه ثمّ توبوا إليه إنّ ربّي قريبٌ مجيبٌ لدعواتكم.

الاستعمار فى القرآن و فى عصرنا الحاضر:

لا- حظنا فى الآيات المتقدمه أنّ نبي الله «صالحا» من أجل هدايه و تربيه قومه الضالين «ثمود» ذكرهم بعظيم خلق الله لهم من التراب.. و تفويض إعمار الأرض إليهم إذ قال: هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا... .

لكن هذه الكلمه مع جمالها الخاص و جذابيتها التى تعنى العمران و تفويض الإختيارات و إعداد الوسائل اللازمه و تهيأتها، تبدّلت هذه الكلمه فى عصرنا إلى درجه أنّها مسخت و أصبحت تعطى معنى معاكسا لمفهوم القرآن تماما.

و ليست كلمه الاستعمار وحدها انتهت إلى هذا المصير المشؤوم، فهناك كلمات كثيره فى العرييه و فى لغات أخرى مسخت و حرّفت و تبدّلت و انقلبت رأسا على عقب، مثل كلمات «الحضاره» و «الثقافه» و «الحرية» و فى ظلال هذه التحريفات تأخذ هذه الكلمات و أمثالها طريقها إلى التغرّب و البعد عن معناها، و تتحول لعباده ماده و أسر الناس و إنكار الحقائق و التوغل فى كل أنواع الفساد و ما إلى ذلك.

و على كل حال، فإنّ معنى «الاستعمار» فى عصرنا و مفهومه الواقعى هو «استيلاء الدول العظمى السياسيه و الصناعيه على الأمم المستضعفه قليله القدره، بحيث تكون نتيجته هذا «الاستيلاء» و هذه «الغاره» امتصاص دمائهم و سلب

خيراتهم و مصادره حياتهم.

هذا الاستعمار الذى له أوجه شؤم مختلفه، يتجسم مرّه بشكل «ثقافى» و أخرى بوجه «فكرى» و ثالثه بوجه «اقتصادى» و رابعه بوجه «سياسى» و قد يبدو بوجه «عسكرى» أيضا، و هو الذى بدل دنيانا و جعلها سوداء مظلمه، فالأقلية فى هذه الدنيا لديهم كل شىء، و الأ-كثريه العظمى فاقدته لكل شىء هذا الاستعمار هو السبب فى الحروب و الدمار و الانحرافات و الفساد و التسابق التسلحى الذى يقصم الظهر.

القرآن استعمل لهذا المفهوم مفرده «الاستضعاف» التى تنطبق تماما على هذا المعنى أى «جعل الشىء ضعيفا» بالمعنى الواسع و الشامل للكلمه، جعل الفكر ضعيفا، و جعل الإقتصاد ضعيفا، و جعل السياسه ضعيفه.. إلخ..

و قد اتسع مجال الاستعمار إلى درجه بحيث أصبحت كلمه الاستعمار «استعماريه» أيضا، و ذلك لأنّ مفهومها اللغوى قد انقلب رأسا على عقب تماما.

و على كل حال، فإن الاستعمار من القصص الطويله المثيره للحزن و الألم، بحيث يمكن أن يقال أنّه يستوعب تاريخ البشريه أجمع و إن تغير وجهه دائما، و لكن من غير المعلوم أنّه متى يزول من المجتمعات الإنسانيه، و تقوم حياه البشر على أساس التعاون و الاحترام المتبادل بين الناس و المساعدة ليتقدم الواحد بعد الآخر فى جميع المجالات...؟!

ص : ٥٨٠

اشاره

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكُمْ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْدُوبٍ (٦٥)

التفسير

اشاره

و الآن لنلاحظ ما الذى كان جواب المخالفين لنبى الله «صالح عليه السلام» إزاء منطقته الحى الداعى إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسى للتأثير على النبى «صالح» أو على الأقل للمحاوله فى عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، و بالتعبير العامى الدراج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا

و كُنَّا نتوجه إليك لحل مشاكلنا و نستشيرك في أمورنا و نعتقد بعقلك و ذكائك و درايتك، و لم نشك في إشفاقك و اهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان و هو منهج أسلافنا و مفره قومنا، فأبدت عدم احترامك للأوثان و للكبار و سخرت من عقولنا أَتَّهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا و الحقيقة أننا نشك في دعوتك للواحد الأحد وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ .

وجد هنا أن القوم الضالين يلتجئون تحت غطاء الاسلاف و الآباء الذين تحيط بهم هاله من القدسيه لتوجيه أخطائهم و أعمالهم و أفكارهم غير الصحيحه، و هو ذلك المنطق القديم الذي كان يتذرع به المنحرفون و ما زالوا يتذرعون به في عصر الذره و الفضاء أيضا.

لكن هذا النبي الكبير لم ييأس من هدايتهم و لم تؤثر كلماتهم المخادعه في روحه الكبيره فأجابهم قائلا: يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ أَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ أَوْ فَسَأَلْتُمُ عَنْ دَعْوَتِي وَ لَا أَبْلَغُ رِسَالَةَ اللَّهِ وَ لَا أواجه المنحرفين فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ .. و لكن اعلموا أن كلامكم هذا و احتجاجكم بمنهج السلف و الآباء لا يزيدني إلا إيمانا بضلالتكم و خسرانكم: فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ..

و بعد هذا كله و من أجل البرهان على صدق دعوته، و بيان المعجز الإلهيه التي دونها قدره الإنسان جاءهم بالناقه التي هي آيه من آيات الله و قال: وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَاتْرَكُوهَا وَ ذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

ناقه صالح:

«الناقه» في اللغة هي أنثى الجمل، و هي الآيه الآنفه في آيات أخرى أضيفت

إلى لفظ الجلالة «الله» (١) وهذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينه، ومع الالتفات إلى ما عبّر عنها في الآيه المتقدمه بأنّها «آيه» و علامه إلهيه و دليل على الحقيته، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عاديه، بل كانت خارقه للعاده من جهه أو جهات متعدده!.

و لكن لم ترد في القرآن خصائص هذه الناقة بشكل مفصّل، غايه ما في الأمر أننا نعرف بأنّها لم تكن ناقة عاديه كالنوق الأخرى، والشىء الوحيد المذكور عنها في القرآن -و في موردين فحسب- أن صالحا أخبر قومه أن يتقاسموا ماءهم سهمين: سهم لهم و سهم للناقه، فلهم شرب يوم منه و لها شرب يوم آخر قال هذه ناقة لها شرب و لكم شرب يوم معلوم (٢) كما جاء في سوره القمر أيضا وَ بَيَّنُّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٣).

و في سوره الشمس إشاره مختصره إليها أيضا، حيث يقول سبحانه: فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (٤).

و لكن لم يتّضح كيف كان تقسيم الماء خارقا للعاده؟ هناك احتمالان:

الأول: إنّ الناقة كانت تشرب ماء كثيرا بحيث تأتي على ماء «النبع» كله.

و الثانى: إنّها حين كانت ترد الماء لا تجرؤ الحيوانات الأخرى على الورد إلى الماء معها.

أمّا كيف كانت هذه الناقة تستفيد من جميع الماء؟ فيوجه هذا الاحتمال بأن ماء

ص: ٥٨٣

١ - ١) مثل هذه الإضافة يقال لها في المصطلح الأدبي إضافة تشرifiه. بمعنى أنّها إضافة تدل على شرف الشىء و أهميته، و في الآيه المتقدمه يلاحظ نموذجان من هذا النوع ١- ناقة الله. ٢- أرض الله. و قد ورد في موارد أخرى غير هذه الكلمات.

٢ - ٢) الشعراء، ١٥٥.

٣ - ٣) القمر، ٢٨.

٤ - ٤) الشمس، ١٣.

القرية كان قليلا كماء القرى التي ليس فيها أكثر من عين ماء واحده، و أهل القرية مجبورون على أن يدخروا الماء تمام اليوم في حفرة خاصه ليجتمع الماء في العين مرّه أخرى.

و لكن في جزء آخر من سورة الشعراء يتجلى لنا أنّ ثمود لم يعيشوا في منطقته قليله الماء، بل كانت لهم غابات و عيون و نخيل و مزارع حيث تقول الآيات:

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَٰهِنَا [□] هَٰضِيمٍ . (١)

و على كل حال فإنّ القرآن ذكر قصه ناقه صالح بشكل مجمل غير أنّنا نقرأ في روايات كثيره عن مصادر الشيعة و أهل السنه أيضا، أنّ هذه الناقه خرجت من قلب الجبل، و لها خصائص أخرى ليس هنا مجال سردها.

و على كل حال. فمع جميع ما أكدّه نبيهم العظيم «صالح» في شأن الناقه، فقد صمّموا أخيرا على القضاء عليها، لأنّ وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاه لتيقظ الناس و التفافهم حول النبي صالح، لذلك فإنّ جماعه من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجدون في دعوه صالح خطرا على مصالحهم، و لا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتعرض دعائم استعمارهم للتقويض و الانهيار، فتأمروا للقضاء على الناقه و هياؤا جماعه لهذا الغرض، و أخيرا أقدم أحدهم على مهاجمتها و ضربها بالسكين فهوت إلى الأرض فعقرّوها .

«عقروها» مشتقه من ماده «العقر» على وزن «الظلم» و معناه: أصل الشيء و أساسه و جذره، و «عقرت البعير» معناه نحرته و احتزرت رأسه، لأنّ نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل، و أحيانا تستعمل هذه الكلمه لظعن الناقه في بطنها. أو لتقطيع أطراف الناقه بدل النحر و كل ذلك في الواقع يرجع إلى معنى واحد «فتأمل»!...».

ص: ٥٨٤

الطريف أننا نقرأ في الروايات الإسلامية أنّ الذي عقر الناقة لم يكن إلاّ واحداً، لكن القرآن ينسب هذا العمل إلى جميع المخالفين من قوم صالح «ثمود» ويقول بصيغه الجمع: فَعَقَّرُوها و ذلك لأنّ الإسلام يعدّ الرضا الباطنى فى أمر ما و الارتباط معه ارتباطاً عاطفياً بمنزله الاشتراك فيه، و فى الواقع فإنّ التأمّر على هذا العمل لم يكن له جانب فردى، و حتى ذلك الذى أقدم على عمله لم يكن معتمداً على قوته الشخصيّة فجميعهم كانوا مرتاحين لعمله و كانوا يسندونه، و من المسلمّ أنّه لا يمكن أن يعدّ هذا العمل عملاً فردياً. بل يعدّ عملاً جماعياً. يقول الإمام على عليه السّلام: «و إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعّمهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا» (١).

و هناك روايات متعدده فى المضمون ذاته نقلت عن نبي الإسلام و أهل بيته الكرام، و هى تكشف غايه الاهتمام من قبل هؤلاء الساده العظام بالعلاقة العاطفيه و المناهج الفكرية المشتركة بجلاء، و نورد هنا على سبيل المثال -لا الحصر- عددا منها.

قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلّم «من شهد أمراً فكرهه كمن غاب عنه و من غاب عن أمر فرضيه كمن شهد» (٢).

و

يقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام «لو أنّ رجلاً قتل فى المشرق فرضى بقتله رجل فى المغرب لكان الرضى عند الله عزّ و جلّ شريك القاتل» (٣).

و

نقل عن الإمام على عليه السّلام أيضاً أنّه قال: «الراضى بفعل قوم كالدخل معهم فيه

ص: ٥٨٥

١-١) نهج البلاغه، و من كلام له، رقم ٢٠١.

٢-٢) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٠٩.

٣-٣) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١٠.

و على كل داخل فى باطل إثم إثم العمل به و إثم الرضا به» (١).

و من أجل أن نعرف عمق العلاقة الفكرية و العاطفية فى الإسلام و سعتها بحيث لا- يعرف لها حد من جهة الزمان و المكان، فيكفى أن نذكر هذا الكلام للإمام على عليه السلام من نهج البلاغة لئلا نلقت إليه الأنظار:

«حين انتصر الإمام على فى حرب الجمل على المتمردىن و مثيرى الفتنة و فرح أصحاب على بهذا الإنتصار الذى يعدّ انتصارا للإسلام على الشرك و الجاهلية، قال له أحد أصحابه: «وددت لو أنّ أخى شهدنا هنا فى الميدان ليرى انتصارك على عدوك».

فالتفت الإمام على السلام إليه قائلا: «أهوى أخيك معنا» فقال: «نعم» فقال الإمام على السلام:

«شهدنا» ثم قال: «و لقد شهدنا فى عسكرنا هذا أقوام فى أصلاب الرجال و أرحام النساء سيرعف بهم الزمان و يقوى بهم الإيمان» (٢).

و لا شك أنّ أولئك الذين يساهمون فى منهج ما و يشتركون فيه و يتحملون كل مشاكله و أتعابه، لهم امتياز خاص، و لكن هذا لا- يعنى أن الآخرين لم يشتركوا فى ذلك أبدا، بل سواء كانوا فى عصرهم أو العصور و القرون المقبلة و لهم ارتباط عاطفى و فكرى بهم فهم مشتركون معهم بنحو من الأنحاء.

هذه المسألة التى قد لا- نجد لها نظيرا فى أى مذهب من مذاهب العالم، قائمه على أساس من حقيقة اجتماعيه هامه، و هى أن المنسجمون فكريا و عقائديا حتى لو لم يشتركوا فى منهج معين، إلا- أنّهم سيدخلون قطعا فى مناهج مشابهه له فى محيطهم و زمانهم، لأنّ أعمال الناس منعكسه عن أفكارهم، و لا يمكن أن يرتبط الإنسان بمذهب معين و لا يظهر أثره فى عمله.

و الإسلام منذ الخطوه الأولى يهتم بإيجاد اصلاحات فى روح الإنسان و نفسه لإصلاح عمله تلقائيا و على ضوء الزوايات المتقدمه فإنّ أى مسلم يبلغه أنّ فلانا

ص: ٥٨٦

١-١) وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤١١.

٢-٢) نهج البلاغة، الكلام رقم ١٢.

عمل عملا- صالحا-أو سيئا-ينبغي أن يتخذ الموقف الصحيح من ذلك العمل فورا و يجعل قلبه و روحه منسجمين مع «الصالحات» و أن ينفر من «السيئات» فهذا السعي و«الجد»الداخلي لا شك سيكون له أثر في أعماله،و سيتعمق الترابط بين الفكر و العمل.

و في نهايه الآيه نقرأ أنّ النبي «صالحا» بعد أن رأى تمرد قومه و عقرهم الناقه أنذرهم فقالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكُمْ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ فَهُوَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَتَّغِيرُ وَ مَا أَنَا مِنَ الْكَاذِبِينَ.

ص: ٥٨٧

اشاره

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)

التفسير

اشاره

نهايه ثمود «قوم صالح»:

في هذه الآيات يتبين كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم و قال لهم: تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فتقول الآيات: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا لا من العذاب الجسماني و المادى فحسب، بل و مِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ (١).

لأنَّ الله قوی و قادر على كل شيء، و له السلطه على كل أمر، و لا يصعب عليه أى شيء و لا قدره فوق قدرته إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ .

و على هذا فإن نجاه جماعه من المؤمنين من بين جماعه كثيره تبلى بعذاب

ص: ٥٨٨

اللّٰه ليس بالأمر المشكل بالنسبه لقدره اللّٰه تعالى.

إِنَّ رَحْمَةَ اللّٰهِ تَسْتَوْجِبُ أَلَّا يَحْتَرِقَ الأَبْرِيَاءُ بِنَارِ الأَشْقِيَاءِ المَذْنِبِينَ، وَ أَلَّا يُؤَاخِذَ الْمُؤْمِنُونَ بِجُرَيْرِهِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ وَ هَكَذَا هَلَكُوا وَ صَارُوا «شذر مذر» وَ مضت آثارهم مع الريح كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَّا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَّا بُعْدًا لَتَمُودَ عَنْ لطف اللّٰه وَ رحمته.

ملاحظات

١- نجد في هذه الآيات أن رحمة اللّٰه بالنسبه للمؤمنين واسعه و شامله، بحيث تنقلهم جميعا إلى مكان آمن، و لا تحرق الأخضر و اليابس بالعذاب.

و من الممكن أن تحدث حوادث مؤلمه كالسيول و الأوبئه و الزلازل التي قد تأتي على الصغير و الكبير، و ليست هذه الحوادث ترجمه لعذاب اللّٰه، و إلا فإنه محال على اللّٰه في منطق عدله أن يعذب حتى واحدا بريئا بجرم ملايين المذنبين.

طبعاً يمكن أن يوجد أناس ساكتون بين جماعه مذنبين فيؤخذوا بوزرهم، لأنهم لا يردعونهم عن الظلم و الفساد، فمصيرهم -إذا- سيكون كمصير المجرمين.

و لكنهم إذا عملوا بواجبهم فمحال أن تنزل عليهم حادثه أو يحق بهم العذاب «فصلنا هذا الموضوع في الأبحاث المرتبطه بمعرفه اللّٰه و نزول البلاء و الحوادث في كتب معرفه اللّٰه» (١).

٢- و يظهر جيداً من الآيات المتقدمه أن عقاب المعاندين و الطغاه لا يختص بالجانب المادى فحسب، بل يشمل الجانب المعنوى، لأن نتيجة أعمالهم و مصيرهم المخزى و حياتهم الملوّثه تسجل فصولها في التاريخ بما يكون عارا عليهم، في حين يكتب التاريخ حياه المؤمنين بسطور من ذهب و صحائف من

ص: ٥٨٩

١- (١) في المجلد الخامس من التفسير الأمثل وردت توضيحات مفيده لفهم هذا المقصود.

٣- ما المراد من الصيحه؟ الصيحه فى اللغه معناها الصوت العظيم الذى يصدر من فم الإنسان أو الحيوان عادة..و لكن لا تختص بهذا المعنى، بل تشمل كل صوت عظيم..نقرأ فى القرآن الكريم أن عدّه أقوام آثمين أخذتهم الصيحه من السماء عقابا لهم على ذنوبهم، «ثمود»الذين نتحدث عنهم«وقوم لوط» كما نقرأ فى سورة الحجر الآيه (٧٣) «قوم شعيب» كما ذكروا فى سورة هود الآيه (٩٤).

و استفاد من بعض الآيات الأخرى من القرآن أن قوم صالح«ثمودا»عوقبوا بالصاعقه فإنّ أعرضوا فقلّ أنذرتكم صاعقه مثل صاعقه عادٍ و ثمود (١) و من هنا يتبين أنّ المراد من الصيحه هو صوت الصاعقه الموحش! سؤال:هل يستطيع صوت الصاعقه الموحش أن يببىد قوما أو جماعه بأسرهم؟!او الجواب:نعم،حتما!..لأننا نعرف أن الأمواج الصوتيه إذا تجاوزت حدّا معيننا تستطيع أن تكسر الزجاج،وقد تتهدم على أثرها عمارات،وقد تشل أعضاء البدن الداخليه.

الطائرات حين تخترق الجدار الصوتى و تكون سرعتها أكثر من سرعه أمواج الصوت يسقط بعض الأفراد فاقدو الوعى،أو تسقط الحامل جينها بسبب ذلك و قد يتكسر جميع الزجاج فى عمارات المنطقه التى تمرّ عليها هذه الطائرات.

و طبيعى أنّه إذا كانت شدّه الأمواج الصوتيه أكثر ممّا ذكرنا،فمن السهوله أن تحدث اختلالا قاتلا فى شبكات الاعصاب الدماغ و حركات القلب و تسبب موت الإنسان!:

و من الثابت-طبقا لما فى آيات القرآن-أنّ نهايه هذا العالم تكون بصيحه

ص :٥٩٠

عَامَهُ أَيضًا.. مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (١)، كما أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْدَأُ بِصَيْحَةٍ مَوْقُظَةٍ أَيضًا إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ .

٤-«الجاثم» من ماده «جثم» و معناه المصدرى الجلوس على الركب، كما يأتى بمعنى السقوط للوجه (و لزياده التوضيح فى هذا المجال يراجع فى التفسير الأمثل ذيل الآيه ٧٩ من سوره الأعراف).

و يستفاد طبعاً من التعبير ب«جاثمين» أَنَّ الصيحه من السماء كانت السبب فى موتهم، إلاّ- أَنَّ أجسادهم كانت ملقاه على الأرض، لكن يستفاد من بعض الروايات أَنَّ الصاعقه أحرقتهم بنارها، و لا منافاه بين الأمرين، لأنَّ أثر الصوت الموحش للصاعقه يتّضح فوراً، و أمّا آثارها، حرقها- و خاصّه لمن هم داخل البيوت- فيظهر بعدئذ.

٥-لفظ«لم يغنوا» مشتق من ماده«غنى» و معناه الإقامه فى المكان، و لا يبعد أن يكون مأخوذاً من المفهوم الأصلى و هو«الغنى» و معناه عدم الحاجه، لأنَّ الغنى غير المحتاج له بيت مهيباً و معدّ و ليس مجبوراً أن ينتقل كل زمان من منزل إلى آخر- و التعبير بجمله كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا و ارد فى ثمود، كما هو وارد فى قوم شعيب، و مفهوم هذا التعبير أَنَّ طومار حياتهم قد طوى حتى تظن أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ سَكَنِهِ هَذِهِ الْأَرْضِ .

نهايه المجلد السادس

ص: ٥٩١

(١-١) سوره يس، ٤٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩